

متجر
التحف القديم
تشارلز ديكنز

- ♦ المؤلف: تشارلز ديكنز
- ♦ العنوان: متجر التحف القديم
- ♦ ترجمة: ريهام سمير سعد
- ♦ الطبعة الأولى 2021
- ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- ♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٠ / ١٧٣٧٦

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 283 - 4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

تشارلز ديكنز

متجر التحف القديم

رواية

ترجمة

ريهام سمير سعد

الجزء الأول

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

ديكنز، تشارلز.

تشارلز ديكنز : متجر التحف القديم - الجزء الأول

ترجمة: ريهام سمير سعد

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2021

528 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 17376 / 2020

الترقيم الدولي 4 - 283 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - ديكنز، تشارلز

تشارلز جون هوفام ديكنز *Charles John Huffan Dickens* المعروف عالميًا باسمه الأدبي تشارلز ديكنز، هو الروائي والناقد الاجتماعي والكاتب الإنجليزي، الذي عُرف بـ «أديب الفقراء».

وُلد تشارلز ديكنز في السابع من فبراير عام ١٨١٢م في لاندبورت بورتسي، وهي مدينة ساحلية تقع جنوبي إنجلترا. وكان هو الطفل الثاني من بين ثمانية أطفال، عمل والده جون ديكنز كاتبًا بحريًا، وعملت والدته إليزابيث ديكنز معلمة.. تطلع والداه إلى أن يكونا أغنياء، وعلى الرغم من جهودهما الحثيثة، ظلت عائلتهما فقيرة. في عام ١٨١٦م، انتقلت الأسرة إلى شمال شرقي إنجلترا إلى تشاثام، كينت، حيث كان لتشارلز وأشقائه حرية التجول في الريف ورؤية قلعة روشيستر. في عام ١٨٢٢م، انتقلت العائلة إلى بلدة كامدن، وهي أحد الأحياء الفقيرة في لندن. وحينها تدهور الوضع المالي أكثر من ذي قبل، واضطر والده إلى السلف والدين، وحين لم يستطع السداد، تم الزج به في السجن. حينها كان تشارلز يبلغ من العمر اثني عشر عامًا فحسب. ونتيجة لسجن والده، اضطر تشارلز ديكنز إلى ترك المدرسة والعمل في مصنع للصبغة

السوداء -مادة لتنظيف المواقد- على ضفاف نهر التايمز. كان يتحصل منه على ستة شلنات أسبوعياً، وكان ذلك العمل الشاق هو طريقته الوحيدة للمساعدة في إعالة عائلته.

ودَّع تشارلز براءة طفولته، وانتابه الشعور بأنه تم التخلي عنه، وأن الكبار الذين كان من الواجب عليهم أن يعتنوا به قد خانوه.. ظل ناقماً، هائماً، يهوى السير بمفرده، يعاني من تجارب طفولته الشقية، وعلى الرغم من الصراعات التي كان يعانيها في طفولته، كان ينتهز أوقات فراغه من عمله الشاق، ويداوم على القراءة والاطلاع على الكتب، حتى تلقت عائلته إرثاً استخدمته في سداد الديون، ومن ثمَّ التحق بالمدرسة مرة أخرى، لكنه تركها ثانيةً في عام ١٨٢٧م؛ للعمل مرة أخرى، للمساهمة في دخل الأسرة. عمل ساعياً ثم وجد عملاً مستقلاً في محاكم لندن القانونية، وبعدها شرع في كتابة تقارير لاثنتين من الصحف الكبرى، أتاح له هذا العمل الصحفي أن يتمرن على حرفة الأدب، وأن يتأمل مستطلعاً أحوال الناس على مختلف مستوياتهم الاجتماعية والأخلاقية، وحياتهم البائسة التي كانت خارجة عن القانون في أغلب الأحوال، ومن هنا وُسَّعت آفاقه وأرهف حسه الأدبي والإنساني. في عام ١٨٣٣م بدأ بتقديم مسرحيات هزلية وقصص قصيرة للعديد من المجلات والصحف تحت الاسم المستعار «بوز».

في سن الرابعة والعشرين في عام ١٨٣٦م أصدر أول رواياته بعنوان (مذكرات بيكويك)^(١). وقد لاقت نجاحاً عظيماً، وجعلته من أكثر

(١) صدرت عن دار آفاق.

الأدباء الإنجليز شعبية وشهرة، من أشهر أعماله:

(أوليفر تويست)، (ترنيمة عيد الميلاد)، (دافيد كوبرفيلد)،
(أوقات عصيبة)، (آمال كبرى)، (قصة مدينتين).

تزوج تشارلز ديكنز من كاثرين هوغارث، وأنجبت له عشرة أطفال. ومن الجدير بالذكر أن نجاحه هو ما لفت انتباهها، كانت كاثرين مؤلفة بارعة ورفيقة سفر رائعة، لكنهما انفصلا في خمسينيات القرن التاسع عشر، وفي نفس الوقت حلت بديكنز خسارتان مدمرتان، هما: موت ابنته ووالده. في عام ١٨٥٧م التقى بممثلة شابة تُدعى إيلين تيرنان (نيلي) في الثامنة عشرة من عمرها، وقد كان آنذاك في الخامسة والأربعين من عمره، وتورط في علاقة عاطفية معها.

نظرًا لظروف طفولته القاسية، والتجارب المؤلمة التي مر بها، وما تركته من انطباعات عميقة في وجدانه، تمحورت كتاباته وقصصه ورواياته حول المآسي والمعاناة التي يتعرض لها الأطفال بسبب الظروف الاجتماعية السائدة في إنجلترا في عصره (العصر الفيكتوري)، عادةً ما كان يجعل أبطال رواياته أطفالاً يعانون كثيرًا في حيوات مريرة بائسة من العذاب والضياع، واصفًا الأحياء الفقيرة بكل تفاصيلها وبكل الصراعات التي كانت تدور فيها. تجلّت عظمة ديكنز في أنه كرّس معظم حياته في كتابة المقالات وتأليف القصص والروايات وإلقاء المحاضرات، ودعوته المستمرة في كافة أعماله إلى ضرورة الإصلاح الاجتماعي، ورعاية الفقراء، ورغم ذلك لم تكن نظره للمجتمع سوداوية؛ ولم يرَ أبدًا أنه عصي على الصلح، فقد آمن بأن مهما بلغ سوء

المجتمع فهو قابل للإصلاح، ومن أجل ذلك سَخَّرَ قلمه البليغ وكرَّس حياته وإنتاجه الأدبي من أجل التغيير، والدعوة إلى الإصلاح من النفس وتخليص المجتمع البشري من سيئاته وشروره وظلمه.

في عام ١٨٦٥م تعرض ديكنز لحادث قطار ولم يتعافَ منه كلياً، وعلى الرغم من ذلك، استمر في كتاباته ورحلاته، حتى وافته المنية بسبب إصابته بسكتة دماغية في التاسع من يونيو عام ١٨٧٠م وتوفي عن عمر ناهز الثامنة والخمسين.. دُفن في ركن الشعراء من دير ويستمينستر، وشيَّعه الآلاف إلى مثواه الأخير.. تُوفي ديكنز وترك للإنسانية إرثاً من أعمال أدبية عظيمة.



الهقرسة

وكالنَّارِ الحَيَاةُ فَمِنْ رَمَادٍ أَوَاخِرُهَا وَأَوَّلُهَا دُخَانٌ
إِلَامٌ وَفِيمَ تَنْقُلُنَا رِكَابٌ وَتَأْمُلُ أَنْ يَكُونَ لَنَا أَوَانٌ

أبو العلاء المعري

لم تغير المائتي سنة التي مرت منذ كتابة الرواية أشياء كثيرة في ذهن البشرية أو سلوكها. تجد الرواية بتتابعاتها وأحداثها وشخصياتها، متجسدة بيننا، نرى ما تبلغنا به سطورها كل يوم، ولا نلاحظها وسط تدافع المارة، حيث كل يدفع الآخر، يلوذ بذاته، يسير على عجل وسط التيارات المتناوبة، نهماً للمال، وفي اتجاهات متعاكسة، دون توقف، دون أن يظهر عليه أي كلل، منكباً على إتمام شؤونه الخاصة، دون أن نشخص بأعيننا إليها ونوليها اهتماماً، وإن انشق أحد والتفت، فلن يستطيع بمفرده؛ العالم من حوله يدحض تعزيزاته، والظلم يحوم حوله، حتى يصصره ويبقيه خائراً وضعيفاً.

من منكم بمستطاعه أن يقف أمام وابل من مساوئ نفشت في نفوس البشر، من دون أن يتكالبوا عليه ليكتبوا فناءه قبل ميلاده، ويجبروه على الانسحاب أو الانعزال وليطرحوه مهزوماً مدحوراً ملتاعاً!

مَن منا إذا لم يكن قد تأثر بفساد ما حوله، وكان سليم الطوية، عفيف النفس، حسن الخلق، محافظاً على السلوكيات القويمة، يستطيع أن يعيش ويتأقلم وسط هذا الأسى المفرط، يستنفذ قواه في تحصين نفسه من تكالب المتطفلين والزائفين والخسيسين والغوغاء، ويلقى في غاية الإحباط ويعاني من سكرات موجعة وصرخات مفرزة ملتاعة، لا ينبس عنها ببنت كلمة.

تشارلز ديكنز.. قال عنه أعظم النقاد والروائيين إنه كاتب لكل عصر، وها نحن بعد قرنين خلفهما الزمان، نجد في روايتنا (متجر التحف القديم) تشابهاً كبيراً، قادراً على أن يخلق علاقة مستمرة بين روايته والقراء أجمعين، يحكي الرواية ويسردها كأنه يحكي قصة أحد الأقرباء، مَن تراهم كل يوم، وتكتشف أسرار حياتهم، وقد شابته إلى حد كبير حياته، مستمداً من رحلاته وتجولاته أسساً بنى عليها أحداثها. كتب في روايتنا توريات ضد الحكام والمسؤولين عن إفقار الشعوب ثقافياً ومالياً، بين الفجوة المستعرة بين الطبقات، نقل فيها جزءاً كبيراً يتناص مع حياته، وصف الأحياء الفقيرة، تقرأ كأنك تراها، وصفها بكل المآسي التي تدور فيها، وإن كانت لمحات لا تزيد عن سطر أو سطرين، لكنها تخبيء في كمائنها الكثير.

إننا بصدد قراءة رواية لا تقتصر على منظور واحد فقط؛ بل تمثل فيها جماليات الأدب وبلاغة تعبيراته وإجادة وصفه، رواية اجتماعية، نقلت لنا أحداثاً.. صوّرت الظلم ونقيضه العدل، صوّرت الطيبة ونقاء القلب ونقيضهما الجحود والجشع، صوّرت الحزن بعبارات تُبكي

القارئ في كل مرة تقع عيناه عليها، صوّرت الفرح والسرور ومشاعر الحب والعاطفة بكلمات تفرق دموع السعادة وابتسامات تهلّل أسارير الوجه.

يقول ديكنز وسط طيات صفحات روايتنا: «إن المؤرخ يأخذ بيد القارئ النهم، يخلّق به في سماء المعرفة، يحيطه علمًا بمعارف وأخبار، يشقان طريقهما صوب أماكن شيقة». لم يكن ديكنز في روايتنا في محل الأديب البارِع مَنْ يمتعنا بدقة وصفه، وبلاغة حديثه، وأسلوبه التهكمي الساخر الناقم على الظلم فحسب، بل كان مؤرخًا، نقل إلينا صورة توضيحية لكل ما آلت إليه الأمور في العصر الفيكتوري، ذكر أسماء المدن والبلدان والكنائس، أجاد التشبيه والسرد والوصف كأنك تنظر من نافذة على أحداث تقع أمام عينيك مباشرة، ذكر معلومات تاريخية خصّص عصره، ذكر معالم المدن والريف والطرق والبيوت والأكواخ، ووصفها وصفًا تفصيليًا، ألقي الضوء على أنماط معيشتهم وحفلات الشاي، وطرق ملابسهم، واستنشاقهم لدقيق التبغ، وظنونهم أنه فيه البرء من المرض، ذكر مسرح أستلي وعروضه البديعة، نقل صورة توضيحية للحنانات ولعب القمار، نقل إبداعه وكثرة خبرته وثراءه المعرفي والثقافي بإشارات توضيحية كثيرة واقتباسات مثمرة، أكثرها كان لشكسبير، وصف معمار الكنائس بلافتات دينية شعائرية، ملقيًا الضوء على رجال الدين، موضحًا أن الدعاء بصدقِهِ وليس ببهاء أماكن إلقاءه.

نقل لنا صورة مجتمعية تفشى فيها الظلم والقهر والاستبداد، من

خلال طفلة صغيرة وجدها، وسرّد ما شاهداه في الحياة الدنيا، وما تفعله في القلوب النقية. وعلى الرغم من أن الرواية مأساوية، وستصل خلالها إلى سطور لا تستطيع حين قراءتها أن تكفكف دمعك، مهّد لنا فيها طريقاً لاح فيه قبسٌ من فرج.

وأخيراً: «فليكن عندك قلب لا يقسو، ومزاج لا يمل، ولمسة لا تجرح»، «فلا يوجد شخص غير مفيد في هذا العالم ما دام يستطيع أن يخفف عبء الحياة عن كاهل شخص آخر». أترككم في رحاب روايتنا.. شكرًا لكم.

المتريجة

الفصل الأول

على الرغم من كوني عجوزًا، اعتدت أن أجعل من الليل على وجه العموم وقت خروجي لأتمشّي وأتنزّه. لكنني في الأيام الصيفية، وبسبب الحالة الاقتصادية التي تمر بها البلاد، نادرًا ما أخرج بعد حلول الظلام، أغادر المنزل مبكرًا؛ أتجول بين الحقول والطرق طوال اليوم، أو أهرب حتى لأيام أو لأسابيع، وأتوجه بجزيل الشكر للسماء؛ أحب نورها، أستشعر بهجة ضوئها الذي تسدله على شتى بقاع الأرض، تنساب به عليّ وعلى الخليقة أجمعين.

لقد داومت على فعل هذه العادة دون كلل؛ أجدها ملائمة لي ولوهني على حد سواء؛ تتيح لي فرصة عظيمة للتدبر في أحوال البشر، والتبصّر في مهن أولئك الذين تغص بهم الشوارع. لا تتلاءم بهرجة الطرقات ونمطها السريع مع مساعي الخمول لشخص مثلي، غالبًا ما تكون اللمحات الخافتة التي تعكسها مصابيح الشوارع أو المحلات على وجوه المارة، مُشبعةً لرغبتني تمامًا أكثر من تسليط ضوء النهار الساطع عليها. إذا كان لا بد من الإدلاء بالحقيقة كاملة، فأنا أجد أن الليل أكثر لطفًا في هذا الصدد مقارنةً بالنهار؛ الذي يطيح غالبًا بالقلاع

الهوائية لحظة اكتمالها، وينتزع الأحلام قرب تمامها، دون أي مراسم أو ندم. لا عجب من تحمُّل ساكني الأزقة بسهولة وسلاسة سماع قرقعة الخطوات ذهابًا وإيابًا، ووقع الأقدام المتواصل على الحجارة المصقولة، وهذا الأرق غير المتناهي! تدبر أمر رجل مريض في مكان كساحة (سان مارتن)، يستمع إلى وقع أقدام -في خضم انصياعه لألمه وسأمه، رغمًا عنه- كما لو أن لديه مهمة عليه أن ينجزها- يمايز بين خطوة الطفل خطوة الرجل، بين حذاء مهترئ لشحاذ وحذاء ذي رقبة لمتأنق، بين خطوة المتسكع خطوة المنشغل، بين وقع كعب المنبوذ الثقيلة ووقع كعب الساعي إلى المرح الرشيق، تدبّر الهمهمات والضوضاء الحاضرة دائمًا في حسه، وتيار الرياح غير المتوقع، المتدفق دون هوادة دائمًا أبدًا في شتى أحلامه المضطربة، كما لو أنه قد حُكم عليه بالاستلقاء، في ساحة كنيسة صاخبة، ميت لكنه واعٍ، فاقد لأي أمل في الراحة أبد القرون التالية.

تمر الحشود العابرة جيئةً وذهابًا على الجسور -التي ليس لها أي رسوم في نهايتها-، حيث يقف العديد منهم في الأمسيات رقيقة النسيمات، ينظر بعضهم نحو الأسفل تجاه المياه، شارد في الذهن، تصحبهم أفكار مبهمّة، تموج كلما ماجت المياه بين الجداول الخضراء، تتسع رويدًا رويدًا حتى تستقر في البحر الشاسع في النهاية.. يتوقف بعضهم؛ ليستريحوا من ثقل أعبائهم، يتفكّرون ناظرين إلى المتراس، يدخلون، يحاولون الاستكانة بعيدًا عن حياتهم.. وآخرون يستلقون نائمين أسفل أشعة الشمس على مُشَمَّع ساخن، في زورق بطيء نمطي راكد، كان

من المفترض أن تتوافر على متنه سعادة، لا منازع لها.. وغيرهم من فئة مختلفة تمامًا عنهم، يحملون أعباءً في نفوسهم أثقل منهم، يتذكرون أنهم سمعوا أو قرأوا في وقت سابق، أن الغرق لم يكن موتًا قاسيًا، وأنه من بين شتى طرق الانتحار لطالما كان الأسهل والأفضل.

وكمتجر (كوفت جاردن). أيضًا، عند شروق شمس أيام الصيف والربيع، حين يتطاير في الأفق عطر الورد الحلو ويتعقب به، فيزيح تيارات الفجور الكريهة لليلة الماضية، ويخرج طائر (السمنة) أخيرًا من قفصه المعلق طوال الليل بالخارج على النافذة الموجودة في عليّة المتجر؛ ليمرح بنصف جنون! طائرٌ مسكين! إن الشيء الوحيد الذي يحظى بجيرته أسرى الطيور الصغيرة الأخرى، التي انكمش بعضها على نفسها من أيادي المشتريين المغمورين الساخنة، ممن استلقوا خائرين بالفعل في الممرات، وتبلل بعضها بفعل اللمسات الدانية، مستكينة تنتظر وقت انتعاشها بالمياه؛ إرضاءً للزوار الرصينة، ما جعل الكتبة القدماى المارين إلى جوارهم، وهم في طريقهم إلى العمل، يتساءلون عن مكنون صدورهم تجاه ما يطالعونه في البلد.

لكن هدفي الحالي هو ألا أشعر بغربتي أثناء تنزهي. إن القصة التي أسترجعها مرات ومرات بين الفينة والأخرى وأوشك على سردها، مستوحاة من إحدى تلك النزعات، لذلك طوّعتها للسرد مستهلاً بتلك المقدمة ومستندًا إليها.



في إحدى الليالي، كنت أتسكع في طريقي المعتاد، يشغل تفكيري أمور لا حصر لها، فقد أُلقي القبض عليّ من أجل استجواب، لم تصلني أوراقه مطلقاً، لكنها على ما يبدو قد أُرسِلت لي بالفعل، عندما انتشلتني صوتٌ ناعم مبتهج. التفت من فوري، ورأيت فتاةً جميلة، قامتها بارتفاع مرفقي، تتوسل إليّ؛ كي أدلها على شارع معين يقع على مسافة بعيدة، تقريباً في الربع الأخير من المدينة.

قلت لها: «إنها مسافة بعيدة من هنا يا طفلي».

ردت في خجل: «أعلم ذلك يا سيدي، أخشى أن تكون بعيدة جداً كما قلت؛ لقد جئت من هناك ليلاً».

قُلْتُ في اندهاش: «بمفردك؟».

- نعم! لم يكن لديّ أي مانع حينها، لكنني الآن خائفة قليلاً؛ أخشى أن أكون قد ضللت الطريق.

- وما الذي دفعتك لتسأليني؟ لنفترض أنني أرشدتك بشكل خاطئ؟

قالت الصغيرة: «لأنني متأكدة تمام التأكد من أنك لن تفعل؛ أنت رجلٌ عجوز وقور الهيئة، تسير على مهلٍ شديد».

لا أستطيع أن أصف مدى انبهارى بطريقتها من أجل استئناف الحديث، وبالحيوية التي أضفتها عليه، خاصةً أن الدموع ترقرت في عينيها البريئتين الصافيتين، وقد ارتجف جسدها، بينما تنظر إلى وجهي.

قلت: «تعالِ! سأخذكِ إلى هناك».

وضعت يدها في يدي، وأمسكت بها في ثقة تامة، كما لو كانت

تعرفني منذ كانت في المهد، مشينا معًا بخطوات ثقيلة؛ لقد ضبطت تلك المخلوقة الصغيرة سرعة سيرها وفقًا لسرعتي، بدا كما لو كانت هي التي تقتادني وترعاني أكثر من كونها هي التي في حمايتي. لاحظت أنها بين الحين والآخر تختلس نظرات فضولية إلى وجهي؛ كأنها تتأكد من أنني لم أكن أخدعها، أما تلك النظرات الخاطفة -والتي كانت نظرات متحمسة قوية جدًا- فبدت أنها تزيد من ثقتها مع كل تكرار.

من ناحيتي، كان فضولي واهتمامي مساويين لفضول واهتمام الأطفال على أقل تقدير، أما الطفلة فحتمًا كانت فضولية، رغم أنني ظننت أن سبب ذلك يرجع إلى احتمالات ما كان من الممكن أن أفعله.. أضفت بنيتها الرقيقة الصغيرة على مظهرها نضارة مميزة، على الرغم من أنها كانت ستبدو أكثر نحافة مما كانت عليه، إن ارتدت ملابس أنيقة، لا تنم عن أي علامة من علامات الفقر والإهمال.

قلت: «مَن الذي أرسلك بمفردك حتى مسافة بعيدة هكذا؟».

- إنه شخص لطيف للغاية معي يا سيدي.

- وماذا كنتِ تفعلين؟

قالت الطفلة في حزم: «هذا ما لا يجب عليّ أن أخبرك به».

حملت صيغة إلقاء ذلك الرد شيئًا من السلوك المبهم، جعلني أنظر من فوري إلى ذلك المخلوق الصغير في دهشة غير إرادية، متسائلًا عن أي نوع من المهمات قد أسندت إليها، لتكون مهية للإجابة عن سؤالي على هذا النحو. تراءى لي أن عينيها اللماحتين قد قرأتا أفكارى؛ حينما

وقعت عيناها على عيني، أضافت قائلة إنه ليس هناك أي ضرر مما كانت تقوم به، لكنه سر عظيم، سرُّ لم تعرفه هي نفسها.

قالت هذا في مظهر صادق، لا يشوبه أي خداع أو مراوغة، قالت في صراحة لا يشوبها أي شك، حملت سمت الحقيقة.

سارت كما كانت من قبل، وبينما كنا ماضيين في طريقنا، ونتحدث في مرح، صارت معي أكثر ألفة، لكنها لم تقل المزيد عن بيتها، أشارت إلى أننا نسير في طريق جديد فقط، متسائلة إذا كان ذلك الطريق قصيراً أم لا.

على الرغم من وئامنا معاً، دارت في ذهني مئات التفسيرات المختلفة للغز الكامن وراءها، لكنني رفضتها جميعاً. شعرت حقاً بالخجل؛ لاستغلال براءة الطفلة وشعورها بالامتنان؛ لإرضاء فضولي. أحب أولئك الصغار، وأعتقد أنه ليس بالشيء الهين إطلاقاً، أن يحبنا أولئك المبعوثون حديثاً من عند الرب. شعرت بالسعادة في البداية جراء ثقتها، ومن ثمَّ حسمت الأمر باستحقاقي لتلك السعادة، ونسبت الفضل للطبيعة التي أسكنتها إلى نفسي.

مع ذلك، لم يكن هناك أي مانع يحول بيني وبين رؤية ذلك الشخص، الذي أرسلها دون اكتراث في تهور، عبر تلك المسافة البعيدة ليلاً وبمفردها، لكنَّ احتمالاً غير مستبعد -من الممكن أن يصير أمراً واقعاً- أخذ يتردد في ذهني، من المحتمل أن تجد الصغيرة نفسها فجأة على مقربة من بيتها، فتودعني، وتحرمني من اقتناص تلك الفرصة، لذلك تجنبت الطرق المعتادة، وأخذت أكثر الطرق التواءً وتعقيداً، لدرجة أنها لم تدرك في أي مكان كنا، حتى وصلنا إلى شارع بيتها نفسه. صفقت بيديها في

سرور بالغ، ركضت أمامي لمسافة قصيرة، ثم توقفت رفيفتي الصغيرة عند الباب ثابتة في مكانها، إلى أن وصلت وانضمت إليها، ثم طرقت عليه.

كانت درفة الباب الزجاجية غير مغلقة بأي مصراع، وهو الأمر الذي لم ألاحظه في البداية، على أي حال، كان المكان في الداخل مظلمًا وساكنًا، كنت قلقًا -مثلما كانت الطفلة أيضًا- حيال عدم تلقينا أي استجابة لنداءاتنا. عندما طرقت الباب مرتين أو ثلاث مرات، تردد ضجيج، كما لو أن شخصًا ما يتحرك في الداخل، ومع مضي فترة طويلة، لاح عبر الزجاج ضوء خافت، بدا حامله يقترب ببطء شديد، يشق طريقه بين عدد كبير من أشياء مبعثرة، لكن الضوء مكّني من تمييز القادم وتمييز طبيعة المكان الذي أتى منه.

كان رجلًا عجوزًا ذا شعر رمادي طويل، هكذا بدا وجهه وهيئته بينما كان آتيًا يحمل الضوء فوق رأسه، ولم يتغير شكلهما مع اقترابه، لقد رأيته بوضوح تام. على الرغم من أن الشخص يتغير كثيرًا مع مرور العمر، أعتقد أنني استطعت التعرف عليه من هيئته النحيفة والهزيلة، التي لاحظتها على الطفلة من قبل. كانت أعينهما الزرقاء اللامعة متشابهة بكل تأكيد، لكن وجهه كان ذابلًا من الهموم، مليئًا بالتجاعيد، وهو الحد الذي انمحي عنده أي تشابه بينهما تمامًا.

كان المكان الذي أتى عبره واحدًا من تلك الأماكن المكتنزة بالأشياء القديمة المثيرة للفضول، الموجودة في الزوايا الموحشة لهذه المدينة، وينتفعون بها في إخفاء كنوزهم العتيقة، بعيدًا عن أعين العامة المليئة بالغيرة وعدم الثقة. امتلأ المكان بدروع جنود معدنية مصفحة،

تقف مثل الأشباح في كل حذب وصوب، ومنحوتات رائعة جُلبت من أديرة الرهبان، وأسلحة صدئة مختلفة الأشكال، ومنحوتات من الصين، وخشب، وحديد، وعاج، وبساط مزخرف، وأثاث غريب، غالبًا تم تصميمه في الأحلام. وناسبت هيئة العجوز الهزيلة المُنهكة طبيعة المكان؛ ربما جَوَّب طرقات عدة بين الكنائس القديمة والمقابر والمنازل المهجورة بنفسه؛ ليجمع تلك الغنائم جميعها بيديه. لم يكن من بين تلك المجموعة بأكملها شيء -مقارنةً به- أكثر قدمًا أو اهترأً منه.

بينما كان يدير المفتاح داخل القفل، تفحصني في دهشة لم تقل حينما انتقل بناظره مني إلى رفيقتي. فُتِح الباب، ونادته الطفلة بـ«جدي»، وأخبرته بقصة رفقتنا القصيرة.

قال العجوز وهو يربت على رأس الطفلة: «لماذا يا عزيزتي! بوركت! كيف ضللت الطريق؟ ماذا لو كنت فقدتِك يا نيلي!».

قالت الطفلة في ثقة شديدة: «كنت لأجد طريق عودتي إليك يا جدي، لا تخف أبدًا».

قبَّلها العجوز، ثم التفت نحوي؛ يلح بإصرار على دخولي معه، ففعلت. قُفِل الباب وأُغْلِق بإحكام. تقدمني حاملاً الضوء، قادني عبر المكان الذي رأيته مسبقًا من الخارج، إلى غرفة جلوس صغيرة بالخلف، كان لها باب آخر يؤدي إلى حجرة تشبه الخزانة، رأيت بداخلها سريرًا صغيرًا، من الممكن أن تنام عليه جنية فراشات؛ بدا ضئيلًا جدًّا ومرتبًا للغاية. أخذت الطفلة شمعةً وتوغلت إلى داخل تلك الحجرة الصغيرة، تاركة جدها وإياي معًا.

قال العجوز وهو يضع كرسيًا بالقرب من النيران: «من المؤكد أنك متعب يا سيدي.. كيف أشكرك؟».

أجبتة: «أن تكون أكثر حرصًا على حفيدتك فيما بعد يا صديقي العزيز».

قال العجوز في لهجة حادة: «أكثر حرصًا! أكثر حرصًا على نيلي! لماذا؟ وهل يوجد من أحب طفلًا من قبل مثلما أحب نيلي؟».

قال هذا في دهشة جليلة، جعلتني في ارتباك تام حيال ردي عليه، بل أكثر من ذلك؛ فقد اقترنت دهشته بشيء من وهن، وبدا عليه شروء الخاطر، فضلًا عن علامات التفكير المضطرب العميق التي ارتسمت على وجهه، وأقنعتني من فوري أنه لم يكن مطلقًا مثلما افترضت في بادئ الأمر، وكم كانت افتراضاتي ساذجة وخرقاء!

شرعت في الحديث وقلت: «لا أعتقد أنك تقوم برعاي...».

قاطعني العجوز وصاح: «أنا لا أقوم بالرعاية! أنا لا أقوم برعايتها! أوه.. أي قدر ضئيل سطحي تعرفه عن حقيقة الأمر! يا صغيرتي نيلي، يا صغيرتي نيلي!».

لا أهتم كثيرًا بالطريقة التي اعتمدها في حديثه، لكنه شيءٌ مستحيلٌ على المرء، أن يعبر عن مكنون وجدانه في أربع كلمات فقط، أما تاجر التحف المثيرة للفضول فقد استطاع أن يفعل. انتظرتة كي يتحدث مرة أخرى، لكنه أراح ذقنه على يده، هازًا رأسه مرتين أو ثلاث مرات؛ شاخص العينين تجاه النيران.

بينما كنا جالسين على ذلك النحو، فُتِح باب الخزانة، عادت الطفلة، وقد أُسْدِل شعرها البني اللامع على رقبتها، تدفقت الدماء إلى وجهها، جراء عجالتها للانضمام إلينا. شغلت نفسها من فورها في تحضير العشاء، بينما كانت منهمكة في فعل ذلك، لاحظتُ أن العجوز قد اغتتم الفرصة ليتفحصني عن كذب أكثر مما فعل. كنت مندهشًا تمامًا لقيام الطفلة بجميع تلك الأعمال بمفردها، دون أن يظهر أي أحد على الإطلاق، لكنني فهمت أنه لا يوجد أشخاص آخرون في المنزل غيرنا. انتهزت لحظة تغيب فيها الفتاة عن جوارنا؛ للتلميح إلى هذه النقطة، حيث أجباني العجوز بأنه كان هناك عدد قليل من الأشخاص جديرين بالثقة وحريصين مثلها.

نظرت إليه وقد اشتطت غضبًا من أنانية أفعاله التي استتجتها وقلت: «يحزنني هذا دائمًا.. يحزنني دائمًا إقحام الأطفال في شؤون الحياة، إنهم بالكاد أطفال صغار.. دائمًا ما يقيدهم هذا ويزعزع ثقتهم ويمحو براءتهم.. وهما صفتان من أفضل الصفات التي تمنحها لهم السماء.. نطالبهم بمعايشة أحزاننا ومشاركتنا إياها قبل أن يتمكنوا حتى من استشعار متعنا».

قال العجوز ناظرًا نحوي في ثبات: «لن يقيد هذا مطلقًا.. دائمًا ما تكون الينابيع عميقة، إلى جانب أن الأطفال المولودين من رحم الفقر لا يدركون إلا القليل من الملذات. حتى مسرات الطفولة الرخيصة يجب شراؤها ودفع ثمنها».

قلت: «لكن.. اعذرني لقولي ذلك؛ أنت بالتأكيد لست فقيرًا إلى تلك الدرجة».

رد العجوز: «إنها ليست طفلي، لكن والدتها كانت، وكانت فقيرة. وأنا لا أدخر شيئاً.. لا أدخر ولو فلساً واحداً.. على الرغم من أنني أعيش كما ترى..». أراح يده على ذراعي ومال نحو الأمام تجاهي هامساً: «ستكون ثرية في أحد الأيام، وسيدة نبيلة. ألا تشعر باشمزاز مني؛ لأنني أستغلها في مساعدتي، لكنها - كما ترى - تقوم بتلك الواجبات في مرح، إلى جانب أن قلبها سينفطر إذا علمت أنني كلفت غيرها بإتمام أعمال من أجلي، في حين أن يديها الصغيرتين قادرتان على فعل تلك الأعمال». ثم صاح في غرابة مفاجئة مستنكراً: «أنا لا أقوم برعايتها! لماذا؟ يعلم خالقنا أن تلك الطفلة هي مغزى حياتي وفكرتها، لكنه رغمًا عن ذلك لم ينعم عليّ بخيره أبداً.. لم يفعل مطلقاً!».

بمثل هذا التحول، عدنا إلى موضوع حديثنا مرة أخرى، طلب العجوز مني الاقتراب من الطاولة، لكنه ابتعد، ولم ينطق بكلمة أخرى. كنا قد عدنا بالكاد لاستكمال وجبتنا، حينما ارتفع صوت طرق على الباب الذي دخلت منه، تهللت نيل ضاحكةً ضحكة صادقة، وابتهجت فور سماعها تلك الطرقات، كانت ضحكة طفولية عارمة بالفرح، قالت: «إنه بلا شك (كيت) العزيز، قد أتى أخيراً».

قال العجوز وهو يلاطفها ماسحاً على شعرها: «نيل الساذجة! عادةً تضحك هكذا لـ (كيت العزيز)».

ضحكت الطفلة مرة ثانية ضحكة من قلبها مبهجة أكثر من ذي قبل، لم أستطع مقاومة ابتسامتي بسبب تلك العواطف الصافية. حمل العجوز شمعة، وذهب لفتح الباب. عندما عاد، كان كيت في إثرها.

كان كيت صبيًا غريب الأطوار، أشعث كثيف الشعر، يمشي متثاقلاً، ذا فم واسع غير مألوف، وخدين حمراوين، وأنف طرفه مرتفع، ومن المؤكد أن وجهه اعتلاه أكثر التعابير الهزلية التي رأيته طوال حياتي. توقّف عند الباب؛ حال رؤيته لشخص غريب، بارماً على يده قبعة قديمة مستديرة تماماً دون أي بقايا لحافتها، وقف عند مدخل الباب، متكئاً على ساق واحدة، يبدل باستمرار بينها وبين ساقه الأخرى، ينظر إليّ عبر الردهة شزراً، كانت نظرتة هي أكثر النظرات التي رُمقت بها طوال حياتي شزراً. شعرت بالامتنان تجاه ذلك الصبي منذ تلك اللحظة؛ لأنني شعرت أن مرح الحياة الطفولية قد تمثل فيه.

قال العجوز: «كانت مسافة بعيدة.. أليس كذلك يا كيت؟».

أجابه كيت: «ها! حسناً! كانت مسافة يسيرة يا سيدي».

- من المؤكد أنك عدت جائعاً! أليس كذلك؟

كانت الإجابة: «ها! حسناً! في الواقع أعتبر نفسي كذلك يا سيدي».

كان للطفل أسلوب مميز في وقفته الجانبية تلك، بينما كان يتحدث، يدفع رأسه إلى الأمام أعلى كتفيه، ويلزمه بكل تأكيد ذلك التعبير المرتسم على وجهه أثناء حديثه. أظن أنه قادرٌ على تسلية أي أحد في أي مكان، كان تمتّع الطفل بالغرابة، والشعور بالارتياح؛ لاكتشاف أن ذلك المكان، الذي بدا غير ملائم للطفلة أبداً، به شيء ما ارتبطت به ويهجهها، كانا لا يقاومان أبداً من فرط جمالهما. كانت لفظة طيبة؛ حينما أدركت أن كيت نفسه كان ممتناً للإحساس الذي أضفاه،

لكنه بعد جهود كثيرة للحفاظ على جاذبيته، انفجر بقهقهة عالية، وفمه مفتوح على آخره وعيناه مغلقتان، ضاحكًا بشدة.

انتكس العجوز مرة أخرى وغاص في شرود ذهنه، ولم يلحظ ما كان، لكنني انتبهت، ورأيت أنه حينما فرغت الطفلة من ضحكها، كانت عيناه المشرقتان قد بهتتا، وترقرق فيهما الدمع؛ تقلب النظر فيما حولها بامتنان يملأ قلبها؛ فهي تستقبل رفيقها الأخرق المفضل متذكرا الاضطراب الذي عاشته ليلاً. أما عن كيت نفسه - كانت ضحكته طوال الوقت أشبه كثيراً بتلك الضحكات التي تتحول إلى شهقات ودموع -، أخذ الخبز وشريحة اللحم وكوباً من الجعة إلى ركن، وشرع في التهام وجبته في شراهة كبيرة.

التفت العجوز نحوي وهو يتنهد كما لو أنني قد كنت أتحدث إليه في تلك اللحظة وقال: «آه! أنت لا تدرك حقاً ماذا تقول، عندما تخبرني بأنني لا أقوم برعايتها».

قلت: «يجب ألا تعلق أهمية قصوى على ملاحظة تستند إلى الانطباعات الأولى يا صديقي».

استدار العجوز مفكراً: «لا! لا! تعالي إلى هنا يا نيل». قامت الفتاة الصغيرة عن كرسيها، مضت نحوه مسرعة، ثم طوقت بذراعيها عنقه.

قال: «هل أحبك يا نيل؟ قولي.. هل أحبك يا نيل أم لا؟». تمثلت إجابة الطفلة فقط في عناقه، مسندة رأسها إلى صدره.

قال الجد وهو ينظر إليّ، ضامًّا إياها نحوه: «لماذا تبكين؟ هل لأنك تعلمين أنني أُحبك.. وأنه لا يجب عليّ مطلقًا أن أطرح شكوكًا في سؤالي؟ حسنًا حسنًا! دعينا نقول إنني أُحبك كثيرًا يا عزيزتي».

ردت الطفلة في جدية شديدة: «في الواقع.. أنت تحبني بكل تأكيد، ويعرف كيت أيضًا أنك تحبني».

كيت! الذي كاد أن يتلع ثلثي سكينته مع كل قضة في فتور بهلوانٍ محترف، أثناء التهامه للخبز واللحم، توقّف قليلًا عن استئناف ما يفعله ليجيب على ما حُكّم فيه، صاح: «لا وجود لأحمق يمكن له أن يقول إنه لا يحبك»، وإذ به يتناول شطيرة ضخمة في قضة واحدة، فيعجز نفسه عن استئناف حديثه.

قال العجوز متلمسًا خد الطفلة: «إنها فقيرة الآن، لكنني أكررها عليك مرة أخرى، مع مرور الوقت ستكون من الأثرياء، أعلم أنه وقتٌ طويل، لكنه سيأتي في النهاية.. سيكون وقتًا طويلًا حقًا، لكنه سيأتي حتمًا. قد أتى لكثير من الرجال لم يفعلوا شيئًا سوى الهدر والإفراط.. أتساءل متى سيأتي لي!».

قالت الطفلة: «أنا سعيدة كما أنا يا جدي».

عقب العجوز: «صه، صه! أنت لا تعرفين.. كيف يجب ألا تكوني كذلك!». ثم تتم مرة أخرى كازًا على أسنانه: «يجب أن يأتي ذلك الوقت، أنا متأكد تمامًا أنه يجب أن يأتي، عسى أن يكون كل تأخيرٍ يحوي خيرًا». تنهد وانغمس مرة أخرى في حالته السابقة شارد

الذهن، بينما لا تزال الطفلة جالسة بين ركبتيه، بدا غير مدرك لكل ما حوله على الإطلاق. ساعتها، كانت تفصلنا عن حلول منتصف الليل بضع دقائق، وقد توجب عليّ أن أرحل، ما جعله يعود إلى نفسه متداركاً الأمر.

قال: «لحظة من فضلك يا سيدي! الآن يا كيت لقد اقتربنا من حلول منتصف الليل يا ولدي، وأنت لا تزال هنا! هيا اذهب إلى بيتك، اذهب إلى بيتك في التو، وكن حريصاً على أن تلتزم بالوقت المحدد في الصباح؛ إن لديك عملاً لتقوم به.. تصبح على خير! تمنى له ليلة طيبة يا نيل، ودعيه يذهب!».

قالت الطفلة، وعيناها لامعتان من فيض الفرح واللفظ: «ليلة سعيدة يا كيت!».

رد الصبي: «ليلة سعيدة يا آنسة نيل!».

تدخل العجوز في الحديث على عجالة: «واشكر هذا السيد المحترم؛ لولا رعايته لنيل، لكنك فقدت الليلة فتاتي الصغيرة».

قال كيت: «لا لا يا سيدي، هذا لن يحدث أبداً، لن يحدث مطلقاً».

صاح العجوز: «ماذا تقصد؟».

قال كيت: «كنت لأجدها يا سيدي، كنت لأجدها من فوري.. أراهن الجميع على أنني كنت سأجدها، وإن كانت في أي مكان على وجه الأرض، كنت لأفعل بكل تأكيد، وفي سرعة بالغة كأني شخص يا سيدي.. ها ها ها ها!».

ها هو مرة أخرى، يفتح فمه ويغلق عينيه، يضحك بصوت يشبه صوت آلة الكتابة الاختزالية. عاد كيت تدريجيًا نحو الباب، ومن ثم خرج.

أصبحت الغرفة متسعة الآن، لم يكن الصبي بطيئًا عندما رحل، أما الطفلة فكانت منهمكة في تنظيف الطاولة، حتى قال العجوز:

«يبدو أنني لم أشكرك حتى الآن على ما فعلته هذه الليلة يا سيدي، لكنني أشكرك حقًا بصدق وتواضع من كل قلبي، وكذلك هي تشكرك، ومن المؤكد أن شكرها لك يزيد عن شكري لك.. وأريد أن أعتذر عن سيرك كل تلك المسافة الطويلة، وأعتقد أنني لست غافلًا عن مدى صلاحك ونقاء قلبك، وعن مدى إهمالها.. لست غافلًا حقًا».

قلتُ: «أنا متأكد من ذلك؛ لقد رأيت بنفسي، لكن..». ثم أردفت قائلاً: «لكن هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً؟».

قال العجوز: «نعم يا سيدي.. ما هو؟».

قلتُ: «تلك الطفلة الحساسة صاحبة هذا القدر من الذكاء والجمال.. لا أحد يهتم بها ويرعاها سواك؟ أليس لها أي رفيق آخر أو ناصح؟».

أجاب وهو ينظر إليّ في اضطراب: «لا.. لا هي لا تريد أحدًا آخر».

قلتُ: «ألست خائفًا من أن تكون غير مدرك كفاية للمهمة التي أنت بصددتها؟ أعلم تمامًا أن مقصودك حسنٌ، لكن هل أنت متأكد من معرفتك بالكيفية التي تجعلك جديرًا بمثل تلك الثقة؟ أنا رجل عجوز

مثلك، وإن جل ما يدفعني هو قلق رجل عجوز نحو ما هو شبابي واعد.
ألا تظن أن ما رأيته الليلة بينك وبين تلك المخلوقة الصغيرة مفعّم
بالاهتمام والرعاية، وليس عبارة عن ألم غير متناهٍ أبدًا؟».

قال العجوز بعد صمتٍ دام للحظات: «اسمعي يا سيدي! أعلم أنه
ليس لديّ أي حق إن شعرت بالإساءة حيال ما قلت. غالبًا هو صحيح
من نواحٍ عدة، كثيرًا ما أكون أنا الطفلُ وهي الشخص الناضج.. مثلما
رأيت بالفعل. لكنها في اليقظة والنوم، في النهار والليل، هي الوحيدة
التي تحظى برعايتي كلها، إن كنت على علمٍ بقدر رعايتي الكبير لها،
كنت لتنظر إليّ نظرةً مختلفة، كنت لتفعل في الواقع. آه! إنها حياة
مرهقة وشاقة لرجل عجوز مثلي.. حياة مرهقة.. مرهقة جدًا، لكن
ينتظرني مكسب عظيم في نهايتها، وهذا ما أوّمن به».

عندما رأيته في هذه الحالة من الاندفاع ونفاد الصبر، التفت لألتقط
معطفي، الذي تركته خارج الغرفة عند دخولي؛ قاصدًا ألا أتحدث
بالمزيد. لكنني فُوجئت حين رؤيتي للطفلة واقفةً في صبر تام، تعلّق
معطفًا على ذراعها، وتمسك بيدها قبعة وعصا.

قلتُ: «هذه الأغراض ليست لي يا عزيزتي».

قالت الطفلة: «نعم.. إنها لجدي».

- لكنه لن يخرج الليلة! أليس كذلك؟

قالت الطفلة متبسمة: «أوه! بلى.. سوف يخرج».

- وماذا عنكِ أيتها الجميلة؟

- عني أنا! أنتظر هنا بالطبع.. دائماً ما أفعل ذلك.

نظرت في استنكار شديد ودهشة عارمة إلى العجوز، لكنه كان مشغولاً بهندمة ملابسه، أو تظاهر بأنه كان كذلك. عاودت النظر إلى تلك الطفلة البريئة المطيعة.. بمفردها! ستكون بمفردها في ذلك المكان الموحش، طوال الليل المظلم الكئيب.

لم تُبَدِ الطفلة أي تعبير جراء استنكاري الشديد من هول تلك المفاجأة، لكنها على العكس تماماً ساعدت العجوز في ارتداء معطفه بكل رحابة صدر، وحينما صار متأهباً للمغادرة، أخذت شمعة لتنير لنا الطريق. عندما وجدت أننا لم نتبعها كما توقعنا، نظرت فقط إلى الورا بابتسامة، ومن ثمَّ انتظرتنا. بدا على وجه العجوز في وضوح تام إدراكه لسبب ترددي، لكنه ظل صامتاً، أوماً إليَّ برأسه فقط للخروج أمامه من الغرفة. لم يكن لديَّ أي حيلة سوى الامتثال لإيماءته.

حينما وصلنا إلى الباب، وضعت الطفلة الشمعة عن يدها، التفتت لتودعنا وتتمنى لنا ليلة طيبة، ومن ثمَّ رفعت وجهها لتقبّلني. جرت مسرعة إلى العجوز، الذي من فوره طوقها بذراعيه، ودعا أن يباركها الخالق.

قال في صوت منخفض: «نومًا هنيئًا يا نيل.. ستحرس الملائكة سريرك! لا تنسَي صلواتك يا جميلتي».

قالت الطفلة في حماس: «لن أنساها بكل تأكيد.. إنها تجعلني أشعر بالسعادة!».

قال العجوز: «هذا جيد، أعلم أنها تسعدك، يجب عليها حتمًا أن تسعدك.. فليباركك الخالق مائة مرة! سأعود إلى المنزل في الصباح الباكر».

ردت عليه الطفلة: «حسنًا.. لا تفرع الجرس مرتين؛ إنه يوقظني، حتى وإن كنت في منتصف أحلامي».

مع انتهاء تلك المحادثة، فرغا من احتضان بعضهما. فتحت الطفلة الباب -كان مغلقًا حينها بقفل، سمعت الصبي يضعه قبل أن يغادر المنزل-، ومن ثم كان وداع أخير، ودعتنا الطفلة خلاله بكلمات صافية مليئة بالعاطفة، أكاد أكون تذكرتها آلاف المرات، وأبقيت على ذكرها حتى غادرنا. توقّف العجوز للحظة في روية، بينما كانت تغلق الباب برفق من الداخل؛ ليطمئن على إتمام ذلك، ثم مشى في هودة بخطوات بطيئة. توقّف عند زاوية الطريق، ينظر إليّ، وقال بملامح يشوبها القلق: إن طريقنا مختلفان، وإنه تتحتم عليه المغادرة والانفصال عن رفقتي. كنت بصدد الحديث إليه، لكنه على عكس المتوقع من رجل في هيئته، كان قد استجمع قواه، وسار بعيدًا في خفة متناهية. استطعت أن أراه ينظر إلى الوراء مرتين أو ثلاث مرات؛ ليتبين ما إن كنت لا أزال أنظر إليه أم لا، أو ربما ليطمئن نفسه مؤكدًا لها أنني لا أتبعه عن بعد. فضّل الليل الحالّك مواراته عن الأنظار، حتى اختفى بالكلية عن ناظري.

بقيت واقفًا حيثما تركني، لا أبدي أي رغبة في المغادرة، دون أن أدرك أي سبب لوقوفي وعزمي على عدم الرحيل. نظرت في أسى شديد نحو الشارع الذي خلفته ورائي مؤخرًا، وبعد مضي فترة من الوقت،

مضيت إلى ذلك الطريق. مررت بالمنزل مرارًا وتكرارًا، ثم توقفت عند الباب، واسترقت السمع من خلاله، كانت الرؤية منعقدة، أما عن الصوت فكان المنزل في صمت قبر.

رغم ذلك، لم أستطع إرغام نفسي على الابتعاد، بقيت في مكاني، أفكر في كمّ الأضرار المحتملة التي قد تحدث لتلك الطفلة -من سرقات وحرائق إن لم يكن القتل-، ويخالجني شعور أن الشر سيحضر بمجرد أن أولي ظهري بعيدًا عن ذلك المكان.

كان الشارع مقفرًا وكثيًّا؛ تواجد فيه القليل من المارة فقط، -برغم أن ذلك كان أمرًا جيدًا بالنسبة لي-. مر عبره بعض مشردي المسارح، بين الحين والآخر كنت أتصدى لصخب شاربي الخمر المترنحين أمام المنزل، لكن تلك المضايقات لم تكن مستمرة وسرعان ما توقفت. دقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. مشيت بخطوات ثابتة ذهابًا وإيابًا، قاطعًا عهدًا على نفسي أن كل مرة ستكون المرة الأخيرة، ثم أنقض العهد بيني وبين نفسي حين أستشعر نداءات جديدة، ومن ثم أعيد الكرة مرة أخرى.

كلما تفكرت فيما قاله العجوز، وفي نظراته وطريقة مشيته، كلما قلّ إدراكي لما أراه وأسمعه. كان لديّ شك قوي حيال غيابه تلك الليلة، وأن غيابه ليس من أجل غرض حسن. لقد أتيت لمعرفة الحقيقة التي أهدتها إليّ براءة تلك الطفلة، وقدومي إلى العجوز في ذلك الوقت تحديدًا، ورؤية دهشته الصريحة من وجودي، وحفاظه على غموضه الغريب، وتكتّمه دون إبداء أي تفسير. أعادت جميع

تلك الخواطر إلى مخيلتي تعبيراته الغريبة المرتسمة على وجهه المنهك، لكن هذه المرة كانت تعبيراته أكثر وضوحاً من ذي قبل؛ أتذكر شرود ذهنه، إلى جانب نظراته المضطربة التي لم تهدأ أبداً. قد يكون حبه للطفلة متعارضاً مع شرور شخصيته السيئة، لكن ذلك الحب وتلك المودة في حد ذاتهما تناقض مبهم، وإن لم يكن الأمر على هذا النحو! كيف له أن يتركها بمفردها هكذا؟ بغض النظر عن ظني السيئ فيه، لم أشكك أبداً في أن حبه إياها كان حقيقياً. لا أستطيع أن أعترف بصحة تلك الفكرة؛ أذكر جيداً ما مرّ بيننا، وأذكر نبرة صوته منادياً إياها باسمها.

أتساءل حينما أجابت الطفلة على سؤالي وقالت: «أنتظر هنا بالطبع.. دائماً ما أفعل ذلك!»، ترى ما الذي يجعله يخرج من المنزل الليلة وكل ليلة! استدعيت جميع الحكايات الموحشة، التي سمعت عنها من قبل، عن الأعمال السرية، التي تُقترف في المدن الكبرى، والهروب من جراء الكشف عنها على مر سنوات طويلة، كانت قصصاً تنضح بالهمجية، لكنني لم أتمكن من إيجاد قصة، تشابه ذلك الغموض، لكن بحثي اقترب من كشف الستر عنه، واكتشاف حل لغزه.

تمكّنت تلك الأفكار مني، بل أخذ أكثر منها يعتمل داخل عقلي حول تلك النقطة نفسها، واصلت السير في الشارع ساعتين متواصلتين، إلى أن شرع المطر يهطل بغزارة، غمرني الإرهاق على الرغم من أنني لم أفقد حماسي الذي كنت عليه في بادئ الأمر، استقللت أقرب حافلة، وعدت إلى المنزل.

كانت النيران مشتعلة في المدفأة، تضيء سرورًا، وكان المصباح
مُشتعلًا، يضيء نورًا، استقبلتني ساعتى بترحيبها القديم المألوف، كان
كل شيء هادئًا ودافئًا ومُبهِجًا، على نقيض حَسِنِ مقارنة بما تركته خلفي
من كآبة وظلام.

لكنني طوال الليل، سواء أكنت مستيقظًا أم نائمًا، بقيت مثقلًا،
واستعمرت الأفكار نفسها رأسي، واستحوذت الصور ذاتها على
ذهني. تمثلت قباليّتي الغرفة المظلمة القديمة المليئة بالكآبة، ودروع
الجنود المعدنية الضخمة في صمتها الشبحي، ووجوهها المصنوعة
من الخشب والحجارة، المنبجعة في ابتسام، والغبار والصدأ والديدان
الناخرة، ووسط كل هذا الخشب المتصدع والمسكن القبيح العفن،
تواجد طفلة جميلة بمفردها، في نومها الساكن، تبسم خلال أحلامها
المنيرة المشرقة.



الفصل الثاني

بعد صراع مع النفس دام أسبوعًا تقريبًا، كان ما انتابني من شعور طوالة هو ما أعادني مرة أخرى إلى زيارة ذلك المكان، الذي تركته تحت تأثير الظروف القهرية، التي ذكرتها مُفصلة بالفعل، خضعت لشعوري بالكلية، حسمت أمري هذه المرة سأذهب بنفسني نهارًا، وعزمت على أن يكون رحيلي في الصباح الباكر.

وصلت، ومشيت أمام المنزل، سرت في الشارع مرات عدة؛ بسبب التردد الطبيعي الذي يلزم أي رجل مُقَدِّمٍ على زيارة غير متوقعة، أو على وجه الدقة زيارة غير مقبولة على الإطلاق. على أي حال، كان باب المتجر مغلقًا، وتبين أن مَنْ بداخل المتجر لم يدركوا وجودي، كررت الصعود نحو الباب ثم الهبوط إلى الشارع، لكنني سرعان ما تغلبت على ذلك التردد، ووجدت نفسي على حين غرة داخل مخزن تاجر التحف القديمة والنوادر المثيرة للفضول.

تواجد العجوز مع شخص آخر في الركن الخلفي، كان الحديث الذي يدور بينهما مسموعًا، كانا يتحدثان بأعلى طبقة من صوتيهما، لكنهما فور دخولي كَفَا عن الحديث فجأةً، وتقدم العجوز على عجلٍ نحوي، قال في صوت مرتجف إنه سعيدٌ بقدومي.

قال لي مشيرًا نحو الشاب الذي كان بصحبته: «لقد قاطعتنا في لحظة حرجة، إن هذا الشاب سيقْتلني في غضون أيام، كان ليفعل منذ زمن بعيد، لو تملكته الجرأة».

قال الآخر: «بااه! إن أمرنا سيان.. فإذا كان بمستطاعك، كنت لتنهى حياتي من توك». رمقني بناظريه، ثم قال محدقًا إليه في عبوس: «نعلم كلنا ذلك!».

صاح العجوز ملتفتًا في توانٍ: «أظن أنه يمكنني فعل ذلك، لو كان بمقدور الصلوات أو الأيمان أو الكلمات تخليصني منك، يتوجب عليها حقًا أن تؤدي بك إلى الهلاك.. حينها سأُخلص منك نهائيًا، أكاد أجزم أنك إذا مت، فسوف أشعر بارتياح».

رد الآخر: «أعلم هذا! لقد قلتَه قبل أن تتلفظ به.. أليس كذلك؟ لكن الصلوات والأيمان والكلمات لن تؤدي بي، وسأظل حيًّا مفعمًا بالحياة، بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ».

صاح العجوز: «هو حيٌّ.. ووالدته هي مَنْ توفيت». رفع يديه، ينظر إلى الأعلى في تضرع وكآبة: «اهبطي يا عدالة السماء!».

وقف الآخر متكئًا بقدمٍ على كرسي، ينظر إليه في سخرية لازدة. كان شابًّا يافعًا، قارب الحادية والعشرين من عمره أو نحو ذلك، كان حسن الهيئة، وسيما دون شك، على الرغم من أن تعبير وجهه كان بعيدًا كل البعد عن ذلك، فضلًا عن سلوكه وملبسه، ومظهره المتغطرس الذي شاع فيه التبجح، ويشير اشمئزًا في النفس.

قال الشاب: «عدالة أو لا عدالة.. أنا هنا وسأظل هنا إلى أن يحين الوقت الذي أراه مناسباً بالنسبة لي للمغادرة، إلا إذا طلبت المساعدة؛ لتجبرني على الرحيل، وهذا ما لن تجرؤ على فعله، كما أعلم.. دعني أقولها لك مرة أخرى.. أريد أن أرى أختي».

قال العجوز بشدة متأففاً: «أختك!».

قال الآخر: «آه! بالتأكيد أختي؛ لا يمكنك تغيير حتمية العلاقات؛ لأنه إذا كان بإمكانك، لكنت غيرتها منذ قديم الزمن. أريد أن أرى أختي، التي تحبسها هنا، وتسمم عقلها بأسرارك الخبيثة، تتظاهر بحبك لها، وتثابر على خداعها؛ كي تظل تخدمك حتى مماتها؛ من أجل إضافة شلنات قليلة أسبوعياً إلى أكوام المال التي لا تستطيع حصرها.. أريد أن أراها، وأقول لك إنني سأفعل».

صاح العجوز ملتفتاً نحوي: «انظر إلى الشاب الفاضل سليم الطوية الذي يتكلم عن العقول المسمومة! انظر إلى صاحب الشخصية الكريمة الذي يزدري قيمة الشلنات! إن الفاجر الخبيث يا سيدي هو من يكون مذنباً في جميع الاتهامات، ليست فقط تلك الموجهة ضده ممن ساء حظهم وكانوا من دمه، بل من المجتمع بأكمله، الذي لا يعرف شيئاً عنه سوى سوء أفعاله». أضاف قائلاً في صوت منخفض وهو يقترب مني: «وكاذب أيضاً! يعرف حق المعرفة كيف أن أخته عزيزة، ومقربة مني، ومع ذلك يسعى إلى جرحي، هنا وفي وجود غريب وعلى مرأى ومسمع منه».

قال الشاب معقّباً على حديث العجوز: «لا أكثرث لأمر الغرباء؛ لا يعنون لي شيئاً، وآمل ألا أعني لهم شيئاً كذلك. إن أفضل ما يمكنهم

فعله هو إبقاء أنوفهم في شؤونهم الخاصة، وأن يدعوني وشأني..
يتظرني صديقٌ بالخارج، ويبدو أنني سأضطر إلى البقاء هنا لبعض
الوقت، لذلك سأستدعيه؛ كي يدخل.. آه! إذا سمحت بالطبع!». .

فور انتهائه من حديثه، اتجه نحو الباب، أشار مرات عدة نحو
شخص غير مرئي لنا في الشارع، تبين من نفاذ صبر الشاب وإيماءاته
بإشارات مُلِحَّة، أن مجرد إقناعه وحثه على القدوم، يتطلب جهدًا
عظيمًا.

مشى الهوينى على الجانب الآخر من الطريق، يردد حجة واهية عن
مروره أمام المكان صدفةً، نَمَّت عن شخصية ذات ذكاء ماهر، لكنه في
نهاية المطاف عبر الطريق متجهًا نحو المتجر بعد الكثير من التقطيب
وهزات الرأس الراض لدعوة الحضور.

عرَّفه الشاب قائلاً: «إنه ديك سوفييلر». ثم دفعه نحو الداخل
وأكمل: «حسنًا! اجلس يا سوفييلر».

قال السيد سوفييلر في صوت خفيض: «لكن.. هل السيد موافق؟».
نظر إليه السيد سوفييلر بابتسامة استرضائية؛ يحاول ملاطفته، ثم
أبدى ملاحظة أن الأسبوع الماضي كان أسبوعًا نسماته عليلة، وكان
جيدًا للبط، أما هذا الأسبوع فنسماته محملة بالأتربة، وأردف أنه أثناء
وقوفه بجانب العمود في زاوية الطريق، لمح خنزيرًا مع قشة في فمه،
مصدرها متجر التبغ، مستنبطًا من ظهوره على تلك الشاكلة، أن أسبوعًا
آخر سيكون جيدًا للبط على وشك الاقتراب، وأن المطر سيهطل بكل

تأكيد. علاوة على ذلك، اقتنص فرصة؛ للاعتذار عن أي رثاءة، قد تكون ملحوظة على ملابسه؛ فقد كان مفترشاً الأرض في الليلة الماضية، ومع ذكره لعبارة: «كانت الشمس ساطعة جداً ومسلطة على عينيه»، كان من المفهوم أنه يوضح لمستمعيه من خلال أكثر الطرق الممكنة كياسة، أنه كان سكراناً بإفراط.

قال السيد سوفييلر متنهذاً: «لكن ما.. ما احتمالية اشتعال نيران الروح وتفتيت الألفة، وعدم إسقاط جناح الصداقة لريشة منه أبداً! ما احتمالية اتساع رحابة الروح بالنبذ الوردي، وأن اللحظة الحالية هي اللحظة الأقل سعادة في كينونتنا!».

قال صديقه في همس يشبه الحديث المنفرد: «لا تحتاج إلى التصرف كرئيس هنا».

صاح السيد سوفييلر بينما يحك أنفه: «فريد! إن الحكيم تكفيه كلمة واحدة.. ربما نكون صالحين وسعداء دون ثروات يا فريد. فلا تتلفظ بكلمة أخرى؛ إنني أعرف مقصد تلميحاتي. ذكية هي الكلمة.. فقط همسة صغيرة واحدة يا فريد: هل السيد ودود؟».

أجاب صديقه: «عذراً!».

قال السيد سوفييلر: «هذا صحيحٌ للمرة الثانية، صحيحٌ جداً.. إن الحذر كلمة، واتخاذها فعل».. مع انتهاء تعقيبه، غمز كما لو كان يتكتم على بعض الأسرار الدفينة، طوى ذراعيه على بعضهما، مال بظهره إلى الوراء على كرسيه، ومن ثم نظر إلى السقف في تدبر عميق.

ربما لم يكن بالأمر غير العقلاني، إن شككنا فيما مرَّ به بالفعل؛ لم يكن السيد سوفييلر قد استعاد ولو حتَّى جزءاً بسيطاً من وعيه، من السكر ومن تأثير لفحات أشعة الشمس على رأسه، التي أشار إليها خلال حديثه من قبل. لكنَّ حديثه على صعيد آخر، إن لم يكن قد تسبب في إيقاظ شكوكنا، فسوف يكون شعره الأشعث، وعيناه الباهتتان، ووجه الشاحب شهوذاً أقوىاء ضده. لم تكن ملابسه مهندمة أو منمقة - كما أشار - بل كانت رثة فوضوية، تؤكد بشدة على فكرة نومه بها. تألفت من معطف بني، عليه الكثير من الأضرار النحاسية الضخمة في المقدمة، وزرار واحد في الخلف، ووشاح مزركش، وصدريّة منقوشة، وبنطلون أبيض متسخ، وقبعة مرتخية، يرتديها على الجانب الخاطئ بالملقوب؛ ليخفي رقعة في حافتها. كان صدر معطفه مزخرفاً به جيب خارجي، يظهر منه طرف شديد النظافة لمنديل كبير ذوقه منفّر، كان قد شَمَّر سوار قميصه القدر بقدر ما استطاع، وطواه للخلف على معصميه بشكل ظاهر، لم يكن مرتدياً أي قفازات، لكنه كان ممسكاً بخيزرانة صفراء، يوجد في أعلاها عظام يد قابضة على كرة سوداء، وشيءٌ شبيه بالخاتم في إصبعها الصغير. بعد ذكر جل تلك الصفات - التي يمكن إضافتها إلى رائحة التبغ النَّفاذة التي تفوح منه، والتشحّم اللزج السائد على مظهره - أسند السيد سوفييلر ظهره على كرسيه، وسلَّط عينيه على السقف في ثبات، كان بين الحين والآخر يعلق في صوت جهوري، يفرض على مَنْ حوله أنفاس الحانة الكثيية، ثم في خضم ملاحظته، يعود إلى صمته مرة أخرى.

جلس العجوز على كرسي، وطوى ذراعيه، أحياناً ينظر إلى حفيده، وأحياناً أخرى ينظر إلى رفيقه الغريب، بدا كما لو كان عاجزاً، وليس بيده أي حيلة، سوى تركهما يفعلان ما يحلو لهما. ارتكن الشاب اليباع إلى الطاولة، على مسافة غير بعيدة من صديقه، بدا في حالة لا مبالة واضحة تجاه ما حدث بأكمله، ساعتها كنت أشعر بحرق بالغ؛ أقاوم رغم مناشدات العجوز واحتكامه إليّ بالكلمات والإيماءات على حد سواء، المبادرة بأي تدخل، لذا تظاهرت بأفضل ادعاء متاح، وتصنعت أنني أفحص التحف المعروضة للبيع، وإيلاء القليل من الانتباه إلى الشخص الجالس أمامي.

لم يستمر الصمت لفترة طويلة، بالنسبة إلى السيد سوفييلر، فقد أزاح ناظريه أخيراً عن السقف، وعاد إلى حديثه المبتذل مرة أخرى. بعد أن أتحفنا بالعديد من التأكيدات الشجية حول وجود قلبه في المرتفعات، وأن هذا ما أراده، على غرار جواده العربي الذي كان بمثابة تمهيداً لتحقيق مآثر كبيرة من الولاء والبسالة.

قال السيد سوفييلر - كأن فكرة طارئة خطرت على باله فجأة - متحدثاً في همسه المسموع مرة أخرى: «يا فريدا! هل السيد ودود؟».

رد صديقه في حذر: «هل هذا مهم؟».

قال ديك: «لا! لكن هل هو؟».

- نعم، بالطبع هو كذلك.. لكن ما الذي يهمني إن كان كذلك أم

لا؟

بدا أن المحادثة بناء على ذلك الرد بدأت تأخذ منعطفًا أكثر عمومية، وأن السيد سوفييلر يفرض نفسه في وضوح ليأسر انتباهنا.

استطرد في حديثه آتيا على ذكر المياه الفواردة، وأنه على الرغم من كونها جيدة في المجمل، تُعرّض المعدة للإصابة بالبرد، ما لم تكن مُحسّنة بالجنزبيل أو مضافًا إليها قدر صغير من نبيذ البراندي، وبذكر ذلك الأخير، اعتبره المفضل في جميع الحالات؛ فجعله في المقام الأول لنفقاته دائمًا. لم يبادر أحد بمجادلته حول ما كان يطرحه فيما يتعلق بمواضع الأشياء ومقاماتها كأولوية أولى، تابع حديثه ملقيًا بملاحظات حول قيمة الشعر البشري كعربون قيم لشراء التبغ، وأن السادة الشباب من (وستمنستر) و(إيتون) بعد تناولهم كميات هائلة من التفاح؛ لإخفاء أي رائحة للسجائر، قد يشمها أصدقاؤهم، غالبًا ما يتم اكتشافهم جراء العواقب الملحوظة التي حلّت على رؤوسهم. ثم ذيل ملاحظاته مستخلصًا، أنه إذا وجّه المجتمع الملكي انتباهه نحو تلك الأوضاع العامة، وسعى لاستنباط سبلٍ من الموارد العلمية؛ تهدف إلى منع تلك الظواهر غير المرغوبة، حينها سيُنظر إليه فعليًا على أنه ذو فضلٍ على البشرية. بدا أن تلك الآراء لا جدال عليها وأنها على قدر المساواة مع تلك التي كان قد أعلنها بالفعل سابقًا، لكنه واصل الحديث آتيا على ذكر نبيذ جامايكا روم، أبلغنا بأنه على الرغم من ثرائه بنكهة غنية، وكونه مُسكرًا مقبولًا، لديه عيب؛ وهو بقاء مذاقه المستمر حتى اليوم التالي، ولأنه لا وجود لأحد يتمتع بالجرأة الكافية كي يجادله حول تلك النقطة أيضًا، بعد سرده لتلك الملاحظة زادت ثقته في نفسه،

وأصبح أكثر تواصلاً واندماجاً.

قال السيد سوفيلىر: «إنها نزغات شيطانية.. إننا بصد أكثر الأمور تعقيداً يا سادة.. عندما تُقطع العلاقات وتتضارب. إن كان لزاماً على جناح الصداقة ألا يُسقط ريشة، فيجب ألا يُقص جناح العلاقات الأخرى أبداً، بل ينبغي تركها ممتدة وساكنة دائماً. لماذا يجب على الحفيد والجد استنزاف نفسيهما في ذلك العنف المتبادل، بينما يجب على الجميع العيش في وئام وهناء.. لماذا لا تتصافح الأيدي وننسى ما كان؟».

قال صديقه: «انتبه إلى كلامك!».

قال السيد سوفيلىر: «لا تقاطع سير الحديث يا سيدي.. والآن يا سادة، إلى أي ركيزة تستند قضيتنا من حيث الظروف المواتية؟ نجد أماننا الجد الظريف -أقولها بالطبع وأنا ممثّل لأقصى درجات الاحترام- والحفيد الشاب المتعجرف. قال الجد الظريف للحفيد الشاب المتعجرف: «لقد رببتك وعلمتك يا فريد، ووضعتك على الطريق الذي تجد فيه سبيلاً لحياتك، ومن جانبك انشقت عنا، مثلما يفعل الخساسة، لذلك لن تحظى بفرصة أخرى، أو حتى ترى خيال نصفها. حضّر الحفيد الشاب المتعجرف ردّاً على ذلك وقال: «أنت غنيّ، لم تنفق عليّ نفقات استثنائية، بل احتفظت بأكوام من المال من أجل أختي الصغيرة، التي تعيش معك بطريقة سرية وخفية، تشوبها الريبة، دون أدنى صورة من صور المتعة.. لماذا لا تستطيع تنحية أمر تافه لا يُذكر من أجل تواصل العلاقات الناضجة؟». ودائماً ما يأتي رد الجد

الظريف حاسماً حيال ذلك؛ فهو لا يكتفي برفض السداد فقط، على الرغم من أن ذلك عادةً ما يكون مقبولاً ومُرحَّباً به من رجل في نفس عمره، بل يأتي الرد محتدّاً، ولا يتوانى الجدل عن استدعاء أشخاص، والمزايدة في ردود الفعل، كلما التقيا. لكن السؤال الواضح الذي يطرح نفسه، أليس من المؤسف أن تستمر هذه الحالة، أليس من الأفضل أن يُسلِّمه الجدل قدرًا مقبولاً عادلاً من ذلك المعدن، ويجعل الأمر برمته على ما يرام ومريحاً؟».

حينما فرغ السيد سوفييلر من خطابه الذي ألقاه في حماس متقد، وقد أحسن استخدام يديه في تشكيل حركات منمقة محسوبة، دفع آخر خيزرانتته إلى فمه، كأنه يمنع نفسه من إضافة أي كلمة أخرى، تُضعف من تأثير حديثه.

قال العجوز ملتفتاً إلى حفيده: «لماذا تطاردني وتضطهدني؟! كان الخالق في عوني! لماذا تُحضر رفاقك الماجنين إلى هنا؟ كم مرة عليّ أن أخبرك أن حياتي قائمة على الحرص وإنكار الذات، وأنني فقير فعلاً؟».

ردَّ الآخر ناظرًا إليه في فتور: «وكم مرة عليّ أن أخبرك أنني على بينة بالواقع؟».

قال العجوز: «لقد اخترت طريقك الخاص، اتبعه، واترك نيل وشأنها، اتركنا نكدح ونعمل».

ردَّ الآخر: «سوف تكون نيل سيدة فيما هو قريب، وسوف تُربّيها

على معتقداتك التي تؤمن بها، وبالتالي ستنسى شقيقها، إلا إذا أتى بنفسه أحياناً ليراها».

قال العجوز وقد برقت عيناه: «كن حريصاً! فهي لن تنساك، عندما تطرأ على ذاكرتها القوية.. كن حريصاً ألا يأتي يوم تجوب فيه الشوارع حافي القدمين، وتركب هي عربتها الخاصة».

رد الآخر بحسم: «أنقصد عندما يكون لديها أموالك؟ عن أي رجل فقير كنت تتحدث إذن؟».

قال العجوز وقد أخفض صوته، حتى بدا كشخص يتحدث إلى نفسه بصوت عالٍ: «ولا أزال! يا لنا من بائسين! ما بال هذه الحياة! لتحفَّ حياة طفلة صغيرة بريئة بجميع تلك الشرور والأخطار وكل تلك العقبات.. ما بال هذه الحياة! لا يسير فيها أي أمر على ما يرام! ألهمنا الأمل والصبر! ألهمنا الأمل والصبر!».

تمتم العجوز بتلك الكلمات بصوت هامس منخفض جداً، لم تلتقطه آذان الشباب. بدا السيد سوفييلر وقد أكثر من التدبر أثناء حديثهما؛ حتى يضمَّنه تلميحات، يثير مغزاها بعض الصراعات العقلية، التي نتجت بالفعل عن التأثير الفعال لخطابه، لكز صديقه بخيراته، هامساً إليه بأن قدرته على الإقناع أسفرت عن (جدال)، وأنه يتوقع إضافة عمولة على أرباحه. اكتشف السيد سوفييلر زلته بعد فترة من الوقت، فبدأ يتملص في جلسته مدعيًا شعوره بالنوم، وعدم قدرته على التواصل، وجاء أكثر من مرة على ذكر رغبته الفورية في المغادرة، وعندما همَّ بفتح الباب، كانت الطفلة نفسها أمامه.

الفصل الثالث

تعقَّب الطفلة كهلاً، وُصِم بملامح حادة وهيئة منفرة بشكل ملحوظ، كان قصير القامة كالقزم تمامًا، رغم أن وجهه ورأسه كانا ضخمين بما يتناسب مع عملاق. بدت عيناه السوداوان خبيثتين وماكرتين، اكتسب فمه وذقنه مظهرًا حادًا وغلظًا؛ بسبب لحيته القصيرة الخشنة، أما عن مظهره العام، فلم يبدُ عليه نظافة أو هندام إطلاقًا. لكن أكثر شيءٍ مغايرٍ خالط تعابير وجهه البشعة كان ابتسامة مروعة، بدت كنتيجة لعادة سلوكية، ليس لها أي صلة بشعوره بالرضى أو بالابتهاج، كشفت تلك الابتسامة عن أنياب مُفلَّجة غلبت عليها الصفرة، أضفت عليه مظهر كلب يلهث. تألفت ثيابه من قبعة كبيرة عالية، وبدلة داكنة مهترئة، وحذاء واسع جدًا، ووشاح متسخ أبيض مكرمش ومزحزح عن مكانه، يكشف عن جزء كبير من رقبتة النحيلة. كان شعره أسود قصيرًا خالطه الشيب، مستقيمًا عند منبته، أشعثٌ حول أذنه. كانت يدها خشنتين، بها حبوب جافة مقرزة، وأظافره طويلة وملتوية صفراء.

مرَّت لحظات رتيبة قبل أن يقطع أحدنا الصمت الذي دب في أركان المكان. خلالها اتسع الوقت لملاحظة تلك التفاصيل، على الرغم من

كونها واضحة بما يكفي، ولا تستدعي تدقيقاً. تقدمت الطفلة في خجل صوب شقيقها، وضعت يدها في يده، ممسكة بها، حدّق القزم -إذا جاز لنا تسميته بذلك المسمى - إلى جميع الحاضرين بنظرات ثاقبة حادة، في حين أن صاحب متجر التحف بدا مرتبكاً ومحرجاً؛ بسبب زيارة ذلك الأخرق غير المتوقعة.

قال القزم، ماداً يده إلى ما فوق عينيه، نحو الشاب، ليتفقدّه: «آه! ينبغي أن يكون هذا حفيدك، أيها الجار!».

أجاب العجوز: «قل فضلاً عن ذلك أنه ينبغي ألا يكون.. لكنه حفيدي بكل أسف».

قال القزم، مشيراً إلى ديك سوفييلر: «ومن هذا؟».

أجاب العجوز: «صديقه.. نرحب بوجوده كترحيبنا بوجود الآخر تماماً».

التفت القزم إليّ وأشار إليّ مباشرة مستفسراً: «ومن هذا؟».

- إنه رجل نبيل؛ أعاد نيل إلى المنزل في إحدى الليالي، عندما ضلّت طريقها إلى المنزل.

التفت قصير القامة إلى الطفلة؛ كي يوبخها على فعلها أو ليعبر عن استنكاره الشديد، لكنه وجدها تتحدث إلى الشاب، فتراجع عن فعله؛ وأمال رأسه؛ ليسترق السمع.

قال الرفيق الشاب في صوت جهوري: «حسنًا! هل يحثك على كراهيتي؟ أجيبيني! ألا يفعل ذلك؟».

صاحت الطفلة: «لا لا! حتمًا لا! كيف تقول ذلك».

قال شقيقها متهكمًا: «إذنْ حثك على حبي بدلًا من ذلك؟».

ردت الطفلة: «لا! في الواقع، لم يفعل هذا أو ذاك.. لا يتحدث معي عنك مطلقًا».

قال الشاب ممرًا نظرة حادة إلى جده: «سأحرص على فعله ذلك، سأحرص على فعله ذلك بجسارة يا نيل.. أوه! أنا أصدقك تمامًا!».

قالت الطفلة: «لكنني أحبك كثيرًا بالفعل يا فريد».

– بلا شك!

كررت الطفلة بمزيد من العاطفة: «أحبك فعلاً، وسأحبك إلى الأبد.. لكنك إذا كففت عن مضايقته وإزعاجه، وجعله غير سعيد، سوف أحبك أكثر».

قال الشاب: «أظن ذلك!». انحنى ليقبلها بمشاعر باردة، ومن ثم دفعها بعيدًا عنه قائلاً: «إذن! ابتعدي عني الآن؛ لقد رددتي درسك بإحكام، لست بحاجة إلى هذا الكم من التذمر. نحن أصدقاء جيدون، إن كان هذا ما يهم في الأمر كله».

التزم الصمت، ظل يتبعها بعينه إلى أن وصلت غرفتها، وأغلقت الباب، ومن ثم التفت إلى القزم فجأة: «وأنت يا سيد..!».

رد القزم: «أتقصدي؟ اسمي كويليب. اسم ليس بطويل، حتمًا ستذكره.. دانيال كويليب».

تابع الآخر: «حسنًا يا سيد كويليب.. يبدو أن لك بعض التأثير على جدي».

قال السيد كويليب مشددًا على ما ذكره: «امم! بعض».

- وتعرف عنه القليل من الأسرار وأسباب غموضه.

رد السيد كويليب في فتور متساوٍ: «امم! القليل».

- إذن دعني أخبره من خلالك لآخر مرة وإلى الأبد، أنني سأتي إلى هذا المكان وسأغادره وقتما أشاء؛ ما دام مبقياً على وجود نيل معه، وأن خلاصه الوحيد كي لا يراني مرة أخرى، هو أن يتخلى عن وجود نيل. ما الذي اقترفته؛ كي أكون مصدرًا للقلق وإثارة غضبه بهذا الشكل! كي يتجنبني ويفزع عند مجيئي، كما لو كنت أحضر معي الطاعون؟ أعلم أنه سيخبرك أنه لا يحبني بالفطرة، وأن لا جرم في مسعاه، وأنه يجب عليّ ألا أتقرب إلى نيل وألا أهتم بها، ليس من أجله، بل من أجل مصلحتها أولاً.. حسنًا! دعه يقول ذلك.. نعم! أنا شخصٌ يهتم بأهوائه الخاصة، ووفقاً لهذا، سأتي وأذهب من هنا؛ وسأذكرها بوجودي إلى جانبها، ما دمت أريد ذلك. هذه هي مسألتني، وهذا هو مسعاي. جئت إلى هنا اليوم لأحقق ذلك، وسأكرر فعلي، وأعود إلى هنا خمسين مرة أخرى، لتحقيق نفس المسعى، وسأظل مثابراً على إنجاحه. قلت إنني لن أتوقف عن فعلي، حتى أحصل على ما أريد.. لقد انتهيت من حديثي، والآن انتهت زيارتي.. هيا يا ديك!

صاح السيد سوفييلر بينما كان رفيقه متجهًا نحو الباب: «انتظر! أيها السيد».

قال السيد كويليب لمن ناداه: «خادمك المطيع يا سيدي».

قال السيد سوفييلر: «أريد أن أدلي بتصريح أخير، إن أذنت لي بالطبع.. قبل أن أترك مشاهد احتفالية صاخبة، وقاعات ضوء مبهر.. وآتي إلى هنا اليوم، كان لديّ انطباع أن ذلك الرجل ودود...».

قال دانيال كويليب إثر توقّف المخاطب فجأة عن الحديث: «أكمل يا سيدي!».

— ... لكن ما حدث هنا أوحى إليّ بأمر، وأيقظ مشاعري يا سيدي، إن المشاعر مثل الصديق المشترك، الذي لا يقع في حسابه أمور مثل التمر والإغواء وافتعال المكائد وإثارة الغضب للتقريب بين النفوس، أو لتعزيز التوافق الاجتماعي بين الأطراف المتنازعة، لذلك سأخذ على عاتقي أن أقترح نهجًا، سيكون المسار الذي سيتم اعتماده وفقًا للظروف المواتية.. هل تسمح لي أن أصرح بنصفها أيها السيد؟

خطى السيد سوفييلر بالفعل نحو القزم، دون أن ينتظر إجابة على الإذن الذي طلبه، استند على كتفه، ومن ثمّ انحنى؛ ليصل إلى أذنه، وقال بصوت كان مسموعًا بوضوح للحاضرين: «ستكون كلمة السر التي تجمعني بالعجوز هي.. الشوكة».

سأل كويليب مستفسرًا: «ستكون ماذا!».

أجاب السيد سوفييلر: «ستكون الشوكة يا سيدي، الشوكة^(٢)!»، ثم ربت فجأةً وبقوة على جيبه: «هل أنت مستيقظ يا سيدي؟».

أجاب القزم بإيماءة، ردها عليه السيد سوفييلر، مبتعدًا قليلًا عنه،

(٢) الشوكة «الهجوم المزدوج»: هي نقلة تكتيكية يهاجم فيها اللاعب بنقلة واحدة قطعتين.

ثم ردها مرة أخرى المثل بالمثل، مبتعدًا قليلًا عنه. ظل على فعله هذا، إلى أن وصل إلى الباب، ثم التفت وسعل سعالًا عاليًا؛ لجذب انتباه القزم؛ للحصول على مساحة تعبير أكبر في عرضه الغبي، لافتًا إلى ثقة مقربة نشأت بينهما، مؤكدًا على السرية التي لا يجوز انتهاك حرمتها. بعد أن أنهى تمثيله الجاد لتلك المسرحية الإيمائية، التي بدت ضرورية لنقل فكرته، اتخذَ سبيل رفيقه للخروج، ثمَّ اختفى بالكلية عن الأنظار.

تمتم القزم ناظرًا إلى ما فوق كتفيه بامتعاض: «همف! هذا قدرٌ مبالغ فيه من العلاقات الوطيدة.. أشكر الخالق الذي لم يبتلني بواحدة من تلك العلاقات!». التفت إلى العجوز مستطردًا: «وأحسب أنك في غنى عنها أيضًا وبكل تأكيد، ولكنك في حال آخر لا يجب أن تكون فيه ضعيفًا كالحشائش، أو مستنارًا كالأخرق فاقد الإدراك».

رد عليه العجوز في وهن، كمن ليس في يده حيلة: «ماذا كنت تريد مني أن فعل؟ أعتقد أنه من السهل أن تتحدث وتسخر، طالما كان الأمر لا يخصك، لكنك إن كنت حقًا في مكاني، ماذا كنت ستفعل؟».

قال القزم: «ماذا كنت سأفعل إن كنت حقًا في مكانك؟».

– شيئًا فظًا عنيًّا.. دون شك.

كان قصير القامة ممتنًا للغاية؛ بسبب ما قاله العجوز، بدا بكل وضوح إلى حد كبير أنه اعتبرها مجاملة ما، فرك يديه القذرتين ببعضهما، تبسم كشیطان وقال: «أنت على حق تمامًا يا سيدي.. اسأل زوجتي، السيدة كويليب، السيدة كويليب الجميلة، والخجولة، والمطبعة، السيدة

كويليب العطوفة. لكن هذا يذكرني.. بأني تركتها بمفردها، وأنها ستكون مضطربة تمامًا، ولن تشعر بالسلام ولو لدقيقة، حتى أعود إليها مرة أخرى. أعرف أنها دائمًا ما تكون في تلك الحالة، طالما كنت بعيدًا، لكنها لا تفصح مطلقًا عن ذلك.. إنها لا تجرؤ على هذا الفعل، إلا إذا أذنت لها أن تتحدث بعفوية، وطمأنتها بأني فعلاً لن أغضب منها.. أوه! السيدة كويليب المدربة جيداً».

بدا ذلك المخلوق في جسده الضئيل ورأسه الوحشي بشعاً تماماً ومثيراً للذعر، بينما كان يفرك يديه ببعضهما في حركات دائرية، مراراً وتكراراً، -فبالرغم من أنه قد كان مألوفاً بالفعل، إلا أنه قد اكتسب خصلة حمقاء يكمن فيها الشر- على الأخص عندما أخفض حاجبه الأشعث، وأمال ذقنه في الهواء؛ يسترق النظر إلى الأعلى بنظرات بدت كما لو أنه اختلسها من عفريت، ومن ثمّ اختص بها نفسه.

قال: «ها هو!». ثم اقترب من العجوز بينما يضع يده على صدره، مكملًا حديثه: «ها هو! لقد أحضرته بنفسى؛ خوفاً من الحوادث، إنه من الذهب، أظنه كان أثقل وأكبر من أن تحمله نيل في حقيبتها، لكنها بحاجة إلى أن تعتاد على حمل مثل هذه الأوزان يا جاري العزيز؛ لأنها ستحمل الكثير عندما تكون ميتاً».

قال العجوز بنبرة فيها الكثير من التأوه: «ربما أرسلتها السماء إليّ.. كم آمل ذلك!».

ردد القزم مقترباً من أذن العجوز: «آمل ذلك أيضاً! لكن أيها الجار العزيز! كنت أود حقاً أن أعرف أي استثمار جيد هذا الذي يتطلب كل

تلك الإمدادات، وأنت رجل غامض، يحتفظ بسرّه لنفسه في تكتم».

قال الآخر بنظرة واهنة: «سري! نعم! أنت على حق.. أحتفظ به..
أحتفظ به لنفسي.. في تكتم.. في تكتم شديد».

لم يقل كلمة أخرى، أخذ المال فقط، ثم التفت وخطا خطوات غير ثابتة وبطيئة، واضعاً يده على رأسه، كرجل مغتم وواهن العزيمة. تبعه القزم بنظراته عن كثب، أثناء دخوله إلى غرفة الجلوس الصغيرة، حيث وضعها في خزانة حديدية، فوق المدخنة، وأحكم إغلاقها. بعد أن شرد في تأملاته لفترة وجيزة، تأهب ليغادر، وأدلى بملاحظة أنه إذا لم يعجل بأمر رحيله، سيجد السيدة كويليب عند عودته صريعة إحدى النوبات.

أضاف قائلاً: «حسنًا أيها الجار، سأتجه إلى المنزل، تاركًا خالص حبي ومودتي لنيلي، أملًا ألا تضل طريقها مرة ثانية، رغم أن فعلها ذلك قد أوصلني إلى مراتب شرف لم أكن أتوقعها». بمجرد أن أنهى فعله، انحنى، وهو ينظر إليّ نظرة نهمة للمعرفة، وينظر حوله في فطنة، بدا كما لو كان يتفحص كل شيء داخل نطاق رؤيته، حتى إن كان صغيرًا أو عديم الأهمية، وبعدها مضى في طريقه.

حاولت المغادرة عدة مرات، لكن العجز كان يعارضني في كل مرة؛ ويستحثني على البقاء. بدأ مجددًا في الثناء على كوننا بمفردنا، معربًا في أغلب حديثه عن جزيل شكره وامتنانه؛ للفرصة السابق ذكرها التي جمعتنا معًا، لذلك خضعت عن طيب خاطر لما ألح عليّ به، فجلست، ومن ثمّ تظاهرت بتفحصي لبعض المنمنات المثيرة للفضول، والميداليات القديمة التي قد وضعها أمامي. في حقيقة الأمر،

لم تكن هناك حاجة إلى الإلحاح عليّ، لحثي على البقاء؛ إذ كان فضولي
نهماً خلال زيارتي الأولى، فمن المؤكد أن فضولي لم يقل الآن.

انضمت إلينا نيل بعد فترة ليست بالطويلة، جلست إلى جانب
العجوز، وقد جلبت معها إبر تطريز، وضعتها على الطاولة. كان من
المبهج النظر إلى الزهور النضرة في أرجاء الغرفة، والتماس الينوعة
والانتعاش، والنظر إلى عصفور، يظل قفصه غصن صغير أخضر،
يحدث حفيفاً ناعماً، بدا كما لو كان يدور حول الطفلة في نسيمات
منعشة، تتخلل ذلك البيت الموحش القديم. لكن المشهد بأكمله لم يند
مستساغاً، بدا غريباً؛ حيث تنتقل من رؤية جمال الفتاة ورقتها، إلى رؤية
راعيها العجوز، أحذب الظهر ذي الوجه المهموم والمظهر المغتم.
أتساءل كيف سيتثنى لهذا الكائن الصغير العيش بمفرده، عندما يصبح
العجوز أكثر وهناً وضعفاً، ما الذي سيحل بها، إذا كان تحل عليه الآن
أقصى درجات الوهن والضعف.. بافتراض أنه قد مات، إلى أين سيؤول
مصيرها حينذاك؟

أجاب العجوز بالأحرى على أفكار المتخبطة داخل رأسي في
صوت عالٍ، وهو يضع يده على كتفها.

حيث قال: «سأكون هنا دائماً إلى جانبك يا عزيزتي نيل، أدمك
بقوة.. ولتحقيق هذا، يجب أن يتوفر لك ثروة جيدة في هذا المتجر، لا
أريد شيئاً منها لنفسي؛ جميعها لك. أسلم بحتمية وقوع مثل هذا الشقاء
على عاتق الأبرياء. لكنني غير قادر على الاستيعاب أو الإحاطة بالمغزى،
لكنه أمر مفروغ منه، فقط كوني متأهبة، ستأتي الثروة في النهاية!».

نظرت إلى وجهه في بشاشة، لكنها لم تقدم أي رد.

قال: «عندما أفكر في السنوات الكثيرة.. الكثيرة حقًا على الرغم من عمرك الصغير، التي عشت فيها معي، وتحملت وجودي الرتيب، وعدم وجود رفاق يماثلونك عمرًا، أو توفر ملذات طفولية، فضلًا عن الوحدة التي نشأت في كنفها، حتى أصبحت ما أنت عليه الآن، بعيدة كل البعد عن أي شيء آخر، سوى رجل عجوز.. أخشى أحيانًا أن أكون قد تعاملت معك بقسوة فظة يا نيل..».

صاحت الطفلة فجأة: «يا جدي!».

قال: «لا لا لم يكن ما تصورت هو مقصدي، أو كان هذا غرضي.. كنت أترقب دائمًا الوقت الذي يمكنك فيه الاختلاط بما هو أكثر جمالًا ولطفًا، وأن تنتقلي إلى مرحلة أفضل. لا أزال أطلع إلى الأمام يا نيل، لا أزال أطلع إلى المستقبل، ولكن.. ماذا لو حان وقت كنت فيه مُجبرًا على تركك، وفي الوقت ذاته، يجب أن أهيك لتنازلي في خضم صراعات ذلك العالم؟ حتى تلك الطيور المسكينة هناك يجب أن تكون مؤهلة لتواجه هذا العالم، وتعلم أنها أقصيت من الرحمت.. اسمعي! إنه كيت، لقد أتى بالخارج، اذهبي إليه يا نيل».

قامت الطفلة، وجرت مسرعة، لكنها توقفت، وعادت إلى العجوز وطوقت بذراعيها رقبته، واحتضنته، ثم جرت مرة أخرى.. لكنها هرولت هذه المرة؛ لتخفي انهماك دموعها.

قال العجوز في همس سريع: «حسنًا.. سأقول لك كلمة أود منك أن

تسمعها جيداً يا سيدي.. لقد داهمني الاضطراب وشعرت بعدم ارتياح
إزاء ما قلته لي في تلك الليلة، لم يكن في وسعي شيء سوى إخبارك أنني
أفعل دائماً ما هو أفضل بالنسبة لها - لكن الألوان قد فاتت ولم أعد قادراً
على التراجع، رغم أنني فاقدُ لتلك القدرة من الأساس - آملاً أن يلحق
بها الفوز؛ لأن كل شيء فعلاً من أجلها فقط، هي المغزى والأساس.
لقد تحملت الفقر المذهني كثيراً، وأريد أن أجنبها مرارة معاناة تحمله.
أود أن أجنبها البؤس الذي ألقى بوالدتها إلى حتفها وأرقدتها في القبر
وهي صغيرة في العمر، في وقت مبكر. سأتركها، ولكن.. لن أتركها
وفي حوزتها موارد من السهل تبديدها وإنفاقها، بل بموارد تُمكنها من
الوصول إلى ما تريد مهما كان. هل أخطأت في حكمك عليّ يا سيدي؟
إنها لن تحصل على مبلغ زهيد أبداً، سيكون من نصيبها ثروة هائلة..
صه! لقد عادت إلى هنا مرة أخرى! لا أستطيع أن أصرح بما هو أكثر من
ذلك، الآن أو في أي وقت لاحق».

أصابني هذا الكم الهائل من الحزن الذي أُلقيَ به على مسامعي،
ورعشة تلك اليد التي ارتكنت على ذراعي، وعينه المضطربتين
الشاحختين في تمنع، وسلوكه المرتبك، وذلك الاحتدام الذي غمر
حديثه، بحماس متقد ودهشة عارمة. قادني جل ما سمعت ورأيت،
وعلى وجه الخصوص ما قاله بنفسه إلى افتراض كونه رجلاً ثرياً
بالفعل. لا أستطيع الجزم بأنني قد فهمت مكونات شخصيته، باستثناء
افتراض كونه واحداً من هؤلاء البائسين المحبطين، المحاطين بالقلق
طوال حياتهم، بعد أن حققوا هدفهم الوحيد من حياتهم، ونجحوا في

جمع ثروات عظيمة، ثمَّ باتوا جزعين؛ يخشون الخسارة والخراب، فيظلون سجناء عذاب الفزع من الفقر. اتفق الكثير مما قاله تمامًا مع الفكرة التي خطرت لي، رغم أنه أبلغني أقصى درجات الحيرة ولم أستطع فهمه حينذاك، واستنتجت في النهاية أنه بلا شك كان واحدًا من هؤلاء المشاركين في السباق البغيض.

لقد كان هذا الرأي ناتجًا عن ملاحظة سريعة، أو على وجه الدقة لم تكن هناك فرصة مواتية خلال ذلك الوقت للمزيد من التدقيق؛ فأتت الطفلة مباشرة، وسرعان ما انشغلت؛ كي تصبح على أهبة الاستعداد؛ من أجل أن تعلم كيت دروسًا في الكتابة، بدا أنها تواظب على هذا الموعد مرتين أسبوعيًا، منهما مرة صادفت ذاك المساء، بدا أن بين كيت ومعلمته لطفًا ووثامًا إلى حد كبير. لكنك كي تدرك كم استغرق كيت من وقت طويل قبل أن يستعيد رباط جأشه، ويكون على راحته، في حضور رجل غير معروف بالنسبة له، تجمعهما صالة استقبال واحدة، يجب أن تكون ملئًا ببعض التفاصيل، يجب أن تعلم كيف طوى كُمِّيه وثنى مرفقيه، عندما جلس، واضعًا وجهه بالقرب من دفتره، محدقًا في السطور في غرابة تامة.. كيف تمرغ في بقع الحبر، ملطخًا نفسه من أخمص قدميه إلى منبت شعره، منذ اللحظة الأولى التي أمسك فيها بقلم في يده.. كيف كان يلطخ بالحبر الحرف الذي إذا تصادف وأجاد في كتابته فور انتهائه منه، عندما كان يشرع في كتابة حرف جديد. كيف كانت نيل تنفجر ضاحكة مع كل خطأ جديد في مرجِّ بصوتٍ عالٍ، ويبادلها المسكين نفسه ضحكات من قلبه لا تقل نقاءً عن ضحكاتهما.. كيف حافظت على

رغبتها الودودة في تعليمه رغم مرور الوقت، وثابر هو على ما لديه من شغف وحرص على التعلُّم.. كي تدرك تلك التفاصيل وتربط فيما بينها، حتمًا ستستغرق وقتًا أطول من المتاح. يكفي أن أقول إن الدرس قد انتهى، وإن الأمسية قد انقضت، وإن الليل قد زحف ظلامه، وإن العجوز بات أكثر إرهاقًا ونفادًا للصبر، لقد ترك المنزل في تمام الساعة عيناها، وقد تُركت الطفلة بمفردها داخل جدران المنزل القاتمة مرة أخرى.

الآن! وقد طويت تلك الذكرى لزمن طويل في قرارة نفسي، وعرضت هذه الشخصيات على القارئ، سأحرص على سلاسة السرد واتساقه، بإبعاد نفسي عن مساره، وأترك من لهم أدوار بارزة وضرورية؛ للتحدث وتمثيل أنفسهم بأنفسهم.



الفصل الرابع

عاش السيد والسيدة كويليب في (تاور هيل)، حيث تُركت السيدة كويليب في كوخها الريفي في تاور هيل، تتكبد معاناة غياب سيدها، عندما تخلى عنها؛ ليدير عملاً، رأينا بالفعل كيف كان يديره.

لا يمكن الجُزم بتجارة معينة أو بعمل محدد يمتعنه السيد كويليب، على الرغم من قيامه بمساعٍ مختلفة ومهنٍ متعددة. اعتاد جمع كافة أجور سكنى المهاجرين في الشوارع والأزقة القذرة بجانب المجرى المائي، كما داوم على اقتناص الأموال من الزوارق التجارية لحساب البَحَّارة وضباط الصف في البحرية، إلى جانب حصته التي يأخذها من الربَّان لمشاركته في مشاريع السفن الشراعية، اعتاد تدخين سجائره المهربة في المكتب الجمركي على مرأى ومسمع من الجميع، كما داوم على ضرب مواعيد؛ لتبادل القبعات اللامعة والسترات يومياً. إلى جانب نهر مقاطعة (سوري)، كانت هناك ساحة صغيرة، موبوءة بالفئران تُدعى (ميناء كويليب)، قام فيها بيت خشبي صغير، يغمره التراب بالكامل، كما لو أنه سقط من بين الغيوم، وقرَّ في الأرض، احتوى على بعض الشظايا من مخلفات المراسي الصدئة، وبعض أكوام الخشب المتهاك،

وكومتين أو ثلاث كومات من صفائح نحاسية قديمة، كلها تكومت وتهاكت وسُحِقت ونُخِرت. كان دانييل كويليب هو مفكك السفن في ميناء كويليب، لو أن الحكم ينبنى على هذه المظاهر، لتحتم أن يكون كويليب مفككًا قاصراً للسفن، لكنه في الواقع كان يفكك سفنه إلى قطع متناهية الصغر. لا وجود لأي مظهر من مظاهر الحياة في ذلك المكان المقفر أو أي دليل على وجود أي نشاط بشري، سوى صبي -يجوز أن يُقال عنه أنه برمائي- يرتدي بدلة قماشية، يتلخص عمله في الانتقال بين الجلوس على رأس كومة رامياً الحجارة في الوحل في أوقات المد، وبين الوقوف بينما يضع يديه في جيبيه؛ محدقاً في النهر دون تكبد أي عناء، مستمعاً إلى صخب أمواجه المتلاطمة.

اشتمل سكن القزم في تاون هيل -بغض النظر عن توفر سبل الراحة اللازمة له ولزوجته السيدة كويليب- على حجرة نوم صغيرة لوالدة تلك السيدة، التي كانت تقيم مع الزوجين، وتشن حرباً أبدية ضد دانيال، لكنها تخشى التصدي له؛ لم يكن خوفها منه بسيطاً. في الواقع، كان ذلك المخلوق القبيح يخلق أساليباً ما لإثارة خوف الكثيرين ممن يتواصلون معه أو ممن هم على اتصال به بشكل يومي، فصاروا يخشون التعرض لنوبات غضبه -لدرجة أن قبحه أو ضراوته أو طبيعته الماكرة، لم تشكل أهمية كبرى في هذا الخصوص مقارنةً بنوبات غضبه. لكن هيمنته الكبرى لم تقع على أحد، سوى السيدة كويليب نفسها.. كانت امرأة شابة، قليلة الكلام، ذات عينين زرقاوين، اجحمت نفسها بالزواج من القزم، خلال إحدى تلك المرات التي يملكها فيها جنون الشغف

الغريب، دون أي معنى واضح، أو أي سبب مُبرر، لكن كل يوم في حياتها بعد ذلك أصبح بمثابة تكفيرٍ فعليٍّ عن حماقتها.

يُقال عادة أن السيدة كويليب وحدها في كوخها، تتكبد آلامًا نفسية وجسمانية بسبب قلبها المفتور. لكنها لم تكن وحدها بمعنى أن لا بشر معها؛ كانت إلى جانبها والدتها العجوز، التي ذُكرت مؤخرًا، بالإضافة إلى ما يقارب نصف دسنة من السيدات، قاطنات الحي نفسه، جمعتهن صدف غريبة -والقليل من التفاهم فيما بينهن-، تتقابلن فقط في أوقات الشاي وتتوافدن واحدة تلو الأخرى. كان ذلك الوقت مواعيدًا لتبادلن فيه النمائم والقليل من الآراء؛ عادة تكون الغرفة منعشة وظليلة ومكانًا يُشجع على الكسل والتراخي، فضلًا عن وجود بعض النباتات على نافذة مفتوحة، تحجب عنهن الغبار، وتضفي تناغمًا مبهجًا بين طاولة الشاي في الداخل وبين البرج القديم في الخارج، فلا عجب من شعور النساء برغبتهن في التريث والتحدث، خاصةً إن أخذن في اعتبارهن توافر ملذات إضافية، مثل الزبد الطازج والخبز الساخن والروبيان والبقلة.

الآن وإن اجتمعت النساء في رحاب هذه الظروف، فمن البديهي أن يتحول حديثهن حتمًا إلى تساؤلات حول ميل طبيعة الجنس البشري نحو قهر الجنس الأضعف، والواجب الذي يجب أن يؤديه الجنس الأضعف؛ لمقاومة هذا الاستبداد؛ من أجل اقتناص حقوقه؛ واسترداد كرامته. كان الحديث عن تلك الأمور شأنًا طبيعيًا، وذلك لأربعة أسباب، أولاً: كون السيدة كويليب امرأة شابة، معروفٌ بشكل علني تسلط زوجها الكامل عليها، ما يبرر حماسها المفرط تجاه العصيان.

ثانيًا: كون والددة السيدة كويليب متمردة حادة الطباع بدورها، تنزع إلى مناهضة الهيمنة الذكورية. ثالثًا: لرغبة شتى الزائرات كل واحدة على حدة في إظهار مدى تفوقها في هذا الصدد على عموم بني جنسها. رابعًا: لأن تجمعهم مع مرور الوقت قد رَوَّض خوفهن المروع، حيث حُرمن سابقًا من مناقشة تلك المواضيع، لكن صداقة حميمة أصبحت تجمعهم الآن، وأصبح ذلك هو الموضوع المعتاد فيما بينهن، لذلك لم يكن لديهن عمل أفضل من مهاجمة عدوهن المشترك.

انطلاقًا من الدوافع التي غرستها تلك الاعتبارات جميعها، شرعت سيدة بدينة خلال إحدى تجمعاتهن في التطرق إلى ذلك الحديث عبر استفسار، في جوهره قلق وتعاطف شديد، فبادرت بقولها كيف كان السيد كويليب؟، حينها أجابت والددة السيدة كويليب في حدة: «أوه! لقد كان جيدًا بما يكفي.. لم يكن هناك الكثير بشأنه.. لكن ما أكثر الحشائش الضارة في أرض بور». تنهدت السيدات جميعهن على الفور في نفس واحد، وهززن رؤوسهن في جدية، ومن ثمَّ نظرن إلى السيدة كويليب باعتبارها الضحية.

قالت مَنْ تحدثت سابقًا: «آه! كم أود أن تسدي إليها بعضًا من نصائحك يا سيدة جينيوين..». -كانت السيدة جينيوين هي مَنْ ترعى السيدة كويليب-: «..لا أحد يعرف أفضل منك يا سيدتي.. ما الذي ندين به نحن السيدات إلى أنفسنا!». أجابت السيدة جينيوين: «في الواقع يا سيدتي! حينما كان زوجي -والدها العزيز- حيًّا، إن جادلني ورفض أمرًا ما بشكل قاطع، كنت لأقوم ب..». لم تتم العجوز الحسنة

إكمال جملتها، وإذ بها قد قطعت رأس روبان في وحشية مبالغ فيها، وهو ما يعتبر فعلاً بديلاً أبلغ من الكلمات.

في ضوء ما فعلته السيدة جينيون، فهم الطرف الآخر بوضوح ما أشارت إليه، وهو ما استقبل على الفور في استحسان كبير: «لقد خاطبت مشاعري يا سيدتي.. وهذا حقاً ما كنت سأفعله بنفسى».

قالت السيدة جينيون: «لست مضطرة إلى القيام بذلك.. من حسن الحظ أنه ليس لديك أي فرصة مواتية للقيام بذلك، مثلما كان لدي».

انضمت إلى الحديث السيدة البدينة مرة أخرى قائلة: «لا حاجة لأي امرأة القيام بذلك، إن كانت صادقة حقاً مع نفسها».

قالت السيدة جينيون في صوت لم يخلُ من نبرة التحذير: «هل تسمعين ذلك يا بيسي؟ كم من مرة قلتُ الكلمات نفسها لك، وكنت تعترضين في استياء، حين أتلفظ بها!».

كم كانت مسكينة السيدة كويليب! قلبت النظر فيمن حولها في حالة من العجز، تنظر تارة إلى وجه كسته ملامح المواساة، ثم إلى آخر كسته ملامح الشفقة، تهز رأسها في ارتياب، تحاول التبسم خجلة، وقد احمر وجهها. كانت تلك هي الشرارة التي أشعلت الحديث وحولته إلى صخب عام، بدأ تدريجياً من زفير حاد من أنوفهن إلى ضجيج عارم بفعل صياحهن، تحدثن فيه جميعهن في وقت واحد، وقد اتفقن على رأي مماثل، قائلات إنها امرأة شابة يافعة، ليس لها الحق في الإدلاء بآرائها ضد خبرات من هن على دراية أكثر منها، وكم كان من الخطأ

عدم الأخذ بنصيحة سيدات ليس في قلوبهن أي شيء سوى الخير، وأن ذلك كان بمثابة التعبير عن عدم الامتنان - بكل ما تحمله الكلمة من معنى -؛ كي تتصرف بهذا السلوك، وأنها إذا لم تُكَنَّ احترامًا لذاتها، يجب عليها أن تُكَنَّ الكثير من الاحترام للنساء الأخريات، اللاتي قَبِلْنَ بتسوية المذلات الناجمة عن خنوعها، وبالمثل إذا لم تُكَنَّ احترامًا للنساء الأخريات، فإن النساء مع الوقت لن يكنن لها أي احترام أيضًا، وستكون آسفة جدًّا، وعندما يحين ذلك الوقت سوف يذكرنها بكل ما قلن. بعد أن فرغن من لومها بكل تلك العبارات، انقضَّت السيدات في ضراوة أكبر على شرب الشاي وأكل الخبز والزبد الطازج والروبيان والبقلة، قائلات: إن غضبهن كان جامحًا؛ لرؤيتها ثابتة ومستمرة على الحال نفسه، وإنه لمن الصعب أن يسيطرن على أنفسهن إذا أكلن كسرة خبز واحدة فقط.

قالت السيدة كويليب بكل بساطة: «من السهل جدًّا أن تتحدثن، لكنني أعلم أنه إذا مت غدًّا، سيتزوج السيد كويليب أي سيدة يريدونها منكن.. أو بالأحرى يمكنه فعل ذلك الآن.. أنا أعلم ذلك جيدًا».

أتبعت السيدات جملةتها بشهقة من السخط جراء فكرتها، ورددن: «الزواج من أي سيدة يريدونها منّا!». ثم أردن جميعهن رؤيته يجرؤ فقط على هذا التفكير من دون أن يقدم حتى على الفعل، وأن يطلب الزواج من أي منهن، أو مجرد أن يخطو بالقرب من أي منهن لهذا الغرض. كمثل أي سيدة -أرملة- كانت متأكدة تمامًا من أنه يجب عليها أن تطعنه؛ إن فكَر أو تجرأ على التلميح لها.

قالت السيدة كويليب وهي تومئ برأسها: «حسنًا! لا يزال الأمر كما قلت للتو؛ من السهل جدًا أن تتحدثن، لذا دعوني أكرر عليكم حديثي الآن، أنا أعلم.. أو على وجه الدقة أنا متأكدة.. أن السيد كويليب إذا أحب، فلديه طريقة ما، تمكنه من جعل أي امرأة هنا، مهما بلغ جمالها، لا ترفضه.. أكرر لكنّ، إذا كنتُ ميتةً، وكانت تلك السيدة حرة، ووقع عليها اختياره وأحبها، أراهنكن أنها ستأتي له خائفة!». .

اجتمعن جميعًا على السخبط مما أردفت به السيدة كويليب، وصرخن بعلو أصواتهن: «أعلم أنكِ تقصدينني، دعيه يجسر على المحاولة - ..». ، لكنهن لأسباب خفية لا يعلمها غيرهن، بدّون غاضبات من الأرملة، حيث تهاست كل سيدة بالقرب من أذن من تجاورها قائلة إنه كان من السهل ملاحظة أن الأرملة تراءى لها بكل تأكيد أنها هي المقصودة بحديث السيدة كويليب، وكم هي جبانة!

قالت السيدة كويليب: «تعلم أُمي أن ما قلته صحيح تمامًا؛ لأنها كثيرًا ما قالت نفس الأمر قبل أن أتزوج.. ألم تقولي لي ذلك يا أُمي؟».

وضع ذلك الاستجواب السيدة الفاضلة في موقف حرج إلى حد كبير؛ فقد كانت بكل تأكيد طرفًا فعليًا - إن لم تكن الطرف الأساسي - في جعل ابنتها (زوجة السيد كويليب)، وهذا من شأنه ألا يدعم مصداقية العائلة حيال قبول فكرة أنها تزوجت من رجل لا يمكن لأي امرأة غيرها القبول به. ومن ناحية أخرى، إن بالغت في ذكر الصفات الحسنة لزوج ابنتها، سوف يقوّض ذلك أسباب تمردها، التي لطالما كرست جهودها الجاهدة لدعمها. بعد قيامها بحصر تلك الاعتبارات

المعارضة، خضعت السيدة جينيون إلى سلطان التلميح، لكنها رفضت حق التصريح بذلك.. وقد قُدِّمَ إليها معروفًا في الوقت المناسب، حين عادت السيدة المدينة إلى النقطة الرئيسة التي حادت عنها المناقشة تمامًا. «أوه! لقد صدقت السيدة جينيون قولًا، إنه شيء عقلائي ومناسب في الواقع»، هللت السيدة العجوز: «في حالة إن كانت المرأة صادقة حقًا مع نفسها! لكن بيستي بعيدة كل البعد عن ذلك، ويا له من خزي مشير للشفقة!».

قالت السيدة جورج: «قبل أن أسمح لرجل أن يعاملني بالطريقة التي يعاملُك بها السيد كويليب، وقبل أن أقف مذعورة تتملكني الرهبة كما تفعلين أمامه.. كنت سأقتل نفسي في الغالب، وقبل قيامي بذلك سأكون قد كتبت رسالةً أبين فيها فعله!».

لاقت تلك الملاحظة موافقة وثناء الجميع، وبعدها أضافت سيدة أخرى -من مينوريس- قائلةً:

«إن السيد كويليب رجل لطيف، ولا يتتابني أي شك في ذلك الأمر برمته؛ لقد قالت السيدة كويليب ذلك، مثلما قالت السيدة جينيون أيضًا، وأعتقد أنهما فقط من لديهما الحق في قول ذلك، وليس أي أحد آخر. لكن السيد كويليب لا يزال الشخص.. الذي لا يمكن أن يدَّعي المرء أنه شخص وسيم، أو أن يصفه بأنه شاب يافع أيضًا، وذلك نحتسبه عذرًا هينًا -إذا كانت الأعذار شافعة-، في حين أن زوجته امرأة ذات مظهر حسن وشابة يافعة، وهذا مما لا يحتمل في النهاية».

حملت تلك الجملة الأخيرة بين طياتها أمارات الرثاء، أعقبتها همهمات متتابعة من السامعات المنصات جميعهن، ومن ثمَّ استطردت لافتةً أنظارهن إلى ما تطرقت إليه السيدة في حديثها؛ وصرحت بأنه إذا كان ذلك الزوج غير عقلاني ومتعجرفًا ومحتدًا مع زوجة مثلها، حتمًا

... .

أقحمت الأم نفسها في الحديث بلا روية: «إذا كان..». وضعت فنجان الشاي، ونَفَضَتْ عن حجرها الفتات؛ استعدادًا للإدلاء بقولٍ مهيب: «إذا كان ذلك الزوج! إنه أسوأ طاغية عاش على وجه الأرض، إنها لا تستطيع أن تُصرِّح بالحقيقة إلى نفسها؛ إنه بمجرد كلمة واحدة أو حتى نظرة يزرعها مرتعدة رعبًا، ويخيفها حد الموت، وهي لا تمتلك الشجاعة، التي تمكنها من أن ترد عليه الكلمة بأخرى، لا.. ليس لديها البتة.. تفتقر إليها تمامًا.. لا ترد حتى بكلمة واحدة».

على الرغم من أن تلك الحقيقة البشعة كانت واضحة مسبقًا لكل شاربات الشاي؛ فقد تمت مناقشتها بإسهاب طوال الاثني عشر شهرًا الماضية في كل تجمع لشرب الشاي في الحي، لم يتم التطرُّق إلى الموضوع بتلك الشفافية والوضوح قبل ذلك ولو لمرة واحدة، بدأن كلهن في الخوض في الحديث، مجادلات، في شدة وبطاقة. نبَّهت السيدة جورج أن الناس جميعهم سيتحدثون، أن الناس قالوا لها ذلك مرارًا وتكرارًا من قبل، حتى السيدة سيمونز الجالسة أمامهن قد قالت لها الأمر نفسه ما يقرب من عشرين مرة حتى وقتهن ذاك، وأنها كانت تقول دائمًا: «لا! ما لم أر هذا بعيني وأسمعه بأذني، ما كانت هنريتا سيمونز

لتصدق أبداً.. أيدت السيدة سيمونز هذه الشهادة، وأضافت أدلة قوية على شهادتها. وإذ بالسيدة التي من مينوريس تسرد نهجها الناجح الذي ألزمت به زوجها في معاملتها، وأن زوجها من بعد تطبيقها لهذا النهج لمدة شهر واحد بعد الزواج، تحول من وحش كاسر إلى شخص مطيع مثالي. سردت سيدة أخرى نضالها الشخصي، وانتصارها النهائي، عن طريق نهج اتبعته، كان من الضروري لإنجاحه، إحضار والدتها وخالتها لتسكنَ معها؛ لتتجنب ليلَ نهارَ لمدة ستة أسابيع متواصلة. أما الثالثة، فقد كانت في ارتباك عام، لا نفع من ورائه لأي مستمعة أخرى، كانت قد ركزت على سيدة صغيرة غير متزوجة، تصادف وجودها فيما بينهما، وأخبرتها أنها تقدّر تلك المناسبة الجليلة لما أضفت عليها من راحة بال وسعادة؛ لأنها من بعد رؤية ضعف السيدة كويليب، وجهت أفكارها كلها، ناحية ترويض الرجال، وإخضاع نفوسهم المتمردة. صارت الضوضاء في أوجها، ارتفعت نبرات أصوات نصف الحاضرات إلى صيحات عالية؛ حاجبات أصوات النصف الآخر، بينما تغير لون السيدة جينيون فجأة، تُحرك سبابتها لهن، كما لو كانت تحثهن على الصمت الفوري. لكن الحال ظل على ما هو عليه، حتى لاحظن وجود دانيال كويليب نفسه -سبب ومناسبة ضوضائهن وصياحهن- في الغرفة، يقف ناظرًا ومستمعًا إليهن، في اهتمام بالغ.

قال دانيال: «هيا يا سيدات! هيا هيا أكملن.. ادعيهن يا سيدة كويليب واطلبي منهن أن ينتظرن حتى العشاء، ويتناولن معنا بعض الكركند والمقبلات الأخرى الشهية».

قالت زوجته في تلعثم: «أنا.. أنا.. أنا لم أدعهن لتناول الشاي، إنها.. إنها مجرد صدفة».

قال القزم وهو يفرك يديه بعنف لدرجة أنه بدا كشخص منخرط في إزالة طبقة من أوساخ عالقة على فلين بندقية: «عظيمٌ جدًّا يا سيدة كويليب.. ما الأمر يا سيداتي! لن ترحلن، لستن مغادرات بالتأكيد!».

بدا الغضب على وجوه خصومه، وبينما يبحثن من فورهن عن أغطية رؤوسهن وشالاتهن، تركن اتخاذ منهاج الشجاعة اللفظية للسيدة جينيوين، التي وجدت نفسها في مقام البطل الهمام، فقامت بدفاع خفي؛ للحفاظ على سلامة الموقف.

قالت العجوز: «نعم! لماذا لا تنتظرن حقًّا حتى العشاء، إذا لم يكن لدى ابنتي أي مانع؟».

عقب دانيال: «نعم! ولم لا؟».

قالت السيدة جينيوين: «لا ضرر ولا ضرار من العشاء.. كما آمل!».

رد دانيال: «بالتأكيد لا ضرر ولا ضرار.. ما سبب افتراض ذلك من الأساس؟ لا يوجد ما هو غير صحي في الطعام، إنها مجرد سلطة من الكرنكد أو القريدس، العسيرة على الهضم».

قالت السيدة جينيوين: «بالطبع لا تود أن تتعرض زوجتك لشيء من هذا القبيل، أو أي شيء آخر قد يُشعرها بعدم الارتياح.. أليس كذلك؟».

أجاب القزم مبتسمًا: «ليس كذلك بقدر العالم، أو حتى بقدر حماوات العالم في الوقت ذاته.. يا لها من نعمة!».

قالت العجوز بضحكة متهكمة؛ تذكره بحقيقة الوضع: «أتقصد ابنتي.. زوجتك السيدة كويليب».

قال القزم مشددًا على كلامه: «نعم بالتأكيد، بكل تأكيد».

قالت العجوز مرتجفةً، يجتاحها الغضب، ويعتربها الخوف من زوج ابنتها المتهور: «حسنًا! آمل أن يكون لديها الحق في فعل ما ترغب فيه يا سيد كويليب».

رد قائلاً: «تأملين أن يكون لديها الحق! أوه! ألا تعرفين أن لديها الحق بالفعل.. يا سيدة جينيوين؟».

- أعلم أن ذلك أمر واجب يا سيد كويليب.. وأعلم أيضًا أنها إذا اتبعت نهجي في التفكير؛ ستملك حقها كاملاً.

التفت القزم لمخاطبة زوجته وقال: «لماذا لا تتبعين نهج والدتك في التفكير؟ لماذا لا تقلدين والدتك دائمًا يا عزيزتي؟ إنها جوهرة لا مثيل لها.. ردد والدك ذلك حتمًا كل يوم في حياته.. متأكد تمامًا من أنه كان يفعل ذلك».

قالت السيدة جينيوين: «لقد كان والدها شخصًا مباركًا يا سيد كويليب، يساوي بمفرده أكثر من عشرين ألف رجل، أو لتقل أكثر من مليون عشرين ألف رجل».

أردف القزم قائلاً: «كنت أود حقًا معرفته.. أجرؤ على قول إنه كان شخصًا مباركًا حقًا، لكنني أكاد أجزم أنه مبارك أكثر الآن. وأن سعادته قد أُطلق سراحها. أعتقد أنه عانى طويلًا.. أليس كذلك؟».

شبهت العجوز كي تتلفظ بشيء ما، لكنها حبست أنفاسها، ولم تقل شيئاً، استأنف كويليب حديثه، ولاح الخبث يملأ عينيه، بينما تتقاطر السخرية اللاذعة من لسانه.

- تبدين في حالة يرثى لها يا سيدة جينيوين، تبدين مريضة.. أعلم أنك تستنفدين طاقتك أكثر من اللازم.. ربما تستنفدينها في الثرثرة، إنها نقطة ضعفك التي ترضخين لها دائماً وأبداً.. هيا! اذهبي إلى الفراش.. اذهبي إلى الفراش.

«سأذهب عندما أرغب.. ولست براغبة الآن».

قال القزم متهمكماً: «لا! أرجوك.. من فضلك اذهبي الآن».

نظرت إليه العجوز في غضب عارم، لكنها تقدمت أمامه، واعترضت طريقه؛ كي لا يغلق الباب خلفها، لكنه لكزها وأخرجها بعنف، وتخلص من حضورها أمام كافة الحاضرات اللاتي تكدسن بدورهن في الوقت ذاته على السلم للمغادرة، تاركيه مع زوجته وحديهما، وقد جلست ترتجف في ركن، شاخصة العينين، تنظر إلى الأرض، جلس ضئيل البنية أمامها، طوى ذراعيه، وحدق فيها لوقت طويل دون أن يتفوه بكلمة واحدة.

قال أخيراً: «يا سيدة كويليب!».

ردت في خنوع تام: «نعم يا سيد كويليب».

بدلاً من أن يتابع ويمضي في قول ما كان في ذهنه، طوى كويليب ذراعيه مرة أخرى، نظر إليها في صرامة أكثر من السابق، بينما كانت هي تتفادى عينيه، وتبقي ناظرها على الأرض.

- يا سيدة كويليب!

- نعم يا سيد كويليب.

- إذا حدث واستمعت لتلك العجوز الشمطاء مرة أخرى، سأعضك.

أرفق مع تهديده اللاذع زمجرة مخيفة، منحنه مظهرًا قويًا، أمرها بإزاحة طاولة الشاي، وإحضار الخمر.

وضعت قنينة خمر كبيرة أمامه، كانت في الأصل مختلصة من خزانة إحدى السفن، جلس السيد كويليب على كرسي ذي مسندين، أسند رأسه الكبير إلى ظهر الكرسي، ورفع ساقيه على الطاولة.

قال: «الآن يا سيدة كويليب، أشعر حقًا بانتشاء التدخين، ربما سأظل أدخن وأشعل التبغ في حماس متقد طوال الليل. يمكنك أن تجلسي حيثما كنت؛ ربما أحتاجك».

لم ترد عليه زوجته بأي رد سوى: «بالتأكيد، يا سيد كويليب». أخذ السيد الضئيل سيجاره الأول، وخلط كأسه الأولى. غربت الشمس، لمعت النجوم، وتحول البرج من لونه الأصلي إلى الرمادي، ومن الرمادي إلى الأسود، زحف الظلام على الحجرة كلها، حتى أُمست معتمة تمامًا، لا يومض فيها إلا لون أحمر من شعلة نهاية السيجار، مرّ الوقت ولا يزال السيد كويليب منكبًا على التدخين، ويتجرع الخمر في نفس الوقت، يحملق في فتور خارج النافذة، شاغر الفم؛ بابتسامة تشبه ابتسامة الكلب، دائمًا ما كانت تعتلي وجهه، إلا في تلك اللحظة التي تحركت فيها السيدة كويليب بحركة غير إرادية؛ جراء التعب والأرق وقلة الراحة، فقد ابتسم فرحًا.

الفصل الخامس

سواء كان السيد كويليب قد غفا في ليلته مع إغماضات عينيه القليلة، أم ظل الليل بأكمله جالسًا مفتوح العينين، كان من المؤكد أنه أبقى سجائره مشتعلة، الواحدة تلو الأخرى، يشعل التالية من رماد تلك التي انتهى من تدخينها، دون أن تظهر له أدنى حاجة لاستعمال شعلة الشمعة. لم تشكّل دقائق الساعة فارقًا؛ مرّت الساعات، ساعة عقب ساعة، دون أن يتسلل إليه أي شعور بالنعاس، ودون أن تظهر عليه أي رغبة طبيعية لأخذ قسط من الراحة، بل ازداد في إظهار يقظته أكثر فأكثر، كلما انسدل ظلام الليل، عن طريق إصراره على افتعال صوت حشرة عال من حلقة، وهز كتفيه، بدا كشخص يضحك بحرارة، لكنه في الوقت ذاته يضحك في خبث وخلسة.

على ذات وتيرة ذلك اليوم الطويل، كانت السيدة كويليب المسكينة ترتجف من برودة نسمات هواء الصباح، تقاوم شعورًا بالإعياء، ورغبةً في النوم، تنبّهت إلى أنها قضت الليل بطوله جالسة في صبر على كرسيها، ترفع عينيها إلى سيدها على فترات متقطعة، في صمت تام؛

ترجوه أن يرأف بها، وأن يشفق على حالها، تسعل في لطف، بين الحين والآخر؛ لتذكره أنها لا تزال راضخة، وأن مدة التكفير عن ذنبها أضحت طويلة. لكن زوجها القزم ظل يدخن سجائره ويشرب خمرة، دون أن يلتفت إليها، وقد ثبت الحال على ما هو عليه، ولم يتغير فيه شيء، حتى بعد أن مضى وقت على شروق الشمس، وارتفع صخب انتشار الناس في الشوارع، بينما يواصل إصراره على ألا يتفضل عليها بإصدار إيماءة لها أو توجيه كلمة لها، غير مكترث بالالتفات إلى تمييز وجودها. ربما ظل هكذا، إلى أن وقع على أذنه صوت قرع عال على الجهة الأخرى من الباب بلا هواة.

قال ناظرًا حوله في دهاء: «يا لنفسي الكريمة! إنه النهار، افتحي الباب يا عزيزتي السيدة كويليب!».

سحبت زوجته المطيعة مزلاج الباب، فدخلت السيدة والدتها. اقتحمت السيدة جينيون الغرفة مندفعةً دون تفكير، تحسب أن زوج ابنتها لا يزال نائمًا في سريره، وقد جاءت لتزيح عن صدرها مشاعرها الدفينة، معربةً عن رأيها في صرامة تجاه سلوكه العام وشخصيته. لكنها حينما رآته يرتدي الملابس نفسها، ووجدت الغرفة كما تركتها تمامًا في الليلة الماضية، توقفت لبرهة، وشعرت ببعض الحرج.

لا يخفى شيء عن عيني الصقر اللتين امتاز بهما الضئيل القبيح؛ أدرك تمامًا ما جال في خاطر العجوز، فالتفت إليها مبقياً على قبحه -لكن في درجة أعلى- تعتلي وجهه أمارات الرضى الكامل، ملقياً عليها تحية الصباح في مكر، تتملكه نشوة النصر.

قالت السيدة العجوز: «لماذا يا بيسي أنت؟! هل كنتِ.. أعرف من ذلك أنكِ كنتِ.. أنكِ كنتِ..».

قال كويليب في استطراد مستتجاً خاتمة الجملة: «مستيقظة طوال الليل؟ نعم كانت بالفعل!». .

صاحت السيدة جينيوين: «طوال الليل؟».

قال كويليب بابتسامة، كان العبوس جزءاً منها: «نعم.. طوال الليل! هل سيدتي العجوز صماء؟ مَنْ يقول إن الرجل وزوجته ليسا رفيقَي أوقات الوئام؟ ها ها ها! إن الوقت يطير حقاً».

صاحت السيدة جينيوين: «يا لها من همجية بهيمية!».

قال كويليب مسيئاً الفهم عن عمدٍ: «تعالِي. تعالِي.. لا يجب أن تنعيتها بأسماء بذينة، إنها امرأة متزوجة الآن، كما تعرفين. على الرغم من أنها قد قضت الوقت لاهيةً، وأبعدتني عن سريري، يجب ألا تخشي مطلقاً من أن أفقد حس دعابتي معها أو ألا أكون عطوفاً بها.. باركك الخالق يا سيدتي العجوز، وبارك لك في صحتك!».

قالت العجوز في نفاذ صبر أكيد بسبب كبتها لرغبتها المتقدمة في توجيه لكمة عنيفة لزوج ابنتها: «سأكون شاكراً جداً.. حقاً سأكون شاكراً جداً لك!».

قال القزم: «بكل امتنان»، ثم صاح: «يا سيدة كويليب!».

قالت الخجولة المتألّمة: «نعم يا سيد كويليب».

- ساعدي والدتك في تحضير الإفطار يا سيدة كويليب. سأذهب

إلى رصيف الميناء هذا الصباح، كلما ذهبت باكراً، كلما كان أفضل،
لذلك أسرعى.

جلست السيدة جينيون على كرسي بالقرب من الباب، طوت
ذراعيها؛ لتوحي بتصميمها الحازم على عدم القيام بأي شيء، كأنه تمردٌ
غير صريح. لكن بعد همسات قليلة، همست بها ابنتها إليها، وتلميح
لطيف من زوج ابنتها، مفاده أنها إذا كانت تشعر بالإغماء، فلديه وفرة
من المياه المثلجة في الشقة المجاورة، تلقت تلك الإشارات باستيعاب،
فقامت من فورها لتحضير ما أوصى به في اجتهاد كئيب.

بينما انهمكتا في فعلهما، انتقل السيد كويلب إلى الغرفة المجاورة؛
أعاد هندمة ياقة معطفه، ومسح وجهه بمنشفة رطبة متسخة شكلها
مقرز، جعلت وجهه أكثر قبحاً من ذي قبل. على الرغم من انشغاله، كان
متيقظاً، لم يتخلَّ عن حذره واتخاذ حيطته، كانت ملامح وجهه حادةً
ماكرةً، مثلما اعتادت أن تكون دائماً، خلال ذلك الوقت القصير، توقف
ليستمع إلى أي محادثة قد تدور في الغرفة المجاورة، وربما تتضمن
اسمه.

قال بعد بذل جهد في التنصت: «آه! ألم تكن المنشفة على أذني
طوال ذلك الوقت، أعتقد أنها لم تكن. يا لي من شرير ذي حدس
خبيث! هل أنا السيدة جينيون لأفعل ذلك؟ أوه!».

استدعت سعادة ما توصل إليه للتو ابتسامته القديمة الشبيهة بابتسامة
الكلب في كامل تألقها، عندما فرغ من تبسمه، هز نفسه في سلوك يشبه
سلوك الكلاب، ثم عاد مرة أخرى لينضم إلى السيدتين.

سار السيد كويليب إلى موضع المرأة، ووقف ليهندم هيئة وشاحه، بينما كانت السيدة جينيون تقف وراءه، تقاوم رغبتها في تسديد قبضتها إلى زوج ابنتها الطاعي. كانت لفظة لحظية، رmqته حينها بنظرة تحمل معاني التهديد، لكنَّ عينيها التقتا بعينه في المرأة، ولمحها في أوج فعلها. نقلت النظرة نفسها انعكاسًا لملامح وجهه المخيفة المشوّهة، ولسانه المتدلى خارج فمه، لكن نظرة القزم في اللحظة التالية تحوّلت تمامًا، إلى نظرة هادئة يغمرها اللطف، وتحدث في نبرة تنم عن مودة عظيمة.

- كيف حالك الآن، يا عزيزتي العجوز الودودة؟

كم كان حادثًا سخيّفًا لم يتعدَّ اللحظات! بدا خلاله كشيطان صغير، مألوف حاد الطباع، وبدت السيدة العجوز خائفة جدًّا، تهاب أن تنطق بكلمة واحدة، لكنها سرعان ما استجمعت شتات نفسها وانشغلت بانهماك في استكمال تحضيرها لمائدة الإفطار في أدب غير معتاد. من جانبه، قلل من حدة الطبع الذي تصرّف به من فوره، دون أي تفسير، وأخذ يلتهم البيض بقشره التهائمًا، افترس قريدسة ضخمة آتياً عليها تمامًا، آكلًا رأسها وذيلها، مضغ تبغًا وبقلة، كل ذلك في آنٍ واحد، وفي نههم عارم، شرب الشاي بينما كان لا يزال يغلي دون أن يطرف له رمش، قضم معلقته وشوكته حتى انحنيا، لم يقتصر الأمر على ذلك، بل قام بتصرفات عديدة مرعبة غير مستأنسة، جعل السيدتين ترتعدان من الخوف، لدرجة أن شكوگا ساورتهما حول ما إذا كان مخلوقًا بشريًا من الأساس. في النهاية، بعد أن عايشتا تلك السلوكيات المرعبة، بل

عاشتا سلوكيات أكثر وعلى القدر نفسه من الغرابة، تركهما السيد كويليب، بعد أن عاد إلى حالته الطيّعة المهدبة؛ وذهب إلى ضفة النهر، وأخذ قاربًا إلى رصيف الميناء، وقد دُوّن عليه اسمه.

كان المد قد ارتفع، حينما عبر دانيال كويليب إلى الجهة الأخرى من الشاطئ. لاح له أسطول من الصنادل قادمًا في تونان، تتصدر بعض الصنادل مقدمته، وتتراقص بعضها في نهايته، وتتقدم بعضها جانبياً، وتُبحر جميعها في الاتجاه الخاطئ، مُضللة، عالقة في أماكنها، تصطدم بمركب كبير تارة، وتنحدر أسفل مقدمة البواخر تارة أخرى، تتخبط في كل ركن وزاوية محتملة، منبعجة من كل اتجاه كقشرة الجوز، بينما كان مجدافا كل واحدة على حدة يتخبط في الماء في صراع، بدت جميعها كما لو كانت أسماكًا تتقاذف في عناء خارج مياهها. عند المرفأ، رست مراكب انشغلت جميع أيادي مَنْ كانوا على متنها في همة ونشاط؛ تلف العبال، تنشر الأشرعة؛ كي تجف، تحمل وتفرغ الشحنات، ومراكب أخرى، افتقرت إلى وجود أي حياة مرئية عليها، فيما عدا صبيين أو ثلاثة صبية على متنها، وربما كان هناك صوت نباح كلب يركض على ظهرها، يندفع من بين جانبيها، ينظر نابحًا نابحًا عاليًا لما يراه. تتقدم سفن بخارية في بطء عبر غابات من السواري، تشق المياه في رطمات متدافعة، تسببها مجاديفها الثقيلة، كما لو كانت تريد شق سبيلا للتنفس، متقدمة في جسارة كوحش البحر بين أسماك (المنوة) في نهر (التمز). على الناحية الأخرى، كان هناك صف طويل من ناقلات الفحم، يتخلله عدد من زوارق، تتحرك في انسيابية بطيئة في الميناء بواسطة أشعة

تتلاً أسفل أشعة الشمس، ويرتفع الهزيز من بين المئات من سواربها. كانت المياه وكل ما عليها في حركة نشطة، مثل مشهد حي، ترقص فيه الأشياء وتنساب، وتطفو على سطحها، بينما لاح البرج الرمادي القديم وما حوله من أطلال بنايات على الشاطئ، ومناارة الكنيسة البازغة بينهما، هادئة في سكبنة، منتصبه تستهجن فعل جارها المضطرب.

أما دانال كويلب، فلم يتأثر بضوء النهار الساطع؛ جاء حاملاً مظله، التي حجبته عنه الضوء، لكنها لم تحجب عنه العراقيل الناجمة عن حملها، فقد أطاحت به من على رصيف الميناء في عنف، وعبر ممراً ضيقاً، غمره الطين والماء بغزارة لكن بنسبة متساوية من كليهما على حد سواء، توغل فيهما مشاركاً البرمائيين طبيعتهم. وصل دانال كويلب إلى وجهته، كان أول ما فرض نفسه على ناظره، باطن قدمين متسختين عالقتين في الهواء، أوضح مقاسهما أنهما قدما صبي، يتمتع بروح غريبة الأطوار، ذي فطرة بهلوانية؛ يقف على رأسه، متأملاً شكل النهر، من المنظور غير المألوف الذي ابتدعه لنفسه. عند سماعه لصوت سيده، انتفض من فوره، عادت رأسه إلى موضعها الطبيعي، لكن السيد كويلب دائماً ما يرجع التحدث بالأفعال حين تغيب الكلمات - فسدد له (لكمة) مبرحة.

قال الصبي وهو يحاول تفادي قبضته بمرقبه بدلاً من أن يتلقى اللكمة: «اتركني.. دعني وشأني.. ستال رد فعل لن تستحسنه جراء فعلك هذا، سيحدث ما أقوله لك تماماً».

زمجر كويلب من بين أنبائه: «أيها الكلب.. سأضربك بقضيب

حديدي، وأُشْرَحْ جسدك بمسمار صديء، سأنزِع لك عينيك، إن تحدثت معي هكذا.. سأفعل ذلك كله وعن عمد».

بعد كل تلك التهديدات، شدد على قبضة يده مرة أُخرى، وغطس في براءة ما بين مرفقي الصبي، وأمسك برأسه، وعلى الرغم من أن الصبي كان يتفادى مسكته، تمكَّن من تسديد ثلاث أو أربع ضربات قاسية له. أعاد كويليب ما كان قد طرحه من تهديدات مرة أُخرى، ومن ثمَّ رحل عنه أخيرًا.

قال الصبي منكسًا رأسه، وهو يتراجع إلى الوراء، رافعًا مرفقيه لحماية في حالة إن حدث ما هو أسوأ مما كان: «كل تهديداتك واهية؛ لا تستطيع أن تفعل بي شيئًا ثانيَّةً، الآن..».

قال كويليب: «قف مكانك أيها الكلب، وسأكرر نفس فعلي مرات ومرات؛ فدائمًا أفعل ما أريد.. خذ هذا المفتاح.. هيا!».

قال الصبي وهو يقترب منه في بطء شديد: «لماذا لا تعارك مَنْ هو في مثل حجمك؟».

قال كويليب: «وأين الذي يماثلني حجمًا، أيها الكلب؟ خذ المفتاح وإلا دققت رأسك به..» في الواقع لقد وخزه بالفعل بمقبض، بينما كان يقول جملته: «.. هيا افتح بيت الحوسبة الآن».

امتلأ الصبي في سذاجة، مغمغمًا في البداية، ثم كف عن ذلك فيما بعد؛ عندما نظر حوله، ولاحظ تتبع السيد كويليب له بنظرة ثابتة. بالوصول إلى هنا، علينا أن نقول إن هناك علاقة إعجاب متبادل غريبة

تجمع بين الصبي والقرم. لا نعلم كيف نشأت تلك العلاقة أو كيف تستمر، كيف وطدها تسديد الضربات وإلقاء التهديدات من طرف، والمواجهة وتحديات القول من الطرف الآخر، لكن ما كان بيننا أنها لم تكن من أجل أي غرض أو مهمة. لم يكن كويليب بالتأكيد يقبل بأن يخاطبه أحد على هذا النحو سوى الصبي، ولم يكن الصبي بالتأكيد يمثل لتحكمات أحد هكذا سوى كويليب، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الصبي لديه القدرة والفرصة السانحة دائماً كي يهرب في أي وقت يريده.

قال كويليب بينما يتقدم إلى داخل بيت الحوسبة الخشبي: «الآن.. ستراقب رصيف الميناء، قف على رأسك ثانية، وسوف أقطع إحدى قدميك».

لم يتفوه الصبي بأي رد، وحينما سكت كويليب، وقف الصبي مباشرة على رأسه أمام الباب، ثم سار على يديه إلى الخلف، ثم إلى الجانب الآخر، تمادى في عرضه، يؤدي حركاته البهلوانية مراراً وتكراراً. كان لدى بيت الحوسبة أربعة جوانب بكل تأكيد، لكنه دائماً ما كان يتجنب ذلك الجانب الذي تطل عليه النافذة؛ يتخذ في حسبانته احتمالية نظر السيد كويليب منه إلى الخارج. كان هذا حكيماً من جانبه في الحقيقة، لكن القرم كان على علم بمكره، حيث رقد على مقربة من إطار النافذة، متسلحاً بقطعة خشبية كبيرة خشنة، تبرز منها العديد من المسامير المكسورة، التي من المرجح أنها قد جرحته في السابق.

كان بيت الحوسبة أشبه بصندوق صغير قدر، لا يوجد فيه سوى

مكتب متهالك ومقعدين، وقبعة، وتقويم قديم لسنوات عدة مضت، ومحبرة فارغة من الحبر، وأنبوبة قلم، وساعة بعداد أسبوعي، لم تُضبط ربما على مدار الثمانين سنة الأخيرة على الأقل، تحول عقرب الدقائق إلى خِلَّة أسنان. سحب دانيال كويليب قبعته إلى ما فوق حاجبيه، تسلق إلى المكتب -حيث كانت عليته مسطحة-، مدد قامته القصيرة؛ لينام في سكينة صاحب العمل، دون أي ارتياب أو شكوك، يعوض نفسه عن حرمانه من النوم في ليلته السابقة بغفوة طويلة وعميقة.

بدا الأمر في البداية على هذه الصورة، لكن الغفوة لم تكن طويلة على الإطلاق؛ لم يهنأ حتى بالنوم لربع الساعة؛ فتح الصبي الباب، وتوجه نحو رأسه، دافعاً بربطة حبال ممزقة إليه، كان كويليب سريع الاستيقاظ، فنهض من فوره.

قال الصبي: «هناك إحداهن، وتريد رؤيتك».

- مَنْ؟

- لا أعرف!

قال كويليب بينما التقط لوحًا خشبيًا، ألقاه نحو الصبي في براعة: «اسألها!». لكن الصبي تفاداه واختفى في لمح البصر قبل أن يصل اللوح إلى الموضع الذي كان فيه، فصاح القزم: «اسألها يا كلب!».

من دون أن يأخذ حيطته مرة أخرى مما غامر لتفاديه، أرسل الصبي في هدوء من كانت سبباً في مقاطعة سيده عن استكمال غفوته، فأطلَّت بعينها عند مدخل الباب.

صاح كويليب: «ماذا! نيلى!».

قالت الطفلة: «نعم»، كانت مترددة، لا تعلم إذا كان عليها أن تتقدم إلى الداخل أم تتراجع إلى الوراء؛ بعد أن تأملت في دهشة القزم بعد أن نظر إليها، ورأت وضعه ووشاحه الأصفر على رأسه، مغطياً شعره الأشعث بأكمله، فقد كان منظره منفرًا، لكنها استطردت مجيبةً: «نعم! إنه أنا يا سيدي».

قال كويليب، دون أن ينزل من على سطح المكتب: «تقدمي.. تقدمي! لكنني أريدك أن تنظري إلى الفناء الخارجي؛ وأخبريني ما إذا كان الصبي واقفًا على رأسه».

ردت نيل: «لا يا سيدي! إنه واقف على قدميه».

قال كويليب: «هل أنت متأكدة أنه كذلك فعلاً؟ حسنًا! على أي حال، ادخلي، وأغلقي الباب، وقولي لي ما الرسالة التي بعثتي من أجلها يا نيلى؟».

سلمته الطفلة جوابًا، أخذه السيد كويليب دون أن يتحرك من موضعه، مال قليلًا على جانبه فقط، أسند ذقنه على يده، شرع في فض السر الذي يحتويه الخطاب.



الفصل السادس

وقفت نيل الصغيرة في هدوء، شاخصة العينين نحو وجه السيد كويليب، بينما كان يقرأ الخطاب، كشفت نظراتها عن شعورها بالخوف؛ لعدم ثقتها في ذاك الرجل قصير القامة، لكنها في الوقت ذاته، كانت أكثر ميلًا إلى الضحك من مظهره الأخرق وسلوكه المريب. على الرغم من ذلك، ساور الطفلة قلق يبين حيال رده المنتظر على الخطاب؛ فإنَّ سلطته النافذة وحدها القادرة على رفض الطلب وجعل الأمر برمته محزنًا، وذلك ما سيكون مغايرًا لآمالها تمامًا، ومتعارضًا مع مرادها، وقد احتاج إخفاؤها لحقيقة مشاعرها جهودًا فاقت قدراتها.

ساعتها صار السيد كويليب نفسه في حيرة غير بسيطة، بل كان في حيرة بالغة، بدت عليه تمامًا؛ بسبب ما كان يحتوي عليه الخطاب. قبل أن ينتهي حتى من قراءة سطرين أو ثلاثة أسطر، ازدادت عيناه اتساعًا وعبوسًا بشكل مرعب للغاية، وعندما استكمل قراءة سطرين أو ثلاثة أسطر أخرى، أخذ يحك رأسه في وحشية غريبة، وحينما وصل إلى خاتمة الخطاب، أصدر صفيًا طويلًا قابضًا للصدر، دلَّ على فاجعة مفزعة.

طوى الخطاب ووضع به بجانبه، قضم أظافر أصابعه العشر جميعها في شراهة، ثم انتشله مرة أخرى في حدة؛ وعاد قراءته ثانية في تركيز شديد. بدت قراءته الثانية غير مرضية تمامًا كقراءته الأولى بالضبط؛ أوقعته في ارتباك شديد، استفاق منه بينما هو مستمر في قضم أظافره، يحملق بنظرة طويلة إلى الطفلة، التي نظرت إليه من فورها، انتظارًا لرد سيادته.

صاح طويلاً بصرخة مفاجئة، جعلت الطفلة تنتفض كما لو أن بندقية أطلقت بجانب أذنها: «هااا! يا نيلي!».

- نعم يا سيدي!

- هل تعلمين ما يتضمنه الخطاب يا نيل؟

- لا يا سيدي!

- هل أنت متأكدة؟ متأكدة تمامًا؟ متأكدة تمام التأكد؟ متأكدة بصدق قلبك وبراءته؟

- متأكدة تمام التأكد يا سيدي!

قال القزم: «هل تعلمين أنك إذا عرفت فحواه، كنت ستتمنين الموت من فوركِ؟».

ردت الطفلة: «في الواقع لا أعرف».

تمتم كويليب بينما يرمقها بنظرة جادة: «حسنًا! أصدقك.. هووف! انتهى الأمر بالفعل؟ هل انتهى بالفعل في غضون الأربع وعشرين ساعة الماضية! أي ذنب اقترفه ذلك الشيطان؟ هذا هو لب اللغز الغامض!».

انتهى به ذلك التفكير إلى حك رأسه وقضم أظافره مرة أخرى.
بينما كان يُحاول رسم بسمه مبهجة لتهيئة ملامحه للتراخي -على الرغم من أنه إذا رُسمت تلك البسمه على وجه رجل آخر، لبدت بسمه تجتر آلام الناظرين - نظرت الطفلة إلى الأعلى نحوه، فوجئت به لا يزال ينظر إليها، في رضى وارتياح غير مألوف.

- تبدين جميلة اليوم يا نيلي، جميلة حقًا.. هل تشعرين بالتعب يا نيلي؟

- لا يا سيدي! أنا فقط في عجلة من أمري؛ لأنه حتمًا سيكون قلقًا عليّ عند عودتي.

قال كويليب: «لا داعي للعجلة يا صغيرتي نيل، لا داعي للعجلة على الإطلاق.. ما رأيك في أن تكوني رقم اثنين يا نيلي؟».

- أكون ماذا يا سيدي؟

قال القزم: «تكونين زوجتي رقم اثنين يا نيلي، تكونين السيدة كويليب الثانية».

ارتعدت الطفلة في مكانها، رغم أنها بدت غير مستوعبة لما يلوح إليه السيد كويليب، الذي سارع إلى جعل ما يرمي إليه حديثه أكثر وضوحًا.

قال كويليب: «أن تكوني السيدة كويليب الثانية، حينما تموت السيدة كويليب الأولى يا جميلتي نيل».

غمز بعينه، مشيرًا نحوها بسببائه المقوسة: «أن تكوني زوجتي،

يا زوجتي الجميلة يا صاحبة الخدود الكرز، والشفاه الحمر، لنفترض أن السيدة كويليب ستعيش قرابة الخمس سنوات، أو لنجعلها أربع سنوات، حينها سيكون عُمرُكِ مناسبًا لي تمامًا. ها ها ها! كوني فتاة مطيعة يا نيلي، كوني فتاة مطيعة، وانظري كيف سيكون عليه الأمر في يوم ما في تلك الأيام، إذا لم تصبِحي السيدة كويليب التي تقطن تاور هيل».

انكمشت الطفلة على نفسها في خوف شديد، وانتفضت في رعب عارم، كانت مشاعرها بعيدة كل البعد عن أن تكون محفزة أو متجاوبة مع طموحاته، التي بدت مبهجةً بالنسبة له. أما السيد كويليب فظاهر بعدم انتباهه لردة فعلها، وما برح يقهقه ضاحكًا، لم يكن هناك سبب محدد يبرر ضحكته، هل هي السعادة التي تضيفها عليه إثارة مخاوف الآخرين، أم هل كان تفكيره في وفاة السيدة كويليب الأولى، وتخيل تلك التي ستحصل على لقب ومكانة السيدة كويليب الثانية، أم كان ضحكًا تلقائيًا بسبب مزاجه الجيد، واستحسانه لحسه الفكاهي في ذلك الوقت.

قال القزم: «يجب أن تأتي معي إلى تاور هيل، وتقابلين السيدة كويليب بنفسك مباشرة.. إنها مولعة بك حقًا يا نيل، لكنها لا تضاهيني مثيلاً، يجب أن تأتي معي إلى المنزل».

قالت الطفلة: «يجب عليّ أن أرحل في الواقع؛ لقد أوصاني أن أعود مباشرة فور حصولي على الرد».

رد القزم: «لكنكِ لم تحصلي عليه بعد يا نيلي، ولن تحصلي عليه،

ولا يمكنكِ الحصول عليه، إلا إذا عدتُ إلى المنزل، لذلك إن أردتِ إتمام مهمتكِ التي أرسلتني بشأنها، فيجب أن تأتي معي إلى المنزل. هيا! أحضري لي قبعتي يا عزيزتي، وسنرحل مباشرةً». بمجرد أن أتم السيد كويليب جملته، انهمك في تكبد مشقة إنزال نفسه تدريجيًا عن سطح المكتب، حتى لمست ساقاه القصيرتان الأرض، ثبت عليهما واقفًا، ومن ثم قاداه إلى خارج بيت الحوسبة نحو رصيف الميناء، فكان أول شيء فرض نفسه على ناظره، هو الصبي الذي كان يقف على رأسه مع شاب صغير له البنية نفسها، يتمرغان في الوحل معًا، يلتفان حول بعضهما، يكبلان أيدي بعضهما في حماس متقد.

صاحت نيل قابضةً على يديها: «إنه كيت! كيت المسكين! لقد أتى معي، أوه! من فضلك أوقفهما يا سيد كويليب!».

قال كويليب: «سأوقفهما حالًا». غاص السيد كويليب في بيت الحوسبة، عاد ممسكًا بعصا ضخمة وهو يقول: «سأوقفهما حالًا.. هيا تعاركا في مكان آخر، وإلا سأنقضُّ عليكما معًا.. أو سأخذكما، كليكما معًا، كليكما معًا!».

بينما كان القزم يملئ تهديداته، أخذ يلوح في ضراوة بعصاه، يحوم حول المتعاركين، يطاءً بقدميه عليهما ويقفز فوق واحد منهما، ثم يقفز فوق الآخر، في حالة من سعار مجنون، وفي سلوك متهور، ينهمر عليهما بالضربات مستهدفًا رأسيهما في وحشية ضارية لا مثيل لها - كأن فعله عاديٌ -.

قال كويليب مقتربًا منهما لتسديد ضربة لتفريقهما: «سأنقض

عليكما وأساويكما بالأرض.. سأنهال عليكما بالضرب المبرح حتى تتحولان إلى اللون النحاسي، سأكسر عظام وجيهكما، حتى لا تظهر لكما ملامح، ولا تستطيعا التفريق بين وجيهكما.. سأفعل ذلك إن لم تكفا في التو واللحظة».

قال الصبي وهو يراوغ العصا، متفادياً الضربات، ويتربص فرصة للانقضاض عليه: «ألق عصاك، وتعال إلينا، وسوف يطالك سوءٌ لن تستحسنه.. ألق عصاك فقط».

قال كويليب ناظرًا بأعين براقة: «اقترب قليلاً، وسألقي عصاي على جمجمتك يا كلب، اقترب قليلاً.. اقترب قليلاً بعد».

رفض الصبي بالطبع دعوة سيده، لكنه انتظر حتى بدا على سيده فقدان القليل من هيمنته، وإذا به يندفع نحوه؛ محاولاً خطف وانتزاع سلاحه من قبضته، كان كويليب قويًا كالأسد، بقي قابضاً على عصاه في سهولة، جاعلاً الصبي يبذل قصارى جهده في سحبها منه، لكنه تركها له فجأة، فاندفع الصبي من فوره مرتمياً إلى الوراء، وسقط على رأسه سقوطاً عنيفاً موجعاً. النجاح الذي حققته المناورة، كان بمثابة دغدغة للسيد كويليب إلى أبعد وصف، جعلته يضحك، ويدبذب على الأرض في مرح لا يقاوم.

قال الصبي، وهو يحرك رأسه ويحركه بيده في الوقت نفسه: «حسنًا لا يهم! لن تراني مرة أخرى أضرب أي شخص، يقول إنك قزم أكثر قبلاً من كل الأفرام التي يمكن رؤيتها في أي مكان مقابل بنس واحد، هذا كل شيء».

قال كويليب: «هل تقصد أن تقول إنني لست كذلك أيها الكلب؟».

رد الصبي: «لا أقصد!».

قال كويليب: «إذن لماذا كنت تتشاجر معه على الرصيف أيها الوغد؟».

أجاب الصبي مشيرًا إلى كيت: «لأنه قال ذلك، ليس لأنك لست كذلك».

جمع كيت: «إذن لماذا قال إن الأنسة نيلي قبيحة، وإنها وسيدي مجبران على طاعة وفعل ما يحلو لسيدة؟ لماذا؟ لماذا قال ذلك؟».

قال كويليب في رقة حانية، رغم الخبث المتكشف على عينيه وفمه: «لقد قال ما قال؛ لأنه أحقق.. وأنت قلت ما قلت؛ لأنك حكيم وذكي للغاية.. أو ربما ماهر جدًا، ما لم تكن حريصًا جدًا على نفسك أيضًا يا كيت.. إليك بستة بنسات يا كيت؛ قل دائمًا الحقيقة، في أي وقت وكل وقت.. أغلق بيت الحوسبة أيها الكلب، وأحضر لي المفتاح».

قام الفتى الآخر الذي وجه له الأمر، بما طُلب منه تحديدًا، وكجزءًا حسن لتلبية أمر سيدة، رطمه كويليب بالمفتاح على أنفه، رطمة جلبت الدمع إلى عينيه.

غادر السيد كويليب مع كيت والطفلة معتلين سطح المركب، فارقهما الصبي، وأخذ يتراقص واقفًا على رأسه، بالقرب من حافة رصيف الميناء، طوال مدة عبورهم للنهر، كأنه يأخذ بالثأر لنفسه ويغيظ سيدة.

لم يكن هناك سوى السيدة كويليب في المنزل، تهىء نفسها للقليلة، على الرغم من شعور أخذ يخالجها في قرارة نفسها بشأن عودة سيدها. في ذلك الحين سمعت صوت خطواته، فانتفضت من فورها. بالكاد امتلكت من الوقت ما استطاعت من خلاله أن تنهض؛ تبدو منشغلة في أعمال الحياكة، دخل عليها برفقة الطفلة، تاركاً كيت في الطابق السفلي.

قال زوج السيدة كويليب: «إنها نيلي ترينت يا عزيزتي.. أحضري إليّ كأساً من النبيذ، وأحضري إليها البسكويت؛ لقد قطعت مسافة طويلة، سوف تجلس معكِ يا روعي، بينما أكتب خطاباً».

نظرت السيدة كويليب إلى وجه زوجها في حيرة واندهاش، تحاول معرفة سبب ملاطفته لها على غير المألوف، ثمّ امتثلت لما حثها عليه بإشارة مستترة، وتبعته إلى الغرفة المجاورة.

همس كويليب: «انتبهني لما أقوله لك.. اذهبي إليها واعرفي كل ما يمكنك استخلاصه منها، حول جدها، أو ماذا يعملان، أو كيف يعيشان، أو ما الذي يوصيها به. إن لديّ أسبابي لمعرفة هذا كله، وأستطيع معرفته في يسر. لكن أتنن يا سيدات تتحدثن إلى بعضكن بارتياح مفرط وبعفوية شديدة وتسترسلن في الحديث أكثر مما تفعلن معنا، وأنتِ لديكِ طريقة سلسلة لينة لجذب أطراف الحديث والانتصار عليها ومعرفة كوامنها.. هل تسمعينني؟».

- نعم يا كويليب.

- حسنًا! اذهبي الآن.. ما الأمر؟

قالت زوجته متلعثمة: «عزيزي كويليب.. إنني أحب تلك الطفلة.. فقط.. إن استطعت أن تفعل ما أملكه عليّ، من دون أن تجعلني أخدعها...».

أخذ القزم يدمدم بأيمانٍ مرعبة، ملتفتًا حوله، باحثًا عن شيء يتسلح به؛ لينزل به عقابًا جسيمًا على زوجته العاصية. سارعت المرأة الشابة من توها؛ تتوسل إليه في خضوع وخنوع وتذلل ألا يغضب، وتعهده بالقيام بما أملاه عليها.

همس كويليب ضاغطًا محكمًا قبضته على ذراعها: «هل تسمعينني، أحيطي نفسك علمًا بأسرارها جميعها، أعلم أنك تستطيعين القيام بذلك، سوف أستمع إلى حديثكما، وأذكره. إن لم تكوني حاسمة بما يكفي، سأجعل الباب يصدر صريرًا، ولا أعلم أي مصيبة ستحل بك، إن اضطررتُ إلى جعله يصدر صريرًا كثيرًا.. هيا اذهبي!».

غادرت السيدة كويليب ممثلة لأوامره، وتوارى زوجها الودود خلف الباب المفتوح وواربه، ووضع أذنه بالقرب منه؛ ليتحرى السمع في انتباه، تظهر على وجهه أمارات المكر.

بدأت السيدة كويليب المسكينة، تفكر في الطريقة التي يمكن أن تستهل بها الحديث، وفي التساؤلات التي ستطرحها عليها، كان كل هذا يعمل داخل رأسها، حتى سمعت صريرًا قويًا صادرًا عن الباب، ينبهها إلى أن صوت حديثها ليس مسموعًا، ويحذرهما من العواقب التي

ستصيها إذا تصرف بناءً على ميولها الشخصية.

- يا لها من مرات كثيرة تتردين فيها على زيارة السيد كويليب مؤخرًا؟

قالت نيل في براءة: «لقد نبهت جدي إلى ذلك مئات المرات».

- وماذا قال لك حينذاك؟

- يتنهد فقط، ينكس رأسه، ويبدو حزينًا بئسًا، لدرجة أنك لو أمكنك رؤيته، أكاد أجزم أنك ستبكين على الفور، أعلم أنك لا تستطيعين تقديم يد العون إليه مثلي.. كيف يصدر الباب هذا الصرير المزعج!

قالت السيدة كويليب وهي ترمق الباب بنظرة مضطربة: «دائمًا ما يصدر صريرًا كذلك.. لكن جدك.. هل اعتاد أن يكون بئسًا فعلًا إلى هذا الحد؟».

قالت الطفلة في اندفاع: «أوه! لا لم يكن! لقد كان مختلفًا تمام الاختلاف! لقد كنا سعداء، وكان مرحًا واجتماعيًا! لا يمكنك معرفة أي حزن ألم به، ووقع علينا منذ ذلك الحين».

قالت السيدة كويليب - التي كانت تتحدث من تلقاء نفسها وبدافع مشاعرها الحقيقية فعلاً -: «أنا حقًا آسفة جدًا جدًا حيال ما أسمعه يا عزيزتي!».

قبلت الطفلة خدها وقالت: «أشكرك جدًا! لطالما كنت عطوفة معي، يسعدني دائمًا التحدث إليك، لا أستطيع التحدث مع أي أحد آخر عنه سوى مع عزيزي كيت. لا تزال السعادة تتابني أحيانًا، أعلم أنه

يجب عليّ أن أكون أسعد مما أشعر به، لكنك لا تستطيعين تصور كيف يحزنني، أن أرى حاله وقد تبدل إلى ذلك الحال».

قالت السيدة كويليب: «سوف يتبدل حاله مرة أخرى يا نيلي، أو ربما سوف يعود إلى حاله الذي كان عليه من قبل».

قالت الطفلة وقد ترقق في عينيها الدمع: «أوه! لو أن الخالق لم يدع ذلك يحدث! لكنها فترة طويلة قد مضت الآن، منذ أن.. أعتقد أنني رأيت هذا الباب يتحرك للتو!».

قالت السيدة كويليب في نبرة واهنة: «إنها الرياح! منذ أن..».

قالت الطفلة: «منذ أن صار مشغول الفكر ومكتئبًا، ونسي طرقنا القديمة لقضاء الأمسيات الطويلة.. أتعلمين! لقد اعتدت أن أجلس بالقرب من المدفأة، أقرأ له، وهو يجلس إلى جوارى، يستمع إليّ في إنصات، وعندما أتوقف عن القراءة، يبدأ في الحديث معي، يخبرني عن أمي، كيف كانت تبدو، كيف كانت تتحدث مثلما أتحدث تمامًا عندما كانت طفلة. اعتاد أن يجلسني على ركبتيه، ينهني إلى أنها ليست راقدة في قبرها، بل هي في الأعلى منعمة في بلد خلاصة وراء السماء، حيث لا يموت أي شيء، أو يتقدم بها العمر.. حينها كنا سعداء فعلاً!».

قالت السيدة المسكينة: «نيلي! نيلي! لا يمكنني تحمل رؤية فتاة صغيرة مثلك تصارع ذلك الكم من الحزن.. حبًا في الخالق كُفّي عن البكاء».

قالت نيل: «نادرًا ما أبكي، لقد كتمت البكاء لفترة طويلة للغاية،

أشعر أنني لست على ما يرام، لقد ترقق الدمع من عيني؛ لا أستطيع منعه أكثر من ذلك. لا أمانع إن أظهرت حزني أمامك؛ فأنا متأكدة تمامًا أنك لن تخبري أي أحد آخر».

أدارت السيدة كويليب رأسها بعيدًا، ولم تحر جوابًا.

أكملت الطفلة: «كنا بعد ذلك نسير عبر الحقول، بين الأشجار، وحينما نعود إلى البيت ليلاً متعبين، نردد كم كان مكانًا جميلًا! لطالما أحببنا هذا الشعور. إن كان البيت مظلمًا أو حتى رتيبًا، اعتدنا أن نذكر مكانته في قلوبنا، وما الذي يعنيه لنا، نستحسنه؛ متذكرين نزهتنا الأخيرة، متطلعين إلى نزهتنا التالية. لكننا الآن لا نحظى على الإطلاق بأي من تلك النزهات، أما عن البيت، فلا يزال مظلمًا ورتيبًا، لكنه صار مقفرًا وأكثر قتامة، مما كان عليه في الواقع!».

توقفت عن الحديث؛ ظنًا منها أن الباب قد تحرك أكثر من مرة، لكن السيدة كويليب لم تقل شيئًا.

قالت الطفلة في جدية: «أتظنين أن جدي أصبح أقل رفقا بي وعطفًا عليّ من ذي قبل! لكنني أعتقد أنه يحبني أكثر مع مرور الأيام، أعتقد أنه أكثر لطفًا وحنانًا من أي يوم سابق. لا تعرفين كم هو مولع بي!».

قالت السيدة كويليب: «أعلم أنه يحبك كثيرًا يا عزيزتي».

صاحت نيل: «إنه يحبني فعلاً، يحبني كثيرًا.. يحبني كما أحبه تمامًا، لكنني لم أخبرك بعد سبب ذلك التغير الكلي، عليك ألا تخبري أي أحد بأي كلمة مما سأقول قط. إنه لا ينام أبدًا ولا يرتاح، سوى في تلك المرات القصيرة التي يجلس فيها على كرسيه، فيما عدا ذلك يكون

بالخارج، بعيداً عن البيت، كل ليلة، وطوال الليل».

- نيلي!

قالت الطفلة، حيث وضعت إصبعها على شفاه السيدة، ونظرت فيما حولها: «هوش! أتعلمين! عندما يأتي في الصباح الباكر، قبل شروق الشمس مباشرة، أدعه يدخل. لكنه في الليلة الماضية جاء متأخراً جداً، كادت الشمس تكون قد أشرقت. كان وجهه شاحباً كوجه جثة ميتة، كانت عيناه تتلونان بلون الدماء، كان يمشي أمامي وساقاه ترتعدان. حينما عدت إلى سريري، سمعته يئن أنيناً موجعاً، نهضت من فوري، وركضت إليه بسرعة، سمعته يقول قبل أن يدرك وجودي، أنه لا يستطيع تحمل حياته أكثر من ذلك، وأن حياته إذا لم تكن من أجل الطفلة، كان ليرضى أن يموت! ماذا أفعل؟ لا أعلم ماذا عليّ أن أفعل!».

انهمرت دموع الطفلة، وانفتحت مجاريها، لم تتحمل ثقل الحزن والاضطراب أكثر من ذلك؛ أظهرت ثقة، كانت أول مرة تُظهرها على الإطلاق، شعرت بعاطفة غامرة من السيدة كويليب، جراء حكيها لقصتها المأساوية القصيرة، أخفت وجهها بين أضلع صديقتها عاجزة الحيلة، سالت دموعها في انهيار.

عاد السيد كويليب في غضون دقائق قليلة، أبدى دهشة عارمة، حيال ما رآه، وحيال الحالة التي وجدها عليها، بدت ردة فعله غير مصطنعة ذات تأثير مقنع، بدا طبيعياً هادئاً؛ كان تصرفه مألوفاً بالنسبة له؛ لطالما تمرس عليه على مدار فترة طويلة.

قال القزم، وهو ينظر بطرف عينيه إلى زوجته في دهاء شنيع؛ يلمح

لها كي تواصل اتباعها لخطاه: «أعتقد أنها متعبة يا سيدة كويليب.. قلت لك أنها قطعت مسافة طويلة سائرةً من منزلها إلى رصيف الميناء، فضلًا عن أن المسكينة شعرت بالخوف الشديد؛ بسبب رؤيتها اثنين من الأوغاد الصغار يتعاركان، إلى جانب أنها تعرضت لرهبة شديدة من ماء النهر.. إن ما حدث حقًا كثير للغاية كي تقدر طفلة مثلها على تحمله.. أوه! مسكينة يا نيل!».

اندفع السيد كويليب نحو فعل تلقائي غير مقصود، أراد من خلاله أن يهون على زائرته الصغيرة ما تمر به، حيث مسح على رأسها. إن مثل هذا الفعل، إذا ما أقدم عليه أي شخص آخر، قد لا يتبعه رد فعل ملحوظ، لكن الطفلة انكمشت على نفسها من فورها، حينما شعرت لمسته، وابتعدت عن مجال يده كرد فعل لا إرادي استجابة لرغبة فطرية تدفعها بعيدًا عنه، وقفت منتفضة وأعلنت من تلقاء نفسها أنها في عجالة من أمرها وأنه يجب عليها الرحيل.

قال القزم: «لا! سيكون من الأفضل أن تنتظري وتتناولي العشاء معي ومع السيدة كويليب».

قالت نيل بعد أن كفكت دموعها: «لقد أمضيت فترة طويلة جدًّا بالخارج يا سيدي، ويجب عليّ الرحيل».

قال السيد كويليب: «حسنًا يا نيل! إن وجب عليك الرحيل فعلاً، أريد أن أعلمك بشيء أخير، بلغيه أنني سألقاه ربما غدًا أو بعد غد؛ إن لم أستطع القيام بما أراد هذا الصباح. وداعًا يا نيلي.. إنها قادمة إليك أيها السيد الصغير، اعتنِ بها، هل تسمعي؟».

كان كيت قد ظهر فور استدعائه، ولم يُبدِ أي رد تجاه توصية كويليب التي لم يكن لها داعٍ من الأساس، اكتفى بالتحديق فيه طويلاً؛ ظناً منه أنه المتسبب في ذرفٍ نيليٍ لذلك الكم الهائل من الدموع، وقد حملت نظراته نذر تهديد؛ وشعر برغبة عارمة في الانتقام منه؛ لمجرد أن الشكوك ساورته، لكنه استدار واتبع خليلته، عندما ودعت السيدة كويليب وغادرت.

قال القزم، ملتفتاً إلى السيدة كويليب فور رحيلهما، وتركهما بمفرديهما: «كنتِ تسألينها في تحفظ؟ أليس كذلك؟». ردت زوجته في نبرة حالمة: «ماذا كان يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك؟».

سخر كويليب مردداً: «ماذا كان يمكنك فعله أكثر من ذلك؟ ألم تستطيعي أن تفعلي ما هو أقل من ذلك؟ ألم تستطيعي فعل ما كان يجب عليك فعله، من دون أن تُظهري الجانب المفضل لديك من كونك مخادعة، أيتها الوقحة؟».

قالت زوجته: «لقد كنت آسفة حقاً على الطفلة الصغيرة! لقد فعلت ما فيه الكفاية، أنا متأكدة من ذلك؛ وجعلتها تخبرني بسرّها، ظناً منها أننا بمفردنا، وأنت كنت بالجوار، أسأل الخالق أن يسامحني على فعلي الشنيع هذا!».

قال كويليب: «لقد جعلتها! أوه! لقد فعلتي الكثير حقاً.. ماذا أخبرتك بشأن صرير الباب؟ من حسن حظك فقط أنها قالت دون أي

إدراك منها أو منك ما أردت سماعه، لكنني لو لم أكن قد حصلت على مفتاح لغزي، لكنت جعلتك تكبدين معاناة ومرارة الفشل».

بدأت السيدة كويليب راضية وموافقة تمامًا على ما قال، ولم تنفوه بأي رد، فاستطرد زوجها في حديثه مدليًا ببعض الإطراء لها.

- لكنني من الممكن أن أشكر حسن حظك.. حظك نفسه الذي جعلك السيدة كويليب.. حظك الذي يجب عليك أن تشكركه أيضًا لأنه هو ما دلّني عليك. حسنًا! دعينا ننهي حديثنا الآن عند هذه النقطة، ولا نذكره في أي وقت آخر. أريدك ألا تحضري طعامًا دسمًا أو جيدًا من أجل العشاء، فلن أكون في البيت هذه الليلة.

مع هذا القول، التقط السيد كويليب قبعته، ومن ثمّ غادر، ولبثت السيدة كويليب بائسة؛ تفكر وتستجمع كل تصرفاتها الفاتئة، تحبس نفسها في غرفتها، منكفئة على وجهها، خائفة أنفاسها بغطاء السرير، تجتر آلام ما اقترفته، في حزن مرير، حزن أكبر مما قد يصيب قلوب من هم أقل رقة على آثام أكثر شرًا بكثير. غالبًا يكون الضمير مرنا غير متيقظ إلى هذا الحد، ويتأقلم وفق الظروف، يتكيف مع ما تؤول إليه الدنيا المتنوعة. يتخلص بعض الأشخاص من مبادئهم، تدريجيًا، مبدأ وراء مبدأ، مثلما يتخلصون من ملابسهم الثقيلة عندما يتحسسون الدفء، إلى أن يحين الوقت الذي يتخلون فيه عنها تمامًا، والبعض الآخر يتخلص منها بالكلية مرة واحدة، وهم في كامل سعادتهم، يستشعرون السرور؛ كأنهم قد حققوا أكبر الإنجازات رفعةً ورواجًا.

الفصل السابع

قال السيد سوفييلر: «يا فريد! أتتذكر لحن (الاهتمام الفاتر)، الذي حظى بشعبية هائلة! رُوِّح على الشعلة الغارقة بجناح الصداقة، ومرّر النبيذ الوردى».

تقع مساكن السيد ريتشارد سوفييلر في حي (دوري لين)، وتماشياً مع ما ذكر، يجب إضافة أن مساكنه كانت تعلو متجراً لبيع التبغ، مكنه من الانتشاء بعطاس منعش وقتما أراد، بمجرد أن يطأ بقدميه نحو الخارج، ما وفر له تكاليف شراء التبغ والاحتفاظ بعلبته. استغل السيد سوفييلر جل تلك المقوّمات المذكورة، لتعزية ودعم صديقه، ربما لا يكون من غير المهم أو غير اللائق؛ ملاحظة أن حتى تلك اللّمحات الموجزة عن جوانب شخصيته قد مثلت ازدواجية عقل السيد سوفييلر، ودمجه للطابعين الرمزي والشّعري معاً؛ في الواقع كان النبيذ الوردى مقدّماً في كأس واحدة يحوي الماء المثلج والنبيذ، يُعاد ملؤه من قارورة وزجاجة على الطاولة، وبناءً على طلب لا يُكرر، يُمرر الكأس بالتناوب من واحد إلى الآخر، بسبب عجز في الكؤوس؛ وهو الأمر الراجع إلى عزوبية السيد سوفييلر، التي يصرح بها دائماً دون أدنى خجل. لطالما

ردد بائع التبغ في أوقات فراغه، أن نافذته ما هي إلا (مساكن) رجل نبيل أعزب، وعلى غرار هذا التخيل اللطيف، كانت غرفته الفردية مذكورة دائماً في صيغة الجمع. فالسيد سوفيلى منذ ذلك الوقت استمر في تكرار نفس المدلول، ولم يذكرها ولو مرة إلا وقد قال عُرفه أو مساكنه أو حجراته، موحياً إلى مستمعيه بفكرة الفضاء الفسيح، تاركاً لمخيلاتهم التجول بكل سرور عبر أجنحة شاسعة لقاعات مهيبة.

وخلال رحلة الخيال المحض تلك، كيّف السيد سوفيلى قطعة أثاث مضلّلة، كان مظهرها متناقضاً مع أصلها؛ في الواقع كانت هيكل سرير، لكنها في الظاهر بدت خزانة كتب، نالت المقام الأكبر والوضع الأبرز في غرفته، بدت كأنها تتحدى الشكوك والتساؤلات. مع مرور الوقت، ومن دون أدنى شك، صدّق السيد سوفيلى الوهم؛ ما أُوحي إليه براحة سرية، مُسلّماً بأنها خزانة كتب، وليست أي شيء آخر، غاضباً الطرف عن كونها سرير، متغاضياً عن ذلك، مستنكراً في حزم وجود البطانيات، طارداً الأفكار الواردة إلى ذهنه عن أهمية الوسائد. لم يحدث قط أن شاع صدى كلمة واقعية، أو أن ذكر تلميحاً عابراً عن الخدمات الليلية لتلك القطعة من الأثاث، أو أن صرّح بإشارة لأملأكه الخاصة في أي حديث بينه وبين خلانه المقربين. كان إيمانه الضمني في التضليل هو أول أداة تعريف بعقيدته. لكي تكون صديقاً للسيد سوفيلى، يجب أن ترفض جميع البراهين العرضية، وجميع الأسباب والملاحظات والخبرات، وتجدد باستمرار التصديق الأعمى في شأن خزانة الكتب. لطالما كانت نقطة ضعفه التي تعلّق بها.

قال السيد سوفييلر، بينما وجد أن مناشدته السابقة لم تُجدِ نفعًا:
«مرر النبيذ».

دفع شاب عائلة ترينت الكأس في غير صبر تجاهه، غارقًا مرة أخرى
في تقلباته المزاجية، التي كانت بسبب ما مرَّ به مؤخرًا، وأثار غيظه.
قال صديقه محرَّكًا مزيج النبيذ: «حسنًا يا فريد! سأقول لك رأيًا
يليق بما تمر به.. إليك به، من الممكن أن الـ...».

قاطعه الآخر: «هوووش! إن آراءك وثرثرتك تشعراني بالتشوش
الشديد حقًا؛ بإمكانك أن تكون مرحًا تحت أي ظرف من الظروف،
مهما كان الظرف سيئًا».

قال ديك: «لماذا يا سيد ترينت! أتعلم أن هناك قولًا مأثورًا يتعلق
بأمر المرح والحكمة! هناك من الناس من يكون مرحًا لكنه ليس حكيماً،
ومن يكون حكيماً - كما تصور له نفسه - لكنه لا يستطيع أن يكون مرحًا.
أعتقد أنني من النوع الأول. إن كان ذلك القول صائبًا، ومن الممكن
الاستناد إليه، فأفترض أن انطباق نصف المضمون عليك، خير من ألا
ينطبق عليك أي شيء منه. على أي حال، أفضِّل أن أكون مرحًا على أن
أكون حكيماً، على عكسك تمامًا، فأنت لست هذا أو حتى ذاك».

دمدم صديقه في حدة: «باااه!».

قال السيد سوفييلر: «إنني ممتن جدًا من كل قلبي.. لكنني أعتقد أن
مثل تلك التعبيرات لا تُقال لشخص نبيل، وبالأخص في شقته الخاصة..
لكن لا يهم، لن أمانع في ذلك.. اعتبر نفسك كأنك في منزلك». أضاف
إلى قوله الحاسم ذلك التعقيب؛ ما أفاد أن صديقه بدا في حالته المزاجية

تلك كأنه (غريب الأطوار). أنهى ريتشارد سوفييلر كأس النبيذ الوردي، ثم ملاءه لنفسه بالمزيج ثانيةً، بعد أن تذوقه واستحسن مذاقه، قدّم نخباً لصحبة وهمية.

قال ديك: «السادة الكرام، اسمحوا لي أن أقدم لكم خالص الأمنيات بالنجاح لعائلة سوفييلر العريقة، وبالحظ الحسن للسيد ريتشارد على وجه الخصوص»، ثم شدد على قوله: «السيد ريتشارد أيها السادة الكرام، من أفنى ماله كله على أصدقائه وتلقى الـ «بااه!» على آلامه. اسمعوا وعُوا!».

جلس الآخر على مقعده، بعد أن طاف في الغرفة مرتين أو ثلاث مرات: «ديك! هل لك أن تتحدث لدقيقتين فقط في جدية، إن دلتك على طريقة تمكنك من كسب ثروة هائلة جراء مشكلة مفتعلة هينة؟».

قال ديك: «عرضت عليّ الكثير سابقاً، ولم يكن هناك أي عائد من أي منها.. الجيوب الخاوية فقط...».

قال رفيقه: «ستغير فكرتك بشأن هذه الطريقة، قبل حتى إتمامها أو مُضيّ وقت طويل على تنفيذها...»، قرّب مقعده من الطاولة: «هل رأيت أختي نيل؟».

رد ديك: «ماذا عنها؟».

- إن وجهها جميلٌ، أليس كذلك؟

رد ديك: «لماذا بالضبط! لكنني أستطيع أن أقول إنه ليس هناك أي تشابه بينك وبين أسرتك».

كرر صديقه بنفاد صبر: «إن وجهها جميل، أليس كذلك؟».
قال ديك: «نعم! إن وجهها جميل، جميل جدًا.. لكن ما الذي يعنيه ذلك؟».

عاد الحديث إلى صديقه: «سأخبرك.. إن من البديهي أن أظل أنا والعجوز في خلاف مستمر حتى نهاية حياتنا، ولا أتوقع منه غير ذلك، لقد رأيت ذلك بنفسك.. حسب ما أفترض، أليس كذلك؟».
قال ديك: «هذا شيء يراه الخفافش في وضح النهار والشمس ساطعة».

- وسيكون على نفس القدر من البدهية، أن المال الذي أعلمني العجوز (المتعفن) وجوب مشاركته مع أختي بعد مماته، سيكون كله من نصيبها، أليس كذلك؟

رد ديك: «يجب أن أقول إنه قد كان كذلك، لكن الطريقة التي طرحت بها عليه الأمر كله، أظن أنها تركت تأثيرًا عميقًا في نفسه. أو على وجه الدقة قد حلت المشكلة تمامًا. لقد كان حديثي محفزًا حماسيًا يا فريد.. أتذكر قلبي: «.. إن ذلك العجوز ودود..». يا له من حديث قوي ومؤثر حسب ما أظن! بدا طبيعيًا ودودًا. ألم يؤثر فيك على النحو نفسه؟».

رد الآخر: «إنه لم يؤثر فيه من الأساس، حتى يؤثر فيّ، لذلك يجب أن نوفر علينا مناقشة أمر ما تفوهت به ساعتها.. الآن انتبه إلى أن نبلي قد قاربت على الرابعة عشرة من عمرها».

أشار ريتشارد بيديه بعلامة تنصيص: «إنها فتاة جميلة في مثل هذا العمر.. لكنها (صغيرة)».

قال ترينت متذمرًا من قلة انتباهه لمضمون حديثهما: «دعني أكمل الحديث، اصمت فقط لمدة دقيقة؛ كي أصل إلى النقطة المهمة التي أود الإشارة إليها».

قال ديك: «حسنًا!».

- إن الفتاة تحتكم إلى عواطفها دائمًا، وهي لم تكبر على ذلك الحال، ربما سيكون من السهل إقناعها والتأثير عليها في هذا السن. إذا أصبح لي عليها سُلطة، سوف أوثر عليها ببعض الترغيب والترهيب؛ كي تمتثل لإرادتي. دعني أقولها لك مباشرة دون التطرق إلى المزيد من التفاصيل؛ (فإن مزايا المخطط سوف تستغرق أسبوعًا لتُحصى) قُل لي ما الذي قد يمنعك من الزواج منها؟

كان السيد ريتشارد سوفييلر ينظر إلى ما فوق حافة كأسه، عندما أوضح رفيقه وجهة نظره في حماس وجدية، عندما انتبه للكلمات التي وردت إلى مسامعه، بدت على وجهه أشد علامات الذعر، ولم ينطق سوى بكلمة واحدة:

- ماذا؟

كرر الآخر في ثبات وثقة؛ يعلم تأثيرهما الفعّال على رفيقه من خلال خبرة طويلة به: «أقول لك: ما الذي يمنعك؟ ما الذي يمنعك من الزواج منها؟».

صاح ديك: «الزواج منها، وهي تقترب من (الرابعة عشرة) من عمرها؟».

قال الأخ في غضب: «لم أقصد أنك ستتزوجها الآن.. لنفترض أن ذلك الأمر سوف يتم خلال سنتين، أو ثلاث سنوات، أو أربع سنوات.. هل يبدو لك أن عمر العجوز سيكون أطول من ذلك؟».

هز ديك رأسه قائلاً: «لا! لا يبدو كذلك.. لكن هؤلاء العجائز.. لا يمكنك أن تثق بهم يا فريد. هناك عمة لي تسكن في (دورستشير) كانت بالأحرى تحتضر، عندما كان عمري ثماني سنوات، وتخيل أنها لم تَلَقْ حتفها حتى الآن. إنهم مزعجون، مجردون من المبادئ، حاقدون، كلماتهم لاذعة.. إلا إذا أصابتهم سكتة دماغية. يا فريد، يجب ألا تعتمد عليهم، إنهم حتى بعد ذلك كله يمكن لهم أن يخدعوك باستمرار».

قال ترينت بنفس الثبات والثقة، مثبتاً نظريه على صديقه: «بالنظر إلى الجانب السيئ في الأمر، لنفترض أنه قد ظل حياً».

قال ديك: «تحريراً للدقة، فهذا هو أساس المشكلة».

استأنف صديقه: «إنني أقول: لنفترض أنه ظل حياً، لكنني تمكنت من إقناعها، أو كي أقولها بكلمة أكثر دقة، أجبرتها، أجبرت نيل على زواج سري بك. ما رأيك كيف ستكون نتائج الأمر؟».

قال ريتشارد سوفييلر بعد بعض التفكير: «عائلة ودخل سنوي من اللا شيء كي تحافظ على الاستمرارية».

قال الآخر في جدية بالغة: «سأخبرك!». سواء بدت جديته في

القول حقيقية أو متوقعة، فقد أثرت في رفيقه التأثير نفسه: «إنه يعيش من أجلها، يكرس جميع طاقته وأفكاره لها فقط، لدرجة أنه يفضل ألا يحرمها من الإرث، حتى إن لم تُبد له فروض الطاعة، أكثر من قبوله لرعايتي مرة أخرى، وإن قدمت له فروض الولاء واعتنقت الفضائل. أعلم أنه لن يفعل. بإمكانك أو حتى بإمكان أي رجل آخر أن يلاحظ ذلك بأعينه، ويدرك ما الذي يفعله».

قال ديك متأملاً: «يبدو الأمر كذلك بكل تأكيد».

رد صديقه: «إنه يبدو كذلك؛ لأنه في حقيقة الأمر كذلك فعلاً.. إن أردت أن تكسب وده كي يسامحك بتقديم دافع له، فليكن هناك نزاع لا يقبل المساومة، مشاجرة مميتة بيني وبينك أولاً.. أقصد أن نجعل من ذلك انطلاقة لحدوث الأمر برمته.. نعم بالطبع.. وبناء عليه سوف يتم الأمر بسرعة كافية. أما نيل، فيمكنني أن أقول لك: إن الدق الكثير على الحجر يفتته، تعلم أنه من الممكن أن تثق بي بقدر ما تلاقي اهتماماً مني. لذلك سواء ظل حياً أو قضى نحبه، حينها ما الذي سيشكل فارقاً عند ذلك؟ ستكون أنت الوريث الوحيد لثروة ذلك العجوز الغني، ومن ثمّ سوف يتسنى لنا إنفاقها معاً، علاوة على تلك الصفقة ستحظى بزوجة جميلة يافعة».

قال ديك: «أحسب أنه غني دون أدنى شك..».

- شك! هل سمعت ما قاله من دون قصد ذاك اليوم، عندما كنا هناك؟ شك! ما الذي يتتابك الشك حياله أيضاً يا ديك؟

سيكون من المضجر حتمًا متابعة الحديث إن استمر بذات وتيرة أساليبه الملتوية تلك، كما سيكون من المضجر تبيان ما آل إليه فكر ريتشارد سوفييلر بالتدرّج على نحو تفصيلي. يكفي أن نعرف أن الغرور والولع والفقر وشغفه تجاه إسراف المال قد حثه بالفعل على التفكير في أمر العرض، الذي قُدم له، في محابة كاملة، لكن لا مبالاته الظاهرية المعتادة قد سادت، ورَجَحَتْ كَفَّتْهَا، على الرغم من توفّر كل القناعات لديه؛ كي يَقدِّم على فعله. لكن الدوافع لم تقتصر على هذا الحد فحسب، بل من الواجب إضافة ذكر الهيمنة الكلية، التي يمارسها صديقه عليه على مدار فترة زمنية طويلة كذلك.. كانت هيمنة مارسها مستغلًا نواقص صديقه بشكل واسع في البداية، ومن ثَمَّ يمكن القول بأن الهيمنة سادت في كل تسعة مواقف من أصل عشرة، بسبب حسه الماكر، رغم أنه في حقيقة الأمر قد كان طائشًا ومتهورًا أرعن التفكير. أما على الصعيد الآخر، فكانت الدوافع الأخرى أعمق من أي شيء طرأ على ريتشارد سوفييلر من قبل، كي يستوعبها أو حتى يفهمها، فقد تركها إلى أن يحين وقتها، دون محاولة استدعاء أي تفسير واضح. ختموا مفاوضاتهما في رضى وسرور؛ صرّح السيد سوفييلر بعبارات صريحة، تفيد بأنه ليس لديه أي اعتراض مُقلق، تجاه الزواج من أي شخص سوف يجلب له المال ويوفر له سبل العيش، حتى وإن أُجبر على الزواج به، وخلال إدلائه بتصريحاته تلك، استوقفه طرق على الباب، فصار من الضروري والحتمي أن يصيح بصوت عالٍ: «ادخل».

فُتِحَ الباب، لم يدخل منه سوى ذراع مغطاة بالصابون، وسحابة من

دخان التبغ. أتى دخان التبغ من المتجر في الطابق السفلي، أما الذراع فكانت لجسد خادمة، تعمل في تنظيف السلالم، كانت قد سحبتها لتوها من الدلو؛ لتقدم خطاباً، معلنَةً بصوت رنان عن لقب المُرسَل إليه بطريقة بديهة بناء على الفئة المنحدرة منها، قائلةً إنه من أجل: «السيد سنيفلينغ».

بدا ديك أبله، ذا وجه شاحب، عندما نظر إلى الخطاب؛ وبدأ أكثر من ذلك عندما شرع في معرفة المرسل؛ مستدلاً على أن الخطاب هو أحد المضايقات التي تنال منه لكونه حبيباً سابقاً لامرأة، لطالما مر عليه ذلك الأمر هوناً طوال فترة حديثهما، لكنه في تلك اللحظة كان قد نسيها تماماً.

سأل ترينت: «مَن هي؟».

قال ديك: «صوفي واكلز».

رد عليه مستنكراً: «أوه! حقاً! مَن هي؟».

قال السيد سوفييلر: «إنها من بنيت عليها خيالي كله يا سيدي، إنها كذلك بالفعل». أخذ رشفة طويلة من نبيذه الوردية، حلق ملياً في صديقه في جدية، وقال: «إنها رائعة، إنها مخلوق سماوي.. أنت تعرفها».

قال صديقه دون اكتراث: «تذكرتها.. لكن ماذا بشأنها؟».

قال ديك: «ماذا بشأنها!! أتعلم أنه قد كان بين الآنسة صوفيا واكلز وبين الشخص المتواضع الذي يشارف على سرد حكايتهما معاً، مشاعر

دافئة وعطاء حنون، مشاعر من نوع يفيض بالإلهام والوئام. أتعرف
الإلهة ديانا يا سيدي -إلهة الصيد-، ليس هناك مَنْ يماثلها في طباعها
أكثر من صوفيا واكلز.. أكاد أجزم بصدق ذلك».

سأل صديقه: «هل يجب عليّ أن أصدق أي كلمة تفوهت بها؟ إنك
لا تقصد قول أن هناك مشاعر حب متبادلة بينكما! أليس كذلك؟».

قال ديك: «مشاعر حب! نعم هناك مشاعر حب، لكنني لم أقطع
لها وعدًا بشيء.. حتى لا يترتب على هذا الوعد أي أمر غير مرغوب فيه
حين تنقطع العلاقات الودية فيما بيننا، وهذا هو المريح في الأمر برمته،
لم ألزم نفسي مطلقًا بأي وعود كتابية يا فريد».

- إذن ماذا في الخطاب؟ صلوات؟

- إنه تذكير يا فريد، تذكير بحفل صغير مدعو إليه عشرون شخصًا،
أي مائتا إصبع قدم، سيحل فيه كل سيد وسيدة مع خليله المناسب له.
عليّ أن أذهب؛ إذا كان في فعلي هذا بداية النهاية.. نهاية علاقتي بها..
حتمًا سأفعل ذلك، لا تخف. أود أن أعرف فقط إن تركت هذا الخطاب
بنفسها أم لا! لأنها إن فعلت حقًا، دون أن تهتم بالحواجز التي وضعتها،
فسوف يؤثر عليّ ذلك يا فريد.

من أجل العثور على إجابة لذلك التساؤل، استدعى السيد سوفييلر
الخادمة؛ التي أكدت على أن السيدة صوفيا واكلز قد سلمتها هذا
الخطاب بيدها، فقد جاءت في صحبة السيدة واكلز الصغيرة؛ للحفاظ
على المظهر العام ومبادئ الاحتشام بلا شك، وبمجرد علمها أن السيد

سوفييلر موجود في منزله، أصابها الخجل، بعد أن كانت قد طلبت الصعود إلى الطابق العلوي، وتمنت الموت بدلًا من أن تمر بذلك الحرج. استمع السيد سوفييلر لكل ما قيل في إعجاب بالغ، لا يتفق مع الصفقة التي وافق عليها لتوه، لكن صديقه أبدى احترامًا نحو سلوكه في هذا الصدد؛ ربما لأنه يعلم أن له تأثيرًا كافيًا للسيطرة على ريتشارد سوفييلر مهما كان الوضع، وتحت أي ظرف، وربما رأى أن ذلك ضروري؛ من أجل تحقيق مقاصده الخاصة.



الفصل الثامن

بعد أن أتم السيد سوفيلى صفقته، ذكرّته نفسه أن وقت العشاء قد اقترب، وأن صحته هزيلة؛ لتكشفه في الطعام والشراب لفترة طويلة، ما حفزه على بعث رسالة إلى أقرب مطعم يطلب تزويده الفوري بطعام من لحم البقر المسلوق والخضار يكفي شخصين. لكن المطعم لم يتجاوب معه بصدد هذا الطلب (نظرًا لخبرته السابقة بتعاملات عملائه)، فأرسل من فوره ردًّا في منتهى الجفاء على رسالته، مفاده أنه إذا كان السيد سوفيلى بحاجة إلى تناول اللحم البقري، فسوف يكون مضطرًّا إلى القدوم بنفسه إلى هناك، وعليه أن يأخذ في اعتباره أن الخضار يُقدم قبل اللحم، ومن الأفضل له إذا أتى أن يحضر معه أي مبلغ من المال ولو صغير لتسديد مديونته التي مضى عليها وقت طويل. لم يزعجه هذا الرد على الإطلاق، بل استغل فطنته وذكاءه وشهوته للطعام، وأرسل الرسالة عينها إلى مطعم آخر أبعد، مضيفًا مع حامل الرسالة أن السيد فضل إرساله بعيدًا، وإلى هذا المطعم تحديدًا، ليس بسبب شهرة وشعبية اللحم البقري العظيمة لديه فحسب، بل من

أجل قساوة اللحم البقري الشديدة، ذلك اللحم الذي لا يُمضغ ويُباع بالتجزئة في مطعم (أبدرونت)، فهو ليس غير مناسب على الإطلاق ليتناوله الرجال النبلاء فحسب، بل ليس مناسباً أبداً لأي استهلاك بشري من الأساس. تجلّى الأثر الجيد من سياسته التي اتبعها، في الوصول السريع لهرم صغير من الأواني البيوترية، منظمة في شكل مثير للعجب والإعجاب من الأطباق والأغطية، حيث شكلت شرائح اللحم البقري المسلوق القاعدة وسطح الوعاء، أما بالنسبة لما احتوته الوجبة، فقد وفرت مكوناتها كل شيء كان لازماً أو ضرورياً، من أجل تناول وجبة شهية، انكب عليها السيد سوفيلى وصديقه؛ يلتهمانها في متعة ونهم.

قال ديك، غارساً شوكتة في قطعة بطاطس جمرية كبيرة: «قد تكون اللحظة الحالية، هي أكثر اللحظات سوءاً في حياتنا! تعجبني فكرة إعادة إرسالها وعليها القشرة في الأواني بعد انتهائنا من تناول العشاء.. هناك سحر كامن في سحب البطاطس من الخبز المغموس في النبيذ يماثل سحر قربان الأفخارستيا^(٣) (إن جاز لي التعبير بذلك القول)؛ ومن الواضح أن الأغنياء وذوي النفوذ غرباء عنه. آه! «إن المرء هنا بالأسفل لا يريد سوى القليل، ولا يريد ديمومة ذاك القليل!»^(٤). ثرى ما مدى صحة هذا القول؟».

(٣) القربان المقدس: معناها اللغوي هو الشكر، وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله يسوع بصحبة تلاميذه عشية آلامه.. وعند الاحتفال به يتم تناول الخبز ويعرف بـ (البرشان) -الذي يمثل جسد يسوع- وأحياناً يغمس الخبز في النبيذ -الذي يمثل دم يسوع-.

(٤) أوليفر جولدسميث من رواية (قس ويكفيلد) إحدى أشهر روايات القرن الثامن عشر.

قال رفيقه: «آمل ألا يريد مالك المطعم سوى القليل، وربما بذلك لا يريد ديمومة ذاك القليل، رغم أنني أحسب أنك لا تملك أي آلية أو نية للدفع مقابل ذلك!».

قال ديك وهو يغمز بعينه: «يجب أن أتخطى الحاضر، وأخاطب روح النادل العاجزة. لقد انتهى الطعام يا فريد، وهنا تأتي النهاية».

وبعد إلقاء نظرة على الواقع، شعر النادل بحقيقة الأمر الكارثية؛ فور عودة جميع الأطباق والأواني فارغة دون أي شيء آخر، فضلاً عن إبلاغ السيد سوفييلر له في لا مبالة متناهية، أنه سوف يتواصل معهم، حينما يتخطى الحاضر، ساعتها بدت على النادل أمارات اضطراب الروح، وغمغم ببعض الملاحظات عن «الدفع عند الاستلام». و«انعدام الثقة». وغيرها من العبارات التي تقع على المسامع وقعاً غير حميد، لكنه في نهاية المطاف أَرْضَى نفسه بالاستفسار عن الساعة التي من المحتمل أن يتواصل معهم السيد النبيل عندها؛ لأن مسؤولية طلبات اللحم البقري والخضار تقع على عاتقه، ويخشى ألا يكون متواجداً في ذلك الوقت. أجابه السيد سوفييلر بعد حسابات عقلية دقيقة أجراها مع النفس، أنه يجب عليه أن ينظر في جدولته من دقيقتين إلى ست أو سبع دقائق، لذلك لم يملك النادل أي خيار سوى الرحيل، لا يحمل سوى تلك التعزية الفاترة، ومن ثم أخذ ريتشارد سوفييلر دفتر ملاحظاته فعلاً ليسجل تلك المسألة.

قال ترينت مستهزئاً: «هل هذه تذكيرة، في حال إذا نسيت فعلاً التواصل معهم؟».

قال ريتشارد مندهشاً، رغم أنه استمر في تدوين حساباته: «لا! بالطبع لا يا فريد.. إنني أدون في هذا الدفتر أسماء الشوارع التي يمكنني الذهاب إليها حينما تكون المتاجر مفتوحة؛ فقد حضر عشاء اليوم فداناً كاملاً، لقد أخذت حذاءً من شارع (جريت كوين) الأسبوع الماضي، فأضفت هذا الشارع إلى قائمة (ممنوع المرور) أيضاً. وبناءً عليه، لم يتبقَّ سوى طريق واحد في الوقت الحالي يؤدي إلى الساحل، في حين أنه إذا أردت التوقف هناك يجب عليّ أن أكون متوارياً عن الأنظار. إن الطرق تُقصى سريعاً وفي الاتجاهات جميعها، في غضون هذا الشهر، وإذا لم تُرسل لي عملي حوالة، سوف يتوجب عليّ الابتعاد لثلاثة أو لأربعة أميال خارج المدينة؛ لتفادي الطرق».

قال ترينت: «ألا تخشى عدم حصولك على الحوالة أبداً؟».

رد السيد سوفييلر: «لماذا؟ لا! لا آمل حدوث ذلك.. على الرغم من أن متوسط عدد الخطابات اللازمة لاسترضائها هو ستة خطابات، والآن قد وصلت إلى الخطاب الثامن دون إحراز أي جدوى على الإطلاق. سوف أكتب إليها خطاباً آخر في صباح الغد. وسوف أتعمد استخدام الحيلة في كتابته، عبر تلطيخه بالحبر، وذر قطرات من الماء من مذرة الفلفل؛ كي أبدو تائباً نادماً: «إنني في حالة ذهنية يُرثى لها، أعني بصعوبة ما أكتبه». -نقطة حبر-: «إذا كنتِ تستطيعين رؤيتي، ورؤية كم من دموع أذرفها؛ ندماً على سوء سلوكي الماضي». -قطرات ماء من مذرة الفلفل-: «إن يدي ترتعش؛ لمجرد التفكير». -نقطة حبر ثانية-: «إن لم تستجيب لي هذه المرة، سأنتهي كل شيء».

بحلول هذا الوقت، كان السيد سوفييلر قد انتهى من التدوين، أغمد قلمه، وأغلق مدونته، في كثير من الجدية والصرامة الرزينة. انتبه صديقه إلى أن الوقت قد حان لرحيله؛ كي يهتم بأمورٍ أخرى، أما عن ريتشارد سوفييلر، فقد ترك بمفرده، بصحبة النبيذ الوردى، وتأملاته الخاصة عن السيدة صوفي واكلز.

خاطب ديك نفسه، هازئاً رأسه، تعلق نظراته أمارات الحكمة: «إنها حقاً مفاجأة مدهشة!». ثم أكمل بنفس وتيرته المعتادة، متغنياً بشطرات نثرية، بدت وليدة اللحظة: «يصاب القلب بمخاوف الاكتئاب، حتى يحين الوقت الذي تظهر فيه السيدة واكلز بغتةً، فينقشع الضباب، إن جمالها حقاً خلاب.. إنها مثل زهرة حمراء، أزهرت في يونيو -لا يمكن إغفال ذلك- إنها كلحن يُعزف في تناغم. إنها حقاً مفاجأة مدهشة! لا حاجة لي بها، تطرح علامات استفهام، لم تكن أخت فريد الصغيرة في الحساب.. أعلم أنه يجب عليّ أن أكون هادئاً، لكن يُستحسن ألا أماطل في الأمر، وألا أكون متسرعاً.. إن قررت أن أكون هادئاً، يجب أن يؤخذ القرار عاجلاً. إنها فرصة لإنهاء علاقتي بها، إنه شيء آخر منفصل. إنهاء فرصة لإن.. لا، ليس هناك أي فرصة، فقط سأُنحي العلاقة جانباً».

كان هذا الارتجال هو الاختيار، الذي سعى إليه ريتشارد؛ لإخفاء حقيقة الأمر عن نفسه؛ كي لا يكون دليلاً ضد ولعه بسحر الأنسة واكلز، لكنه في لحظات عرضية، يقارن بين الثروة القادمة وبينها، ليجد نفسه ينحي الأمر بعيداً عن سيطرته؛ معززاً مخططه البارز، الذي أصبح طرفاً فيه.

بناء على تلك الأسباب جميعها، قرر افتعال مشاجرة مع الأنسة واكلز دون تأجيل، وفكر في حجة حاسمة، مفادها غير مبررة. بعد أن كرّس عقله لإيجاد أطروحات حول تلك النقطة المهمة، نقل كأسه ما بين يديه -من اليمنى إلى اليسرى، ثم أعاده مرة أخرى- في انسيابية؛ مفكراً في الكيفية التي تمكنه من إتمام فكرته على نحو راشد وفي حذر تام، ومن ثمّ انتقل إلى مرحاضه؛ لإضفاء هندام بسيط على مظهره، موجّهاً خطواته في ثبات نحو وجهته المبجلة، وقد بدت على هيئته أمارات السكينة.

كانت وجهته إلى تشيلسي، حيث تقيم الآنسة واكلز مع والدتها الأرملة وشقيقتها، وفي الوقت نفسه تدير معهن مدرسة نهائية صغيرة للشابات المستوفيات للشروط، كانت المدرسة تُعرف في الحي من خلال لوحتها البيضاء الموضوعة على نوافذ طابقها الأول الأمامية، كتب عليها في أنيقة (مدرسة التعليم العالي للفتيات)، معلنة عن مواعيد السماح بالدخول في الفترة من الساعة التاسعة والنصف صباحاً إلى العاشرة صباحاً، إلى جانبها تقف فتاة بمفردها على أطراف أصابع قدميها، تُحاول الوصول إلى قارع الباب بواسطة كتاب الهجاء. كان هناك العديد من المواد الدراسية في تلك المؤسسة. حيث تُدرّس الآنسة ميليسا واكلز قواعد اللغة الإنجليزية وكتابة المقال والجغرافيا إلى جانب الألعاب الرياضية، أما الكتابة وعلم الحساب والرقص والموسيقى وفنون الذوق العام فتُدرّسها الآنسة صوفي واكلز، وبالانتقال إلى تدريس فنون الحياكة وتطريز المنسوجات بالفرز

المعدودة^(٥) والتحديد في الرسم فتتكفل بها الأنسة جين واكلز، أما كل ما يتعلق بالعقاب البدني والحرمان من الطعام ومختلف أنواع الضرب ودروب التعذيب والرعب فلم يقدّم به إلا السيدة واكلز نفسها. كانت الأنسة ميليسا واكلز هي الكبرى من بين شقيقاتها، والأنسة صوفي هي مَنْ تتوسطهن عمرًا، والأنسة جين هي الأصغر سنًا. مر على الأنسة ميليسا خمسة وثلاثون صيفًا أو ما يقرب من ذلك، وصولًا إلى ذلك الخريف. أما عن الأنسة صوفي فقد كانت ربلة يافعة، عمرها عشرون عامًا. أما الأنسة جين، فكانت تبلغ بالكاد ستة عشر عامًا. على الرغم من أن للسيدة واكلز مظهرًا رائعًا، إلا أنها كانت امرأة عجوزًا تسر الضغينة في نفسها بدرجة كبيرة.

تخفى ريتشارد سوفييلر، حينما وصل إلى وجهته (مدرسة التعليم العالي للفتيات) وراء مخططاته الدميّة التي لا تليق بطبيعة صوفيا المسالمة ونزاهتها، في ذلك الوقت كانت ترتدي اللون الأبيض، مهندمة الملبس دون زينة عدا زهرة وردية، استقبلته فور وصوله، في رقي غير مبتذل، لا تسوده البهرجة في الوقت ذاته، كانت الغرفة مزينة بأصص الزهور المعلقة في مهب الريح العاصف، على الجانب الخارجي من النافذة. في يومهم ذاك سُمح لهن وللطالبات بأن يكون الزي مناسبًا للأجواء الاحتفالية، داومت الأنسة جين واكلز طوال الوقت على إبقاء رأسها ذي الشعر المجعد المميز، في إطار إعلان أصفر عن حفلتهن،

(٥) يُقال عنه غرز الايتامين وهو جزء من أسلوب التطريز، غالبًا يطبق هذا الأسلوب على نوع قماش يُسمى (الكنفا).

أما السيدة المبجلة ذات الطبع المهيب وابنتها الكبرى، فكانتا في حالة صدمة فور رؤيتهما للسيد سوفييلر؛ بسبب مجيئه غير المتوقع، لكنهما لم تبديا أي انطباع آخر.

الحقيقة هي أن.. -ليس هناك حَجَرٌ على الأذواق، لكن الذوق الغريب يبقى بيناً، دون الحاجة إلى ادعاء خبيث متعمد.. -الحقيقة هي أن السيدة واكلز وابنتها الكبرى لم تكنَّا أي لطف للسيد سوفييلر في أي وقت كان، اعتادتا في أغلب الوقت على تسميته فيما بينهما بـ (الشاذ الصغير)، أو على وجه الدقة وقتما ذكر اسمه بجوارهما، تنهدتا على نحو مشؤوم، متهازتين. كان سلوك السيد سوفييلر حول احترام الأنسة صوفي غامضاً مبهماً، لكن لا وجود لأي أخطاء في الاستدلال حول نواياه الثابتة في الزواج منها، لدرجة أن الشابة نفسها مع مرور الوقت، ظنت أن ذلك الأمر مرغوبٌ جداً، وأنها ملزمة بالعمل على إتمام ذلك بطريقة أو بأخرى. من ثمَّ وافقت أخيراً على التلاعب بريتشارد سوفييلر، عن طريق استغلال رغبة أحد المزارعين بالزواج منها، واستعداده التام لتقديم عرضه لها، بعد تحفيز بسيط، لذلك في واقع الأمر.. خُصصت تلك المناسبة من أجل هذا الغرض.. لكن خوفها الأعظم حيال الأمر برمته لم يتعلق بإمكانية إتمام تلك الحيلة، بل تمثل في دفع السيد سوفييلر للحضور، مما جعلها تعتمد إلى ترك ملاحظة له؛ ليقرأها. قالت السيدة واكلز لابنتها الكبرى: «إن كان لديه أي رغبة أو نية لتكوني له زوجاً، عليه أن يعلنها إما الآن وإما لن يجسر على ذلك أبداً»... قالت الآنسة صوفي في تدبر: «إذا كان حقاً يكثرث لحالي، فعليه أن يخبرني بذلك الليلة».

لكن تلك الأفكار والأقوال والأفعال جميعها كانت غير معلنة للسيد سوفييلر، ولن تؤثر فيه على أي حال من الأحوال في النهاية؛ كان جل ما يشغل تفكيره حينها هو كيفية افتعال حادث الغيرة على أكمل وجه، متمنياً أن تكون صوفي أقل جمالاً في هذه المناسبة عن هيئتها المعتادة، أو أن تكون شقيقتها هي نقطة البداية؛ لإتمام مخططه على نحو جيد. في تلك الأثناء جاء المدعوون، وحضر بينهم المزارع، كان اسمه (تشيجز)، لم يأت السيد تشيجز بمفرده، جاء بصحبة شقيقته، الأنسة تشيجز، التي ذهبت من فورها إلى الأنسة صوفي، وقامت بالترحيب بها بكلتا يديها، وتقبلها على وجنتيها، هامسةً في أذنها بصوت مسموع أنها تخشى أن يكون قدومهما مبكراً.

أجابت الأنسة صوفي: «مبكراً! لا بالطبع».

ردت عليها الأنسة تشيجر بنفس الهمسات المسموعة: «أوه! يا عزيزتي، لقد كنت معذبة وقلقة للغاية، إنها رافة حقاً أننا لم نكن هنا الساعة الرابعة عصرًا. لقد كان (هذا الشاب) نافد الصبر يريد القدوم عاجلاً! لن تصدقيني إن قلت لك: إنه كان مرتدياً ملابسه قبل وقت الغداء، ينظر إلى الساعة، ويزيد في إلحاحه من أجل القدوم منذ ذلك الحين. إنه خطوك، أيها الأرعن».

أصاب الخجل الأنسة صوفي، وكذلك أصاب السيد تشيجز أيضاً - كان يصيبه الخجل أسرع من السيدات - لذلك ذهبت والدته الأنسة صوفي وشقيقتها من فورهن؛ لمنع الحرج عنه والاحمرار خجلاً، وإحاطته بالاهتمام، تاركات السيد سوفييلر يعتني بنفسه. وبذلك

حدث ما أرادته تمامًا من دون تدخل منه ومنذ البداية؛ هذا هو السبب الذي سيرتكز عليه لافتنال الغضب، مثّل له الموقف فرصة مواتية كي يجد سببًا بحث عنه طويلًا، ولم يكن يتوقع أن يجده بذلك اليسر، لذلك تظهر ريتشارد سوفييلر بكونه غاضبًا، وفي جدية بالغة أخذ يتساءل من الشيطان تشيجز هذا، حتى يتصرف بتلك الوقاحة!

على الرغم مما حدث، شارك السيد سوفييلر الأنسة صوفي الربع الأول من الرقصة الرباعية - كانت الرقصات الريفية قليلة جدًا أو بالكاد ممنوعة-، لذلك اكتسب السيد سوفييلر ببراعته أفضلية على منافسه، الذي جلس يائسًا في ركن؛ يشغله التفكير في مظهر الأنسة المتألق، وهي تتمايل معه راقصةً. كان ما حدث مجرد بداية، حسم السيد سوفييلر من خلالها مسألة أن يوضح للرجل أي نوع من الرجال عبث معه تلك العائلة، فانطلق يرقص في خفة ورشاقة، محرّكًا يديه -ربما كان ذلك تأثير ما شربه سابقًا-، أخذ يلف ويدور في انسيابية، لدرجة أنه تسبب في جعل رجل طويل كان يرقص مع شريكة قصيرة، يقف مندهشًا في صمت تام، يغمره التعجب والإعجاب برقصه، وهكذا كان حال السيدة واكلز نفسها؛ ناسية في تلك اللحظة فتياتها الثلاث، اللاتي غمرتهن السعادة أيضًا، ولم تستطعن إزاحة من رؤوسهن فكرة أنه يا له من فخر سوف يغمرهن، إذا انضم هذا الراقص البارِع إلى العائلة!

خلال تلك الأزمة الحرجة، أثبتت الأنسة تشيجز أنها حليف قوي، وداعم مفيد؛ لم تكتفِ برسم الابتسامات الساخرة؛ من أجل ازدراء تحركات السيد سوفييلر، بل انتهزت الفرص جميعها، كي تهمس في

أذن الأنسة صوفي بعبارات وتعبيرات عزاء، معربة عن تعاطفها القوي، وقلقها الشديد من ذلك المخلوق السخيف، معلنة خوفها حد الموت، من أن يقوم (هذا الشاب) ويشاركه الرقص، فيهزمه هزيمة شنعاء؛ فقد كان في أوج غضبه، متوسلةً إلى الأنسة صوفي أن تنظر إلى عينيه؛ لترى كم كانتا تقدحان شرراً، وفي الوقت نفسه لامعتين بعدوبة الحب وقوة الشغف، ولتتحرى صدق مشاعره وفرطها، تلك المشاعر التي لم يظهر تأثيرها على عينيه فقط، بل تجلت على أنفه الذي صار متوهجاً قرمزياً مرتجفاً.

قالت الأنسة صوفي لديك سوفييلر، بعد أن رقصت مع السيد تشيجز لمرتين متتاليتين، في خضم عرض بارع؛ لتدعم أفضليته: «يجب أن ترقص مع الأنسة تشيجز، إنها فتاة لطيفة.. وشقيقتها مبهج للغاية». دمد سوفييلر: «مبهج للغاية! حقاً! هل تظنين أنه كذلك فعلاً؟ حسناً.. أظن ذلك أيضاً؛ بسبب الطريقة التي ينظر بها إليك».

هنا اقحمت الأنسة جين نفسها الحوار -بناء على تعليمات مسبقة- واقتربت من شقيقتها بشعرها المجعد؛ هامسةً لها؛ لكي تلاحظ كم كان السيد تشيجز غيوراً جداً.

قال ريتشارد سوفييلر: «غيوراً! لا على نحو أدق قلولي وقحاً!».

قالت الأنسة جين، محركة رأسها في استنكار: «لِمَ وقحاً يا سيد سوفييلر! كن حذراً فقط حتى لا يسمعك وأنت تقول ذلك يا سيدي؛ حتى لا تأسف على ذلك حقاً».

قالت الآنسة صوفي: «أوه! جين.. لا يصح م...».

قاطعتها شقيقتها: «هراء! كيف لا يشعر السيد تشيجز بالغيرة، وهو يحب؟ أنا أحب أن يفعل ذلك بكل تأكيد! إن السيد تشيجز لديه سبب جيد، كي تعتريه الغيرة، كما تعترى أي شخص آخر، أو ربما سيكون لديه الحق الكامل قريباً، إن لم يكن لديه الآن بالفعل. أنت أفضل من يعرف ذلك الأمر يا صوفي!».

على الرغم من أنها كانت مؤامرة منسقة بين الآنسة صوفي وشقيقتها؛ لدفع السيد سوفييلر للإعلان عن نواياه في الوقت المناسب، إلا أنها باءت بالفشل؛ كانت الآنسة جين واحدة من هؤلاء الفتيات المشاكسات، صاحبات الطبع الحاد، وقد كيّفت ذلك، وبالغت في حديثها مبالغة لم يكن لها داعٍ وفق الدور المخصص لها القيام به، وقد ابتعد السيد سوفييلر في امتعاض، معترلاً فتاته، تاركاً إياها للسيد تشيجز، ناظراً إليه في تحدٍّ، ليردها عليه السيد النبيل بنظرات ساخطة.

قال السيد تشيجز وقد تبعه إلى الزاوية: «هل كنت تتحدث إليَّ أيها السيد؟ لا لا! حافظ على ابتسامتك لي يا سيد؛ كي لا نكون موضعاً للشك. إذن هل كنت تتحدث إليَّ أيها السيد؟».

وجه السيد سوفييلر عينيه إلى السيد تشيجز، مبتسماً ابتسامة عابرة مصطنعة، بينما ينظر إلى أخمص قدميه، ثم إلى كاحله، ثم إلى قصبة ساقه، ثم إلى ركبته، وظل يرتفع بناظره تدريجياً، على غرار طريقة نظره إلى ساقه اليمنى، إلى أن وصل إلى صدريته، وحينها أخذ ينتقل من زر إلى آخر، ويرتفع بموضع نظره، إلى أن وصل إلى ذقنه، ثم نظر

مباشرة إلى منتصف أنفه، وإذ به ينتقل فجأةً للنظر إلى داخل عينيه، ويقول من فوره:

- لا أيها السيد، لم أفعل.

نظر إليه السيد تشيجز محدقًا: «امم! أناشد طيبة قلبك أن تبسم مرة أخرى يا سيد.. فكر ثانيةً، ربما تريد التحدث معي أيها السيد؟».

- لا أيها السيد، لم أفعل ذلك أيضًا.

قال السيد تشيجز في شراسة: «ربما لأنه ليس لديك ما تقوله لي الآن».

مع انتهاء تفوهه بتلك الكلمات، أزاح السيد سوفييلر ناظريه عن وجه السيد تشيجز، ونظر إلى منتصف أنفه، ثم إلى صدريته، نزولًا حتى ساقه اليمنى، إلى أن وصل إلى أخمص قدمه، مدققًا متفحصًا في عناية، ثم كرر ما فعله في ترتيب معاكس نحو ساقه الأخرى، لكنه مع الوصول إلى صدريته كما كان سابقًا، مكملًا حتى الوصول إلى عينيه، قال: «أما عن هذا.. فنعم أيها السيد، ليس لديّ ما أقوله».

قال السيد تشيجز: «أوه! أنا سعيد جدًا لسماعي ذلك في الواقع.. حسنًا! أحسب أنك تعرف أين سأكون بكل تأكيد، في حالة إن أردت أن تقول لي أي شيء؟».

- يمكنني في سهولة بالغة أن أستعلم عما أريده، إن أردت فعلًا الاستعلام عنه.

- لا يوجد شيء آخر تريد قوله حسب ما أظن، أليس كذلك أيها السيد؟

«بلى هو كذلك!»... بالوصول إلى هنا، كان السيدان قد انتهيا من محادثتهما الرهيبة متبادلين نظرات عابسة منقّرة. سارع السيد تشيجز إلى مد يده للآنسة صوفي، أما السيد سوفييلر، فمكث في زاويته في حالة مزاجية سيئة.

بداله من زاويته في وضوح أن السيدة والآنسة واكلز كانتا جالستين، تابعان النظر إلى الرقص. أما الآنسة تشيجز، فكانت ترمق ريتشارد سوفييلر بوابل من النظرات المريبة الحادة، بينما كان شقيقها منشغلاً في الرقص مع شريكته. نظر إلى أعين السيدة والآنسة واكلز على سبيل الاستدلال، في حين جاءت طالبتان وجلستا على نحو قلق على أسكفة النافذة، فور رؤيتهما، تبسمت السيدة واكلز، ومن ثم تبسمت الآنسة واكلز أيضاً، ولم تستطعا سوى مبادلتهما الابتسام؛ للتخفيف من وطأة الموقف، في اعتراف رقيق منهما بخطئهما؛ وتضرعنا من أجل أن ترفق السيدة بهما، لكنها سرعان ما أومأت لهما عابسةً؛ كي تنزلا من فورهما، قائلةً إنهما إذا تجرأتا على اقتراف ذلك الذنب مرة أخرى، أو ارتكاب أي خطأ آخر، سيتم إرسالهما إلى منزليهما تحت الحراسة المشددة. أثار هذا التهديد في إحدى الفتاتين، فانكمشت في نفسها، وارتجفت في وهن، حتى دمعت وبكت، ثم هرولتا مبتعدتين في الحال جراء ما تعرضتا إليه من إهانة أثارت الرعب في نفوس الطالبات الأخريات.

اقتربت الآنسة تشيجز مرة أخرى، وقالت: «إن لديّ أخباراً عرفتها من أجلك وأود إعلامك بها.. لقد نوّه (هذا الشاب) إلى الآنسة صوفي، عما يسره بداخله.. بحسب رأيي الخاص، لقد كان جاداً يُدرك مقاصده، بدا ذلك واضحاً».

تساءلت السيدة واكلز قائلة: «عن أي شيء نوه يا عزيزتي؟».

أجابت الأنسة تشيجز: «عن أشياء كثيرة، لا تستطيعين تصوّر كم من الوقت ظلا يتحدثان طواله!».

اعتبر السيد سوفييلر أنه من المستحسن ألا يسترق السمع أكثر من ذلك، منتهزاً فرصة توقف الرقص، واقترب السيد تشيجز من السيدة بغرض جذب انتباهها، فصار متعجباً، تغمره الغطرسة الكاملة، مشى نحو الباب دون اكتراث، مازاً بالأنسة جين، التي كانت في كامل بهائها وسط شعرها المجعد، تغازل رجلاً عجوزاً واهناً، كان يجلس في الردهة -ربما اعتادت فعل ذلك، ما دام لم يكن هناك ما هو أفضل لتفعله- وانتقل إلى حيثما كانت تجلس الأنسة صوفي، على مقربة من الباب، ترتجف في ارتباك من اهتمامات السيد تشيجز المنصبة عليها، ساعتها تباطأ ريتشارد سوفييلر، ومن ثمّ توقف، عندما وصل إلى جانبها ليتبادلا بعض كلمات الفراق.

تمتم ديك، ناظراً إليها في قسوة: «يقف قاربي على البحر ثابتاً، ينتظر على الشاطئ راسياً، قبل أن أتخطى هذا الباب، سأقول لك الوداع يا أعز الأحباب».

انتزع قلب الأنسة صوفي من مكانه بسبب عواقب حيلتها التي تتلقاها، لكنها رغمًا عن ذلك تظاهرت بعدم الاكتراث، وقالت: «هل سترحل؟».

ردد ديك في مرارة: «هل سأرحل؟ اممم! نعم سأرحل.. لماذا تسألين؟».

قالت الأنسة صوفي: «لا شيء، توقعت أن الوقت لا يزال مبكرًا.
لكنك على وجه العموم تملك حرية الاختيار بالطبع».

قال ديك: «تمنيت على وجه العموم أن أملك حبيتي أيضًا.. كنت
لي سبب متعتي يا آنسة واكلز، آمنت بأن ما يجمعنا صادقًا، وأحببت
ذلك الإيمان، لكنك الآن أمسيت سبب خديعتي».

زمت الأنسة صوفي شفيتها، وتظاهرت أنها منتبهة إلى السيد
تشيجز، الذي كان يتجرع عصير الليمون بعيدًا.

قال ديك، متغافلًا عن هدفه الأساسي الذي جاء من أجله: «لقد
أتيت إلى هنا، وكان صدري رحبًا، وقلبي متسعًا، ومشاعري إن تحدثت
عنها سأكون مسهبًا.. وسأرحل من هنا، وقلبي ضائق، بمشاعر يمكن
الإحساس بها فقط، ولا يمكن قول كلمة عنها، كم كانت الليلة قاسية!
لم أكن أتخيل أن الحقيقة ستكون إلى هذا الحد مفاجئة!».

قالت الأنسة صوفي منكسرة العينين: «لست متأكدة تمامًا مما تعنيه
يا سيد سويفلر.. لكنني حقًا آسفة إذا..».

قال ديك: «آسفة يا سيدتي! آسفة حيال هوسك بالسيد تشيجز!
على كل حال، أتمنى لك قضاء أمسية سعيدة، لكنني أريد أن أضيف
ملاحظة طفيفة، إن هناك شابة جميلة تترعرع في اللحظة الحالية من
أجلي، ليست جذابة وذات شخصية رائعة فحسب، بل تملك ثروة
هائلة، ومن عرض علي طلب الزواج منها والانضمام إلى عائلتها هو
أقرب الأقربين لها، وبسبب تبجيل أفراد أسرتها لي، أبرمت العهد. هناك

حالة من الرضى تجتاحني، أشعر بسعادة غامرة حيال سماعي أن فتاة صغيرة محببة تكبر؛ وتغدو آنسة يافعة من أجلي، وستبقى لي. أحسب أنه كان لزاماً عليّ إخبارك.. حسناً! أريد الآن أن أتقدم بخالص اعتذاري وأسفي على اهتمامك بي لفترة طويلة سابقة.. تصبحين على خير».

وصل السيد سوفييلر بالقرب من مسكنه، حاملاً شمعة أخدمها، متحدثاً إلى نفسه: «هناك شيء جيدٌ حيال ذلك الأمر برمته، وهو أن قلبي وروحي وكلي من رقبتي حتى كعبي مهمة بالنسبة لفريد؛ كي يصبح قادراً على إتمام مخططه الخادع لنيلي الصغيرة، في حقيقة الأمر أنا ممتن جداً؛ لأنه سيدرك أنني جدير بذلك. أحسب أنه سيدرك ذلك بدءاً من الغد، لكنني في الوقت الحالي أحسب أن الوقت متأخر، وعليّ أن أحظى بغفوة في هذا الدفء المعتدل».

أسدل الليل الدافئ ستائره. وسرعان ما تسلل النعاس إلى عيني السيد سوفييلر في بضع دقائق، ونام، يحلم أنه قد تزوج من نيلي ترينت، ومملك الثروة، وأن خطوته الأولى بعد امتلاكه للسلطة والنفوذ كانت تبوير مزرعة السيد تشيجز، وتحويلها إلى حقل قريميد.



الفصل التاسع

كانت ثقة الطفلة في السيدة كويليب متأصلة فيها، لكنها بطريقة واهنة كشفت عن مآسيها وأفكارها، ووضحت لها ماهية الغمامة التي اقتحمت منزلها، وألقت بظلالها الداكنة عليه وأخمدت موقده. كان من العسير عليها أن تحكي لأي شخص، لم يكن على دراية كاملة بنوع الحياة التي تخوضها -أو من دون تزيّد- كان شعورًا كافيًا ليغمرها بالكآبة والوحدة، ويجعلها تسكن في خوف دائم من اقتراف أي فعل؛ قد يسبب ألمًا للرجل العجوز، الذي تعلّقت به دون حدود، على الرغم من تقييده لها الذي طغى على قلبها وأثقله، جاعلاً إياها مترددة تخشى مجرد التلميح إليه بالسبب الرئيس لاضطرابها وحزنها. لكن لم تكن الأيام المضجرة الرتيبة التي عاشتها دون أدنى تنوع أو تغيير، أو قضاؤها لحياة لا تشعر فيها بالفرح لغياب أي رفقة مريحة تشبهها أو تماثلها عمرًا، أو الأمسيات الكثيرة المليئة بالغم والليالي الطويلة التي قضتها وحيدة، أو فقدان كل المتع -حتى البسيط منها- التي تُدخل السرور على قلوب الصغار، أو عدم إحاطتها بأي شيء ينتمي إلى الطفولة، هي ما أبكت نيل، وتسببت في أن تفيض من عينها الدموع، كان السبب ضعفها وروحها المهشمة.

أبصرت رجلاً عجوزاً يعيش تحت وطأة حزن خفي دائم، أبصرته مترنحاً غير مستقر، أبصرته مرتعداً في خوف مروع، وذهنه في شروذ وضلال، أبصرته متممًا بكلمات غير مسموعة وتظهر عليه أمارات الجنون اليائس، تشاهد وتسمع وتعايش حدوث ذلك باستمرار يوماً بعد يوم، تعي وتشعر أن لا أحد في سائر العالم، يمكنه أن يساعدهما، أو أن يقدم لهما المشورة، تشعر أنهما لا يعنيان شيئاً لأحد.. يكفي كل ما ذكر كي يتسبب في اكتئاب واضطراب يقلقل الأحاسيس ثقل الوطأة على صدر شخص كبير، فرض عليه وسط هذا كله أن يدعي السعادة، فما بال ثقل هذا على استيعاب طفلة صغيرة محيطة بتلك الحالة ومعايشة لها دون انقطاع، مطوقة بشتى ما يمكن أن يتسبب في جعل تلك الأفكار مطروحة باستمرار. إضافة إلى ذلك، لم يلحظ العجوز أبداً أن نيل قد تغيرت، وبحسب أنها لا تزال كما هي على نفس الحال. إن حدث في مرة عابرة، واستطاع انتشال عقله بعيداً، من استحواذ أشباحه السوداوية، ومن أسر تفكيره الكئيب الدائم، تجده يتسم مع رفيقته الصغيرة نفس الابتسامات القديمة، متفوهاً بكلماته الرزينة ذاتها، يضحك في مرح، مُحبباً وراعياً لها، كأن طبيعته السالفة قد عادت إليه مرة أخرى، كما لو أنه لم يتخلَّ عنها طيلة حياته. يعيش لحظته تلك ويتعايش معها بكل جوارحه، يقرأ لها كتاباً أحبته، بداية من الصفحة التي قدمتها له، حالماً بقصته المخبأة في أوراقه مشتاقاً إليها، يتمتم إلى نفسه أن الطفلة على الأقل سعيدة.

ذات مرة.. غنّت الطفلة، متنقلة بين الغرف القائمة، هائمةً في روح تتألق بين كنوزها المتربة، تُضفي عليها مقارنة حيويتها اليافعة بها قدماً على قدم؛ فتزيدها قساوة وظلمة، على عكس حضورها البهي. لكن الغرف الآن خيّم عليها البرد والظلمة الموحشة، حينما تغادر غرفتها الصغيرة خلال ساعات النهار المضجرة، وتجلس في أي غرفة منها، تمكث فيها دون حراك في سكون، ثابتة على ذات الحال. لم يكن لدى قلبها صوت قادر على حديث يشق صداه الصمت الدائم.

في إحدى هذه الغرف، كانت توجد نافذة مطلة على الشارع، لطالما جلست عندها الطفلة لفترات طويلة بمفردها، يؤرقها التفكير على مدار ليل طويل لأمسيات عديدة. فلا أحد أكثر اضطراباً ممن ينتظرون في صمت، يشخصون بأنظارهم إلى الشارع في تلك الأوقات؛ فيحتشد حزن الحداد في تكدس داخل رؤوسهم.

تقر في مكانها عند الغسق، تراقب كل رائح وغادٍ، ومن يطلون من نوافذهم أيضاً، تتوالى عليها الأفكار، تتساءل إذا كان هناك من يماثلها في تلك اللحظة، يجلس مثلها وحيداً في غرفته، لكنها لا تجد أي إجابة سوى نظرات متبادلة بينها وبين العابرين، سواء شعروا في قرارة نفوسهم بما يعتمل في دخيلة نفسها جراء جلوسها وحيدة أو لم يشعروا، يلتفتون عنها، مديرين رؤوسهم، مولين ظهورهم؛ يكملون سيرهم في طرقهم مرة أخرى. ارتفع ركام غمام من مداخن معقوفة وملتوية على سطح أحد المنازل قبالتها، خُيل إليها أنها وجوه قبيحة منفرّة، تنظر لها مقطبة عابسة، تحاول أن تقتحم عليها غرفتها، لكنها تنفّس الصعداء، وتشعر

بارتياح يتسلل إلى نفسها؛ عندما يسدل الليل ستاره، ويصير ظلامه حالكا، فيطردهم إلى الخارج، لكنها سرعان ما تعود آسفة خائفة؛ فور مرور أحدهم بمصباح في الشارع، عندما يضيئه تستشعر عتمة روحها مرة أخرى. تلتفت من فورها إلى داخل غرفتها؛ تتأكد أن كل شيء مستقر في مكانه، لم يتحرك، فتهدأ نسبياً، وتعاود النظر إلى الشارع ثانية، حيث تقع عيناها على رجل يحمل نعشاً على ظهره، ويتبعه اثنان أو ثلاثة في صمت مطبق تجاه البيت، الذي يرقد فيه جسد من مات، فترتعد ويتمكن منها التفكير، يتبين لها أنه رجل عجوز ذو وجه وهيئة مختلفة، فتتملك منها مخاوف جديدة، وتحوم حولها التكهّنات. ماذا لو مات فعلاً.. لو تمكن منه مرض مفاجئ، لو لم يعد إلى المنزل مطلقاً مرة ثانية، حياً.. ماذا لو عاد إلى المنزل، ومن ثمّ قبلها وباركها كالمعتاد، وانتظر حتى تستكين في فراشها، ويغلبها النوم، أو ربما انتظر حتى يطمئن أنها تحلم في سرور، ثم قتل نفسه، وزحفت دماؤه على الأرض زحفاً، فتصل إلى باب حجرة نومها! كان من المخيف أن تراودها أفكارٌ كذلك، فإذا أفاقت من إمعان التفكير، وانتشلت نفسها من تلك السكرات الموحجة، لجأت إلى شخوص النظر عبر الشارع مرة أخرى، حينها تلاحظ أن الأقدام التي تطأ الشارع أصبح عددها أقل، وأمسى الشارع أكثر حلكة، يسكنه الصمت أكثر من ذي قبل. أغلقت المتاجر في سرعة، وأطفئت الأضواء، ولم يتبق سوى أضواء لامعة تتخلل النوافذ العليا، وأوى الجيران إلى أسرتهن. مع مرور الوقت، يتضاءل أثر ما ذكر، ربما يتلاشى أو يختفي، أو يُستبدل بشمعة ضوءها خافت،

ظَلَّتْ تحترق طوال الليل. لكنَّ متجراً واحداً على مبعدة يسيرة، بات مفتوحاً، يلقي على الرصيف وهجاً وردياً، بدا مشرقاً ومؤنساً. وبمرور وقت قصير، يُغلق ذلك المتجر أيضاً، فيتلاشى الضوء، ويلوح كل شيء كئيباً موحشاً في صمت، عدا صوت وقع أقدام على الرصيف من حين إلى آخر من السابلة، أو من جار ظلَّ بالخارج على غير العادة، وعاد متأخراً، يقرع على بابه في ضجة؛ ليوظ النائمين في مسكنه.

عندما تنقشع ظلمة الليل -رغم أن ذلك نادر الحدوث- تغلق الطفلة النافذة، تنظر في خلسة وفي ريبة من أمرها إلى أسفل السلم؛ لتتأكد من عدم وجود أحد الوجوه القبيحة بالأسفل؛ نتيجة ما تراه دائماً في أحلامها، فيتجسد أمامها على مرأى منها، وينبعث منه ضوء مريب، فتساءل ما إذا كان وجوده حقيقياً، وما قدر الرعب الذي سوف تشهده. لكن مخاوفها سرعان ما تتبدد؛ أمام ضوء مصباحها المنير، ورؤيتها للجانب المألوف من حجرتها. تتلو صلواتها في تضرع، تذرف الكثير من الدمع، من أجل العجوز، ترجو أن يستعيد راحة البال وأن تعود السعادة التي كانت تغمرهما سابقاً، ثم تضع رأسها على وسادتها؛ وتُترغم نفسها على النوم، لتعاود الاستيقاظ مرة أخرى قبل أن يطلع ضوء النهار، يترأى لها أنها سمعت صوت طرقات على الباب، فتجيب على الاستدعاءات الوهمية، التي أيقظتها من سباتها.

في إحدى الليالي، وتحديداً في الليلة الثالثة من بعد زيارة نيلي للسيد كويليب، أخبرها العجوز أنه متوَعكٌ ومريضٌ ذاك اليوم، قائلاً: إنه يجب عليه ألا يغادر المنزل. ساعتها لمعت عينا الطفلة فور معرفتها

بجلوسه معها، لكن إشراقة عينيها سرعان ما تلاشت مرة أخرى؛ حينما لاحظت ملامح الحزن والبؤس واضحةً على وجهه.

تمتم: «لقد قال خلال يومين.. يومين كاملين. هذا واضح! لكن أياً ما عدة قد مرّت، ولم يأت الرد. ماذا أخبرك يا نيل بالضبط؟».

- ما أخبرتك به بالضبط يا جدي العزيز.

قال العجوز في وهن: «نعم نعم! لكنني أريدك أن تخبريني مرة أخرى يا نيل. تخونني ذاكرتي. ماذا قال لك بالتحديد؟ قال لك إنه سيراني في الغد أم في اليوم الذي يليه؟ هل أوضح ذلك في قوله؟ أو أضاف ملاحظة أخرى».

قالت الطفلة: «لم يقل أي شيء إضافي! هل يجب عليّ أن أذهب إليه ثانية غداً يا جدي العزيز؟ على أي حال، سأذهب إليه في الصباح الباكر وأعود قبل موعد الإفطار».

هز العجوز رأسه رافضاً، تنهد في حزن، وجذبها نحوه.

- لن يكون هناك أي فائدة يا عزيزتي، لن يكون هناك أي فائدة مرجوة. إذا تخلّى عني يا نيل، في هذه اللحظة.. إذا تخلّى عني الآن، وأنا في أمس الحاجة إلى مساعدته؛ كي أسترده الوقت والمال الذي أضاعته هباء، كي أعوض كل معاناة عصفت بذهني وخضعت لها، وجعلت مني ما ترينه.. إنني مدمر بالكلية، بل أسوأ، وأكثر سوءاً من الأسوأ.. لقد دُمرت وانتهيت، من أجل ماذا قد غامرت بكل شيء! ماذا لو أصبحنا شحاذين!

قالت الطفلة في جراءة: «ماذا لو أصبحنا؟ حسنٌ دعنا نكون شحاذين، وسوف نكون سعداء».

قال العجوز: «شحاذون.. وسعداء! يا لك من طفلة مسكينة».

صاحت الطفلة في قوة تدفقت على نحو مفاجئ إلى وجهها المتورد، لكن بصوت مرتعش، وبإيماءات متعاطفة: «يا جدي العزيز! أنا لست طفلة حسب ما أعتقد، حتى وإن كنت طفلة، فلتستمع إليّ.. سأشحذ، سأعمل في الطرقات وفي الحقول، سأكسب قوت حياتنا، بدلاً من الحياة التي نعيشها الآن..».

قال العجوز: «نيلي!».

كررت الطفلة ما قالته في جدية أكثر من ذي قبل: «نعم! بدلاً من الحياة التي نعيشها الآن.. إذا كنت حقاً تعيشاً، أطلعني على سبب تعاستك، دعني أشاركك، إذا شردت وضللت الطريق، وأصبحت ضعيفاً واهناً، دعني أكون ممرضتك، وسأحاول جاهدةً العمل على راحتك. إذا أضحيت فقيراً، فلنكن فقراء معاً، دعني أكون إلى جوارك فقط، نتشارك الأمور معاً، دعني أكون إلى جانبك، لا تدعني أرى تغييراً طراً عليك دون أن أعرف سببه، وإلا سينفطر قلبي، وسأموت حقاً. يا جدي العزيز! دعنا نغادر هذا المكان الموحش غداً، ونسلك دربنا من باب إلى آخر».

غطى العجوز وجهه براحة يديه، وأخفاه وراء وسادة الأريكة التي استلقى عليها.

قالت الطفلة، ممرّة يدها حول رقبتة: «دعنا نشحد، لا يتابني
الخوف، سيكون لدينا ما يكفينّا، أنا متأكّدة أنّه سيكون لدينا ما يكفي.
دعنا نسير في طرقات المدينة، ننام في الحقول، أسفل الأشجار، دعنا لا
نفكر في أمر الأموال ثانيةً، أو أي شيء يمكن أن يجعلك حزينًا، دعنا
نستريح في الليل، ونستمتع بنسمات الصباح وشمسه، بينما تداعب
وجوهنا نهارًا، ونشكر معًا من أنعم علينا بذلك! دع أقدامنا لا تطأ غرًا
كثيبة، يجتاحها الظلام، في منازل موحشة بعد الآن، دعنا نمضي في
دربنا، وإذا داهمك التعب، فسوف نتوقف من فورنا؛ ونستريح في أفضل
مكان يمكننا إيجادّه، سأتكفّل بكلا الأمرين معًا».

خارت قوى الطفلة، ووهن صوتها وسط تنهدات، لتستند على
العجوز وتحتضنه، وتبكي، لكنها في الواقع لم تكن الوحيدة التي تبكي.
لم يكن هناك كلمات أخرى، تسمعها آذانهما، لم يكن هناك مشهد
آخر، تلتقطه أعينهما. رغم ذلك ظلت عيناان أخريان تتلصصان وأذنان
أخريان تسترقان السمع في خلسة مشينة، طوال كل ما مرّ وقد أنصتتا
لكل ما قيل بأكمله، والأدهى من ذلك أن العينين والأذنين كانت للسيد
دانيال كويليب، الذي تملّص إلى الداخل خفيةً، حينما انتقلت الطفلة
إلى جوار الرجل العجوز، وظل ثابتًا ممتنعًا عن الحراك دون أدنى شك،
منتظرًا في دهاء خالص؛ يتنصّت عليهما لا يريد قطع حديثهما، واقفًا
تعلو وجهه ابتسامته المعتادة الباعثة على الغثيان. على كل حال، يُحسب
أن الوقوف دون حراك أمر مضجر بالنسبة إلى المرء خاصة إن أنهكه
السير، فما بالك بالقزم، وهو كذلك من أولئك الذين لا يمكنون في

البيت طويلاً، لذلك سرعان ما ألقى بناظره على مقعد، وألقى بنفسه من فوره عليه في سرعة غير معتادة، جالساً على ظهره، واضعاً قدميه مكان الجلوس، ما مكنه من النظر والاستماع في راحة شديدة، هيأها لنفسه، وفي ذات الأثناء اجتاحت السخرية والنشوة والاستمتاع من أثر قيامه بفعل شيء عظيم، من وجهة نظر روحه الشيطانية الملازمة له. هنا، وضع ساقاً فوق الأخرى دون اكتراث، أراح ذقنه على راحة يده، أمال رأسه جانباً بالقدر القليل، تحولت قسّمات وجهه القبيحة إلى تقطّية، نَمّت عن رضاه. على حين غرة، التفت العجوز نحو ذلك الاتجاه، في وقت مناسب، شاخص البصر، فاغر العينين؛ وقد أدرك وجوده، تملكته دهشة عارمة غير معهودة.

صرخت الطفلة بصيحات مكتومة؛ للوهلة الأولى من دهشة رؤيتها له، ثم تجمدت أوصالهما ولم ينطقا بكلمة واحدة، سواء هي أو الرجل العجوز، تلتهمهما الشكوك؛ متسائلين عما إذا كان ما يبصرانه حقيقةً أم لا! وأخذوا ينظران إليه في قلق. على الرغم من ذلك، لم يرتبك دانيال كويليب أمام هذا الاستقبال على الإطلاق، بل ظل محافظاً على سلوكه ذاته، أوماً فقط مرتين أو ثلاث مرات؛ معرباً عن تسامحه العظيم، أمام ما اقترفاه. بعد لحظات طويلة، نطق العجوز اسمه في ذهول، واستفسر عن كيفية مجيئه.

قال كويليب، مشيراً إلى جانب كتفه بإبهامه: «لقد جئت من الباب.. أحسب أنني لست ضئيلاً بالقدر الكافي، الذي يمكنني من المجيء عبر ثقب المفتاح. كم تمنيت أن أكون في الواقع.. على كل حال، أريد أن

أحداثك على انفراد، وعلى وجه الدقة، لا أحد سيكون معنا حاضراً يا جاري.. إلى اللقاء يا نيلي الصغيرة».

نظر العجوز إلى نيلي، هازئاً رأسه، يرفض رحيلها، مقبلاً خدها.
قال القزم لاعتقاً شفثيه: «آه! يا لها من قُبلة لطيفة.. على خد متورد
ناعم.. يا لها من قُبلة تبعث الرضى!».

لم تنتظر نيل لوهلة أخرى، ورحلت من فورها؛ بسبب تعبيره الذي
أدلى به. تعقبها كويليب بنظرات يغمرها الإعجاب، حتى أغلقت الباب،
فإذ به يستطرد في قوله دون حياء، على مسمع ومرأى من العجوز،
ويتماذى في كيل المديح لسحرها الخلاب.

قال كويليب، مريحاً ساقه، محرّكاً عينيه في شراهة: «إنها صغيرة
نضرة، كبرعم صغير، بسيطة ومتواضعة، حسناء، ممشوقة، دافئة، ذات
بشرة وردية.. أوه، نيل الصغيرة!».

رد العجوز عليه بابتسامة مجبر عليها، مكافحاً نفاد صبره. لكن
تعبيراته لم تكن بالأمر العادي الذي يتخطاه كويليب دون أن ينتهز فرصة
استغلاله، مستشعراً السرور لقيامه بتعذيب شخص آخر.

قال كويليب، متحدثاً في هدوء، متظاهراً بالسكينة: «إنها حقاً..
إنها حقاً صغيرة، لكنها ملفوفة القوام، متناسقة الجسد، مخضبة اللون،
بشرتها شفافة تكشف عن عروق زرقاء، قدماها صغيرتان، على نحو
فاتن.. فليباركني الخالق ع.. هل تشعر باضطراب ما يا جاري؟ لماذا
ذاك؟ ماذا دهاك؟ أقسم لك..». ترجل القزم عن ظهر كرسيه؛ ليجلس

عليه، في حركة خفيفة هادئة بلا صوت، على الرغم من سرعته: «.. أقسم لك أنني لست على دراية تامة بأمزجة العجائز، لا أعرف إن كانت تسوء بسرعة، أم تكون هادئة معظم الوقت. لقد ظننت أن حديثي لطيف في محله، لطيف فعلاً. أنا متأكد تمام التأكد أنه لطيف. فلماذا يبدو مزاجك كأنه على النقيض تمامًا.. لماذا يا جاري العزيز؟».

قال العجوز في أنين موجه: «أجزم لك أنه كذلك بالفعل». ثم استطرد، ممسكاً رأسه بكلتا يديه: «إن الأمر مثل حمى مستعرة داخل رأسي، بين الحين والآخر يعتريني خوف التصريح به».

لم يتفوه القزم بكلمة واحدة، ظل جالساً يتأمل رفيقه، وهو يسير في خطى واهنة في أركان الغرفة ذهاباً ومجيئاً، إلى أن عاد إلى مقعده مرة أخرى، منكساً رأسه على صدره، لبعض الوقت، ثم رفع رأسه فجأة، وقال:

- مرة واحدة فقط! مرة واحدة نهائية.. هل جلبت لي أي أموال؟

أجاب كويليب: «لا!».

قال العجوز، قابضاً على يديه في إحكام، ناظرًا إلى الأعلى: «لقد ضعت أنا والطفلة في هذا الحالة!».

نقر كويليب على الطاولة مرتين أو ثلاث مرات كي يلفت انتباهه، محدقاً إليه في صرامة، وقال: «يا جاري! دعني أكون متساهلاً معك، ولنلعب لعبة أكثر عدلاً من تلك اللعبة السالفة، حينما كان بحوزتك كل الورق، ولم أر سوى ظهره، ولم يستحوذ على انتباهي أي شيء آخر. إذن بت تعرف الآن أنني لا أخفي سرّاً».

نظر العجوز إليه مرتجفًا.

قال كويليب: «هل تفاجأت! حسنًا.. ربما ما تمر به الآن أمرٌ طبيعيٌّ. أكرر قلبي عليك بت تعرف الآن أنني لا أخفي سرًّا، لا أخفي أي سر على الإطلاق. فلقد علمت بدءًا من تلك اللحظة، أن كل هذا المال، وجميع تلك القروض والسلفيات، واللوازم التي حصلت عليها مني، كانت تذهب إلى.. هل يجدر بي أن أقول هذه الكلمة؟».

رد العجوز: «آه! قلها، إن أردت».

عاود كويليب الحديث: «حسنًا! إلى طاولة اللعب.. إلى أماكن تردداتك الليلية. إذن كان ذلك هو مخططك الثمين لكسب ثروتك، إذن هذا هو شرك الدفين لمصدر ثروتك، حيث بددت أموالي، وكنت أنا الأحمق الذي تستغله، كنت منجم الذهب، الذي لا ينضب من الذهب، وكأنني الدورادو^(٦) بالنسبة لك.. أليس كذلك؟».

صاح العجوز، ملتفتًا إليه بعينين لامعتين بدمعها: «نعم! إن الأمر كذلك، وسيظل على هذا النحو، سأحاول مرات ومرات حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة».

قال كويليب، ناظرًا إليه في ازدراء: «أحسب أنني كنت أعمى طوال تلك الفترة عن مقامر، بل على وجه الدقة مقامر فاشل!».

صاح العجوز في صرامة: «لست بمقامر، فلتشهد السماء أنني لم

(٦) تعني المُنْذَب أو الذهبي، هو الاسم الذي أطلق في البداية على ملوك أو زعماء الكهنة في إحدى قبائل أمريكا الجنوبية، إذ يقال إنه كان يغطي نفسه بغبار الذهب في احتفال ديني سنوي، ومع الوقت أصبح اسم الدورادو رمزًا لكل مكان يمكن فيه اكتساب الثروة السريعة. (الترجمة).

ألعب أبداً من أجل تحقيق مكاسب خاصة، أو حباً في اللعب، في كل مرة كنت أمسك الزهر، كنت أهتمس بيني وبين نفسي، باسم اليتيمة، داعياً أن تبارك السماء المضاربة.. لكنها لم تفعل أبداً. مَنْ كان يكسب؟ مَنْ كان يلعب؟ مَنْ كنت ألاعب؟ إنهم رجال تمثّلت حياتهم في النهب والتبذير والفسق، يسرفون أموالهم في كل ما هو سقيم، ناشرين الرذيلة والشر. ربما جنيت منهم مكاسب فعلاً، لكنها كانت تُمنح لطفلة صغيرة بريئة بلا خطية، كانت مكاسبي لجعل حياتها سعيدة وحلوة. ما الذي كانوا سيفعلونه بتلك الأموال؟ المزيد من الفساد وإفشاء العوز والبؤس. مَنْ لا يتطلع إلى فعل ما فعلت؟ أخبرني! مَنْ لا يتطلع إلى فعل ما فعلت وهو يعيش نفس أحوالي؟».

سأل كوبلي، وقد كُبح جماح سخريته اللاذعة ووحشيته؛ أمام حزن العجوز: «متى بدأت أول مرة ذلك العمل الماجن؟».

قال ممرّراً يده على جبينه: «متى بدأت أول مرة! متى كانت.. بدايتي؟ حينما كان لزاماً عليّ أن أبدأ، حينما استشعرت كم هو قليل ما أدخره! وكم أمضيت من وقت طويل في ادخاره، وكم من سنوات قليلة بقت في عمري، وكم هي صغيرة، حتى تترك تحت شفقة العالم القاسي، التي لن تكون كافية، لإبعادها عن مرارة الفقر، بدأت حينما فكرت في هذا كله».

قال كوبلي: «بعد أن أتيت إليّ؛ طالباً مني إرسال حفيدك الغالي عبر البحر؟».

أجاب العجوز: «تقريباً بعد وقت قصير من حدوث ذلك.. راودني الأمر كثيراً، ومكثت أفكر فيه طويلاً، وأراه في نومي لأشهر عدة، ومن

ثمَّ بدأت. لم أجد فيها أي سعادة، لم أكن أتوقع أن أجد من الأساس. كان كل ما أفاضت عليَّ به الكثير من الأيام المضطربة والليالي المؤرقة، خسرت صحتي وخسرت سلامة عقلي وراحة بالي، ولم أكسب سوى الضعف والوهن!».

«خسرت جميع ما ادخرت من مال، وبعدها أتيت إليَّ. كنت أظن أنك تبجني ثروتك - كما قلت إنك بالفعل تجنيها - بينما كنت تقود نفسك إلى التسول.. أليس كذلك؟ يا لنفسي الكريمة! حسنًا! اسمعني جيدًا.. إذا أردت تخطي ذلك، فعليك أن تسلمني كل ورقة مالية تحتكم عليها، ومعها قسيمة بيع لـ.. لمخزنك وجميع ممتلكاتك». قال كويليب ذلك، ثم همَّ واقفًا، كأنه يعلن فرض سيطرته على المكان، مؤكِّدًا لنفسه أن لا شيء سوف يتم نقله، ثم عاد متسائلًا: «لكنك حقًا لم تكسب أي مال على الإطلاق؟».

قال العجوز في أنين ملتانع: «مطلقًا! لم أتمكن حتى من كسب ما خسرتة!».

قال القزم في سخرية: «أعتقد أن الرجل إذا لعب لفترة طويلة بما يكفي، يجب أن تكون ثقته في الفوز في النهاية معززة، أو بحسب أسوأ التقديرات يجب ألا يمضي خاسرًا».

صاح العجوز، متنفِّضًا فجأة من شدة يأسه، تاركًا لنفسه العنان، متخذًا أكثر سلوكياته عنفًا: «نعم! لقد مضى، لقد مضى كذلك.. طالما كنت أشعر بحدوث ذلك منذ البداية، طالما عرفت، طالما رأيت.. لكنني لم أشعر أبدًا بنصف ما أشعر به الآن.. لقد حلمت يا كويليب

بفوزي بنفس قدر المبلغ الكبير، على مدار ثلاث ليال، لم أكن أستطيع أن أحلم بشيء من هذا القبيل من قبل، على الرغم من أنني قد حاولت كثيرًا. لا تتخلّ عني، لديّ الآن الفرصة السانحة. ليس لديّ أي مورد سواك، امنحني بعض المساعدة، دعني أجرب آخر أمل لديّ».

هز القزم كتفيه، وحرّك رأسه في شيء من الاستهجان.

قال العجوز، وهو يسحب بعض قصاصات الورق من جيبه بيده المرتعشة، متشبّثًا بذراع القزم: «انظر يا كويليب، انظر يا صاحب القلب الطيب، انظر فقط إلى هذا، انظر إلى تلك الأوراق، انظر إلى ناتج تلك الحسابات الطويلة، الذي توصلت إليها بعد الكثير من المعاناة والألم والخبرات المؤلمة. حتمًا سوف أكسب.. أريد فقط مساعدة وحيدة أخيرة، أريد بضعة جنيهات فقط، أربعين جنيهًا لهذه المرة يا عزيزي كويليب».

قال القزم: «لقد أعطيتك آخر مرة سبعين جنيهًا، وأضععتها في ليلة واحدة».

أجاب العجوز: «أعرف أن هذا ما حدث بالفعل.. لكنه كان أسوأ حظ على الإطلاق، ولم يكن الوقت قد حان وقتها». ثم أكمل صائحًا، مرتجفًا، حيث رفرت الأوراق، الممسك بها في يده، كأنها كانت في مهب الريح: «يا كويليب! انظر! تأمل! خذ بعين الاعتبار الطفلة اليتيمة المسكينة! إذا كنت بمفردي في هذه الدنيا، كنت استقبلت حتى الموت في سرور.. وكنت استبقت توقع الخسارة، التي تأتي دائمًا على نحو غير عادل، بينما هم في كامل فخرهم وسعادتهم بقوتهم، متجاهلين

المحتاجين والبائسين، وكل مَنْ يلجأ إليهم بعد أن غمرهم اليأس، غامرت من أجلها، فعلت ما كنت أفعل من أجل خاطرها. ساعدني من أجلها، أتوسل إليك، ليس من أجلي، بل من أجلها!».

نظر كويليب إلى ساعته في رباطة جأش عظيمة، وقال: «أنا آسف حقًا، لديّ موعد في المدينة، كنت لأصبح مسرورًا؛ لو أنني قضيت نصف ساعة معك، بينما تستعيد انضباط نفسك، كنت لأصبح مسرورًا جدًّا».

لهث العجوز، بينما يتعلق في رداء الآخر: «لا يا كويليب، يا سيد كويليب العزيز الطيب! لقد تحدثنا معًا أكثر من مرة، عن قصة والدتها المسكينة. ربما على هذا الأساس نما لديّ الخوف من أن تعيش في فقر. لا تكن قاسيًا معي، خذ هذا في حسابك. أنت الرابع الأكبر، لا تبخل عليّ بالمال، إنه أمني الوحيد الأخير».

قال كويليب، في أدب على غير العادة: «لا أستطيع فعل ما تطلبه حقًا! على كل الأحوال سأقول لك شيئًا -هناك عقبات يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار؛ فهي تتسبب في ظهور الجفاوة فيما بيننا في بعض الأحيان-، لقد خُذعت بدعوى معيشتك بمفردك مع نيلي كثيرًا في السابق...».

صاح العجوز: «لقد فعلت كل هذا استرضاءً للحظ؛ لتظفر بحال أفضل».

قال كويليب: «نعم.. نعم! أتفهم ذلك، لكنني كنت على وشك أن أقول: إنني خُذعت مسبقًا كثيرًا بطريقتك البائسة هذه، على الرغم من سُمعتك التي اكتسبتها بين أولئك الذين عرفوك بأنك غني، وصدقت

تأكيداتك المتكررة حول ردك للسلفات التي اقترضتها مني، بثلاثة
أضعاف وأربعة أضعاف فوائدها.. حتى الآن، تعد مؤكداً بسدادك، وكنت
سأقترضك، لكنني الآن مطلع على حياتك السرية، لقد قيل لي كل شيء».

قال العجوز في يأس: «مَن هو؟ قل لي مَن الذي أخبرك رغم
حذري؟ تعال هنا! أخبرني.. دعني أعرف اسمه.. اسم هذا الشخص».

تفكر القزم الماكر بينه وبين نفسه بأن تخليه عن الطفلة سيؤدي إلى
الكشف عن حيلته التي خطط لها، حيث لا مكسب جراء ذلك، فقرر أنه
من الجيد التغافل، بات صامتاً عن الحديث لشوان، ثم قال: «مَن تعتقد
في رأيك؟».

قال العجوز: «إنه كيت! حتماً إنه كيت، كان هو الجاسوس، وقد
رشوته وتحيلت عليه، أليس كذلك؟».

قال القزم في لهجة مفعمة بالثناء العظيم: «كيف فكرت فيه؟ إنه هو
فعلاً.. لقد كان كيت.. أوه! عزيزي كيت!».

فرغ كويليب من قوله، ثم أوماً برأسه بطريقة ودية، مشيراً إلى
مغادرته، لكنه حينما ابتعد لمسافة قصيرة بعد اجتيازه للباب، ابتسم في
بهجة غير عادية.

تمتم كويليب: «أوه! عزيزي كيت! كيت الذي قال عني إنني قزم
أكثر قبحاً ممن يمكن رؤيتهم في أي مكان مقابل بنس واحد، أليس
كذلك! ها ها ها! كيت المسكين!».

وهكذا.. مضى في طريقه، على الحال نفسه، مبتسماً فاغراً فاه.

الفصل العاشر

لم يكن دخول دانيال كويليب أو حتى خروجه من منزل العجوز غير مرئي. ففي ظلال أحد الممرات المتفرعة من الشارع الرئيس أمام الطريق، كان يتسكع أحدهم، اعتاد أن يقف في مكانه عندما يحل الشفق، في ثبات وصبر غير منقوص، يميل على الحائط مِيل شخص بقي منتظرًا لفترة طويلة، لكنه كان ينتظر دون كلل، يكاد لا يغير موضعه قرابة الساعة.

لفت ذلك المتسكع الصبور انتباه العديد من المارة، ومع ذلك لم يلتفت مطلقاً إلى أي منهم. كان نظره مُتمركزاً على شيء واحد باستمرار دون انقطاع، كان ذلك الشيء هو النافذة، حيثما اعتادت نيل الجلوس. إن أشاح بناظره عنها للحظة، فذلك من أجل إلقاء نظرة خاطفة فقط على ساعة أي متجر مجاور، ثم يعاود من فوره تسخير ناظره من أجل التطلع نحو ذلك الركن القديم مرة أخرى، في جدية وانتباه أكبر.

كان من البين أن ذلك المُنتظر لا يظهر أي ضجر أو سأم؛ جراء انتظاره -مهما طال-. لكن أمارات القلق والذهول، كانت تظهر عليه، مع مرور الوقت، يقلب النظر باستمرار ما بين النافذة والساعة، لكنه في

كل مرة يعاود فيها النظر إلى النافذة، يكون أقل حماسًا فاقداً الأمل. ويبقى الحال على ما هو عليه، حتى تختفي الساعة وراء مصراعي باب المتجر، ويدق جرس الكنيسة معلناً أنها الحادية عشرة ليلاً، ثم الحادية عشرة والرابع، فتزعزع قناعته داخل نفسه، وينتابه شعور بأن لا فائدة من الانتظار أكثر من ذلك.

كانت قناعته المزعزعة غير مرحب بها على الإطلاق، لم يكن على استعداد للعدول عن فعله، وقد تبين ذلك من رغبته في عدم مغادرة المكان، فيتحرّك في خطوات ثقيلة متباطئة، ناظرًا إلى ما فوق كتفيه، يلتفت نحو النافذة نفسها، يسارع بالالتفات دون توانٍ؛ إذا أحس بأي تغيير أو بضوضاء ليس لها وجود سوى في مخيلته، أو إذا ما لمح ضوء سطع على حين غرة. يظل على حاله نفسه، فاقداً للأمل في ليلته، مرغماً نفسه فجأةً على الركض بعيداً؛ بأقصى سرعة لديه؛ كي لا يتجدد أمله مرة أخرى، ويغويه، فيعاود النظر إلى الخلف.

لم يتمهل في ركضه، لم يخفف سرعته، ولم يقف كي يلتقط أنفاسه، مضى ذلك الشخص الغامض راكضاً، بين العديد من الأزقة الضيقة والممرات، إلى أن وصل بعد مضي الوقت الطويل إلى ساحة مرصوفة، حينها قلل من سرعة ركضه، مكتفياً بالمشي، حتى وصل إلى بيت صغير، يسطع من نافذته ضوء لامع، رفع مزلاج الباب، ومن ثمّ دخل.

صاحت سيدة في صوت حاد: «مَن هناك؟ أوه! حمداً للخالق! إنك كيت، أليس كذلك؟».

- نعم يا أمي إنه أنا بالفعل.

- لماذا تبدو منهكًا إلى هذا الحد يا عزيزي؟

قال كيت: «لم يخرج العجوز هذه الليلة، فلم تخرج إلى النافذة مطلقًا». مع انتهائه من قوله، جلس بالقرب من نيران المدفأة ساخطًا، شارد الذهن، حزينا.

بدأت الغرفة التي جلس فيها كيت بسيطة وعائلية، تتخللها نسمات عليلية طيبة، تبعث هدوءًا في النفس، رغم ذلك كانت صغيرة، مفتقرة إلى النظام إلى حد كبير. كانت الساعة الهولندية لديهم تشير إلى وقت متأخر، سهرت فيه السيدة المسكينة تعمل في كدح على طاولة الكي، كان إلى جوارها بالقرب من المدفأة رضيع ينام في مهده، وولد قوي يبلغ من العمر عامين أو ثلاثة أعوام، في كامل نشاطه وصحوه، يعتمر قبعة على رأسه، يرتدي منامة ضيقة على جسده، ماكثًا باستقامة داخل سلة ملابس، محدقًا إلى ما فوق حافة السلة، بأعين دائرية في كامل اتساعها، دلت على أن عقله قد قرر تمامًا، دون رجعة، عدم النوم أبدًا في تلك الليلة، فرفض مسبقًا أخذ قسطه من الراحة -المعتادة لأي طفل-، فأخرج من سريره، ليجدد البهجة مع أصدقائه وذوي رحمه. كان للعائلة مظهرٌ مريبٌ؛ فتماثلت ملامح كيت ووالدته والطفلين بشدة.

كان من المفترض أن مزاج كيت عكسٌ -كما هو حال الغالبية العظمى منا في أغلب الأحيان-، لكنه نظر إلى الرضيع النائم، ثم حرك ناظريه نحو أخيه الآخر الماكث في سلة الملابس، ثم إلى والدتهم، التي كانت تعمل منذ الصباح الباكر، دون إبداء أي شكوى، ظنًا منه أنه

سيكون في حال أفضل، وسوف تسود السكينة نفسه. هز المهد بقدمه،
غير ملامح وجهه مباشرة؛ لمداعبة المتمرد الماكث في سلة الملابس،
عازماً على أن يبدأ حديثاً مستساغاً، ويجعل من نفسه متحدثاً محبوباً.

قال كيت، مخرجاً سكنته، ليقطع خبزاً ولحمًا، حُضِّرْ له منذ
ساعات: «يا أمي! أي المخلوقات أنت! لا كائن يضاهيك مثيلاً، أنا
متأكد تمام التأكد».

قالت السيدة نابلز: «آمل أن تكون هناك مواظبة على المعاملة
الحسنة، على أي حال يقول كاهن الكنيسة: حتماً سوف يحدث
الأحسن».

رد عليها كيت في ازدراء: «أهو على دراية بنا، ويعلم حالنا!
انتظري.. ماذا لو يصبح أرمل مثلك، حيث يعمل كثيراً، ويكون ما
يتحصل عليه قليلاً، ويحافظ على اعتدال نفسه، ثم آتي إليه، وأسأله في
ذلك الوقت، وأثق بكونه على حق لمدة نصف ثانية».

قالت السيدة نابلز، متهربة من الحديث حول تلك النقطة: «حسنًا!
ستجد مشروبك إلى جانب سياج المدفأة يا كيت».

أجاب الابن، آخذاً القنينة: «أنا أراه يا أمي! أنا أحبك حقًا، فليباركك
الخالق، وبارك صحة الكاهن، إن وددت ذلك.. بالمناسبة، أنا لا أحمل
له أي ضغينة أو حقد، لست أنا من يفعل ذلك!».

سألت السيدة نابلز: «هل أخبرني لتوك أن سيدك لم يخرج هذه
الليلة؟».

قال كيت: «نعم! إنه الحظ الأسوأ على الإطلاق».

قالت الأم: «بل حسب ما أعتقد.. يُستحسن أن تقول: إنه الحظ الأفضل؛ لأن نيل لم تبقى بمفردها».

قال كيت: «آه! لقد غفلت عن ذلك الأمر، لقد قلت الحظ الأسوأ؛ لأنني مكثت منتظرًا؛ أراقب ظهورها منذ الساعة الثامنة، وانتهى الأمر دون جدوى؛ ولم أرها».

صاحت الأم، متوقفة عن عملها، متلفتة حولها: «أتساءل ما الذي سوف تقوله، إذا أدركت أنك كل ليلة، حينما تجلس هي -أوه عزيزتي المسكينة- بمفردها على النافذة، تكون أنت أمام المنزل؛ تراقبها؛ خوفًا من حدوث أي مكروه، قد يصيبها، وأنت لا تبرح مكانك، ولا تعود إلى بيتك، ولا تأوي إلى سريرك، وإن كنت متعبًا، إلى أن يحين الوقت الذي تتأكد فيه من أنها آمنة تمامًا».

رد كيت، وقد توردت وجنتاه، وتبسّم وجهه ذو الملامح الخرقاء: «لا يهم ما الذي ستقوله! إنها لن تعلم شيئًا بخصوص هذا الأمر، وبالتالي لن تقول شيئًا أبدًا من الأساس».

استمرت السيدة نابلز في الكي قرابة الدقيقة أو الدقيقتين، ثم ذهبت إلى المدفأة، حتى تأخذ مكواة أخرى، ناظرة في خلسة إلى ابنها كيت، بينما كانت تحرك المكواة على الطاولة وتنظفها بخرقّة دون أن تنطق بأي كلمة، حتى عادت إلى طاولة الكي مرة أخرى، ممسكة بالمكواة على مسافة قريبة من خدها؛ تستشعر درجة سخونتها، حينها التفتت إلى جوارها، قائلة:

- لكنني أعلم ما الذي سيقوله الناس يا كيت..

قاطعها كيت، في حدس مثالي وإدراك جيد لما كانت ستقوله: «لا يهتم!».

- لكنهم في كل الأحوال سيتحدثون. سيقول بعضهم إنك وقعت في حبها.. أعرف أنهم سيقولون ذلك.

على هذا النحو، لم يحر كيت جواباً سوى أن قال لأمه في عنف: «كُفِّي!»، دافعاً بيديه ورجليه في حركات متعددة غريبة هنا وهناك، تصحب حركاته ملامح تنم عن عدم الرضى. لم يَبْدُ أن ما فعله كيت قد هدأ من روعه؛ فقمض قمضة من الخبز واللحم ملء فمه، وتجرع مشروبه من القنينة، مفتعلاً سلوكيات تبعده تماماً عن صلب هذا الموضوع.

قالت الأم، بعد مرور بعض الوقت، عائدة إلى الموضوع نفسه: «كنت أمزح معك، لكن لزم التأكيد، دعنا نتحدث في جدية يا كيت، إنها جيدة، ورصينة، وتفضلك، ولم تدع أحداً يتقرب منها سواك، لكنني آمل حقاً أن يأتي اليوم الذي تدرك فيه حقيقة مشاعرك، تعتريني الثقة بأنها سوف تكون ممتنة وسعيدة للغاية حقاً، وستشعر بالحب الغامر.. يا له من أمر قاسٍ فظ أن تُحتجز طفلة صغيرة هكذا، أتساءل إذا كان العجوز لا يريد إبعادها عنك!».

قال كيت: «أحسب أنه لا يظن فعله فظاً.. يباركك الخالق! إنه لم يقصد أن يكون كذلك.. ولن يفعل ذلك.. أظن يا أمي أنه.. لن يفعل

ذلك مقابل ذهب وفضة العالم بأسره.. هذا أمر مستحيل، لا! لا! لن يفعل.. أنا أعرف أنه أفضل من ذلك كثيرًا».

قالت السيدة نابلز: «إذن ما مبرر ما يفعله! ولماذا يبقينا بعيدة عنك إلى هذا الحد؟».

قال الابن: «هذا ما لا أعرفه، إذا لم يحاول إبقاءها على مقربة مني، فلن أجد لها أبدًا بالخارج.. يتعمد أن يبعدني عنها ليلاً، وبيعني نهارًا، في وقت أبكر مما أعتاد، وهذا ما يثير فضولي حقًا، أريد أن أعرف ماذا يحدث.. أصغي! ما هذا؟».

- أعتقد أن شخصًا ما بالخارج.

وقف كيت يتحرى السمع قائلاً: «إنه شخص قادم نحونا، يأتي مسرعًا جدًا يا أمي!».

وقف الصبي لوهلة فاقداً القدرة تمامًا على التحرك، يرتجف من المخاوف المستحوذة عليه. اقترب وقع الأقدام، ومن ثم فُتح الباب بيد متعجلة لتظهر الطفلة نفسها شاحبةً منقطعة الأنفاس ترتدي ملابس خفيفة بطريقة فوضوية، تهرع إلى داخل الغرفة من فورها.

صاحت الأم وابنها معًا: «آنسة نيلي! ماذا حدث؟».

أجابت: «يجب ألا أبقي هنا للحظة، لكنني أريد أن أقول: إن جدي متعب حقًا.. لقد وجدته فاقد الوعي على الأرض..».

قال كيت، ملتقطاً قبعته: «سأذهب من فوري لأحضر طبيبًا، سأكون هناك في الحال، سأكون..».

صاحت نيل: «لا لا! لدينا طيب هناك، أنت لست بحاجة إلى أن تذه.. أنت.. أنت.. يجب ألا تقترب منا أبداً مرة ثانية!».

صرخ كيت بأعلى طبقة من صوته: «ماذا!».

قالت الطفلة: «ألا تقترب منا على الإطلاق.. ولا تسألني لماذا؛ لأنني لا أعرف! أتوسل إليك لا تسألني، وأتوسل إليك ألا تغدو حزينا، وأتوسل إليك ألا تغضب مني! حقيقةً ليس في يدي أي حيلة!».

نظر كيت إليها بأعين جاحظة مندهشة، يفتح فمه ويغلقه مرات ومرات، لكن دون أن ينطق بكلمة واحدة.

قالت الطفلة: «لقد كان محتدًا، ثائراً، يتمتم بشكاوٍ عدة تدور حولك، لا أعلم ما الذي اقترفته حقًا، أتمنى ألا يكون شيءٌ على هذا القدر من السوء».

صاح كيت: «أنا!».

قالت الطفلة، وعيناها مغرورتان بالدموع: «لقد كان يصرخ قائلاً: إنك السبب في بؤسه كله.. ويردد اسمك باستمرار، لذلك أوصونا بألا تقترب منه، وإلا سوف يموت. يجب ألا تعاود المجيء إلينا مطلقاً. لقد جنّت لأخبرك. اعتقدت أنه سيكون من الأفضل أن أحضر بنفسني، فضلاً عن أي شخص غريب. أوه! كيت، ماذا فعلت؟ أنت! أنت يا كيت! لقد وثقت فيك تمام الثقة، كنت صديقي الوحيد تقريباً!».

نظر كيت المسكين إلى حبيبته بعينين تزدادان جحوظاً، وسط الكثير من النظرات الحافلة بالقسوة، دون حراك، وفي صمت تام.

قالت الطفلة، ناظرة نحو السيدة، وهي تضع مالا على الطاولة: «لقد جلبت له مقابل عمله لمدة أسبوع.. و.. وأعلم أنه بالقدر القليل جدًّا؛ لطالما كان طيبًا ولطيفًا معي. آمل أن يكون آسفًا، وأن يتبدَّل حاله إلى أحسن حال، وألا يجرحه ما حدث. يحزنني كثيرًا أن نفترق، وأن أبتعد عنه هكذا، لكنني حقًّا لست أملك أي خيارات أخرى.. قد انتهى الأمر.. تصبحان على خير!..»

مع انهيار الدموع على وجنتيها، وارتجاف جسدها الرقيق من هول المشهد الذي تركته، وعنف الصدمة التي تلقتها، وصعوبة التلفظ برسالتها الشفهية التي ألقتهما عليهما للتو، إلى جانب الآلاف من الآلام والمشاعر المفعمة بالعاطفة التي يُموج بها صدرها، سارعت الطفلة إلى الباب، واختفت أسرع مما أتت.

لم يساور الأم المسكينة أي شك تجاه ابنها، لكن كل ما يحوم حول أمانته وصدقه خطر على بالها؛ خاصةً أنه لم يتلفَّظ بأي كلمة للدفاع عن نفسه. عصفت بذهنها رؤى السرقة والاحتيال، بسالته وغيابه الليلي الدائم عن المنزل بطريقة غريبة، اقترافه أفعالاً غير قانونية، مر هذا كله برأسها، وشملها الفزع، لكنها لم تجرؤ على سؤاله.

ألقت بنفسها على الكرسي، تهز يديها في قوة، قابضة عليهما، تنتحب في مرارة. أما كيت، فلم يبادر بأي رد فعل ليُهدئ من روع والدته، فظلت في حيرة مشوشة تمامًا.

استيقظ الرضيع في مهده باكياً، تعثر الطفل الذي كان في سلة

الملابس، وسقط على ظهره، ارتفع صوت نحيب الأم عاليًا، لكن كيت
لم يكن مدركًا لكل هذه الجلبة التي تدور من حوله، بُهت مما سمع،
انكمش في مكانه شاردًا متأثرًا بما علم.



الفصل الحادي عشر

لم يعد الهدوء هو السائد، ولم تستمر العزلة قائمة، أسفل ظلال السقف الذي يحمي الطفلة. في صباح اليوم التالي، كان العجوز طريح الفراش في سُبَات، يصارع حمى مستعرة صاحبها هذيان، استمر لعدة أسابيع، مغشيًا عليه جراء اعتلال جسده، راقدًا لا يبرح الفراش، في خطر شديد يهدد حياته. أصبح الجميع يهتمون بهما الآن بالقدر الكافي، يرأفون لحالهما، لكنها كانت رافة من غرباء، يملأ الجشع خباياها، يتاجرون بها، احتشدوا حول العجوز في جمع مروّع، أكليين، شاربين، هانئين، في بيت يسكنه المرض والموت، كأنهما أرباب المنزل المعتادون.

على الرغم من الازدحام الشديد والنمط السريع اللذين تموج بهما أجواء المنزل، استشعرت الطفلة الوحدة أكثر من أي وقت مضى، أمست روحها وحيدة، تتضرع وحيدة في صلواتها من أجل مفترش السرير، أمست وحيدة حتى في حزنها الصادق، وتعاطفها غير المشهود. لا تبرح مكانها نهارًا بعد نهار، وليلةً بعد ليلة؛ تقيم إلى جانب وسادة فاقد الوعي المتألم؛ مترقبةً ما يريد، مستمعةً إلى تكراره الدائم لاسمها،

وترديده لمخاوفه المتعلقة بأمر رعايتها المستمرة، طوال فترة شروده المحموم.

لم يعد البيت ملكهما، حتى الغرفة التي يملؤها المرض، بدت كأنها محجوزة؛ كملكية غير مؤكدة لصالح السيد كويليب. لم تمضِ على مرض العجوز أيام كثيرة؛ حتى كان السيد كويليب قد حصل بالفعل على تصريح رسمي، يفيد حيازته لكل شيء، بناءً على بعض الصلاحيات القانونية في هذا الصدد، التي استوعبها القليلون، ولم يبادر أحد بالسؤال عنها. استطاع الإقدام على تلك الخطوة المهمة بمساعدة رجل قانون، أحضره من أجل هذا الغرض، وبعدها شرع القزم في عملية انتقاله إلى المنزل على الفور، بصحبة معاونه، توكيداً لملكيته أمام جميع القادمين، وقد نصب لنفسه مكاناً مريحاً داخل البيت، وفق نمط ذوقه الخاص.

وتبعاً لما آل إليه الأمر، عسكر السيد كويليب في الردهة، ونظم إيقافاً فعلياً لأي أعمال عبر إغلاقه النافذ للمتجر كرد فعل أولي. تجوّل بين مقتنيات المتجر متفحصاً أثاثه، ثم اتخذ من أكثر الكراسي راحة وفخامة مجلساً مخصصاً له، تركز فيه في تعالٍ، بينما ترك آخر كان رديئاً وأكثر ضيقاً وأقل راحة قبالة كرسيه لصديقه، ظلاً قابعين في الغرفة دون حراك. بالإضافة إلى ذلك قام بعزل غرفة العجوز عزلاً تاماً عن باقي المنزل، وقد اعتبره السيد كويليب إجراءً حكيماً متبصّراً؛ كإجراء وقائي ضد العدوى من الحمى، بل داوم على التدخين بشراهة؛ باعتباره شكلاً آخر من أشكال التعقيم الصحي، وأصرَّ على أن يدخن صاحبه مثله.

علاوة على ذلك، أرسل رسالة إلى رصيف الميناء؛ يستدعي الفتى ذا الميول البهلوانية، الذي وصل على عجل، فأمره من توه أن يجلس على مقعد في مدخل الباب مباشرة، ويدخن غليوناً قدّمه له القزم من أجل الغرض نفسه، مهدداً إياه، أن عليه ألاّ يجرؤ أبداً على إخراج الغليون من بين شفتيه، ولو لوهلة واحدة مهما كان زعمه أو حجته. بعد إتمام السيد كويلب لكل تلك الترتيبات، استكان في مجلسه، ناظرًا حوله في رضى تام ضاحكاً معقّباً على ذلك بقوله إن هذا ما يطلق عليه راحة فعلاً.

كاد رجل القانون، صاحب الاسم الشجي (براس)، أن يصف إحساسه بالراحة أيضاً، لولا وجود عيبين، أولهما: أنه لم يستطع جاهداً بأي حال من الأحوال، الجلوس في اعتدال على مقعده، فقد كان قاسياً، ومنحرفاً بزواية، وزلقاً، ومائلاً. أما ثانيهما: أن دخان التبغ دائماً ما كان يسبب له تهيجاً داخلياً شديداً وانزعاجاً دائماً. لكنه إلى حد بعيد كان مخلوقاً مطيعاً للسيد كويلب؛ ولديه آلاف الأسباب التي تجعله يتضرع مستميلاً كويلب إليه ومتطلعاً إلى استرضائه ونيل استحسانه، لذلك حاول جاهداً التبشّم، معرباً عن رضوخه بأكثر الملامح -التي تمكّن من رسمها- كياسةً.

لم يتمتع هذا المدعى براس بسمعة طيبة كمحام، كان قد نشأ في مدينة (بيفيس ماركس) في لندن، كان طويلاً وهزيلًا، يشبه أنفه الكيس الدهني في وجهه، له جبهة عريضة بارزة، وعينان غائرتان، وشعر أحمر غامق. كان يرتدي معطفًا طويلاً أسود، يصل إلى عقبيه تقريباً، وسروالاً قصيراً أسود أيضاً، وحذاءً ذا رقبة عالية، وزوجاً من جوارب

قُطْنِيَّة رَمَادِيَّة ضَارِبَةٌ إِلَى الزَّرْقَةِ. رَغْمُ أَنَّهُ كَانَ يَقِفُ خَاضِعًا أَمَامَ رَفِيقِهِ، كَانَ لَهُ صَوْتُ أَجَشٍّ، يَعدَلُ عَنِ إِظْهَارِ أَيِّ مِنْ ابْتِسَامَاتِهِ الْمُبْتَدَلَةِ؛ رَاجِيًا أَلَّا يَتَعَرَّضَ إِلَّا لِأَقْلَ عَقَبَاتِ أَفْعَالِ رَفِيقِهِ الْبَغِيضَةِ وَطَآءَ، مَتَمْنِيًا أَنْ يَبْقَى صَدِيقَهُ عَلَى حَالِهِ مِنَ التَّجْهِمِ أَفْضَلَ كَثِيرًا مِنْ أَنْ يَثُورَ غِيْظُهُ.

نَظَرَ كَوَيْلِيبَ إِلَى مُسْتَشَارِهِ الْقَانُونِيِّ، مُتَمَشِّيًا فِي سَعَادَةٍ بِالْغَةِ، يَفْرُكُ يَدَيْهِ فِي مَرَحٍ؛ فَلَاحَظَ عَلَيْهِ أَنَّهُ يَغْمِزُ بَعَيْنَيْهِ كَثِيرًا فِي أَلَمِ مَبْرَحٍ؛ مُتَضَرِّرًا مِنْ دَخَانِ غَلِيُونِهِ، وَأَنَّ جَسَدَهُ كَانَ يَنْتَفِضُ أَحْيَانًا؛ إِذَا اسْتَنَشَقَ هَذَا الدَّخَانَ كَامِلًا، وَأَنَّهُ يَدَاوِمُ عَلَى التَّهْوِيَةِ بِيَدِهِ لِإِبْعَادِهِ.

قَالَ كَوَيْلِيبُ، مُلْتَفِتًا إِلَى الْفَتَى: «دَخَنَ أَيُّهَا الْكَلْبُ! وَامَلَأْ غَلِيُونَكَ بِالتَّبَعِ مَرَّةً أُخْرَى، وَدَخَنَهُ سَرِيعًا، إِلَى آخِرِ نَفْحَةٍ فِيهِ، وَإِلَّا سَاضَعَ شَمْعُ الْأَخْتَامِ عَلَى النَّارِ، وَمِنْ ثَمَّ أَفْرَكَ الْجُزْءَ الْأَحْمَرَ الْمُلْتَهِبَ مِنْهُ عَلَى لِسَانِكَ».

مِنْ حَسَنِ الْحِظِّ أَنَّ الْفَتَى كَانَ مَتِينًا قَوِيًّا، لَوْ أَهْدَاهُ أَحَدٌ جِيرًا حَيًّا كَانَ لِيَدْخُنَهُ. لِذَلِكَ أَوْمَأَ إِلَى سَيِّدِهِ فَقَطَّ بِإِشَارَاتٍ وَجِيزَةٍ، تَنَمُّ عَنْ تَحَدُّ قَوِيٍّ، ثُمَّ فَعَلَ مَا أَمَرَ بِهِ.

قَالَ كَوَيْلِيبُ: «أَلَيْسَ جَيِّدًا يَا بَرَّاسُ؟ أَلَيْسَ لَطِيفًا.. أَلَيْسَ عَطْرًا فَوَاحًا.. أَلَسْتَ تَشْعُرُ كَأَنَّكَ تَرْكِي؟».

تَحَدَّثَ السَّيِّدُ بَرَّاسُ إِلَى نَفْسِهِ، مُصْرَحًا إِلَيْهَا، أَنَّهُ إِذَا كَانَ كَذَلِكَ بِالْفِعْلِ، فَسَوْفَ يَكُونُ شَعُورُ التَّرْكِيِّ عَادِيًّا، بَلْ لَنْ يُحْسَدَ عَلَى مَا يَمْرُ بِهِ، لَكِنَّهُ اكْتَفَى بِقَوْلِهِ: إِنَّ شَعُورَهُ أَشْبَهَ بِشَعُورِ سُلْطَانٍ دُونَ شَيْءٍ.

قال كويليب: «إنها الطريقة المثلى لتجنب الإصابة بالحمى، بل بالأحرى إنها الطريقة المثلى لتجنب أي كارثة في الحياة! لن نقطع عن التدخين أبداً، في كل وقت نتواجد فيه هنا.. انفخ الدخان أيها الكلب، وإلا جعلتك تبتلع الغليون!».

سأل صديقه القانوني، بينما كان يوجه للفتى ذاك التحذير اللطيف: «هل سننتظر هنا طويلاً يا سيد كويليب؟».

أجابه كويليب: «بالطبع سننتظر؛ حتى يموت العجوز الراقد بالجوار».

ضحك السيد براس: «هي هي هي! أوه! عظيم جداً!».

صاح كويليب: «انفخ الدخان! لا تتوقف أبداً! يمكنك أن تتحدث وتدخل في الوقت نفسه.. لا تضع الوقت».

ضحك براس ضحكات يتملك الوهن منها، بينما يعيد تعبئة غليونه البغيض: «هي هي هي! حسناً حسناً! لكن ماذا لو استعاد عافيته، واسترد قواه؟».

رد القزم: «حسناً! حينما يحدث ذلك، سنكف، ولن نفعل ما نفعله الآن».

قال براس: «كم هذا لطف منك يا سيدي! أتعلم يا سيدي! كاد بعض الناس أن يبيعوا البضائع أو أن ينقلوها بالكلية.. أوه! يا سيدي! كانوا ليفعلوا ذلك، في نفس اللحظة، التي يمكنهم القانون من ذلك.. أتعلم يا سيدي! كاد بعض الناس أن يأخذوا كل ما هو صلب، أو حتى

أن يقتلعوا الرخام والجرانيت.. أتعلم يا سيدي! كاد بعض الناس أن ي...».

قاطعهم القزم: «كاد بعض الناس أن يجنوا على أنفسهم، إذا ظلوا يستمعون إلى هذرمتك الببغائية هذه».

ضحك براس: «هي هي هي! إن لديك حسًا مرحًا فكاهيًا يا سيدي!».

قاطعهما الخفير المدخن القابع في مدخل الباب متممًا، دون أن يُخرج الغليون من بين شفتيه: «ها هي الحسناء آتية».

قال كويليب: «ماذا قلت أيها الكلب؟».

رد الصبي: «قلت: الحسناء.. هل أنت أصم؟».

قال كويليب، وهو يسحب نفَسًا طويلًا، متنهدًا، كما لو كان يشرب حساءً لذيق المذاق: «أووه! سوف نسوي هذا الأمر فيما بيننا، فهناك الكثير من الأمور التي سوف يشهدها هذا المتجر.. آها! نيلي! كيف حاله الآن يا بطتي الماسية؟».

أجابت الطفلة منتحبةً: «إن حالته سيئة للغاية».

صاح كويليب: «كم أنت جميلة حقًا يا صغيرتي نيل!».

قال براس: «جميلة فعلاً.. بل إن جمالها ساحر في الواقع يا سيدي».

قال القزم، بطبقة صوت قصد منها أن تكون رقيقة: «هلا أنت الجميلة؟ وجلست على ركة عزيزها كويليب، أم ستدخل إلى غرفتها الصغيرة وتذهب إلى سريرها كي تنام؟ ما الذي ستفعله جميلتي نيلي؟».

تمتم براس في ثقة جابت الأفق: «يا لها من طريقة لطيفة ورائعة تلك التي تمتاز بها في معاملتك للأطفال! بالنسبة لي يكون مجرد الاستماع إليك بمثابة متعة بالغة».

لفظت نيل كلماتها في تعلثم: «لن أنتظر هنا لوقتٍ طويل من الأساس.. أريد فقط أشياء من خارج الغرفة، ثم ل.. لن.. لن.. آتي إلى هنا مرة أخرى، بعد الآن».

قال القزم، بينما ينظر إلى داخل الغرفة، حيث دخلت نيل: «اممم! غرفة صغيرة لطيفة.. أليست كذلك! تبدو تمامًا مثل كوخ ريفي! هل أنت متأكدة تمام التأكد أنك لن تمكثي فيها يا نيلي؟ وأنك لن تعودى إليها مرة أخرى يا صغيرتي؟».

ردت نيل من فورها تسارع في الرحيل آخذة بعضًا من ملابسها: «أبدا.. لن آتي ثانية.. لن يحدث ذلك مطلقًا!».

قال كويليب، متتبعًا إياها بناظريه: «كم هي رقيقة المشاعر! رقيقة جدًا ومرهفة الإحساس.. أشفق كثيرًا على حالها.. إنني أرى أن حجم سرير تلك الغرفة الصغيرة يناسب مقاسي تمامًا. أعتقد أنني سأأخذها غرفة لي».

رحّب السيد براس بفكرته تمامًا، أو بالأحرى كان ليرحب أو حتى ليشجع أي فكرة، صادرة من ذلك الشخص، مشى القزم إلى داخل الغرفة ليتفقدّها. وبمجرد أن أصبح بداخلها، ارتمى على السرير من فوره، مستلقيًا على ظهره، وغليونه في فمه، أمسى يهز ساقيه في عنف،

ويدخن غليونيه في شراهة. استحسن السيد براس المشهد الذي رأى، معقباً أن السرير الذي اختاره السيد كويليب ناعم ومريح للنوم عليه، بل يجوز استخدامه صباحاً ومساءً، فيكون في النهار أريكة مريحة، يدخن عليها كما يشاء، ويكون في الليل سريرًا للنوم، لكن الآخر حقق المشورتين في آن واحد، حيث نام عليه مدخناً غليونيه، في الوقت نفسه. كان رجل القانون -رغم ما أوصى به- يكتم في قرارة نفسه شعوراً بالدوار والارتباك؛ كرد فعل طبيعي اتخذه جهازه العصبي بسبب تدخينه التبغ، لذلك اغتنم فرصة استلقاء الآخر، وتسلى بعيداً؛ حيث الهواء الطلق، ومع مرور الوقت استعاد توازنه وتعافى بما يكفي، ليكون مهيباً للعودة مرة أخرى باتزان مقبول. لكن القزم الخبيث سرعان ما قاده إلى التدخين مرة أخرى، فانتكس من فوره، وترنح إلى أن ارتمى على أريكة، وأغشاه النوم في موضعه حتى صباح اليوم التالي.

كانت هذه هي الإجراءات الأولية التي قام بها السيد كويليب؛ للاستقرار في ملكيته الجديدة. انشغل كويليب لعدة أيام في عمله، فلم يستطع تدبير أي حيل؛ كان وقته منحصرًا فيما بين كتابة قائمة جرد لشتى الأشياء الموجودة في المتجر بمساعدة السيد براس، وبين الذهاب إلى الخارج لمتابعة أشغاله الأخرى التي -لحسن الحظ- أبقت في كل مرة مشغولاً لعدة ساعات. تيقظت أهواء جشعه، ونمت حيطته، فلم يتغيب عن المنزل لليلة واحدة. ومع مرور الوقت، ازدادت رغبته الجامحة في إنهاء مرض العجوز، سواء كان ذلك بطريقة سيئة أو جيدة، لدرجة أنه سرعان ما بدأ التنفيس عن رغبته في تمتعات معلنه أو حتى صرخات، نافذ الصبر.

تملصت نيل كثيرًا من محادثات القزم معها على استحياء، كانت تتهرب حتى من صوته، ومن ابتسامات المحامي لها، التي لم تقل فظاعة عن وجه القزم حينما يلوي قسماته لإضحاكها. عاشت في حالة متواصلة من الذعر والفرع؛ تخشى لقاء أي منهما على الدرج أو في الممرات، إذا انتقلت من غرفة جدها؛ لذلك قلما كانت تغادرها ولو حتى للحظة إلى أن يحل الليل ويطبق الصمت على الأجواء، فيشجعها لتجاوز وتخرج؛ حتى تتمكن من استنشاق هواء نقي في الغرف الفارغة.

في ليلة ما، كانت تجلس في حزن يؤرقها؛ فقد ازداد اعتلال جدها ذاك اليوم، لكنها هرعت إلى نافذتها المعتادة؛ فور أن سمعت اسمها يُنطق من أحد ما في الخارج. نظرت إلى الأسفل، تبينت أنه كيت، الذي حاول جاهدًا أن ينتشلها من تأثير انعكاسات أفكارها الحزينة.

قال الصبي هامسًا: «آنسة نيل!».

اعترى الشك الطفلة؛ لا تعرف إذا كان من المصرح لها أن تجيب على الجاني المشتبه فيه أم لا، لكنها تفكرت في أنه لا يزال الصديق القديم المفضل لها، لذلك أجابت الطفلة: «ماذا تريد؟».

رد الصبي: «أردت أن أقول لك كلمة واحدة طوال الفترة السابقة، لكن الماكثين هنا بالأسفل، دفعوني بعيدًا، ولم يسمحوا لي برؤيتك. لا تصدقي.. أتمنى ألا تصدقي حقًا أنني أستحق الإقصاء عنك، كما هو حالي الآن، إنك لا تصدقين، أليس كذلك؟».

ردت الطفلة: «بلى! أنا أصدق.. فلم يصيب جدي كل هذا القدر من الغضب منك؟».

أجاب كيت: «لا أعرف! لكنني متأكد تمامًا من أنني لا أستحق منه ذلك مطلقًا أو منك. بإمكانني القسم على قلبي هذا، وأن قلبي صادق وأمين. لا أستحق أن يتم طردي، وإجباري على الرجوع من الباب؛ وقد أتيت لأطمئن على سيدي مرات، و...!».

قالت الطفلة: «لم يخبروني بذلك قط! لم أكن أعرف فعلاً.. لو كنت عرفت، كنت منعتهم من فوري».

قال كيت: «شكرًا يا آنسة! إنه من المريح لي سماعكِ تقولين ذلك. لقد قلت: إن هذا ليس من فعلكِ بتاتًا.. لم أكن لأصدق أنكِ فعلتِ هذا من الأساس».

قالت الطفلة في حماس: «بالطبع! كنت على صواب!».

قال الطفل، مقتربًا من أسفل النافذة، متحدثًا بنبرة خافتة: «آنسة نيل! يوجد سادة آخرون جدد هنا بالأسفل، أحسب أن وجودهم يشكل لك اضطرابًا».

ردت الطفلة: «كما قلت بالضبط!».

أشار الصبي إلى غرفة العليل، وقال: «أحسب أن الأمر سيكون مشابهًا بالنسبة إليه أيضًا، عندما تتحسن حالته».

أضافت الطفلة، ولم تستطع كبح انهمار دموعها: «.. إذا تحسنت حالته».

قال كيت: «حتمًا ستتحسن.. ستتحسن بالتأكيد، أنا واثق جدًا أنها ستتحسن، يجب ألا تنخفض معنوياتك يا آنسة نيل، رجاءً لا تفعلي ذلك!». «

على الرغم من أن تلك الكلمات التشجيعية وعبارات المواساة والتعزية قليلة ووقعها قاس، فقد أثرت في الطفلة، في نفس لحظة قولها، وجعلت عينيها تفيضان بالدموع أكثر.

قال الصبي، والقلق مهيم على نبرة صوته: «من المؤكد أنه سيتحسن قريبًا، لكنك إذا لم تكفي عن جعل معنوياتك منخفضة، وإمراض نفسك بنفسك، ستدهور حالته من بعد شفائه، إذا رآك على حالك هذا.. أريد منك فقط أن تقولي كلمة جيدة في حقي.. كلمة طيبة فور تحسنه يا آنسة نيل!». «

قالت الطفلة: «لقد أخبروني ألا أنطق باسمك أمامه لفترة طويلة.. لفترة طويلة جدًا.. حقيقة! أنا لا أجرؤ، وإذا تجرأت وفعلت ما أملتُهُ عليّ، أي كلمة طيبة سأقولها يا كيت؟ إننا الآن فقراء معدومون، بالكاد لدينا خبز نأكله». «

قال الصبي: «لست أقصد من وراء ذلك أن أعود لعمل ما.. أردت كلمة طيبة، لاستعادة استحسانه لي وثقته في. ليس من أجل طعام أو أجر، لقد انتظرت طويلًا؛ آملًا في رؤياك فقط. لا تظنين حتمًا أنني أتيت إلى هنا في هذا الوقت العصيب، لكي أتحدث عن مثل تلك الأشياء!». «

نظرت الطفلة إليه في عطف وامتنان، تنتظر صامتةً تظن أنه ربما سيتحدث مرة ثانية.

قال كيت مترددًا: «لا! لم آتِ كي أتحدث عن مثل تلك الأشياء. أعلم أنني طوال حياتي لم يكن يتتابني هذا القدر من العواطف، لكنني أريده حقًا أن يصدق أنني كنت خادماً أميناً مخلصاً له، بذلت قصارى جهدي، ولم أعن ضرراً له أبداً.. حينها ربما لن ي..».

تلعثم كيت وتوقف حديثه، لدرجة أن الطفلة حشته على استكمال حديثه على عجل؛ لأن الوقت قد تأخر جداً، ويجب عليها إغلاق النافذة.

صاح كيت في جراحة مفاجئة: «ربما لن يظن أن ما سأقوله يُعد تبجحاً مني.. لكنني أعلم أن منزلكما أخذ منكما. لكن بيتي أنا وأمي متاح لكما، أعلم أنه بيت بسيط وفقير، لكن البقاء فيه أفضل لكما كماؤى، بعيداً عن شتى الموجودين هنا مؤخراً.. لماذا لا تشرفونا بحضوركما، إلى أن يسترد عافيته، ويتحرى في شؤونه وأحواله خلال المتسع الذي يريده من الوقت!».

لم تنطق الطفلة بأي كلمة، لكن كيت فور انتهائه من طرح اقتراحه، تنفس الصعداء، وشعر أن عقدة لسانه قد حلت، فشرع في التحدث بطلاقة وببلاغة قصوى.

قال الصبي: «أعلم أنك تخشين أن تجدي البيت ضيقاً وغير مريح -معك حق في هذا الأمر- لكنني أضمن لك أنه نظيف جداً. ربما تعتقدين أيضاً أنه سيكون صاخباً، لكن ساحته أكثر الساحات هدوءاً في جميع أرجاء المدينة. أريد منك ألا تخافي من إزعاج الأطفال بتأتا؛

فالرضيع لا يكاد يبكي، والآخر جميل جدًا، إلى جانب أنني سأتولى أمورهما. لن يزعجاك مطلقًا، أنا واثق تمام الثقة. حاولي فقط يا آنسة نبلي.. حاولي فعلاً. ستجدين الغرفة الصغيرة العلوية مبهجة ومريحة جدًا. أتعلمين! يمكنك رؤية جزء من ساعة الكنيسة من خلال المدخنة، حينها ستكونين على علم بالوقت في أي ساعة تريدنها.. تقول أمي: إن هذا مجرد شيء بسيط بالنسبة لك، وهو كذلك فعلاً، إنها تنتظر كما معًا، ولقد جئت إليك حاملاً رسالتي آملاً في موافقتك. لا نريد مآلاً، أعزّك الخالق! لم يخطر المال على تفكيرنا من الأساس! هل ستحاولين معه يا آنسة نبيل؟ أخبريني فقط أنك ستحاولين فعلاً، وستطلبين من سيدي القديم الإتيان إلينا، لكنني أريد أولاً أن تسألني عمّ اقترفت؟ هل تعدينني بذلك يا آنسة نبيل؟».

قبل أن تشرع الطفلة في الرد على توسله الجاد، فُتح الباب المطل على الشارع، وأدلى السيد براس برأسه إلى الخارج، صائحاً في صوت جهوري: «من هناك؟»، فبرح كيت مكانه من فوره متسللاً، وأغلقت نبيل النافذة برفق، وعادت أدراجها إلى الغرفة.

بعد أن كرر السيد براس سؤاله مرات عدة، ظهر السيد كويليب، وعلى رأسه قلنسوة النوم؛ ليتحرى النظر إلى خارج الباب نفسه، نظر بحرص تام إلى الأعلى والأسفل، وإلى الشارع، وإلى نوافذ المنزل، ومن جانب إلى آخر. لم يكن هناك أحد في مجال رؤيته، لذلك عاد إلى داخل المنزل ثانية مع صديقه القانوني، من ثم سمعته الطفلة من على الدرج متذمراً، يعلن أن ما حدث بالتأكيد من فعل عصبية، تحيك

مؤامرة ضده، وأنه يعيش في خطر محقق؛ وأنه على هذا الحال سوف يكون عرضة للسرقة والنهب في أي وقت من قبل مجموعات مختلفة من المتآمرين الذين تجولوا في المنزل، لذلك حسم قراره بأنه سيتخذ خطوات فورية دون أي تأجيل لتسوية ملكيته، ومن ثمَّ يعود إلى سطحه السالم الآمن. بعد أن أفرغ ما في نفسه من دمدمات، وزاد عليها بإلقاء التهديدات على النحو ذاته، عاد إلى حيثما كان إلى سرير الطفلة الصغير مرة أخرى منكشماً على نفسه، ومن ثمَّ تسللت الطفلة إلى أعلى الدرج. كان من البديهي أن تترك محادثتها القصيرة غير المنتهية التي أجرتها مع كيت انطباعاً قوياً في نفسها، وأن تؤثر فيها تماماً، لدرجة أنها راودتها في أحلامها في تلك الليلة وظلت تسترجع ذكراها لوقت طويل جداً. ظلت الطفلة محاطة بالدائنين الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة، وكل من هو منتفع جشع يتكالبون على غرفة المريض، يلتقون بها، وهي في أوج اضطرابها وحزنها، لم تتلقَ وهي في ذروة آلامها وفجيعتها ولو القليل من التعاطف والشفقة حتى من النساء، لذا لم يكن غريباً أن يتأثر قلب الطفلة الحنون سريعاً بأحد الأرواح التي يسكنها العطف والكرم، مهما كان المكان الذي يسكن فيه..

الحمد لله أن مساكن هذه الأرواح ليست مصنوعة بالأيادي^(٧)،
وأنها قد تكون أكثر استحقاقاً - وإن كثرت فيها الرِّقاع - من تلك التي
أسدل عليها الكتان الأرجواني الناعم!

(٧) آية (١٧: ٢٤) سفر أعمال الرسل "الإله الذي خلق العالم، وكل ما فيه، هذا، إذ هو رب السماء والأرض، لا يسكن في هياكل مصنوعة بالأيادي".

الفصل الثاني عشر

بعد مضيّ فترة طويلة، ولّت أزمة الاعتلال الجسدي؛ وبدأ العجوز يتعافى. عاد له وعيه على نحو بطيء وبدرجة قليلة، لكن قواه كانت قد خارت تمامًا، وضعفت وظائف عقله. كان عليلاً، هادئاً، جالساً في سكينه تامة، هائماً في ملكوت آخر، لم يكن بالشكل البائس المتصور، كان مستمتعاً، حتى بشعاع الشمس المنعكس على الجدار والسقف، لم يتذمر مطلقاً حول كون الأيام طويلة، وكون الليالي شاقة مضجرة، كان فاقد الإدراك بالوقت، وفاقد القدرة على الإحساس، سواء إحساسه بالملل أو بعناية أحد به. جلس لساعات متوالية، يمسك بيد نيل الصغيرة، يلعب بأصابعها، وأحياناً يمسح على شعرها، ويقبّل جبينها، إذا لمح دموعها تترقق في عينيها، يندهش من فوره، متسائلاً إذا كان هو المتسبب، ثم ينسى ما سأل عنه في وهلة، حتى وإن لم يُشح بنظره عنها بعيداً.

كانا ينامان متجاورين، تسند الطفلة العجوز بالوسائد، ثم تستلقي إلى جانبه، متشابكي الأيدي كالمعتاد. أرهقت ضوضاء الشارع عقله في بادئ الأمر، لكنه مع الوقت تأقلم معها، لم يعد مندهشاً، أو فضولياً، غير سعيد أو غاضباً. يسأل إذا تواردت إلى ذهنه ذكرى قريبة أو بعيدة،

فيقول: «أوه! صحيح.. هذا جيد.. لِمَ لا يكون جيدًا؟»، وأحيانًا كان يلتفت برأسه بالكامل، شاخص العينين، ينظر إلى غريب بعينه في وسط حشد هائل، حتى يختفي تمامًا عن مجال رؤيته، فيطرحون عليه سؤال باستمرار، يستفسرون به عن سبب فعله، لكنه لم يجب عليهم مطلقًا بأي كلمة في أي مرة.

في يوم ما، بينما كان على حاله المعتاد، يجلس على مقعده، وتجلس الفتاة إلى جواره، استأذن رجل كان يقف خارج الباب يريد أن يدخل. قال العجوز دون أي إحساس: «نعم!.. إنني كويليب»، لقد كان سيد المنزل، ومن البديهي أن يُسمح له بالدخول، وهذا حقًا ما فعل. جلس القزم أمامه، وقال: «إنني سعيد حقًا لرؤياك وقد تحسن حالك عن المرة السابقة يا جاري.. أشعر أنك استعدت عافيتك، وأصبحت أقوى الآن؟».

قال العجوز متأفّفًا: «نعم.. نعم».

قال القزم رافعًا نبرة صوته فقد أُمست حواس العجوز أكثر علة: «لا أريد استعجالك يا جاري.. كما تعرف، لكنك كلما أسرعت في ترتيب إجراءاتك المستقبلية، كلما كان أفضل».

قال العجوز: «نعم بالطبع! سيكون أفضل لجميع الأطراف».

تابع القزم قوله، بعد توقف دام لثوانٍ: «كما ترى.. بمجرد أن يتم نقل جميع أثاث البيت وأغراضه، سيكون غير مريح على الإطلاق، أو في الواقع غير صالح للسكن».

قال العجوز: «ما تقوله كله صحيح.. لكن المسكينة نيل، ماذا ستفعل؟».

زَعَقَ القزم، وأوماً برأسه: «هذه ملاحظة جيدة.. هل تفكر في أمرها يا جاري؟».

أجاب العجوز: «بالطبع.. لأننا لن نظل هنا».

قال القزم: «حسنًا! أحسب أنني بعت الأشياء جميعها. أعلم أن بيعها تمّ بثمان بخس، أقل من سعرها الحقيقي، لكن.. على كل حال، كان الأمر جيدًا.. جيدًا جدًا. أعتقد أن اليوم يوافق يوم الثلاثاء. ترى متى يجب أن يتم نقلها؟ امم! أعتقد أننا لسنا في عجلة من أمرنا.. دعنا نقول بعد ظهر اليوم؟».

رد العجوز: «بل قل صباح يوم الجمعة».

قال القزم: «عظيم! فليكن الأمر كذلك، كن متبهاً فقط أنه لا يمكنك تجاوز ذلك اليوم بأي حال من الأحوال أو تحت أي ظرف أو مسمى».

قال العجوز: «حسنًا.. سأذكر هذا بكل تأكيد».

بدا السيد كويليب في حيرة تامة؛ من الطريقة الغريبة التي تحدث بها العجوز؛ كانت الطريقة التي تحدث بها خالية تمامًا من الروح أو إبداء أي تعبير، ظل القزم على حاله حتى أوماً له العجوز برأسه، وكرر: «حسنًا! صباح يوم الجمعة، سأذكر هذا بكل تأكيد!»، حينها لم يملك كويليب أي عذر، للإسهاب في حديثه أكثر من ذلك، فحمل نفسه على

المغادرة، قائلاً الكثير من المديح لصديقه، حول تحسن حاله، تعتلي وجهه تعبيرات كثيرة تنم عن حسن النوايا. ذهب كويليب على عجل إلى أسفل الدرج، كي يبلغ صديقه براس بما حدث كله.

طوال ذاك اليوم وما تبعه من أيام ظل العجوز على الحال نفسه. لكنه تجول في جميع أرجاء البيت، صعوداً وهبوطاً، يذهب إلى داخل الغرف، ومن ثم يخرج منها، كأنه يكن في قرارة نفسه الهائمة أن ذلك هو الوداع الأخير لها، لكنه برغم ذلك لم يشر مطلقاً بأي تلميح مباشر، أو بأي طريقة أخرى، إلى لقائه الصباحي، أو إلى الضرورة الملحة؛ لإيجاد ملجأ آخر. على غرار تصرفاته المبهمة، حينما كان يرى الطفلة مكتئبة منعزلة في حاجة ماسة إلى المساعدة، كان يجذبها إلى حضنه، ويحثها على أن تكون متفائلة ومبتهجة، قائلاً: إنهما لن يفترقا أبداً. بدا العجوز غير مدرك لوضعهما الحقيقي، مشوش الفكر والبال، غير قادر على التفكير في وضوح، كان ولا يزال المخلوق الواهن، الذي يعاني اعتلالاً جسدياً، وضعفاً في وظائف عقله.

نذهب إلى أن ما يحدث له ناتج حالة من الخرف، أو الطفولة، التي تصيب العجائز. حينما تمتلك السخرية الجوفاء السيادة، ويشابه النوم الموت. أين تلاشت ضحكات حياة الطفولة ونورها في أعين البشر الباهتة.. الابتهاج الذي لا تعتريه المخاوف، الراحة التي لا تعرف معنى الإحباط، الأمل الذي لا يندثر على الإطلاق، والسعادة التي قطفت فور تفتُّحها؟ أين اندثرت أمارات النوم الهادئ أمام ملامح الموت القبيح القاسية، أين اندثرت أمارات النوم التي تحكي عن راحة

شهدتها ساعات اليقظة المنقضية، حالمة بساعات صحو آتية، يغمرها
الأمل اللطيف والحب القوي؟ ضع الموت إلى جانب النوم معًا، جنبًا
إلى جنب، وقل من سيراهما متشابهين. أرسل الطفلة والعجوز معًا إلى
عالم آخر، واخجل من التفاخر الذي ذمَّ سعادتنا القديمة وأعطاهها صورة
قبيحة مشوهة.

حلَّ يوم الخميس، لم تكن حالة العجوز قد شهدت أي تغيير. لكن
حاله مع حلول المساء، حينما كان جالسًا هو والطفلة معًا في صمت
تام، قد تبدَّل كليًا.

في ساحة قاتمة قبالة نافذته، شمخت شجرة خضراء نضرة -بالحد
الملائم لهذا المكان المقفر- تتخلل أوراقها نسيمات الهواء، وتنعكس
ظلالها على الجدار الأبيض. جلس العجوز يراقب الظلال، وهي تهتز
في بقعة الضوء، غربت الشمس، وأسدل الليل أستاره، وارتفع القمر
بطيئًا إلى كبد السماء، وما زال العجوز لم يبرح مكانه.

بالنسبة إلى من لم يعد يهناً بالنوم، ويضطجع على السرير، لفترات
طويلة، متقلبًا مضطربًا، أصبح مجرد النظر إلى تلك الأوراق الخضراء
القليلة، وهذا الضوء الباهت، حتى وإن تواجد بين المداخل وأعلى
المنازل، من مسرات نفسه. انتشله بعيدًا نحو مكان هادئ بعيد، داخل
نفسه، يسوده السلام والراحة. ظنت الطفلة أكثر من مرة أن حاله تدهور
أكثر، وأصبح عاجزًا عن الكلام. لكنه بكى، بكى دموعًا أزاحت ألم
قلبها، كاد أن يسقط على ركبتيه راجيًا منها أن تغفر له.

قالت نيل من فورها لتمنع فعله: «أغفر لك! ماذا؟ ما بالك يا جدي؟

ما الذي يتوجب عليّ غفرانه لك؟».

رد العجوز: «أن تغفري كل ما مضى يا نيل، أن تغفري لي الماضي كله.. أن تغفري كل ما حدث في هذا الكابوس المزعج».

قالت الطفلة: «من فضلك يا جدي لا تقل هذا.. من فضلك! دعنا نتحدث عن أي موضوع آخر».

عاد العجوز للحديث: «نعم، نعم، سنفعل بالتأكيد! يجب أن يكون حديثنا عن ذاك الموضوع، الذي تحدثنا عنه منذ فترة طويلة.. منذ أشهر عديدة.. نعم، أشهر بناء على ما أظن.. أم أسابيع.. أم أيام؟ أي مدة يا نيل؟».

قالت الطفلة: «لا أفهم ماذا تقصد!».

- لقد خطر على بالي اليوم، بل استعدت ذكرى كل شيء، منذ أن كنا جالسين هنا، فليباركك الخالق من أجل ذلك يا نيل!

- من أجل ماذا يا جدي؟

- من أجل ما قلتيه عن الماضي كشحاذين يا نيل.. صه! دعينا نتحدث بصوت خافت، إذا ما سمعوا بالأسفل عن مرادنا، سيصيحون عاليًا، ويدعون خرفي وجنوني، وسوف يأخذونك مني. لن ننتظر يومًا واحدًا. سنهرب من هنا، ونذهب بعيدًا.. بعيدًا جدًا عن هنا.

قالت الطفلة في جدية: «نعم، دعنا نذهب فعلاً، نرحل من هذا المكان، ولا نعود إليه مرة أخرى، أو حتى نفكر في العودة ثانية. دعنا نرحل، بدلاً من البقاء هنا، وإن كنا سنجوب أنحاء العالم كافة حافيين».

رد العجوز: «سنفعل بكل تأكيد، سنجوب الأودية والحقول سيرًا على الأقدام، سنمشي وإلى جانبنا الجداول، سنثق في قدرة أنفسنا وفي رعاية خالقنا لنا. سيكون من الأفضل لنا أن نفترش الأرض ليلاً، مستلقين، بينما تظلل علينا سماء شاسعة، كالتي تنظرين إليها.. وترين فيها الأضواء، سننعم بالراحة في رحاب الأرض بدلاً من هذه الغرف المغلقة، المكتنزة بالحرص المشدد، والأحلام المنهكة. سوف نصبح أنا وأنتِ يا نيل سعداء، مبتهجين، نتناسى جل ما حدث هنا، كما لو أنه لم يحدث أبداً».

صاحت الطفلة: «سنكون سعداء حقاً.. لا يمكننا أن نتواجد هنا بعد الآن».

انضم إليها العجوز قائلاً: «لا يمكننا أبداً بعد الآن.. أبداً.. وهذه كلمة شرف بيننا، دعينا نهرب من هنا غداً في الصباح الباكر، تنسلل خفية؛ حين لا يمكن لأحد أن يسمعنا أو أن يرانا، وبحيث لا نترك لهم سبيلاً أو أي أثر، يمكن لهم من خلاله أن يتبعانا. مسكينة يا نيل! إن خديكٍ شاحبان، وعينيكِ ذابلتان من البكاء والسهر على رعايتي.. إنني أعرف أن هذا كله بسببي ومن أجلي، لكنكِ ستغدين سعيدة مرة أخرى، ومرحة أيضاً، حينما نبتعد من هنا. قريباً يحين الصباح الباكر، وسندير وجوهنا بعيداً عن هذا المشهد المحزن، ونحلق بعيداً أحراراً وسعداء، كما الطيور».

وضع العجوز يديه على رأسها، وقال بضع كلمات في نبرة حزينة ومكسورة، مفادها أنهما من وقتهما الحالي فصاعداً، سيتشاركان كل

شيء، سيجوبان الطرقات معاً، إلى أن يفرقهما الموت ويقبض روح أحدهما أو الآخر.

ارتفع وقع دقات قلب الطفلة، وغمرها الأمل والثقة. لم تكن تفكر في الجوع أو البرودة أو العطش أو المعاناة، التي من الممكن أن تواجههما. لقد رأت فيما ذكر خلاصها، وسبيل العودة إلى الملذات البسيطة، التي استمتعت بها سابقاً، وراحة من العزلة القاتمة، التي عاشت فيها، ومنفذاً تهرب من خلاله من الأشخاص عديمي القلوب والرحمة، الذين أحاطوا بها مؤخراً، واستعادة لصحة العجوز وسلامه النفسي، وملاً لحياة سعيدة هادئة. رأت الشمس في مخيلتها ساطعة، ورأت جداول الأنهار والمروج في يوم صيفي مشرق، حيث لم يعد هناك أي ظلام يداهمها، أو يحجب صورتها البراقة.

نام العجوز مرتاحاً في سريره، وبعد مرور بضع ساعات، ظلت خلالها منشغلة في التحضير لرحلتها. حزمت ملابسها، لكنها لم تكن كثيرة، كانت قليلة وقديمة، أو ربما كانت رثة كحاليهما، ولم تنس إحضار عصاه؛ التي يتوكأ عليها؛ لضعف خطواته. لم يكن ما أتمته هو ما حثتها نفسها عليه فقط، حيث توجب عليها أن تنتقل إلى غرفتها القديمة؛ كي تلقي نظرة أخيرة عليها.

كم كان الوداع مختلفاً عن كل ما تصورته، مختلفاً تماماً عن تخيلاتها التي عاشت فيها، ورسمتها داخل عقلها لفترة طويلة. كيف شهدت اليوم الذي تودّع فيه -في غلبة وشعور بالانتصار- الغرفة التي احتضنتها، خطرت على بالها ذكرى الساعات القاسية التي مرّت على

قلبها النازف حزناً، وجعلتها تشعر بالأسى، وكم كانت وحيدة حزينة طوال تلك الساعات! جلست إلى نافذتها التي اعتادت الجلوس عليها، حيث كانت تقضي ليالي شاقة طويلة - كئيبة موحشة بعيدة كل البعد عن ليلتها التي تعيشها الآن - نفضت عن بالها ذكرياتها الموحجة الكثيرة في لحظة، واسترجعت في شفافية، كل ذكرياتها السعيدة والحالمة المتعلقة بهذا المكان.

لقد شهدت اليوم الذي تودّع فيه غرفتها الصغيرة، التي ركعت على أرضها كثيراً، متضرعة خلال ليالٍ طويلة؛ داعيةً من أجل مرور الوقت، من أجل أن يبزغ الفجر.. غرفتها الصغيرة، التي هنأت على سريرها، بالنوم المريح، وراودتها فيها أحلامٌ سعيدة! كان من الصعب عليها حتماً أن تلقي بنظرة سريعة على غرفتها، ومن ثمّ تضطر إلى مغادرتها دون أن تفيض مدامعها وتبكي في امتنان. ودّت لو تأخذ أشياء أخرى عزيزة على روحها، لكنها لم تكن بالشيء المهم في رحلتها، فبات أخذها مستحيلاً.

حضر إلى ذهنها من بين تلك الأشياء عصفورها المسكين الذي لا يزال معلقاً حيثما كان. لقد بكت بمرارة على فراق ذلك المخلوق الرقيق.. إلى أن خطرت على بالها فكرة نيّرة.. لم تكن تعرف كيف أو لماذا، فكرت في مثل تلك الفكرة، لقد تذكرت كيت، وفكرت في أنه يمكنه الاحتفاظ بذلك الطائر من أجلها، لذلك قررت تركه في مكانه، آملةً أن يجده كيت، ويعتني به فور حصوله عليه، وكتعبير عن امتنانها له أيضاً. أحست نيل تجاه فكرتها براحة ملأت صدرها، فتوجهت لتستريح وقلبها عامر بالبهجة.

شهد نومها العديد من الرؤى، حول تجولها في الأماكن المشمسة التي يتلأأ إشراقها، لكن بعض الأحلام الغامضة غير المترابطة نداخلت فيما بينها، فاستيقظت من فورها، لتجد أن الليل لم يمر بعد، وأن النجوم لا تزال ساطعةً، تتلأأ في السماء. ظلت على حالها حتى انقشع الظلام وبهتت أضواء النجوم وتخلل بريق ضوء النهار، فنهضت، ولبست استعداداً لرحلتها.

كان العجوز لا يزال نائماً، لم يكن لديها أي استعداد لتوقظه، فتركته يغفو قليلاً، حتى تشرق الشمس. لكنه حين استيقظ، كان مضطرباً قلقاً؛ لم يرد أن يضيع دقيقة واحدة، دون مغادرة المنزل، فتحضر من فوره، وسرعان ما أصبحا مستعدين للرحيل في القريب العاجل.

أخذته الطفلة ممسكةً بيديه راحلين، ينزلان بخفة وحذر درجات السلم، يرتجفان عند سماعهما لصرير درجة سلم، يتوقفان، يسترقان السمع. نسي العجوز محفظته التي تحتوي على شيء مهم يجب أن يأخذه معه في رحلته، لكن العودة بضع خطوات لجلبها، بدا تأخيراً لا نهاية له.

وصلا في النهاية إلى ممر الطابق الأرضي، حيث علت أصوات شخير السيد كويليب وصديقه رجل القانون، بدت الأصوات رنانة مؤذية لآذانهما أكثر من أصوات زئير الأسود. كانت مفضلات الباب صدئة، فبات من المستحيل أن يخرجوا دون إصدار ضجيج. لكن الأسوأ من بين كل ما عايشاه من قلق أنه حين وصولهما إلى الباب وجداه مغلقاً، والأكثر سوءاً أنهما وجدوا أن المفتاح كان قد اختفى تماماً. تذكرت الطفلة، أن

إحدى الممرضات قد أخبرتها في إحدى المرات أن السيد كويليب يُعلق البابين عادة في الليل، ويترك المفتاح على الطاولة في غرفة نومه.

لم يكن بالشيء الهين الخالي من الارتياح والذعر أن تخلع نيل حذاءها، وتتسلل عبر غرفة مخزن متجر التحف القديم - حيث كان براس أقبح شيء من بين البضائع المخزنة نائمًا على مرتبة - ومن ثم تدخل إلى غرفتها الخاصة الصغيرة.

هناك، توقفت نيل للحظات تراقب منظر السيد كويليب مذعورة جدًا؛ كان متدليًا من طرف السرير كأنه واقف على رأسه، في وضع شاق على أي أحد أن يفعله، مريح له، اعتاد على فعله، كان يلهث ويهدر، وفمه مفتوح على آخره، ومقلتا عينيه البيضاوين - أو بالأحرى الصفراوين القبيحتين - واضحتان تمام الوضوح. لم يكن هناك أي وقت لتضيقه، لتهتم بحاله وتتساءل عن أي مرض أصابه، لذلك التقت المفتاح سريعًا، وألقت نظرة أخيرة على غرفتها، ومرت ثانية بجانب السيد براس المدد، وانضمت إلى رفقة العجوز في أمان، فتحا الباب دون إصدار أي ضجيج، منتقلين إلى الشارع، واقفين في ثبات.

قالت الطفلة: «أي الطرق سوف نسلك يا جدي؟».

نظر العجوز إليها أولاً؛ مترددًا، تائه الذهن، ثم نظر على جانبيه يمينًا ويسارًا، ثم عاود النظر إليها مرة أخرى، أومأ برأسه، في حيرة دون رد على استفسارها. حينها كان واضحًا تمامًا أنها ستكون دليله ومرشده. شعرت الطفلة بذلك الأمر دون شك أو سوء تخمين، فأمسكت بيده لتقوده إلى مسارهما في لطف.

لقد كان يوم رحيلهما هو غرة شهر يونيو، عندما السماء زرقاء
لا تشوبها الغيوم، مشعةً بالنور الساطع . كانت الشوارع خالية تقريباً
من المارة، وكانت المتاجر والبيوت مغلقة، حينها شابته النسمات
الصباحية العليلة أنفاس الملائكة، على مدينة نائمة.

عبرت الطفلة برفقة الرجل العجوز الطرقات في صمت تتخلله
السعادة، مبتهجين، مفعمين بطاقة الأمل والسرور. أصبحت أخيراً
بمفردهما معاً مرة أخرى، بدا كل شيء من حولهما مشرقاً، تنبض فيه
الحياة، يتلمسّان التباين بين الرتبة التي خلفوها وراءهم، وأبراج الكنيسة
وقبتها، والظلام والعبوس، وبين ما يعايشانه الآن، حيث يشهدان إشراقة
الشمس، وتلألؤ كل زاوية وركن بالضوء، والسماء التي يخفت ضوءها؛
من فرط ابتعادها، تحتوي بنورها كل ما هو موجود أسفلها.

سار المغامران إلى خارج المدينة، بينما كانت نائمة، شقا طريقهما،
لا يعرفان وجهتهما، متسائلين إلى أين!



الفصل الثالث عشر

كان السيدان دانيال كويليب من تاور هيل، وسامبسون براس من بيفس ماركس في لندن -وهو أحد محامي جلالة الملكة في محاكم المجلس الملكي، ومحامٍ بالاستئناف في وستمنستر، ومحامٍ بمحكمة العدل العليا- نائمين، غافلين، فاقدَي الوعي، لا يشبهان في وقوع أي بلية، لكن طرقات على الباب تردد صداها، وبدأت تعلو في تكرار، زادت من طريقة مفردة متوالية، إلى مجموعة من الطرقات المتتالية، تابعت من دون أي فاصل زمني يفرق بين الطريقة والأخرى، تسببت في دفع السيد كويليب إلى صراع، خاضه بسبب وضعه الأفقي، فجحظت عيناه، حملق في السقف، تلاشت جميع رغباته في النعاس، استيقظ مفزوعًا ومشدوًهاً من تلك الضوضاء التي يسمعها، بدا لوهلة غير قادر على إدراك أي شيء، ليس لديه أي فكرة حيال ما يحدث حوله.

من أجل أن يتلاءم الظرف مع حالة السيد كويليب الكسولة، كان لا بد أن يتوقف الطرق، إلا أنه استمرّ، بل ازداد قوة، وأصبحت الطرقات أكثر إلحاحًا، كأنها عازمة على ألا يعود السيد كويليب إلى نومه مرة

أخرى، كما لو كانت تحتج ضد سُباته، لكن السيد كويليب بمجرد أن فتح عينيه، بدأ تدريجيًا -أو مؤخرًا- في استيعاب وجود أحد ما عند الباب، فاستجمع شتات نفسه، مدرِّكًا أن الوقت يوافق صباح يوم الجمعة، وأنه قد أمر السيدة كويليب سابقًا أن تكون في انتظاره في ساعة مبكرة.

أما عن السيد براس، فاستيقظ أيضًا في التوقيت نفسه، بعد أن انبعجت ملامحه ورسمت الكثير من التعوجات المريبة، ولوى وجهه، واعتصر عينيه، في تعبير أشبه بالتعبير الناتج عن أكل فاكهة (عنب الثعلب) في وقت مبكر جدًا عن موسمها. نهض السيد كويليب من فوره يرتدي ملابسه اليومية المعتادة في عجلة من أمره، لدرجة أنه ارتدى حذاءه قبل جوربه، ودفع ساقيه إلى داخل أكمام معطفه، محدثًا الكثير من الجلبة والفوضى الشائعة عند كل من يرتدون ملابسهم في المرحاض، في مثل تلك العجالة، محاولين إنجاز ما يفعلون، خاضعين لوطأة سريان انفعالات الاستيقاظ المفاجئ.

حينما أدرك المحامي ما يدور حوله، كان القزم يتلمّس الأرض أسفل الطاولة، مغمغمًا بلعنات فظة على نفسه وعلى البشرية جمعاء، مطيحًا بكل جماد أمامه، مما دفع السيد براس للتساؤل: «ما الأمر؟».

قال القزم، ناظرًا إليه شزّرًا: «المفتاح.. مفتاح الباب.. هذا هو الأمر! هل تعرف أي شيء عن موضعه؟».

رد السيد براس: «كيف لي أن أعرف عنه أي شيء من الأساس يا سيدي؟».

كرر كويليب في أسلوب تهكمي: «كيف لك أن تعرف؟ محام لطيف أنت؟ ألسنت كذلك؟ الاخ! شخص غبي!».

لم يكن بالأمر المَعْنِي أن يتم توضيح الالتباس للقرزم في حالته المزاجية تلك، وأن يُقال له إن فقدان المفتاح من قبل أي شخص آخر ليست مسؤولية (محاميه السيد براس)، وأن الأمر ليس له علاقة بمعارفه القانونية في أي درجة من درجاتها بَتَاتًا، لكن السيد براس أشار في تواضع إلى احتمالية نسيانه ليلاً -دون شك- في ثقب الباب الرئيس. على الرغم من أن السيد كويليب كانت لديه قناعة عمياء بعكس ذلك، متذكرًا في يقين أنه قد أخرجه بمنتهى الحرص، وعلى الرغم من ذلك كان من المقبول أن يعترف باحتمالية الأمر، وبالتالي ذهب مُتَبَرِّمًا إلى الباب، حيث وجده بكل تأكيد.

الآن! بمجرد أن وضع السيد كويليب يده على القفل، سقط في حالة من الذهول العارمة؛ فقد وجد القفل مفتوحًا، توالى الطرقات مرة أخرى على الباب، لكنها طرقات بلغت من العنف أشده، حُجِبَ ضوء النهار الساطع، النافذ من ثقب المفتاح، حيث حاولت عين بشرية النظر من خلاله. اشتاط غضب القرزم، وبلغ ذروته، وقد حسم أمر اندفاعه المفاجئ تجاه أي شخص يقف أمامه، مصممًا على أن يشفي غليل غضبه، ويَحْمِلَ السيدة كويليب تبعات الأمر نظير افتعال تلك الضجة المزعجة.

على غرار ما يحدث دائمًا، سحب القرزم القفل في صمت وبخفة تامة، ثم فتح الباب في سحبة واحدة، ليجد شخصًا أمامه، يهيم برفع

مقراع الباب، فاندفع نحوه أولاً، منقضاً بيديه ورجليه في الهواء معاً، مزمجراً في أقصى درجات الخبث، وتعمد الإيذاء.

برغم ما حدث من تهور واندفاع عارم من السيد كويليب، لم يُبدِ الشخص الآخر أي مقاومة، أو حتى ناشده الرحمة، حيث انتشل بعيداً عن كنف زوجته، إلى ما بين يدي رجل أعزل، استقبله بتسديد ضربتين موجعتين إلى رأسه، وآخرين -بالقوة نفسها- إلى صدره، ثم وجه إليه مهاجمه وإبلاً من اللطمات المتتابعة كافية؛ لإثبات أنه يقف أمام شخص ذي أيدٍ ماهرة وبارعة في القتال. هكذا، وجد دانيال كويليب الدم ينبجس من كل مكان في جسده، وقد أصبح مشعث الهيئة، مكوّماً في وسط الشارع، بينما يتراقص السيد ريتشارد سوفييلر من حوله، يدور ويحور، يسأله: «هل تريد المزيد؟».

قال السيد سوفييلر بينما يتقدم خطوة ويرجع الأخرى متخذاً وضع التهديد: «هناك المزيد إن أردت المزيد، تشكيلة متنوعة وشاملة في متناول يديك -أوامر الشعب مطاعة مع السرعة والنفاذ- هل تريد تلقي المزيد.. هيا! لا تقل لا، إن كنت تفضّل الأمر ويعجبك».

قال كويليب، وهو ينفض كتفيه: «لقد ظننت أنك شخص آخر.. لماذا لم تقل من أنت؟».

قال ديك: «لماذا لم تقل أنت: من أنت؟ بدلاً من الخروج مندفعاً من البيت كما المعتوه؟».

قال القزم، وهو ينهض، لاهثاً متأوهاً: «لقد كنت أنت من طرّق الباب! أليس كذلك؟».

رد ديك: «نعم أنا! لكن تلك السيدة...». أشار إلى السيدة كويليب، التي كانت تقف مرتجفة على مسافة قصيرة: «...هي من كانت تطرق الباب في بادئ الأمر، حينما أتيت، كانت تطرق الباب برفق، لذلك نحيتها، وتوليت أنا أمر الطرق».

نظر القزم إلى زوجته في غضب متأففاً، ودمدم: «هوف! أحسب أنها غلطتك.. أما أنت يا سيدي، ألا تعرف أن البيت يسكنه مريض، فلا تطرق الباب بتلك الطريقة كأنك تريد هدمه؟».

أجاب ديك: «اللعنة! أتعلم أنه بسبب علمي، طرقت هكذا ظناً مني أن البيت أصبح يسكنه ميت!..».

قال كويليب: «أحسب أنك أتيت من أجل غرض ما، فماذا تريد؟».

قال السيد سوفييلر: «أريد أن أعرف كيف حال السيد العجوز، وأتأكد من حالته من نيل نفسها، وأحظى معها بحديث قصير. أنا صديق العائلة، يا سيد.. أو لنقل -كي أكون أكثر موضوعية- إنني على الأقل صديق أحد أفراد العائلة، أظن أنه الشيء نفسه».

قال القزم: «إذن يُفضّل أن تدخل.. هيا يا سيدي! تفضل بالدخول.. تفضلي بالدخول يا سيدة كويليب، سأدخل من بعدك يا سيدتي».

أصاب التردد السيدة كويليب، لكن السيد كويليب أصرَّ على ما قاله. لم يكن فعله بدافع التأدب بأي شكل من الأشكال، وكانت السيدة كويليب على معرفة جيدة بذلك، كانت تعلم أن زوجها يريد منها أن تتقدمه؛ كي متاح له فرصة موآتية كي يلاحقها ببعض اللكزات

والقرصات التي تترك أصابعه بسببها آثارًا لا نهائية من اللونين الأسود والأزرق دائمًا. لم يكن السيد سوفييلر قد ابتعد عنهما، كان يتقدمهما ببضع خطوات فقط، لذلك تملّكته الدهشة فور سماعه صرخة مكتومة، ليلتفت سريعًا، ويرى السيدة كويليب تتبعه مع انتفاضة مفاجئة قد أصابتها، على الرغم من ذلك، لم يُبد أي تعقيب على ما رآه، وسرعان ما مضى قدمًا متناسيًا ما شاهده.

قال القزم، بينما يدخل إلى المتجر: «اصعدي الدرج الآن يا سيدة كويليب، إذا تفضلت، واذهبي إلى غرفة نيل، وأخبريها أننا نريدها». قال ديك، الذي لم يكن على علم بسلطة السيد كويليب المستجدة: «يبدو لي أنك تفرض وجودك على المنزل!».

رد عليه القزم: «أفرض وجودي! إنه منزلي أيها الشاب الكريم». تفكّر ديك، محاولًا استيعاب مقصد كلامه، لكنه انخرط في تفكيره تمامًا، حول سبب وجود السيد براس أيضًا، بينما كانت تنزل السيدة كويليب الدرج مهرولة، معلنة أن الغرف جميعها خاوية. قال القزم: «خاوية، أيتها المعتوهة!».

أجابته زوجته المرتجفة: «أخبرتكَ واقع الأمر يا كويليب، لقد فتشت في كل غرفة بنفسِي، ولم أجد أي روح تسكن في أي منها». قال السيد براس وهو في أوج تركيزه ضاربًا كفاً على كف: «من هنا يتكشف لنا غموض أمر المفتاح!».

نظر كويليب إليه عابسًا، ثم انتقل بالنظرة نفسها إلى زوجته، ثم

انتهى بها ناظرًا إلى ريتشارد سوفييلر، لكنه لم يتلقَ أي توضيح يفسر الموقف من أي منهم، فسارع من فوره نحو الدرج صاعدًا، ثم نزل ثانيةً، مؤكِّدًا على ما سبق إقراره.

قال محملقًا تجاه سوفييلر: «إنه أمر غريب، غريب حقًّا ألا يتواصل معي وأنا صديقه المقرب الودود! آه! سيكتب إليّ! سراسلني دون شك.. أو ربما سوف يطلب من نيل أن تراسلني.. نعم نعم، هذا ما سيفعله! إن نيل مولعة بي.. أوه! جميلتي نيل!».

ثبت السيد سوفييلر على حاله، ينظر إليه، فاغرًا فمه، بينما لا يزال يتلقى حملقات كويليب فيه، كويليب الذي التفت بعد ذلك إلى السيد براس، منوهاً في حرص، أن هذا الأمر لن يتعارض مع سير عملية نقل بضائع المتجر.

ثم أضاف: «في الواقع! نحن على علم بيّن أنهما راحلان اليوم، لكننا لا ندري أنهما كانا سيرحلان مبكرًا؛ فلقد رحلا بمنتهى الهدوء. على كل حال لديهما أسبابهما، من المؤكد أن لديهما أسبابهما».

سأل ديك متعجبًا: «أين ذهبا بحق الجحيم؟».

هزَّ كويليب رأسه نافيًا معرفته، وتدلَّت شفته السفلى، رغم أن تعبيره العام تضمَّن ظاهريًا معرفته الجيدة بالإجابة على ذلك السؤال، لكنه تحفَّظ على القول.

قال ديك، منخرطًا في التباس أحاط به من كل حذب وصوب: «ثم! ثم ما الذي تعنيه بقولك نقل البضائع؟».

رد عليه كويليب: «لقد اشتريتها كلها يا سيدي! ها! ثم ماذا أيضًا؟». قال ديك في حيرة هائلة: «هل كَوْن ذاك الثعلب الماكر الخبيث ثروته من فعله هذا، ثم ذهب ليعيش في مكان هادئ لطيف وينعم بسكن مريح يطل على البحر الفسيح؟».

أضاف القزم لما قاله، بينما يفرك يديه بشدة: «وليبقى في مكان مريح هادئ، حيث لا يتناوب حفيده المقرب أو صديقه المخلص على زيارته كثيرًا.. ها؟ أليس هذا ما تقصده؟ أنا لا أضيف جديدًا.. ولا أعني من قلبي أي شيء».

بدا ريتشارد سوفييلر مذعورًا تمامًا بسبب التغير غير المتوقع لكافة الظروف، التي بدورها تهدد بالإطاحة الكاملة بالمخطط، الذي كان طرفًا رئيسًا فيه؛ فقد تُقتطف تطلعاته من بُرعمها. لقد تلقى خبر مرض العجوز من فريديك ترينت في وقت متأخر من عشية أمس، وأتى في الصباح باكراً؛ لتعزية نيل ومواساتها، منفذًا أول خطوة من خطوات مخططه الفاتن الطويل؛ المُعد من أجل أن يغمر قلب نيل في سحره. وهنا! وسط انغماسه في التفكير في جميع أنواع وسائل التقرب الفاتنة والتلميحات الساحرة وتأملاته حول انتقام هادئ من صوفي واكلز، تختفي نيل والعجوز معًا، إلى جانب الأموال، لقد اختفيا كما لو كانا على علم مسبق بمخططه، وقررا هزيمته من البداية، أو على نحو أدق قبل اتخاذ أي خطوة فعلية.

في حقيقة الأمر، أخفى كويليب انزعاجًا شديدًا في قرارة نفسه، كما كان يشعر بالضيق أيضًا من هول صدمة هروبهما. لم يكن تزامن اختفاء

بعض الملابس الضرورية مع اختفاء الهاربين بالأمر غير الملحوظ بالنسبة إلى عينيه الثابتتين. كان على دراية بضعف عقل العجوز، لذا كان متعجبًا من كيفية تخطيطه وتديره لسلسلة من الإجراءات، التي حظت بكل سهولة ويسر بموافقة الطفلة، مستكبرًا استعداده الكامل لتنفيذها. من غير الممكن افتراض أن السيد كويليب قد يعذبه قلق صادق حيالهما - ففي ذلك ظلم فادح تجاه شخصية السيد كويليب - إلا أنه قد نشأ بداخله شعور بعدم الارتياح، بسبب خوفه من أن يكون العجوز قد احتفظ ببعض المال سرًّا؛ لأنه عن طريق ذلك سيكون قد تملّص من قبضته، وهو الأمر الذي جعله عرضة للكثير من التوبيخ الذاتي، وجعله يشعر بأن العار يحيط به.

نتيجة لحالته المزاجية تلك والإطار الذي احتجز ذهنه بداخله، كان في وقوف ريتشارد سوفييلر منزعجًا، خائب الأمل - للأمر نفسه وإن كانت الأسباب مختلفة - بعض العزاء له. كان من الظاهر أن كويليب ظن أن سوفييلر قد جاء نيابة عن صديقه؛ لإرغام العجوز أو لإثارة الذعر في نفسه؛ من أجل التخلي عن جزء صغير من ثروته، التي افترض أن لديه وفره منها. لذلك كان من دواعي الارتياح لديه جعل فؤاده يتميز من الغيظ، عبر ملء ذهنه بصور الغنى الفاحش الذي يعيش فيه العجوز، مسهبًا في مكره، مُبعدًا نفسه عن إلحاحه.

قال ديك، وقد شردت نظراته: «حسنًا! أظن أنه لا مبرر لوجودي

هنا».

قال القزم: «لا أعلم حقيقة».

قال ديك: «أعتقد أنك ستذكر مجيئي؟».

أوماً السيد كويليب برأسه وقال: إنه بالتأكيد سيفعل فور رؤية أي منهما.
أضاف السيد سويفلر: «وقل.. قل يا سيدي، إنني حلّقت إلى هنا
على جناح المودة، أريد أن أشعل جناح الصداقة، تلك الصداقة التي لم
تطرح سوى العنف ودمار القلب، وأن أزرع بذور الوصال الاجتماعي..
إذن هل ستكرم وتبلغهم ما قلت يا سيدي؟».

قال كويليب: «بالتأكيد!».

قال ديك، مقدماً له بطاقة صغيرة مهترئة: «هل تعطفت بما يكفي؟
وقدّمت لهما هذه البطاقة مصحوبة بقولك: إن هذا هو عنواني، وإنني
أتواجد في المنزل صباح كل يوم. طرقتان منفصلتان على الباب،
وستستجيب الخادمة من فورها في أي وقت. اعتاد أصدقاؤني المقربون
أن يعطسوا، عندما يُفتح الباب؛ كي يُعلماها أنهم أصدقاؤني، وأنه ليس
لديهم أي دافع للسؤال إذا ما كنت في البيت أم لا! أستمحيك عذراً..
هل سمحت لي أن أتفقد البطاقة مرة أخرى؟».

رد كويليب: «أوه! بالطبع، كما شئت».

قال ديك، مستبدلاً البطاقة بأخرى: «إنه خطأ بسيط غير معتاد..
لقد سلمتك تذكرة مرور مميزة لمجموعة بهيجة مختارة تُدعى (أبوللو
المجيدة) وأتشرّف بكوني رئيسهم الدائم. هذه هي البطاقة الصحيحة يا
سيدي.. صباحك خير».

تمنى كويليب له أيضًا صباحًا طيبًا، رفع الرئيس الدائم لمجموعة (أبوللو المجيدة) قبعته؛ تكريمًا للسيدة كويليب، ووضعها بلا مبالاة مائلة على جانب رأسه مرة أخرى، واختفى في تألق بالغ.

بحلول ذلك الوقت، وصلت بعض الشاحنات لنقل بضائع المتجر، محملة برجال أقوياء يرتدون قبعات تمكنهم من الحفاظ على رؤوسهم موزونة، حين يقومون بحمل الخزائن وأشياء أخرى فوقها، مفتولي العضلات، يبرزونها في تفاخر، فتضاعف من قوتهم أضعافًا. استحثهم السيد كويليب على العمل بحيوية نشطة؛ تجنبًا للتأخير. شرع يحث الجميع ويدفعهم إلى العمل دفعًا، كأن روحًا شيطانية استحوذت عليه، ألزم السيدة كويليب بإتمام جميع أنواع المهام الشاقة متعذرة التنفيذ، يرغمها على حمل الأوزان الثقيلة نزولًا وصعودًا، مشددًا على ألا يظهر عليها أي أثر للإجهاد، وأخذ يركل فتى رصيف الميناء، كلما تمكّن من الاقتراب منه، ويلكز كتفي السيد براس بأحماله، مسددًا إليه العديد من اللطمات والضربات العنيفة، بينما كان واقفًا على عتبة الباب؛ ليجيب على جميع استفسارات الجيران الفضوليين، فهذه هي مهمته التي أوكلها إلى نفسه. شاع حماسه في الأجواء، وبين جميع العاملين، لدرجة أنه في غضون ساعات قليلة، أُخلي المنزل من كل مقتنياته، عدا رقعات من الحصير وأوانٍ وأوعية فارغة وشظايا متناثرة من القش.

كان القزم جالسًا في الردهة كقائد إفريقي على أحد رقعات الحصير، يتلذذ بطعامه من الخبز والجبن، ويشرب الجعة في بهجة، بينما لاحظ وجود صبي عند الباب الخارجي، يحدّق ناظرًا إلى الداخل.

تبيّن فور رؤيته أنه كيت، على الرغم من أنه لم يَبدُ منه سوى جزء صغير من أنفه، فاستدعاه منادياً إياه باسمه، حيث دخل كيت، وقال له ما يريد. قال القزم: «تعال إلى هنا أيها السيد! حسناً.. أتعرف أن سيدك العجوز وسيدتك الشابة قد رحلا؟».

قال كيت، ناظرًا إلى ما حوله: «إلى أين؟». رد كويليب في حدة: «أتقصد أنك لا تعرف إلى أين؟ لا تعرف أين ذهبا؟ ها!». قال كيت: «لا أعرف حقًا».

رد كويليب حاسمًا: «تعال! دعنا نتوقف عند هذه النقطة، ونتبين مقصدك.. هل تقصد أن تقول إنك لا تعرف أنهما رحلا متسللين سرًا مع إشراق أول شعاع من ضوء الصباح؟».

قال الصبي وقد ظهر عليه هول المفاجأة: «نعم!». صاح كويليب: «ألم تكن تعرف ذلك أيضًا؟ أتحسب أنني لا أعلم أنك كنت تتسكع خارج المنزل تلك الليلة، مثل اللصوص.. ها؟ ألم تكن تدلّهم على فعلهم؟».

رد الصبي: «نعم!». قال كويليب: «ألم تفعل؟ حسناً! قل لي ماذا أخبرتهم؟ ما الذي تحدثتما بشأنه؟».

علم كيت أنه لزام عليه إبقاء الأمر سرًا الآن، حتى وإن لم يكن يستند إلى سبب محدد لفعل ذلك، تكتّم ولم يقل أي شيء، يخص

غرضه الذي جاء من أجله سابقًا، متحفظًا على العرض الذي قدمه.

قال القزم بكثير من الانتباه: «أوه! أحسب أنهما سيأتيان إليك».

صاح كيت في حماس: «أتحسب أنهما سيأتيان إليّ فعلاً؟».

رد القزم: «اهمم! أحسب ذلك. الآن! حينما يفعلان ذلك، ستخبرني بكل تأكيد.. أسمع ذلك؟ أريد فقط أن أحيطهما بعطف جليل، ولن أستطيع إحاطتهما بالعطف الجليل الذي أكنه لهما، إذا لم أكن على علم بمكانهما.. أتفهم ما أقول؟».

كان كيت قد أعدَّ بعض الإجابات غير المستحسنة لسائله الغاضب، لكن فتى رصيف الميناء صاح عاليًا، بينما كان يتسلل ما بين الغرف؛ متفقدًا ما إذا كانوا قد نسوا شيئًا عن طريق الخطأ، قائلاً: «لقد وجدت طائرًا! ما الذي يتوجب عليّ فعله بشأنه؟».

قال كويليب: «دق عنقه».

قال كيت، متقدمًا بضعة الخطوات: «أوه! لا لا.. لا تفعل ذلك، أعطني إياه».

صاح الفتى الآخر: «أوه! نعم.. تعال تعال! أتحداك أنك لن تأخذ سوى القفص وحده، بعد أن أكون قد دققت عنق الطائر؛ لقد قال لي أن أفعل ذلك، وسأفعل ذلك، ولن تأخذ سوى القفص وحده».

زمجر كويليب: «أعطني إياه، أحضره إليّ هنا في الحال أيها الكلب.. تعاركا من أجله يا كلاب، وإلا دققت عنقه بنفسه!».

دون المزيد من المفاوضات، انقضَّ الصبيان أحدهما على الآخر،

استجمع كل منهما قواه؛ ليتعارك مع الآخر، بينما يجلس كويليب ممسكاً بقفص الطائر بيد واحدة، وينبش بسكينه الأرض باليد الأخرى في حالة من النشوة، يحثهما بصيحات وتوبيخات ساخرة على الاقتتال بعنف أكبر. كان عراكاً متكافئاً إلى حد كبير، يتناوبان الضربات، يدور أحدهما حول الآخر، يسددان لكمات قوية، بعيدة كل البعد عن أن تكون مزاح صبية، ظلاً هكذا، حتى سدد كيت لكمة عنيفة إلى صدر خصمه، وحلّ نفسه من بين ذراعيه، وانزلق مفلتاً منه، ناهضاً من فوره في قفزة سريعة، من ثم خطف القفص من يد كويليب، حائزاً على جائزته.

أسرع بخطواته نحو بيته دون أن يتوقف ولو للحظة واحدة، بمجرد أن وصل، تسبب في حالة من الذعر انتابت الجميع، وبكى الطفل الأكبر بكاءً مخيفاً.

صاحت السيدة نابلز: «الرحمة يا رب! ماذا حدث لك يا كيت؟ ماذا فعلت؟».

أجاب ابنها، وهو يمسح وجهه بمنشفة وراء الباب: «لا شيء يا أمي.. لم يصبني مكروه، لا تخافي من أجلي. لقد تعاركت من أجل عصفور، وانتصرت، ونلت، هذا كل شيء. أخفض صوتك يا جايكوب، كفّ عن البكاء، لم أر في حياتي كلها طفلاً مشاغباً مثلك!».

قالت والدته؛ لتستفهم: «لقد تعاركت من أجل عصفور!».

رد كيت: «آه! لقد تعاركتُ من أجل عصفور.. لكنه عصفور الأنسة نيلي يا أمي. كانا سيدقان عنقه! لكنني أوقفتها عند حدهما.. ها ها ها!»

لن يدقا عنقه أبداً، ما دمت هنا.. لن يفعلا ذلك أبداً يا أمي! لن يفعلا ذلك على الإطلاق. ها ها ها!«.

ظل كيت يضحك ضحكات متتابعة مفعمة بالحرارة، بينما كان يمسح وجهه المليء بالكدمات، سحب المنشفة فجأةً، ناظرًا إلى جايكوب الصغير، ما جعله يضحك، فضحكت أمه لضحكهما، ثم أخذ الرضيع يتبسّم راکلاً برجليه دافعاً يديه في الهواء في فرح كبير، عمّ الضحك والسرور، لم يكن بسبب كونهم فرحين بانتصار كيت فقط، بل بسبب أنهم كانوا مترابطون يحبون بعضهم. عندما فرغوا من ضحكهم، عَرَضَ كيت العصفور على كلا الطفلين، كأنه شيء نفيس نادر - على الرغم من كونه عصفور السّمنة المألوف - نظر إلى الحائط؛ باحثًا عن مسمار، وضع كرسيًا على طاولة صانعًا منه سقالة، وقف عليها، وأخذ يدير القفص ويلفه تعتريه السعادة الغامرة.

قال الصبي: «حسنًا! دعوني أرى الآن! أعتقد أنني سأعلقه في اللفاف؛ لأنه أكثر إضاءة وبهجة، ويمكن للعصفور رؤية السماء، إن نظر فقط إلى الأعلى، إن زقزقته غناء.. يمكنني التأكيد على قلبي هذا!«.

لذلك قام بتغيير موضع السقالة التي ابتكرها، واعتلاها مرة أخرى - حاملًا في يده مذكي النار كأنه مطرقة - حيث دق المسمار، ثم علّق القفص على مرأى من جميع عائلته؛ ليسعدهم كافة. بعد أن أنهى ضبط وتعديل وضع القفص مرات ومرات، نزل وسار إلى الخلف، ناظرًا إليه، يتخلله إعجاب عارم، نمّ عن مثالية ما توصّل إليه.

قال الصبي: «الآن يا أمي! قبل أن أحظى ببعض الراحة، سأخرج
لأثبتن إذا كان بإمكانني الإمساك بأي حصان، لأبتاع كمية من بذور
الطيور، وشيئاً لطيفاً من أجلكِ من العمل الذي سأتمه».



الفصل الرابع عشر

كان من السهل على كيت أن يقنع نفسه، بأن مروره أمام البيت القديم سيكون صدفةً، بينما يكون ماضيًا في طريقه، فطريقه هو أي طريق يمكن أن يذهب فيه. حينما وصل إلى هناك، ومرَّ أمام البيت، تملَّكته رغبة النظر إليه مرة أخرى، كانت تلح عليه كأنها ضرورة حتمية، رغم أنها كانت رغبة غير مقبولة، بعيدة كل البعد عن فعل اختار أن يفعله بحريته كاملها، بل أرغمته نفسه على هذا الفعل. لم يكن غير شائع بين الناس الذين حظوا برعاية وتعليم أفضل بكثير مما حظى به كريستوفر نابلز، أن يقوموا بواجبات دفعتهم إليها رغباتهم الذاتية، في إطار من آداب اجتماعية ملتبسة، وأن يلقوا استحسانًا بسبب إنكار الذات، الذي يرضون أنفسهم به.

لم يكن كيت هذه المرة في حاجة إلى أن يقتات على حذره، فقد تقدَّم دون أن يعتريه خوف الاحتجاز، أو خشية أن يعود إلى العراق ثانية مع فتى دانيال كويليب. بدا المكان مهجورًا، منكوبًا تحت طبقات من التراب، موحشًا، كما لو كان على هذا الوضع منذ شهور عدة. أُغلق الباب بقفل صدئ، تطايرت أطراف الستائر الباهتة خارج نوافذ الطابق العلوي نصف المفتوحة، لم يظهر سوى سواد ظلام البيت من ثقب

معوجة في المصاريح المغلقة أدناه. وقف شاخصاً إلى النافذة التي اعتاد النظر إليها في كثير من الأحيان؛ لكنَّ جزءاً من زجاجها كان قد تهشَّم بسبب ما كانوا عليه من عجلة ذاك الصباح، بدت تلك الغرفة موحشة ومقفرة أكثر من غيرها. جلست مجموعة من الأطفال المشردين على أعتاب الباب، يشغلونها كلها تمامًا، أخذ بعضهم يطرقون مقرع الباب في استمتاع، يسمعون في سرور الأصوات المعوجة، التي ذاع صداها في أجواء البيت الشاغر، بينما تجمهر البعض الآخر؛ يتناوبون على النظر عبر ثقب المفتاح، مدَّعين في جدية خالطها المزاح وجود (شبح) في الداخل. لم يقتصر الأمر على هذا المشهد فحسب، بل شاع الغموض مستحوذاً على أذهان القاطنين حول البيت؛ بسبب هيئته المظلمة الموحشة، التي لم يمضِ عليها سوى ساعة واحدة. انتصب البيت وسط هذا الكم من الصخب، ووسط تلك المشاهد، بمفرده، تُهيمن عليه صورة من الخراب والكآبة والعزلة الباردة، وظل كيت واقفاً أمامه، يتذكر النيران التي كانت تُشعل في الأمسيات الشتوية، فتشيع البهجة والدفء، وصوت الضحكات المجلجلة، التي رنَّ صداها مدوياً في الغرف، يستنكر ما آل إليه الوضع، فقد تغيَّر كل شيء إلى حزن رتيب. إذا تحول التعقيب نحو ما هو خاص وموضوعي، يجب ذكر أن كيت المسكين لم يكن بأي معنى من المعاني فيّاض المشاعر من قبل، ربما لم يسمع تلك الصفة قط طوال حياته. على الرغم من أنه لم يكن لبقاً أو مهذباً، كان صبيّاً طيب القلب ورفيقاً مخلصاً، لذلك، بدلاً من أن يعود مرة أخرى إلى بيته ويتجرع آلامه

هناك ويشاكس أخويه الصغيرين، أو يسيء معاملته والدته، (على النحو الذي معه إذا كان أحد المقربين غير سعيد، فسينقل الشعور نفسه حتمًا لمن حوله)، آلت أفكاره جميعها نحو تنفيذ أي حيلة وإن كانت مبتذلة تكون نتيجتها جعلهم أكثر راحة.

فليباركنا الرب! كم من سادة أجلاء كثر يمتطون أحصنتهم ذهابًا وإيابًا، وكم من عدد قليل منهم يريدون أحدًا كي يُمسك أعنة أحصنتهم! يمكن لسمسار جيد يعمل في المدينة، أو حتى مفتش برلماني أن يخبرنا بالإجمالي وبالكسور، بالاستناد إلى الحشود المتجولة، مقدار الأموال التي جُنيت من الإمساك بالأحصنة فقط على مدار عام كامل. سيكون بالقدر الكثير حتما دون أدنى شك. إذا شرع سيد واحد من بين عشرين سيدًا في التمرجل، دون مساعدة من السائس -رغم أنهم في واقع الأمر لن يفعلوا- غالبًا ما كانت الأمور لتؤول إلى وضع يُرثى له، يُثبط نتائج أكثر التقديرات إحصاءًا في العالم.

الآن! شرع كيت في المضي قدمًا، أحيانًا يندفع في خطوات سريعة، وأحيانًا أخرى يتمهل في خطوات بطيئة، يتوقف في مكانه إذا تباطأ راكب وخفف من سرعة حصانه ناظرًا إليه، أو يهرول في سرعته القصوى نحو الشارع، إذا لمح نظرات موجهة نحوه من ممتطي الخيول، السائرين على الجانب المظلم من الطريق، موحين بوقوفهم أمام أي باب في أي لحظة. لكنهم جميعًا رحلوا، واحدًا تلو الآخر، ولم يَجْنِ كيت بنسًا واحدًا، فحدث الصبي نفسه: «أتساءل حقًا، لو أن أحدًا من هؤلاء السادة عَلم أن لا شيء في خزانة المنزل، ساعتها كان سيتوقف

من فوره عن عمد، يريد مني إيصاله للمكان الذي يطلبه، وكنت حينها لأكسب أي شيء، أم لم يكن ليفعل؟».

مضى كيت متعباً من كثرة المشي عبر الطرقات والشوارع، لم يزد بقولٍ واحد عن خيبات آماله المتكررة، فجلس على أحد الأرصفة؛ ليستريح قليلاً، بينما كان على حاله نفسه، مرّت أمامه عربة صغيرة ذات أربع عجلات تُصدر قعقة صاخبة، يجرها مهر صغير عنيد المظهر ذو فرو خشن، ويوجهها رجل عجوز سمين هادئ الملامح. كان يجلس إلى جانب ذلك السيد العجوز سيدة ممثلة قليلاً ذات ملامح هادئة مثله تماماً، أما المهر فقد كان طوال الطريق يسير وفقاً لما يريد، يزيد من سرعته أو يقلل منها حسب ما تمليه عليه رغبته. إذا احتج السيد العجوز على فعله، من خلال هز الزمام، ردها عليه المهر هازاً رأسه أيضاً. كان من الواضح أن أقصى ما يوافق المهر على إتمامه هو أن يسير في الطريق الذي يريد العجوز اجتيازه فقط وفقاً لأسلوبه الخاص في السير، وقد تبين وجود تفاهم كامل فيما بينهما، متمثلاً في إدراك العجوز أن المهر إذا لم يسر وفقاً لرغبته متبعاً أسلوبه، سوف يتعنت ولن يسير على الإطلاق.

حينما مروا أمام المكان الذي جلس فيه كيت، نظر كيت إليهم في حزن دفين، لكن السيد العجوز بادله النظرات. قام كيت من فوره ووضع يده على قبعته تحية لهم، منضمّاً إليهم في لطف، بينما كان العجوز يصرخ في مهره يريد استيقافه -وذاك كان بالأمر الذي نادراً ما يعترض على فعله من ضمن شتى فروضه- قال كيت: «أستمحيك

عذراً يا سيدي! لقد توقفت أمامي، أريد معرفة ما إذا كنت تقصد سائساً لحصانك أم لا!».

رد عليه السيد العجوز: «سأترجل عند وصولي إلى الشارع القادم، إذا أردت أن تأتي في أثرنا، سيكون لك ما طلبت».

شكره كيت بحرارة، وأطاع أمره في سعادة بالغة. انطلق المهر بقفزة حادة؛ من أجل أن يتفقد مصباحاً على جانب الطريق، ومن ثم انحرف على نحو مفاجئ تجاه عمود إنارة على الجانب الآخر من الطريق. بدا عليه الرضى بعد أن تبين له أنهما مصنوعان من المادة نفسها تقريباً ولهما النمط نفسه، وبعدها توقف منتشياً.

قال السيد العجوز بكل جدية: «هل ستسير بنا يا سيدي، أم سنظل هنا منتظرين إلى أن يفوت الوقت ولا نتمكن من اللحاق بموعدنا؟». مكث المهر ثابتاً.

قالت السيدة: «أوه! إنك حقاً مشاغب يا ويشكر! عار عليك! أنا في أشد الخجل فعلاً من سلوكك».

بدا على المهر أنه قد تأثر بقولها الذي خاطب مشاعره؛ فخبَّ المهر مباشرة، وهولول يمينيه ويسريه جميعاً في سلوك مبهم، ولم يتوقف مطلقاً حتى أوصلهم إلى مقصدهم أمام باب معلق عليه صفيحة نحاسية، تحمل كلمات (ويزردن - كاتب العدل). ترجَّل السيد العجوز، وساعد من فوره السيدة على النزول، ثم أخذ من أسفل مقعده باقة زهر صغيرة تشبه في حجمها وشكلها الوعاء النحاسي

الذي يوضع به الجمر لتدفئة الفراش، لكنه من دون مقبضه الطويل. هنا، حملته السيدة، ودخلت إلى المنزل في هدوء وجلال فخم، وتبعها على مقربة منها السيد العجوز -صاحب الرجل الحنفاء، فمشى على ظهر قدميه من ناحية الخنصر.

كان من السهل تبيين من صوتيهما، أنهما قصدا الردهة الأمامية، التي شابته نوعًا ما من المكاتب. كان اليوم دافئًا، والشارع بالخارج هادئًا، وكانت نوافذ المكتب مفتوحة على مصراعيها، فيمكن سماع أصواتهم دون أي استراق للسمع من خلال الستائر الفينيسية المسدلة إلى الداخل.

تبادرت إلى مسامعهم فور دخولهم أصوات سلام الأيدي ووقع الأقدام وتقديم باقة الزهر. تميّز من بين الأصوات المسموعة، صوت السيد ويزردن كاتب العدل حيث يمكن تفريقه عنها، يهتف بصوت جهوري عدة مرات: «أوه! رائع»... «أوه! عطر فوّاح فعلاً»، وكذلك كان من الممكن تمييز صوت تنفسه، وهو يستنشق رائحة الزهر في منتهى الاستمتاع واللذة.

قالت السيدة: «لقد أحضرت لك هذا تكريمًا لهذه المناسبة يا سيدي».

رد عليها السيد ويزردن، كاتب العدل: «آه! لهذه المناسبة! إنه لشرف لي يا سيدي.. إنه لشرف عظيم لي.. لقد أثناني الكثير من السادة يتدربون لديّ يا سيدي، الكثير فعلاً. أصبح معظمهم الآن سادة أغنياء، يتمتعون بثرواتهم، لكنهم متغافلون تمامًا عن رفائهم القدامى

وأصدقائهم يا سيدتي، لكنني إحقاقاً للحق، يجب أن أقول: إن هناك آخرين اعتادوا على التواصل معي في مثل هذا اليوم؛ قائلين: «إن أفضل أوقات حياتهم قد قضوها في ذلك المكتب.. قضوها على هذا المقعد.. ومع ذلك، لم يكن هناك أحد وسط هذا الجمع يا سيدتي، ارتبطتُ به، وتنبأتُ بمستقبله الباهر، مثلما فعلتُ مع ابنك الوحيد».

قالت السيدة: «أوه يا عزيزي! إنك حقاً لا تعرف مقدار السعادة التي نشعر بها حينما نخبرنا بذلك!».

قال السيد ويزردن: «إنني أخبركِ يا سيدتي، ما أظنه حقاً مثل أي رجل صادق، كرجل يتفق مع شاعر يتأمل عظمة ما خلق الرب، ويستشعر معه كل آيات الجمال يا سيدتي. فما بين شموخ جبال الألب العالية، وصغر طائر الطنان، لا شيء يضاهي براعة عمله، وهذا ما يظنه أي رجل نزيه حقاً.. أو سيدة».

تردد على المسامع صوت خافت، يقول: «إن أي شيء يقوله السيد ويزردن في حقي ينبغي أن أقوله أضعافاً تمجيداً له، وأنا في كامل اعتزازي وشكري.. أنا متأكد».

قال كاتب العدل: «إنه ظرف سعيد.. إنه لظرف سعيد حقاً، أن يتوافق مع هذا الحدث، بلوغه الثامنة والعشرين من عمره، أريد حقاً أن أعرف كيف يمكن أن أعبر له عن تقديري. أنا أثق تماماً، يا سيد جارلاندر، يا سيدي العزيز، أننا يجب أن نتبادل التهئة على هذه المناسبة الميمونة».

رد السيد العجوز عليه أنه يجب عليهما فعلاً الاحتفال بالأمر معاً. ثم تبين من صوتهما أنهما يتصافحان بالأيدي من أجل اتفاقهما، حينما فرغا من ذلك، قال السيد العجوز: إنه على الرغم من وجوب عدم التصريح بذلك، إلا أنه يريد الإعراب عن أنه ليس هناك ابن عظيم قد يمثل راحة لوالديه أكثر مما يمثل ابنه هابيل جارلاند له:

«بعدما تزوجت والدته يا سيدي، في وقت متأخر من العمر، انتظرنا معاً سنوات عديدة طوَّالاً، إلى أن أصبحنا في وضع جيد بما فيه الكفاية.. كبرنا معاً، ولم نعد صغاراً، وبعد هذا العمر كله، رُزقنا أخيراً بطفل واحد كان لنا مطيعاً وحنوناً.. كان لكل منا على حد سواء مصدر السعادة ومنبعها، يا سيدي».

قال كاتب العدل، بصوت يغمره التعاطف: «بالطبع هو كذلك، دون أدنى شك.. إن التفكُّر في أمر كهذا يجعلني أسفاً جداً على مصيري؛ بسبب كوني عازباً حتى الآن. لكني أود أن أعترف لك يا سيدي أنه ذات مرة كان هناك سيدة شابة جميلة كانت ابنة المسؤول الأول للتوريدات في المستودع. كانت بمثابة موطن ضعفي حقاً.. دعنا من ذلك الأمر.. يا تشوكستر، أحضر أوراق السيد هابيل».

قالت السيدة: «كما تلاحظ يا سيد ويزردن أن هابيل لم ينشأ مثل الشباب الآخرين. كان متكيفاً مع مجتمعنا طوال الوقت، وكان إلى جوارنا. إن هابيل لم يتغيب عنا أبداً، ولو ليوم واحد، أليس كذلك يا عزيزي؟».

رد عليها السيد العجوز: «بالتأكيد يا عزيزتي لم يتغيب، باستثناء

تلك المرة التي ذهب فيها إلى مارغريت يوم السبت مع السيد تومكينلي الذي عمل مدرّساً في تلك المدرسة التي كان يذهب إليها، وعاد إلينا يوم الاثنين في حالة يُرثى لها هزياً ومريضاً.. أتذكّر ذلك يا عزيزتي! لقد كان أمراً رهيباً».

قالت السيدة: «لكنك تعرف أنه لم يَعْتَدْ على فعل مثل تلك الأمور، ولم يكن بمقدوره تحملها، وتعرف أيضاً أن هذه هي الحقيقة. إلى جانب أنه لم يشعر قط بالراحة طوال وجوده بعيداً عنا، ولم يكن لديه أحد يتحدث إليه، أو حتى يستمتع معه».

قال الصوت الخافت نفسه، الذي تحدث من قبل: «لقد كان الأمر كذلك فعلاً، وأنتما تعلمان ذلك! لقد كنت في الخارج -يا أمي- بائساً تماماً، لم أفكر سوى في البحر الذي يفصل بيني وبينكم.. أوه، لن أنسى أبداً شعوري عندما فكرت أول مرة في أن البحر يفصل بيننا!».

عقّب كاتب العدل: «إنه الأمر طبيعي جداً في ظل هذه الظروف، إن مشاعر السيد هابيل تتأثر بطبيعته، وطبيعتك يا سيدتي، وطبيعة السيد الوالد أيضاً، وبالطبيعة البشرية على حد سواء. إنني أستشعر الحالة نفسها الآن وفقاً لتصرفاته الهادئة وأفعاله غير المزعجة.. أوشك على التوقيع باسمي في آخر الأوراق، واضعاً إصبعي على هذه الختامة الزرقاء على شاكلة الرسام (فانديك)، وسيكون السيد تشوكستر شاهداً.. أستمحيك عذراً سيدتي؛ إنني حقاً مضطر أن أعقّب في صوت عالي النبرة، فلا تفزعني، إنه مجرد شكل من الأشكال التي يوجبها علينا القانون.. بمجرد وصولي لهذا، سأكون قد أتممت فعلي. سيتوجب على

السيد هابيل فقط أن يوقع باسمه على الجانب المقابل، ويكرر الكلمات المعينة نفسها، ومن ثمَّ ينتهي العمل تمامًا. ها ها ها! أتلاحظون مدى سهولة إتمام تلك الأمور!«.

أعقب ذلك لحظة من الصمت، انتقل فيها السيد هابيل إلى إتمام فعله بالشكل المنوط به، ومن ثمَّ توالى أصوات مصافحة الأيدي، وتجدد صوت وقع الأقدام مرة أخرى، وبعد مرور فترة وجيزة، تعالت أصوات قعقة كؤوس الخمر، وأصوات ثرثرهم المختلطة. بعد مضيَّ ما يقارب الربع ساعة، ظهر السيد تشوكستر، عند الباب، يضع قلماً خلف أذنه، أحمر الوجه من أثر الخمر، ينادي على كيت في عطف، بلقب يقصد من ورائه المرح قائلاً: «أيها المتملق الصغير»؛ ليعلمه أن الزوار متأهبون للخروج.

فور خروجهم، كان السيد ويزردن -الذي اتضح أنه كان قصيراً، سميناً، منتعشاً، مفعماً بالحيوية، متسمّاً بالفخامة- يتقدّم في تأدب شديد، مع السيدة نحو الخارج، ويتبعهما الوالد والابن متأبطي الأذرع. اتّسم ذوق السيد هابيل بقدّم الطراز، لدرجة أن مظهره جعله يبدو في عمر يماثل عمر والده تقريباً، تبين أن تشابهاً عجيباً في ملامح الوجه والهيئة وأناقة الملبس قد جمعت بينه وبين والده، وبغض النظر عن أنه استعاض عن امتلاء جسده وبهيجته بتحفظ خجول، لكنه كان مماثلاً لوالده تماماً من شتى النواحي الأخرى، لدرجة أن رجله الحنفاء كانت تشبه رجل والده أيضاً، لذلك يمكن الجزم بأنهما قد كانا شبه متطابقين تماماً.

بعد أن اطمأنَّ إلى أن السيدة تجلس على مقعدها، بعد أن عدّلت من وضع معطفها، مستريحة في مساحتها الصغيرة المخصصة لها في العربة التي لا يمكن استبدالها بمكان آخر، صعد السيد هاويل على الصندوق الخلفي الصغير في العربة، كان من الجلي أنه تمت تهيئته له خصيصًا، ومن ثمَّ تبسم لكافة الحاضرين في تتابع، بدءًا من والدته، وانتهاءً بالمهر. كان من الشاق إرغام المهر على أن يرفع رأسه لإبقاء لجامه مشدودًا، لكن الأمر على كل الأحوال كان فعّالًا، فتمكن السيد العجوز في النهاية من أن يجلس على مقعده، متوليًا الإمساك بلجام المهر، بعد أن استراح في موضعه، وضع يده في جيبه؛ كي يخرج ستة بنسات من أجل كيت.

بعد البحث والتفتيش، تبينَّ أنه لم يكن معه ستة بنسات، ولم يكن مع السيدة أيضًا، حتى السيد هاويل، أو كاتب العدل، أو السيد تشوكستر، فكَّر أنه إذا أعطى كيت شلنًا، سيكون مبلغًا كبيرًا مقابل الخدمة التي قدمها، وساعتها لم يكن هناك حولهم أي متجر للحصول على فكة، لذلك في نهاية الأمر، لم يَجِدْ أي حل آخر فأعطى الصبي الشلن كاملاً. قال مازحًا: «خذ هذا الشلن، لكنني سأعود إلى هنا مرة أخرى، يوم الاثنين المقبل في الوقت نفسه، لذلك كن في الجوار يا فتاي الصغير؛ لتكمل العمل مقابل ما أخذته».

قال كيت: «سأكون متواجدًا هنا بكل تأكيد.. شكرًا جزيلاً لك!». لقد بدا أثناء قوله جادًا جدًّا، رغم أنه قد تعالت ضحكات كل الحاضرين على ما قال، خاصةً السيد تشوكستر، الذي أطلق ضحكاته

عاليًا، مستمتعًا في سرور بشكل يثير الدهشة. استشعر المهر في حس استباقي أن المظهر العام يشير إلى أنهم ذاهبون إلى المنزل، أو أنه لن يذهب إلى أي مكان آخر - وذلك بالنسبة له يعني النتيجة نفسها - فهرول مسرعًا في لمح البصر، لدرجة أن كيت لم يكن لديه الوقت الكافي ليوضح حديثه الشديدة فيما قال، لذلك لم يكن أمامه سوى أن يمضي في طريقه أيضًا. بعد أن أنفق كنزه الذي كسبه في شراء احتياجات المنزل، دون أن ينسى شراء البذور لعصفوره البديع. هرول مباشرة بقدر ما أوتي من سرعة عائدًا إلى منزله، مبتهجًا بما جناه، سعيدًا بنجاحه، لدرجة أنه بات يطمح إلى أن يجد نيل والعجوز قد وصلا قبله إلى هناك.



الفصل الخامس عشر

صباح يوم رحيلهما، بينما كانا يتخبطان في شوارع صامتة في المدينة، ساورت الطفلة مشاعر مختلطة، ارتعدت روحها بسببها؛ فقد تسلَّل إليها شعور بالأمل، لكن الخوف يسكنه في الحين ذاته، رأت هيئة مشوشة على مسافة بعيدة؛ صورت لها نفسها أنها شبيهة بهيئة كيت، أو ربما هو كيت المخلص نفسه. على الرغم من أنها كانت على وشك مد يدها في حرارة نتيجة سرور بالغ أصابها؛ تريد أن تحبيه وتشكره عما قاله لها في لقاءهما الأخير، وأنه حقًا من دواعي الارتياح العثور عليه ومقابلته في ظل ما يحدث، لكنها اكتشفت فور اقترابهما من أحدهما الآخر، أنه ليس بالشخص المقصود، كان شخصًا غريبًا، إذا لم تكن هي مَنْ فرعت حقًا؛ بسبب تأثير ما اكتشفته للتو، فقد كان رفيق سفرها هو مَنْ أُصيب بالاضطراب والفرع تمامًا، شعرت حينها أن توديع أي شخص الآن، وخاصةً مَنْ كان لها مخلصًا للغاية وصادقًا، سيكون أكثر مما يمكن لقدرتها أن تتحمله. فقد كان كافيًا، أن تترك كل الأشياء السخيفة خلفها، وأن تترك مَنْ لم يستشعر حبها وحزنها، وأن تترك صديقها الوحيد مبتعدًا عنه على مشارف ذلك الترحال، وهو ما يعتصر قلبها في الواقع.

لماذا نتحمل انفصال الأرواح عن بعضها، أفضل من تحمل انفصال أجزاء الجسد الواحد عن بعضه، بينما نجلد ذاتنا في الواقع حين الفراق؟ لماذا لا يكون لدينا عصب ينزف حين الفراق، فيدلي بحقيقة ما نشعر؟ لماذا في عشية الرحلات الطويلة، أو بعد غياب دام لسنوات عديدة، يتبادل الأصدقاء، مصافحات يد باردة، برغم الحنين الذي يكونونه لبعضهم؟ لماذا ينفصلون مع النظرة نفسها، والتشديد المعتاد على قبضة اليد، يخططون للقاء أخير في يومهم المقبل، بينما يعرف كل واحد منهم على حد سواء، أنها مجرد خدعة مبتذلة، يتماكرون بها على أنفسهم؛ من أجل انتشال أنفسهم من الشعور بالألم، من أجل تجنبهم التفوه بتلك الكلمة الواحدة، مدركين أن ذلك اللقاء، لن يحدث مطلقاً؟ هل يجب أن يكون تحمُّل الاحتمالات أكثر مشقة من تحمُّل اليقين؟ فلا نتجنب أبداً أصدقاءنا المحتضرين، عالمين بحتمية رحيل الواحد منهم، نتركهم بعد أن نغمرهم بكل اللطف والعطف، مدركين أن الوداع سوف يزيد من مرارة ما بقي من الحياة.

مع أول إشراق لأضواء الصباح، بدت المدينة في حالة من النشوة؛ فاندثرت المعالم الموحشة، والانطباعات المزعزعة لسكينة النفس، التي كانت عليها طوال الليل، تبدو الآن متبسّمة، تتراقص على نوافذ بيوتها أشعة الشمس اللامعة، متألّثة على الستائر أمام أعين النائمين، تلقي بنورها على أحلامهم، فتتنقش ظلال الليل. تستشعر الطيور في أقفاصها المظلمة المغلقة دفء ضوء النهار، فتنفذ ريشها من نوم غير مريح داخل أقفاصها الضيقة، تعود فتران الليل ذات الأعين اللامعة، إلى جحورها الدفينة، متسللة تخبئ معاً في مأواها، تجلس ققط المنازل

ملساء الشَّعر في سَكينة متغافلة عن طرائدها مطروفة العينين، تنظر إلى شعاع الشمس المتخلل من ثقب المفتاح وثقوب الباب المتصدع، تتوق في شغف إلى اللحظة التي ستختلس فيها انطلاقها إلى الخارج، نحو دفء أشعة الشمس المباشرة، حيث تقف الحيوانات دون حراك في أوكارها، هامدة خلف الأسوار، تحديق بأعين ذات لمعة خافتة، إلى أفرع الأشجار المهتزة، في الأيكة القديمة، فتزحف نحوهم أشعة الشمس من النوافذ الصغيرة، تنطلق داعسة في تهور المساحة المحددة لأقدامها المكبلة، ثم تتوقف وتحديق من جديد. يمدد الرجال حبسي السجون، أطرافهم المتشنجة من البرد، يلعنون أكوام الحجارة التي تحدهم من كل جانب، حاجبة عنهم ضوء السماء، ودفء النهار. تفتح الأزهار، التي باتت طوال الليل تضم أوراقها على بعضها، كأنها تفتِّح أعينها لتنظر إلى الضوء وتستمتع برؤيته. انبثق النهار، واتسعت طاقة نوره في كل حذب وصبوب، وتخللت إلى أرواح الخلق.

مضى المرتحلان معاً، متشابكي الأيدي، يتآزران، يتبادلان الابتسامات، والنظرات المبتهجة فيما بينهما، يسعيان نحو طريقهما في صمت، سعيدين ومشرقين كما اعتادا أن يكونا، لكن شيئاً مهيباً كان قد اجتاحت الشوارع المهجورة، فبدت الشوارع كأجساد دون أي أرواح تسكنها، فَرَّتْ منها روحها وتعبيراتها المعتادة، تاركة لها ثوب الموت يسكنها، فتشابهت جميعها. كان كل شيء تظهر عليه أمارات الساعات المبكرة من الصباح، باستثناء قلة قليلة من الناس، شاحبي الوجوه، بالقدر الذي جعلهم غير متآلفين مع المشهد الصباحي، بدوا عاجزين،

كمصاييح مشتعلة، هنا وهناك، لا يُلمح ضوءها أو يسطع في ضوء الشمس الوهاج بكامل لمعانه.

قبل أن ينطلقا بعيداً، ويتوغلا عبر تشعبات المساكن، التي تفصل بينهما وبين أطراف المدينة، كان نور الصباح قد أشرق، وشاع الصخب، ودبَّت الحياة حيثما كانا. حلَّ صوت صرير العربات والحافلات محل الصمت المطبق، مبدداً سحر هدوء الصباح، ظلت تتعاقب العربات الواحدة من وراء الأخرى في تتابع دون انقطاع، إلى أن ازدحمت الشوارع. ما كان مثيراً للعجب حقاً في البداية رؤية نوافذ المتاجر مفتوحة في ذلك الوقت المبكر، لكن ما تبين لاحقاً هو أن رؤيتها مغلقة هو الأمر نادر الحدوث. تصاعد الدخان ببطء من المداخل. رُفعت أطر النوافذ سامحةً بتخلل النسمات، فُتحت الأبواب على مصاريعها. ظهرت الخادومات كسولات -بما تحمله الكلمة من معنى- على الرغم من أن مقشاتهم كَوّنت سحباً بنية من الغبار، طافت أمام الأعين الناعسة للمارة، استمعا على نحو بائس إلى أصوات بائعي اللبن ذات الصدى الذائع بين أسواق البلدة، مارين في الأزقة بعرباتهم المظلمة، صاراً يتساءلان عما سيصادفان رؤيته، في الساعة التالية من رحلتهما.

اجتازا معاً ذاك الحي، وأصبحا عندئذ في مكان تنتشر فيه المتاجر، ويكثر فيه الازدحام؛ حيث يتردد عليه وفود من الناس، وتكثر فيه الأعمال التجارية. بُهت العجوز من فوره، وبات يحرق في ما حوله في ريبة، ويتملكه الارتباك؛ فودَّ فعلاً تجنب مثل هذه الأماكن. ضغط بإصبعه على شفتيه، ومن فوره توجه بالطفلة نحو أزقة ضيقة وطرق

ملتوية، لم تَبْدُ عليه أي إماراة من أمارات الراحة مطلقاً، حتى أصبحا على مسافة بعيدة، تاركين المكان ومن فيه وراءهما، بعد أن التفت العجوز إلى الخلف كثيراً، قال مغمغماً: إن الخراب وقتل النفس جاثمان في كل شارع وزقاق، إذا أحسا بوجودهما فقط ، لانقضا عليهما في الحال، وبهذا لن يتمكننا من الهروب سريعاً.

مرة أخرى، وبعد أن اجتازا ذاك الحي الآخر، أصبحا الآن في حي أكثر صخباً، قسّمت فيه المنازل إلى حجرات كثيرة، ورُقّعت فيه النوافذ بالأوراق والخِرقات، لتتم في وضوح عن فقر مَنْ يسكنون فيها. حيث لا تباع المتاجر سوى البضائع التي يقدر على شرائها الفقراء، ويكون فيها البائع والمشتري سيان، يتشابهان في عوزهما. لم تَبْدُ شوارعه فقيرة؛ بل كانت أقرب إلى ركام هش لحطام سفينة مُكوّم في مساحة ضيقة. على الرغم من ذلك كله، كان يتوافد إليه محصلو الضرائب والدائنون، مثلما يتوافدون على أي مكان آخر. على أي حال، يُعتبر الخاضعون لصراع الفقر القدري أقل دونية من غيرهم، ممّن استسلموا وكفّوا عن المحاولة منذ أمد طويل.

لقد كان مساراً طويلاً، طويلاً حقاً، على التابعين الذين سكن التواضع نفوسهم، ممّن أرادوا التخيم في معسكر الثروات، ولم يسعهم سوى نصب خيامهم حوله، على بعد عدة أميال - لكنهم على كل حال حافظوا على طباعهم كما هي.

تقف حائراً أمام المنازل الرطبة التي توغل فيها العفن، والمنازل التي تُبنى، أو التي بُنيت بالفعل، أو غير مكتملة البناء، أو حتى النزل المستأجرة؛ لا تعرف أي منها يجب أن تشفق عليها أكثر، لا تعرف ما

إذا كان هؤلاء هم مَنْ سمحوا، أم أن أولئك هم مَنْ أتوا ليستبيحوا، ترى الأطفال في كل شارع يتمرغون في الوحل، لا يهناون بملبس أو بمأكل وفير.. تسمع النساء المكثرات من التويخ، يدبدين بأقدامهن المتسخة داخل خفافهن على الرصيف، متوعدات بتهديدات صاخبة بملء أفواههن.. تبصر الرجال بئسين في هيئة رثة، يهرعون إلى عملهم، فهو السبب الرئيس الذي يجلب لهم (لقمة العيش اليومية) أو أكثر من ذلك قليلاً.. تجد السيدات يغسلن الملابس، ويعصرنها، تجد الإسكافيين، والخياطين، وصانعي الشموع، يزاولون حرفهم في الصالات والمطابخ والغرف الخلفية، وعلية المنازل، أو تجدهم أحياناً مجتمعين كلهم تحت سقف واحد.. ترى حقول القرميد تطوق الحدائق بعصي البراميل الخشبية القديمة، أو بأخشاب نُهبت من ركام البيوت، يُشعل فيها النيران، ويُطبع عليها اللون الأسود الفاحم دائماً.. تلمح أكواماً من القش وأعشاب القراص والحشائش وصدف المحار، مبعثرة في حالة من الفوضى.. تجد أن الكنائس التعليمية الصغيرة مليئة بزخارف ورسومات تجتر مآسي الأرض، بينما تجد الكنائس التي تُعبَّد طريقك إلى الجنة جديدة وكثيرة بُنيت بأموال طائلة.

وكما تجري مثل هذه الأمور، أصبحت الشوارع أكثر ضيقاً، تكاد تكون حركة السير فيها متوقفة، وأضحت المساحات الشاغرة تتضاءل ومن ثمَّ تتضاءل أكثر فأكثر، حتى لم يعد يبقى منها سوى رقعة صغيرة في حديقة، تقع بمحاذاة الطريق، تحدها العديد من الأكواخ الصيفية، باهتة الطلاء، مبنية بأخشاب قديمة، أو ببقايا ألواح القوارب الخشبية، اكتست

خواف أرضياتها باللون الأخضر، بسبب ما نما حولها من سيقان الملفوف، قبعَت بين تشققاتها قواقع لزجة، وعيش الغراب. تأتي بعدها الأكواخ الريفية، مشيدة اثنين إلى جوار اثنين، في مقدماتها ساحات خضراء، في أحواض تتخذ زوايا، تحدها أسوار متييسة، يفصل بينها ممرات ضيقة، لا تطوّها الأقدام أبداً، فبقى حصاها خشناً. ثم تأتي بعدها حانة في طلاء زاهٍ، باللونين الأخضر والأبيض، تحيط بها حدائق الشاي وساحة لعب القناني الخشبية الخضراء، والقرب منها توجد حظيرة خيل حيث تتوقف العربات، ثم تظهر الحقول، وبعدها بعض المنازل، منزلاً أمام الآخر، تحدها مساحات واسعة من المروج، بالإضافة إلى وجود بعض النزل، حيث سكن العتال وزوجته. يأتي بامتداد كل ما سبق الشارع الرئيس، ومن بعده يتواصل وجود الحقول مرة أخرى، حيث الأشجار وأكوام التبن، إلى أن نصل إلى تل، على قمته، ربما يقف المسافر؛ لينظر إلى الوراء، حيث تلوح على مرمى بصره قبة كاتدرائية القديس بولس عبر سحب الدخان، شامخة في الأفق، وصلبها يعلو السحب -إذا كان اليوم صافياً- لامعاً بفعل انعكاسات وميض أشعة الشمس، ثم تجتذب الضوضاء انتباهه، فيوجه ناظره نحو مصدرها، حتى يرنو بهما إلى أبعد نقطة بالأسفل حيث طوب وقذائف الهاون للبؤر الاستيطانية للجيش الغازي، التي يقع مركزها بالكاد أسفل قدميه، ليشعر في النهاية أنه كاشفٌ للندن كلها.

على مقربة من ذلك الموقع، جلس العجوز ومرشدته الصغيرة في حقل مُبهج؛ كي يستريحا قليلاً -كيف لها أن تكون مرشدته، وهي لا تعرف المكان الذي تحل به من الأساس! كانت الطفلة متأهبةً بكافة

الاحتياطات، معها سلة، احتوت على الخبز و شرائح اللحم، جلسا يتناولان الإفطار معًا، يتناولان طعامهما الزهيد.

جلسا حيث عذوبة الطقس، وإشراقة اليوم، وتغريد الطيور. جلسا على العشب النضر المليح، أسفل ظلال أوراق الشجر الخضراء، تحيط بهما الزهور البرية، وألف من الأصوات العذبة والروائح العطرة التي تُطوّف في الهواء .. جلسا حيث يتمثل سرور القلب والاستمتاع لمعظمنا، بل لكل من عاشوا حياتهم وسط صخب المدن المزدهمة، أو حتى من كانوا يعانون الوحدة.. جلسا في أوج استمتاعهما، يتنفسان بملء صدورهم، في سعادة جلية. رددت الطفلة صلواتها، في هذا الصباح أكثر من مرة، على الرغم من عدم دقتها، كانت تكرر بها بجدية بالغة، فاقت أي مرة سبق وأن قامت بترديدها فيها طوال حياتها، كلما شعرت برغبة في إلقاء صلواتها، ترددت الكلمات على شفثتها مرة أخرى. لم يكن العجوز متذكرًا أبدًا أي كلمات من المفترض عليه أن ينطق بها، لذلك اكتفى بقول: «آمين».، وبعدها كان يخلع قبعته، لقد كانا في ذلك الحين سعداء حقًا.

كانت لديهما نسخة قديمة من (رحلة المرتحل) موضوعة على أحد الأرفف في المنزل، اعتادت نيل تصفحها خلال أمسياتها، ساورتها التساؤلات حول ما إذا كانت كل كلمة واردة في تلك النسخة صحيحة أم لا، اعترها فضول لمعرفة أين تقع تلك البلدان البعيدة، التي تحمل أسماء غريبة. لذلك حينما نظرت خلفها، حيث المكان الذي غادره، خطر على بالها فورًا جزء معين.

قالت: «يا جدي العزيز! في الواقع إن هذا المكان يبدو من بعيد

أكثر جمالاً وحُسنًا مما هو عليه، إذا كان ما ورد في الكتاب حقًا، فإنني أشعر كما لو كنا شخصين ينتميان إلى ذاك المكان، وقد ألقينا على عشبنا متاعبنا وخوفنا دون أن يكتب علينا أن نلتقيها مرة أخرى».

رد العجوز، ملوحًا بيديه نحو المدينة: «لا.. لن أعود إلى هناك مرة أخرى.. لن يحدث هذا أبدًا. صرت أنا وأنت الآن في أفق الحرية، لا يوجد شيء سوف يخدعنا أو يحرضنا على العودة إلى هناك ثانية».

قالت الطفلة: «هل أنت متعب؟ هل أنت متأكد من أنك لا تشعر بالتعب بسبب رحلتنا الطويلة؟».

كان رده: «لن أشعر بالتعب مطلقًا مرة أخرى بعد الآن، لطالما حدث ذلك، لكننا رحلنا.. دعينا نحافظ على حماسنا يا نيل، ونبعد عن هنا أكثر فأكثر.. إننا لا نزال قريبين جدًا، يجب ألا نتوقف أكثر من ذلك في استراحتنا.. هيا بنا!».

كانت في الحقل بركة من الماء الصافي، ذهبت إليها الطفلة؛ غسلت يديها ووجهها، ووضعت قدميها لتستشعرا برودة الماء قبل أن ينطلقا مرة أخرى. أرادت أن يفعل العجوز مثلما فعلت تمامًا، فأجلسته على العشب، وصبت عليه الماء، ومن ثم جففت موضع الماء بملابسها البسيطة.

قال الجد: «إنني لا أستطيع فعل أي شيء، لا أستطيع أن أخدم حتى نفسي يا عزيزتي.. لا أعرف ماذا حدث لي، لقد كان باستطاعتي، لكن الزمن جار عليّ.. لا ترحلي عني يا نيل، قل لي: إنك لن تتركيني وتغادرين. لقد أحبيتك دائمًا، لقد أحبيتك فعلاً. إذا فقدتك أيضًا، سيكون الموت مصيري حتمًا!».

أسند رأسه على كتفها، وشرع يئن خائفاً. جاء الوقت وانقلبت الأحوال، منذ أيام قليلة، لم تستطع الطفلة كبح جماح مدامعها، وانتحبت معه. أما الآن، فهي تحاول تهدئته بكلمات لطيفة ورقيقة، تبسم مازحة من تفكيره الذي يخيل له أنهما قد يفترقان، تخفف عنه وتطمئنه في بهجة. سرعان ما هداً ونام، بينما كان يغني لنفسه، في صوت غير مسموع، كما الطفل الصغير.

استيقظ بعد حين متنعشاً، همّاً كي يستكملا رحلتهما. كان الطريق ممتعاً، فقد كان يخترق المراعي الجميلة وحقول الذرة، واعتلت سماء زرقاء صافية، حيث كان الكروان يصدح بأغنيته السعيدة. تدفقت نسيمات الهواء محملة بالعطر، طار النحل بين نفحات أريج الأزهار، محا طينيه آثار النعاس التي بدت عليهما.

أصبحا الآن في الخلاء، قل عدد المنازل، واتسعت المسافة التي تفصل بينهما، كادت تصل أحياناً إلى أميال. صادفا في طريقهما بعضاً من الأكواخ البسيطة، أحياناً كان يُسند إلى أبوابها المفتوحة كراسٍ وألواح خشبية؛ كي تحيد الأطفال المتدافعون دون حذر بعيداً عن الطريق، وأحياناً أخرى، كانت أبوابها مغلقة تماماً؛ فقد يذهب أفراد الأسرة بأكملها للعمل في الحقول. لطالما كان هذا المشهد هو المتعارف عليه في مدخل أي قرية، وبالمضي قدماً لمسافة قصيرة، دائماً ما يوجد دكان حِداة أو دكان لتصنيع العجلات وإصلاحها، ثم تأتي مزرعة غنية، حيث ترقد الأبقار على أرضها، وتنظر الخيول من وراء السياج، تخب متبخرة بعيداً؛ تعبيراً عن فوزها بحريتها، بينما تمر الخيول الأخرى المشدودة

عليها سرجها، أمامها على الطريق. كانت الخنازير المتبلدة هناك أيضًا، تسير في الأرض لترعى، تأكل من خشاشها، تنخر في رتابة، بينما تجوس هنا وهناك؛ تبحث عن طعامها. وفي الأعلى كان الحمام اللحيم يحلق حول برجه، أو يمشي مختللاً على الطَّنْف فوق أبواب الدور. وعند البركة كان هناك البط والإوز، يدور في خفة ورشاقة حول حوافها، أو يعوم بعفوية على سطحها. بعد أن انتهت ساحة المزرعة كان هناك نزل صغير، تتبعه حانة متواضعة، يرتجف من بها فور ذكر اسم المحامي والكاهن وتاجر القرية، لما تبثه أسماؤهم من رهبة في نفوسهم. ثم تظهر الكنيسة للرائي في شكل مهيب - لكنه متواضع - من بين الأشجار، ومن بعد ذلك يوجد القليل من الأكواخ الريفية، ومن بعدها يأتي مكان الحجز، لم يكن من غير المألوف أن توجد بئرٌ على الجانب الآخر، فقد كانت هناك بئر قديمة عميقة، يغطيها التراب. ثم تمتد الحقول المسيجة في الاتجاهات جميعها، ليحدها الطريق المفتوح مرة أخرى.

مشى المسافرين طوال يومهما الأول. وحينما رغبا في النوم، ناما ليلتهما في كوخ صغير، حيث تُتاح فيه أسرةٌ للمسافرين. في صباح يومهما التالي، ارتحلا مرة أخرى على أقدامهما، على الرغم من تعثرهما في البداية؛ لكونهما متعبين، نشَّطا من أنفسهما على وجه السرعة؛ فسارا في همة على طول الطريق.

على الرغم من كثرة توقفاتهما للاستراحة، إلا أنها كانت تستغرق فترة قصيرة في كل مرة، فكانا يتناولان وجبات طعام خفيفة فقط، تبقت لديهما منذ الصباح. قاربت الساعة على مشارف الخامسة عصرًا، حينما

مرا إلى جانب أكواخ أخرى، كانت لتجمعات عُمّالية، نظرت الطفلة في أسى شديد تجاه كل منها، مترددةً، تخشى طلب الإذن بالراحة لبعض الوقت وشراء الحليب.

لم يكن من السهل أبداً معرفة ما إذا كانت تخجل من طلبها، أم كانت تخشى الطرد! هناك، حيث تعالت صرخات طفل يبكي، وصوت سيدة صاخب. هناك، حيث بدا الناس جميعهم فقراء. بعد حين من التفكير، توقفت الطفلة أمام طاولة كانت تجلس عليها أسرة مجتمعة.. اختارت الطفلة تلك الطاولة بعينها؛ غالباً لأن عجوزاً كان يجلس على مقعد -مدعومٍ بوسادة- إلى جانب مشعل النيران؛ ظناً منها أنه يشبه جدها، وسوف يرأف من فوره بحالهما ويشعر بما يعانيان.

كان إلى جانب العجوز صاحب الكوخ وزوجته، وثلاثة أطفال أقوياء البنية، لون بشرتهم بنيّ كلون التوت. قابلوا جميعاً مطلب الطفلة بترحيب كبير. همّ الطفل الأكبر من فوره كي يجلب بعض الحليب، أما الأوسط فقد سحب مقعدين أمام الباب مباشرة، أما الأصغر فقد تخفّى في ثوب والدته، ونظر إلى الغريبين من أسفل يده التي لفتحها الشمس. قال العجوز بنبرة هادئة: «حفظكما الرب في رحلتكما! هل أنتما مسافران إلى مكان بعيد يا سيدي؟».

أجابت الطفلة؛ بعد أن حثها جدها لتجيب بدلاً منه: «نعم يا سيدي.. مكان بعيد جداً».

قال العجوز ثانية: «بعيد عن لندن؟».

أجابت الطفلة بالإيجاب.

آه! لقد كان في لندن عدة مرات سابقة؛ اعتاد الذهاب إليها بالعربات. مر تقريباً اثنان وثلاثون عاماً منذ أن كان هناك آخر مرة، سمع أن تغيرات هائلة طرأت عليها طوال هذه الفترة، مثلما تغير هو تماماً. إن مرور اثنين وثلاثين عاماً يعتبر فترة طويلة حقاً، وبلوغ الرابعة والثمانين يعتبر عمراً لا يُستهان به، على الرغم من قرب بلوغه المائة عام، ومعاصرتة لصعوبات كثيرة، لم يكن هناك شيء يضاهي طيبة قلبه، أبداً.. على الإطلاق.

قال العجوز، وهو يطرق بعصاه على أرضية من القرميد، محاولاً فعل ذلك بحماس: «اجلس هنا يا سيدي.. خذ بعضاً مما في هذا الصندوق، إنني لا آخذ لي مقداراً كبيراً؛ فإنه يوقظني أحياناً يا عزيزي، أما أنت فلن يؤثر فيك؛ فعمرك بالنسبة إلى عمري، يجعل منك مجرد صبي. كان من المقتدر أن يكون لي ابن في مثل عمرك، إذا كان قد بقي على قيد الحياة، لكنهم أدرجوه على لائحة الجنود.. ثم عاد إلى المنزل بعد حين مبتور الساق. داوم كثيراً على قول: إنه سيُدفن بالقرب من الساعة الشمسية التي اعتاد تسلقها حينما كان طفلاً، وهذا ما حدث، وقد أصبحت كلماته واقعاً، يا لفقيدي الغالي! يمكنك أن ترى المكان بعينيك، لقد كسونه بالعشب منذ ذاك الحين».

هز رأسه في أسى، نظر إلى ابنته بعينين يترقق فيهما الدمع، قائلاً: إنها ليست في حاجة إلى أن يعتريها الارتباب حيال الخوض في الحديث عن هذا أكثر من ذلك. إنه حقاً لا يريد أن يزعج أي أحد بما قاله، وإنه إذا حدث وشعر أنه أزعج أحدهم بالفعل، سوف يعتذر له من فوره.

وصل الحليب إليهما، تناولت سلتها الصغيرة، وأخرجت منها

أفضل ما تبقى من فئات الطعام، وقدمته لجدها، وحظيا معًا بوجبة، نزلت مريئًا على قلبيهما. غلب على أثاث الغرفة الطابع العائلي بكل تأكيد.. كان هناك عدد قليل من الكراسي الممتينة، وطاولة، وخزانة مزوية، على أرففها مخزون صغير من الأواني الفخارية، وصينية شاي مبهرجة مرسوم عليها سيدة حسناء ترتدي اللون الأحمر الصارخ ممسكة بمظلة زرقاء في وضع السير، إلى جانب بعض العبارات المقدسة المعروفة، في أطر معلقة على الحائط والمدخنة، وخزانة ملابس قديمة متناهية الصغر، وساعة بعدد أسبوعي، مع عدد قليل من القدور اللامعة وغلاية، هذا ما اشتملت عليه الغرفة أول عن آخر. لكن كل شيء كان نظيفًا وأنيقًا، دارت الطفلة بعينها تتفقد تفاصيل المكان، وقد أضفى فعلها على نفسها شعورًا بالسكينة والراحة، وطوّق روحها بارتياح لم تشعر به منذ أمد طويل.

سألت الزوج: «كم تبعد أقرب قرية أو مدينة عن هنا؟».

رد عليها قائلًا: «قراية الخمسة أميال يا عزيزتي.. لكنك لن تسافري الليلة بالتأكيد!».

قال العجوز من فوره: «بلى.. بلى.. أليس كذلك يا نيل؟». ثم حث الطفلة على أن تومئ مثله بالإيجاب أيضًا، مستطردًا: «إنها مسافة بعيدة، مسافة بعيدة حقًا يا حبيبتي، علاوة على أننا لن نصل، حتى إذا داهمنا منتصف الليل».

قال الرجل: «إن هناك مخزنًا زراعيًا جيدًا، يقع على مقربة من هنا، وأعتقد أن هناك بناية لإيواء المسافرين أيضًا في (بلو آند هاربر).

لكنك.. معذرة! تبدو متعباً للغاية، وأحسب أنك إذا لم تكن حريصاً على استمرار رحا...».

قال العجوز في أسى: «بلى.. بلى.. إننا حريصان حقاً، إنها مسافة بعيدة جداً، أليس كذلك يا عزيزتي نيل؟».

قالت الطفلة خاضعة إلى رغبته الاضطرارية: «معك حق يا جدي.. يجب أن نستكمل رحلتنا في الواقع.. نشكركم جميعاً شكراً جزيلاً، إننا لا نستطيع التوقف لوقت أكثر من ذلك، هيا بنا يا جدي؛ أنا مستعدة».

لكن سيدة الكوخ لمحت من مشية المرحلة الصغيرة، أن إحدى قدميها الصغيرتين قد أُصِبت بالتهاب شديد وتقرحات، ولأنها امرأة ذات قلب عطوف، وأُمُّ قبل كل شيء، لم تسمح لها بالرحيل مطلقاً دون أن تطهر لها جروح قدمها، وتُطَبَّقَ عليها بعض طرق العلاج البسيطة، وقد فعلت ذلك بحذر تام، بيد يغمرها الحنان -رغم ملمسها الخشن في الواقع جراء طبيعة عملها- شعرت الطفلة بامتنان شديد، وقد امتلأ قلبها بحنين، جعلها عاجزة عن التعبير عنه بكلمات، لم تقل سوى: «فليباركك الرب!»، ثم سارت في طريقها، ولم تنظر إلى الوراء مطلقاً، كان قلبها مزعزعاً، لا يدري ماذا يقول، حتى غادرت الكوخ، ولم تعد على مسافة قريبة منه. حينها أدارت رأسها، ورأت جميع أفراد العائلة، حتى جدهم العجوز، متراصين متجاورين، ناظرين إليهما، بينما يتبعدان، يلوحون بأيديهم في حرارة، ويودعونهما بإماءات مبهجة.. على الأقل كان أحد الجانبين يودّع الآخر دون دموع.

تقدما في طريقهما إلى الأمام في تودة، تعتريهما الآلام أكثر من أي وقت مضى؛ سارا ميلاً آخر، أو ما يقرب من ذلك، لكنهما سمعا

صوت عجلات خلفهما، فنظرا من فورهما إلى مصدر الصوت، ولمحا
عربة فارغة تقترب بسرعة نحوهما. وصل راكب العربة إليهما، ومن ثمَّ
أوقف حصانه، وبات ينظر إلى نيل في اهتمام.

قال: «ألستما من توقفتما في البيت الريفي؟».

أجابت الطفلة: «بلى يا سيدي!».

قال الرجل: «آه! لقد طلبوا مني أن أذهب في أثركما، إنني سأمضي
في طريقكما نفسه.. هيا أعطني يدك يا سيدي؛ لتصعد إلى العربة».

مثَّلَ لهما ما حدث راحة كبيرة؛ فقد كانا منهكين للغاية، لدرجة
أنه كان من شبه مستحيل بالنسبة لهما أن يصلا إلى هناك. كانت العربة
المهتزة بالنسبة لهما بمثابة مصدر راحة مترفة، فجعلت من رحلتها
أكثر الأشياء متعة في العالم. بالكاد استلقت نيل على كومة صغيرة من
التبن في إحدى الزوايا، فغاصت من فورها في نوم عميق لأول مرة طوال
ذاك اليوم الشاق.

استيقظت نيل؛ فور توقف العربة، مستنبطةً أنهم قد وصلوا إلى
نهاية الطريق. ترجَّل راكب العربة، وساعدها في النزول، مشيرًا إلى
بعض الأشجار التي تقع على مسافة قريبة منهما، قائلاً: إن المدينة هناك،
وإنه من الأفضل لهما أن يسلكا الطريق الذي يقودهما إليها عبر ساحة
الكنيسة.. وهكذا سارا يستكملان رحلتها موجهين أقدامهما نحو ما
أشار إليه في خطوات ثقيلة متعبة.



الفصل السادس عشر

كانت الشمس تغرب، حينما وصلا إلى بوابة بداية الممر، حيث كان المطر ينهمر على العادل والظالم على حد سواء، تهيمن الشمس بلونها الدافئ على الأفق وعلى مقابر الموتى، توحى بأمل جديد سيأتي من بعدها، عبر إشراقة الغد. لاحت الكنيسة قديمة ورمادية، يُعرّش اللّباب جدرانها وحول الرواق. يستكين المتواضعون الزاهدون من الرجال فوق الأضرحة الواصلة إلى التلال، وتلتف حولها أول أكاليل زهور قدمت للراقدين، كانت أكاليل من زهور ليست عرضة للذبول، ومن أكثر الأنواع ديمومة، أكثر من تلك المخبأة في الأعماق أسفل الحجارة والرخام، منذ سنوات عديدة، ولا يُكشف عنها في النهاية سوى لمنفذي الوصايا أو لوارثي الوصايا في حدادهم.

كان حصان القسيس يمشي متعثراً بين الأضرحة في رتبة وعلى غير هدى، ينتف العشب، ائتلف الجمع في عزاء أرثوذكسي لأحد أبناء الأبرشية؛ كي ينفذوا وصايا الكتاب المقدس، إلى جانبهم حمار هزيل كان من المفترض أن يقوم بالمهام نفسها، لكنه لم يكن مؤهلاً أو حتى مستعداً، يرخي أذنيه نحو زكيته الفارغة، ناظراً بأعين جائعة إلى جاره الكهنوتي.

أنهى العجوز والطفلة سيرهما في الطريق المفروش بالحصى، انتقلا للمشي بين المقابر، حيث كانت الأرض مستوية ملساء، لا تؤلم أقدامهما المتعبة. بمجرد وصولهما إلى جانب الكنيسة سمعا أصواتًا على مقربة جدًا منهما، سرعان ما وصلا إلى مصدرها وأبصرا مَنْ كانا يتحدثان.

لقد كانا رجلين، جالسين بكل بساطة على العشب، منشغلين بما يفعلان، لدرجة أنهما في البداية لم يلتفتا إلى قدوم الغريين، ولو لوهلة واحدة. لم يكن من الصعب التكهّن بأنهما اثنان من المتنقلين الذين ينظمون العروض - كانا مؤدّيين للعروض الثانوية لـ «بانش». - لأن مَنْ كان يرقد خلفهما، على بلاط الضريح، ويضع ساقًا فوق الأخرى، كان شبيهًا بالبطل نفسه، له أنف وذقن معقوفان، ووجهه مبتسم بابتهاج كالعادة. ربما لم تتطور شخصيته المضطربة بشكل لافت بعد؛ فقد حافظ على ابتسامته المعتادة الرصينة، رغم أن جسده تدلى في وضع غير مريح بالمرة، بدا ملبسه غير مهذب أبدًا، فضفاضًا لا شكل له، بينما تتوازن قبعته الباهتة ذات الطرف المدب بشكل غير متكافئ نحو ساقيه النحيلتين للغاية، مترنحة؛ تهدد في كل لحظة بإسقاطه رأسًا على عقب.

تواجد باقي ممثلي العرض الدرامي على امتداد أقدام مَنْ افترشا الأرض، وقد تناثروا من صندوق مسطح طويل في بعثرة فوضوية. كانت زوجة البطل هناك، والطفل الوحيد، والمهر، والطبيب، والسيد الأجنبي الذي ليس على دراية أبدًا باللغة؛ لا يعرف كيفية التعبير عن

أفكاره، بخلاف نطقه المميز لكلمة «شلابالا» ثلاث مرات والجار الراديكالي المتعصب الذي لا يعترف بأي شكل من الأشكال أن جرس القصدير هو نوع من الآلات الموسيقية، والجلّاد، والشيطان، وجميعهم كافة. جاء مالكاها إلى تلك البقعة خصيصًا لإجراء بعض التجهيزات والإصلاحات اللازمة للترتيبات المسرحية، كان أحدهما منخرطًا في ربط حبل مشنقة صغير، بينما كان الآخر منكبًا على إصلاح شعر مستعار أسود جديد، باستخدام مطرقة وبعض المسامير، يدق بها على رأس الجار المتعصب، الذي تعرض إلى الكثير من الطرقات على رأسه الأصلع.

رفعا أعينهما، فور رؤيتهما العجوز والطفلة، فتوقفا عما كانا يفعلانه، وظلا ينظران إليهما في فضول. كان أحدهما -العارض الفعلي من دون شك- ذا وجه باش، وعينين لامعتين، وأنف أحمر، كأنه قد تقمص دور بطولته في العرض. بينما كان الآخر -مَن يأخذ المال- ذا نظرة حذرة حريصة، ربما لا تنفصل عن دوره في العرض أيضًا.

كان الرجل ذا الوجه الباش هو أول من قدّم التحية للغريبين بإيماءة مرحة، عبر تتبعه لعيني العجوز، لاحظ من حماسه أن تلك ربما هي المرة الأولى التي يرى فيها بانش، بعيدًا عن خشبة المسرح. (كان من الملحوظ أن بانش قد بدا مشيرًا بطرف قبعته إلى أكثر الاقتباسات المنقوشة على الضريح زهوًا، ضاحكًا بينه وبين نفسه من أعماق قلبه). قال العجوز وقد جلس إلى جانبه ناظرًا إلى الشخصيات الأخرى في سرور شديد: «لماذا أتيت إلى هنا بالتحديد؟ كي تفعل ما أنت فاعله؟».

قال الرجل القصير: «لماذا في رأيك! إننا سنحل هذه الليلة في البيت العام»^(٨)، وبالتأكيد لا نريد أن ندعهم يشاهدون شخصياتنا تحت الإصلاح والتجهيز».

صاح العجوز، لافتاً انتباه نيل بإيماءة؛ كي تستمع إلى ما سيقال: «لا! لكن لأي سبب، ها! لِمَ لا؟».

رد الرجل القصير قائلاً: «لأنهم إذا رأونا على هذا الحال؛ سيتبدد خيالهم، وتلاشى الصورة التي في أذهانهم، وليس من المستبعد أن يفقدوا شغفهم بالكلية.. أليس كذلك؟ هل كنت لتهتم بنصف بنس حتى إذا رأيت رئيس مجلس اللوردات، دون شعره المستعار.. قل لي هل كنت لتفعل؟ بالتأكيد لا».

قال العجوز، مغامراً، يتلمس إحدى الدمي في شغف عارم، ساحباً يده من فوره، وهو يضحك بشدة: «جيد جداً! إنك على وشك عرضها الليلة؟ أليس كذلك؟».

رد الآخر قائلاً: «هذا هو مقصدنا يا زعيم.. إذا لم أكن مخطئاً، فإن تومي كودلين يحصي في اللحظة التي أتيت فيه نحونا ما فقدناه.. ابتهج يا تومي؛ بالتأكيد لن يكون بالقدر الكثير».

تبع الرجل القصير هذه الكلمات الأخيرة بغمزة، عبّر من خلالها عن تقديره التخميني للحالة المالية للمسافرين.

(٨) يذكر أن مصطلح البيت العام تم استخدامه لأول مرة في أواخر القرن السابع عشر؛ للترفة بينه وبين المنازل الخاصة، كان عبارة عن مبنى يجمع ما بين خصائص النزل والحانات، حيث يمكن فيه المبيت ويقدم فيه الطعام والمشروبات الكحولية.

رد السيد كودلين، الذي امتاز بتقلباته المزاجية، بينما انتزع بلاطة من الضريح، وقذفها داخل الصندوق، قائلاً: «إنني لا أكرث مطلقاً، حتى لو لم نكن قد فقدنا ربع بنس، لكن لك مطلق الحرية.. إذا وقفت فقط أمام الستار، ورأيت وجوه الجمهور، مثلما أفعل، لكنت تفهمت الطبيعة البشرية أفضل من ذلك».

قال رفيقه: «آه! لقد أفسد ذلك روحك يا تومي، السبب في ذهابك إلى هذا المدى، عندما لعبت دور الشبح، في عمل درامي عادي في الأسواق الشعبية، هذا ما جعلك تؤمن بالأمور جميعها.. عدا الأشباح ذات نفسها. لكنك الآن أصبحت عديم ثقة عالمياً، لم أرَ في حياتي شخصاً قد تغير كلياً هكذا».

قال السيد كودلين، في طبع فلسفي تهكمي: «لا بأس! إنني أكثر دراية الآن، وربما أكون حقاً أسفاً على هذا».

بعد التقلب في الصندوق، بغير اكتراث، وبشكل مهين لمحتوياته، انتشل السيد كودلين منه شيئاً واحداً، ورفعته إلى مجال نظر صديقه؛ ليتفحصه:

«انظر هنا! ها هي ملابس جودي تنفصل عن بعضها إلى قطع غير متصلة مرة أخرى. أحسب أنك لم تحضر إبرة وخيطاً؟».

هز الرجل القصير رأسه في أسى، وأخذ يمسح عليه، بينما كان يتفكر في غضب المؤدي الأساسي. وحينما رأتهما نيل في حيرة من أمرهما، قالت على استحياء:

«إن معي إبرة في سلتى يا سيدى، ومعى خيط أيضًا.. هل سمحت لى أن أحاول إصلاحها من أجلك؟ أعتقد أنه بإمكانى فعل ذلك أفضل مما هو بإمكانك».

لم يُبَدِ أي أحد اعتراضًا، حتى السيد كودلين، لم يكن لديه أي دافع يحثه على مناقشة ما تم اقتراحه. جثت نيل على ركبتها، بجانب الصندوق، وانشغلت من فورها في تنفيذ مهمتها، حتى تبين أن ما انجزته كان معجزة.

بينما كانت مستغرقة في عملها، كان الرجل ذو الوجه الباش ينظر إليها، في شغف، لم يتبادر إليه مطلقًا، حينما كان ينظر إلى رفيقها العاجز. أنهت الطفلة عملها، شكرها في حرارة، واستفسر عن المكان الذي كانا يسافران إليه.

قالت الطفلة، وهي تنظر إلى جدها: «إل..لا.. لن نسافر إلى أي مكان هذه الليلة».

عقب الرجل: «حسنًا! إذا كنتِ تريدين مكانًا للاستراحة فيه، يجب عليّ أن أنصحك، ويمكنك أن تأخذي بنصيحتي، ربما تمكثين في المكان نفسه، الذي نمكث فيه. هذا هو كل شيء.. على كل حال، إنه البيت الأبيض الطويل، المنخفض عن سطح الأرض، هناك.. آه! بالمناسبة، إنه رخيص جدًا».

على الرغم من الإنهاك الذي كان يعاني منه العجوز، إلا أنه كان على استعداد كامل كي ينتظر مع صحبته الجديدة طوال الليل، حتى إذا

بقيا في ساحة الكنيسة. قابل العجوز اقتراحهما بموافقة سريعة وجاهزة، وهو في كامل سروره، ومن بعدها انفضوا جميعاً من مجلسهم، ورحلوا معاً، ظل العجوز بالقرب من صندوق الدمى؛ حيث كان في أشد ولعه بها، أما الرجل صاحب الوجه الباش فكان يحمل على كتفه ذلك الصندوق، بحزام رُبط إليه من أجل هذا الغرض، أما نيلي فقد سارت ممسكة بيد جدها، وكان السيد كودلين يمشي مترنحاً خلفهم في تودة، يتأمل بنظراته برج الكنيسة والأشجار المجاورة، كعادته المألوفة حين وجوده في المدينة، وينظر مباشرةً إلى غرف الرسم ونوافذ الحضانة؛ يبحث عن موقع ملائم ليقدم عرضه.

امتلك البيت العام رجل سمين عجوز وزوجته، لم يديا أي اعتراض تجاه استقبال زائرين جدد، مشيدين بجمال نيل، التي تركت انطباعاً حسناً فور قدومها. لم يكن هناك أي صحبة أخرى في المطبخ، سوى ممثلي العرض، لذلك شعرت الطفلة بالامتنان الكامل؛ نظير استدلالها أخيراً على مأوى جيد كهذا. غمرت مالكة البيت حالة من الذهول العارم؛ حين علمت أنهما سارا تلك المسافة كلها من لندن، وظهر عليها فضول غير قليل؛ تريد أن تعرف وجهتهما البعيدة. حاولت الطفلة جاهدة تفادي الإجابة عن استفساراتها، بقدر ما استطاعت، وحينما لاحظت السيدة امتعاض نيل، وأن استفساراتها تسبب لها آلاماً، كان من اليسير عليها أن تكف من فورها.

قالت، بينما تأخذها إلى الداخل: «إن هذين الرجلين قد طلبا العشاء وسيكون جاهزاً خلال ساعة واحدة، وأفضل خيار لك، هو أن تأكلي

العشاء معهما. في هذه الأثناء، يفضل لك أن تتذوقي شيئاً، يجعلك في حال أفضل، فأنا متأكدة تمام التأكد أنك استنفدتِ قواك كلها خلال ذلك اليوم الطويل المضني، وأنت في حاجة ماسة إلى الطعام.. الآن! كفي عن الاعتناء بجذك والقلق عليه؛ لأنه في الوقت الذي ستكونين فيه تشربين هذا، سيكون لديه البعض مما تشربين منه أيضاً.

لكن لا شيء يمكنه أن يستحث الطفلة على أن تتركه بمفرده، أو أن تلمس أي شيء لا يكون هو فيه شريكها الأول والأكبر، لذلك لم تجد السيدة مفراً من أن تقدم له العون أولاً. بينما كانا يستعيدان حيويتهما، سارع أفراد البيت كلهم نحو حظيرة الخيل الخالية؛ حيث سيقام العرض، فقد أنبرت أضواء الشموع التي كانت ملصقة بطوق علّق بحبل يتدلى من السقف، إعلاناً عن بدء العرض في التو واللحظة.

الآن! شرع السيد توماس كودلين -الناقم على البشرية- في النفخ في البوق، حتى تقطعت أنفاسه، ومن ثمّ اتخذ موضعه خلف ستارة من الجوخ منقوشة، حيث يتخفّى محرك الدمى، واضعاً يديه في جيوبه؛ استعداداً للرد على جميع أسئلة وملاحظات (بانش)، مفتعلاً خدعة محزنة، معتمداً على كونه صديقه المقرب، ويثق به ثقة غير مشروطة إلى أقصى الحدود، يعلم بأنه يستمتع بنهاره وليله بسبب وجوده المميز العظيم في مكانه، مثلما يكون هو دائماً طوال الوقت، وتحت أي ظرف من الظروف، الشخص الذكي المستمتع نفسه، الذي ينظر إليه المتفرجون. فعل السيد كودلين هذا كله باتخاذ مظهر الرجل الذي أقلم عقله على الأسوأ، ما كاد ينتهي، حتى جالت عيناه بطيئاً، بين الحضور؛

يستشعر تأثير ما قدّمه على الجمهور، وخاصة انطباع مالك البيت وزوجته؛ لما له من تأثير فعّال ومهم على تحضيرات العشاء.

بناءً على ما استشعره، لم يكن لديه أي سبب؛ يجعله يشعر بأي اضطراب، أو يساوره أي قلق، فقد حاز عرضه استحسان عظيم من الجميع، معبرين عن ذلك بصدى عارم من الإطراءات، وبكثير من عروض المساهمات التطوعية التي انهالت بوفرة في تسامح، تُثبت من فورها سيادة البهجة على الجو العام. لكن من بين تلك الضحكات، لم تكن هناك ضحكات عالية ومتكررة أكثر من ضحكات العجوز. أما ضحكات نيل، فلم تكن مسموعة؛ فيا لها من طفلة مسكينة، بمجرد أن أراحت رأسها على كتف العجوز، غلبها النوم، وسقطت في سُبات عظيم، لدرجة أن جهود جدها التي بذلها لإيقاظها كي تشاركه بهجته، لم تُجدِ أي نفع.

كان العشاء جيداً جداً، لكنها كانت مرهقة للغاية، لم تستطع حتى أن تمد يدها وتأكّل، لكنها ظلت إلى جانب العجوز، ولم تتركه حتى أخلدته إلى النوم في فراشه، وقبّلتَه. أما العجوز، فقد كان جالساً لحسن حظه، تغمره السعادة، غير مدرك لجهودها الشاقة التي تبذلها؛ من أجل العناية به، أو لقلقها حياله، ظلت الابتسامة مرسومة على وجهه؛ منبهراً بكل ما كان يقوله صديقه الجديد، ولم يبرح مكانه، حتى ذهبوا إلى غرفهم، يلزمهم التأؤب، في ذلك الحين فقط، رضح لاتباع الطفلة إلى أعلى الدرج.

لم يكن أعلاه سوى دور علوي، كان مقسماً إلى حجرتين، حيث ذهباً ليستريحاً، وقد كانا في قمة السعادة بمسكنهما، لم يتمنيا ما هو

أكثر أو أفضل من ذلك. لم يكن من السهل على العجوز أن يرقد في سريرهِ، حيث توَسَّل إلى نيل كي تأتي وتجلس بجانبه، مثلما كانت تفعل في ليالٍ كثيرة سابقة، لذلك سارعت إليه نيل، فور سماعها له، وبقت إلى جانبه حتى نام.

كانت توجد نافذة صغيرة في غرفة نيل، تشبه بالكاد ثقبًا في الحائط، عندما تركت جدها، ذهبت إليها وفتحتها، وهامت في الصمت الذي يحوم حولها. أضفى عليها مشهد الكنيسة القديمة، والأضرحه التي تحيط بها، وقد انعكست عليها ضياء القمر، وظلال الأشجار، وحفيف أوراقها، شعورًا جعلها تنغمس في التفكير العميق أكثر من أي وقت مضى. وإذ بها تُغلق النافذة مرة أخرى، وتجلس على سريرها منكმشة، تفكر في حياتهما السابقة.

كان لا يزال معها القليل من المال، القليل جدًّا، باتت تعرف أنه بمجرد انتهاء هذا المال، عليهما أن يشحذا. ضمن هذا المال، قطعة ذهبية واحدة، مدخرة؛ ربما تصادفهما حالة طوارئ، حينها سوف تعني تلك القطعة أكثر من قيمتها مائة مرة، لذلك كان من الأفضل إخفاء تلك العملة وعدم إبرازها، ما لم تكن حالتها حرجة وميؤوسًا منها تمامًا؛ لأنه نظرًا لطبيعة حالهما الآن لم يعد لديهما أي مورد آخر.

اتخذت قرارها، وحاكت القطعة الذهبية بنفسها في فستانها، وآوت إلى الفراش بقلب ساكن، وغاصت في نوم عميق.

الفصل السابع عشر

حلَّت إشراقة شمس يوم منير آخر، سقطت أشعتها المتلألئة من النافذة الضيقة، تداعب عيني الطفلة العطوفتين، فتوقظها من نومها. فتحت الطفلة عينيها على مشهد غرفة غريبة الشكل، تكتظ بحاجيات غير مألوفة لها، ساورها العجب، تتساءل كيف نُقلت من غرفتها المألوفة، التي غشاها النوم فيها في ليلتها الماضية، وإلى أين نُقلت. لكنها بعد نظرة أخرى فيما حولها، بعثت إشارات الحسية ومضات إلى ذهنها، فاستدعت ما مرّت به في الآونة الأخيرة، فنهضت من سريرها، تعترىها طاقة أمل وثقة.

كان الوقت باكراً، والعجوز لا يزال نائماً، تمشّت الطفلة إلى ساحة الكنيسة، تتحسس نداوة العشب بقدميها، غالباً ما كانت تحوّل قدميها بعيداً عن أماكن النمو الطويل للعشب، حتى لا تخطو على القبور. شعرت بشيء من السرور يغمر قلبها؛ وهو الأمر المثير للدهشة نظراً لوجودها بين منازل الموتى، تقرأ النقوش على مقابر الأناس الطيبين - فقد دُفن حتماً الكثير من الطيبين في هذا المكان - تنتقل من واحد إلى الآخر في اهتمام متزايد.

شاع الهدوء في المكان - كما ينبغي أن يكون عليه الحال في مثل هذه الأماكن - باستثناء أصوات نعيق، تردد صداها في الأفق، لغربان شيدت أعشاشها بين أغصان بعض الأشجار القديمة الطويلة. في البداية، حلق غراب، ريشه طويل، يحوم في مهب الريح بالقرب من عشه الأشعث، يصدر صياحه الأجش في نغمات واقعية مترنة، كما لو كان يستأثر بحديث مع نفسه. رد عليه آخر، ومن ثم أجابه الأول، ولكن بنعيق أكثر صخبًا، ثم شاركهما آخر، ومن ثم آخر، وفي كل مرة مع مرور الوقت، يتبين أن الغراب الأول يختلف معها في الرأي، فيرفع من صوت نعيقه، كأنه يزداد إصرارًا على رأيه ويعضده بشدة أكبر. أما عن الأصوات الأخرى في الأفق، فلم يكن لها أي صدى، كان الصمت لا يزال مخيمًا حتى ذلك الحين، إلى أن انبعثت الأصوات على حين غرة أعلى فروع الشجر وأسفلها وفي الطرقات، يمينًا ويسارًا، ومن بين قمم الأشجار وبعضها البعض، ومن الأبراج الرمادية للكنيسة، ومن نافذة جرسها القديم، تعلو وتنخفض، تستمر حينًا، ثم تنخفض لبرهة، تداخلت أصوات ذلك الصخب، مضفية حسًا منعشًا على فروع الأشجار، ومواصلةً التغيير في النمط العام للمكان، تهجو أرق أولئك القابعين في الأسفل، على العشب المغطى بالطحلب، وصراعهم الذي استنفد حيواتهم.

استمرت الطفلة في رفع عينيها نحو الأشجار، حيث اختلط صدى الأصوات، وهبط على مسامعها، لكنها شعرت أن تلك الأصوات جعلت المكان ينعم بهدوء، أكبر مما لاذ به عندما كان يعم الصمت،

أخذت الطفلة تتلکأ من قبر إلى آخر، حتى توقفت؛ لتلتقط في حرص تام نبات اللبلاب من بعض الربوات الخضراء؛ وتنسقه في تدبر في موضعه، ما برحت تنظر في خلصة إلى داخل الكنيسة من خلال تعريشة متدلية من إحدى نوافذها المنخفضة، التي التصقت بجدرانها ديدان ناخرة، وجوخ أخضر يميل إلى البياض وقد اهترأ متحللاً، لترك الخشب عارياً، على مرأى من العابرين. رأت المقاعد، حيث يجلس المسنونون الزاهدون، يرتدون ملابساً صفراء، مماثلون لبعضهم البعض، كما رأت جرن المعمودية الصلب الذي يُعتمد فيه الأطفال، والمذبح البسيط حيث يركعون، والمساند السوداء حيث يجلسون بأحمالهم، خلال زياراتهم المستمرة في رحاب الكنيسة الظليلة الهادئة، التي يشيع منها العبقر. نم كل شيء عن القدم وطول فترة الانتفاع به، ما أدى إلى رثاءة، لها وقع هادئ ورتيب، كان طرف حبل الجرس في الرواق متهرئاً، فقد بلي لقدمه.

أشاحت الطفلة بناظريها، ثم أخذت تنظر إلى حجر أفاد بأن الراقداً أسفله شاب، قد توفي في الثالثة والعشرين من عمره، منذ خمسة وخمسين عاماً، حينها سمعت وقع أقدام متعثرة تخطو نحوها، التفتت، فرأت امرأة واهنة، انحنى ظهرها من ثقل السنوات، تأتي بقدمين مترنحتين نحو القبر نفسه، وتطلب منها أن تقرأ ما نُقش على الحجر. شكرتها السيدة العجوز فور تليبيتها لما طلبته، قائلة: إنها قد حفظت تلك الكلمات عن ظهر قلب لسنوات عدة طويلة، لكنها الآن لم تعد تتمكن من رؤيتها.

قالت الطفلة: «هل كنت والدته؟».

- لقد كنت زوجته يا عزيزتي.

كيف كنت زوجته، وهو في عمر الثالثة والعشرين! آه، صحيح! لقد كان ذلك منذ خمسة وخمسين عامًا.

عقبت السيدة العجوز، وهي تهز رأسها، قائلة: «إنك تتعجبين من قلبي، لكن لا مشكلة حيال ذلك، لست الأولى؛ إن من أكبر منك عمرًا قد فعلوا ما فعلته نفسه. نعم! لقد كنتُ زوجته. إن الموت لا يغيرنا أكثر مما تفعل بنا الحياة يا عزيزتي».

سألت الطفلة: «هل تداومين على القدوم إلى هنا؟».

أجابت السيدة العجوز: «دائمًا ما أجلس هنا في الصيف، لقد اعتدت أن آتي، أبكي وأنتحب، لكن هذا بات مُنْهَكًا لي منذ فترة طويلة، فليباركنا الرب!».

ثم استطردت قائلة بعد صمت قصير: «لقد قطفت جميع الأقحوانات التي نمت هنا، وأخذتها معي إلى البيت.. إنني لا أحب أي زهور أخرى، بقدر حبي لهذه الزهور، ولم أحب غيرها على مدار خمسة وخمسين عامًا.. إنه لوقت طويل حقًا، وقد مر بي العمر، وأصبحت عجوزًا».

خاضت العجوز في حديث جديد، على الرغم من أن المستمع الوحيد كان مجرد طفلة، فأخبرتها كيف بكت وتضرعت، تتوسل الموت، حينما حدث ما حدث، وكيف جاءت إلى هنا أول مرة، شابة

صغيرة غائصة في حزنها وحبها، وكم كانت تتمنى أن ينفطر قلبها في الواقع، مثلما كان يشعر في الحقيقة. لكن الوقت قد مر، على الرغم من الحزن الذي بات في قلبها مستمرًا، تحمّلت القدوم إلى حيث تقف، وظلت على هذا الحال، حتى تعودت، وبقي الألم مألوفًا لها، حتى تلاشى مع الوقت، وحلّ محله التكيف الشعائري، وواجب تعلّمت أن تؤديه. والآن، بعد انقضاء خمسة وخمسين عامًا، باتت تتحدث مع المتوفى كأنه ابنها أو ربما كأنه حفيدها، مشفقة على شبابه الذي اندثر أسفل التراب، بينما تتوغل إليها الشيخوخة، أخذت في الإشادة بشبابه وقوته ووسامته، مقارنة بوهنها، وعجزها، كانت تتحدث عنه كأنه لا يزال زوجها، تفكر في علاقتهما، مثلما كانت وقتما كانا معًا، ليست على شاكلة ما هي عليه الآن، تحدثت عن لقائهما في الحياة الأخرى، كما لو كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة بالأمس، حتى بدت منفصلة عن نفسها السالفة، تفكر في سعادة تلك الفتاة الجميلة التي بدا كأنها ماتت معه.

تركتها الطفلة، عندما انشغلت العجوز بجمع الزهور، التي نمت على القبر، وعادت على عقبها، ممعنة في التفكير.

بحلول هذا الوقت، كان العجوز قد استيقظ وارتدى ملابسه، بينما لا يزال السيد كودلين محتجزًا داخل تفكيره؛ يتدبر الحقائق القاسية للوجود، يحزم في حقيته الكتانية نهايات الشموع المتبقية، التي خلفها عرض ليلته السابقة، بينما كان رفيقه يستقبل التحيات من جميع المارة، في ساحة حظيرة الخيل، غير قادر على استبعاد نفسه من هيمنة العقل المدبر

(بانش)، حيث أجلس ذلك المرح الهارب من العدالة إلى جانبه، في جلال؛ فلم يكن حبه له بالقدر القليل. عندما شعر أنه قد نال القدر الكافي من الشعبية، توجه حيثما جلسوا جميعاً معاً؛ كي يتناول طعام الإفطار.

قال الرجل القصير، موجهًا كلامه إلى نيل: «إذن! إلى أين ستذهبين اليوم؟».

ردت الطفلة: «في الواقع! إنني بالكاد أعرف.. أعتقد أننا لم نحدد بعد».

قال الرجل القصير: «إننا سنذهب إلى أرض السباقات، إذا كان طريقكما في نفس وجهتنا، وفضلتما أن تكونا في صحبتنا، دعونا نرحل معاً. لكنك إذا أردت الذهاب بمفردك، صرحي لنا بذلك فقط، ولن تجدي منا أي مضايقات وسنلبي رغبتك».

قال العجوز: «سنذهب معكما.. إننا سنذهب معهما يا نيل، نعم! معهما».

أخذت الطفلة ما قاله بعين الاعتبار، وقد شرد ذهنها، تفكر في أنه قد صار لزاماً عليها أن تشحذ في القريب العاجل، وقد تمنّت أن تقوم بذلك الفعل في مكان أفضل يعج بالسادة والسيدات الأثرياء، يذهبون إليه؛ راغبين في الاستمتاع والاحتفال، لذلك حسمت أمرها وقررت مرافقة هذين الرجلين. من ثم، شكرت الرجل القصير على عرضه، وتوجهت بنظرة خجولة نحو صديقه، تسأله ما إذا لم يكن لديه أي اعتراض حيال مرافقتهم لهما نحو أرض السباقات.

قال الرجل القصير، معترضاً حديثها: «اعتراض! هذه هو الوقت الذي يجب أن تكون فيه كريماً يا تومي، وتقول: إنك تفضل ذهابهما معنا. أعلم أنك ستفعل. أعلم أنك كريم يا تومي».

قال السيد كودلين، بينما كان يتحدث في تودة، ويأكل في شراهة، في مشهد من غير المألوف أن ينتهجه شخص ذو نظرة فلسفية، ناقماً على البشرية: «يا مستدق الساق! لك مطلق الحرية».

جاده الآخر: «لماذا! ما الضرر الذي من الممكن أن يحدث؟».

رد السيد كودلين: «ربما لن يكون هناك أي ضرر على الإطلاق في هذه الحالة، لكن الخطر يكمن في المبدأ، لكنني أكررها عليك: لك مطلق الحرية».

– لا أفهمك! هل هما آتيان معنا أم لا؟

قال السيد كودلين: «نعم سيأتيان، لكنك بالأحرى تطمح إلى نيل معروف من وراء فعلك هذا.. أليس كذلك؟».

كان الاسم الحقيقي للرجل القصير هو (هاريس)، لكنه مع الوقت اندمج تدريجياً مع كُنية (مستدق الساق) غير المحبذة، نظراً لما تضيفه الصفة الأولى من معنى يفيد الصغر، وصغر الساق يعني قصرها، كان السبب الكامن وراء نعته بتلك اللفظة؛ قصر ساقيه. لكن عبارة: «مستدق الساق القصير» لم تكن مريحة أو مألوفة؛ كي يتم تداولها في حديث بين أصدقاء؛ كان اسماً مركباً وطويلاً، لذلك عُرف بين أصدقائه بـ«القصير» أو «مستدق الساق»، نادراً ما كانوا يخاطبونه بتسميته كاملة

«مستدق الساق القصير»، عدا في محادثاتهم الرسمية أو المناسبات أو الاحتفالات.

انكب القصير أو مستدق الساق -كيفما يجذب القارئ- على الطعام في استمتاع نهم، كرد فعل -يميل إلى التفكه- على احتجاج صديقه السيد توماس كودلين، متجاهلاً استياءه، أخذ يلتهم اللحم البقري المسلوق والخبز والزبد، ويشرب الشاي، مستحثاً رفاقه على أن يفعلوا مثله تماماً. في واقع الأمر، لم يلتفت السيد كودلين إلى مثل تلك الطريقة؛ لحثه على تناول الطعام؛ فقد أكل بالفعل ملء بطنه، وشرع في ترطيب جوفه بنبيد المزرقوي المذاق، فارتشف رشفات عميقة، في صمت تام، متلذذاً بنكهته، دون أن يدعو أحداً للمشاركة.. كمثال قوي آخر يعبر باختصار عن فكره الناقم على البشرية.

انتهى تناولهم للإفطار أخيراً، وطلب السيد كودلين الفاتورة، وزيادة من النبيذ من أجل رفقته على وجه العموم (ربما كان ذلك هو الوجه الآخر المعبر عن النقمة على البشرية)، مقسماً المجموع على نصفين متساويين تماماً، مخصصاً النصف له ولصديقه، والنصف الآخر لنيل وجدها. تم كل شيء كما ينبغي له أن يتم، وصاروا مستعدين تماماً للرحيل، ودّعوا مالك البيت وزوجته، ومن ثم انطلقوا ليستأنفوا رحلتهم.

هنا تكشف بقوة الوضع المستعار الذي اتخذه السيد كودلين في المجتمع، وتأثيره على تشكيل روحه الجريحة؛ كان في أمسّه يتحدث من وراء ستار، يتحدث من منطلق شخصية (بانش) الذي كان بمثابة

المتحكم فيه وليس العكس، ويدع المشاهدين يفهمون أنه قد حافظ على تقمص تلك الشخصية من أجل سروره المترف واستمتاعه الخاص.. وهذا كيفما كان، أما الآن، فقد عاد إلى طبيعته منهكاً يسير هزياً، يحمل ثقل مخدع (بانش) نفسه فوق كتفيه، يسير على طول طريق مترب في يوم قاتظ شمس لافحة.

بدلاً من أن يلقي على صحبته وإبلاً من حسه الفكاهي وفطنته، أو أن يجعل صوت عصاه المبهج يجلجل فوق رؤوس معارفه وأعوانه، كان بانش المتبسم بابتهاج، مرتخياً، دون عمود فقري يقيم ظهره، تشتت ساقاه حول رقبته مرتين، يتدلى في ركود، داخل صندوقه المظلم، لا يظهر عليه أي مظهر من مظاهره الاجتماعية.

سار السيد كودلين بخطوات متناقلة، يتبادل كلمة أو أخرى على فترات مع القصير، يتوقف للراحة أحياناً، وأحياناً أخرى يتوقف للتذمر. تقدّم القصير وقاد المسيرة، يحمل صندوقاً مسطحاً حازماً فيه أمتعته الخاصة - التي لم تكن بالقدر الكثير - معلقاً البوق النحاسي على عظمة كتفه. وقد سارت نيل وجدها يداً بيد من خلفه، أما توماس كودلين فقد كان آخرهم.

فور وصولهم إلى أي مدينة أو قرية، أو حتى منزل منفصل ذي هيئة جيدة، سرعان ما يتوقف القصير؛ ينفخ في بوقه النحاسي، يغني في مرج، مقطّعاً من أغنية بانش ورفاقه الشهيرة بنغمات طرية مبهجة. إذا سارع الناس إلى نوافذهم، يلقون بأبصارهم عليهم، ينصب السيد كودلين المسرح من فوره، ويُسدل ستاره، مخفياً القصير خلفه، ليلوح

في الهواء بشكل هستيري بعرائسه. من ثمَّ تبدأ المتعة، كان السيد كودلين هو المتحكم في طول مدة العرض، قادر على التعجيل بانتهائه، وذلك من خلال إعلان الانتصار النهائي للبطل على عدو البشرية، وفقاً لرؤيته، إذا كان ما جناه من أنصاف البنسات، قدراً قليلاً أو وفيراً. هكذا إذا ما فرغا من جمع أموالهما إلى آخر فاردنغ، حزما أحمالهما، ومضيا في رحلتها مرة أخرى.

كانا في بعض الأحيان، يعزفان ألحانهما؛ يقدمان عرضهما، على جسر أو حتى معدية يمران بها أثناء ارتحالهما، لكنهما في إحدى المرات قاما بعرضهما بناءً على رغبة خاصة على أحد الأرصفة؛ حيث طلب منهم جابٍ مخمور منعزل، العزف خصيصاً له، مقابل دفع شلن كامل، في أحد الأماكن الصغيرة. على الرغم من أن ذلك الأمر يحمل بشائر النجاح والغنى، إلا أن آمالهما كلها أُحبطت، فقد كان للشخصية المفضلة في العرض، ذات الرأس الخشبي، وشريط الزينة الذهبي على المعطف، جملة تشهير موجهة للشمّاس، ما جعل السلطات تفرض عليهم الانسحاب السريع، لكنهما على كل حال حظيا باستقبال جيد بشكل عام، وغادرا المدينة دون أن يلاحقهم فوج من أطفال مشردين يصرخون في أعقابهم، وكان ذلك نادراً ما يحدث.

رغم الكثير من التوقيفات التي عرقلت مسيرتهم لبعض الوقت، إلا أنهم كانوا قد قطعوا مسافة طويلة في تلك الرحلة، لكنهم ما زالوا يمشون في طريقهم، حتى بعد أن لمع ضيُّ القمر في السماء. استطاع القصير بتوليه الغناء وسرد الدعابات تمضية الوقت وتمرير رتابته، كان

ما فعله هو الأفضل من بين كل ما حدث. على الصعيد الآخر، كان السيد كودلين يلعن مصيره، ويسب كل الأشياء الجوفاء الموجودة على سطح الأرض - لكن بانث على وجه الخصوص نال القسط الأكبر - كان يعرج كلما خطى، حاملاً المسرح على ظهره، مستشعراً أنه ضحية المآسي المرة.

توقفوا بعد حين عند لافتة مرورية، حيث يتقابل مفترق أربعة طرق، فأنزل السيد كودلين المسرح، وأسدل ستاره، في فعل كان محرکه غريزته الناقمة على البشرية، وجلس في داخله، غير مرئي للأعين البشرية، بعيداً عن صحبة رفاقه، بينما سُوهَد ظلان طويلان قادمان نحوهما، من منعطف الطريق الذي أتوا منه. كانت الطفلة مذعورة تماماً في البداية؛ فور رؤيتها لكلا العملاقين النحيلين - فقد كانا يتقدمان في خطوات سريعة واسعة أسفل ظلال الشجر - لكن القصير أخبرها أنه لا يوجد أي داعٍ للخوف، ونفخ في بوقه نفخة عالية، تم الرد عليها بصيحات تهليلية. صاح السيد القصير بصوت عالٍ: «إنكم جماعة جريندر.. أليس كذلك؟».

ردت مجموعة من الأصوات العالية في صوت واحد: «بلى!».

قال القصير: «إذَنْ هيا تعالوا إلينا، دعونا نراكم».

هكذا دُعيت جماعة جريندر للقدوم، فضاعفوا من سرعة قدومهم، وسرعان ما وصلوا إليهم، بحفلة صغيرة مبهجة.

كان يُطلق على رفقة السيد جريندر على نحو مألوف اسم الجماعة،

تألفت جماعته من شاب وشابة يقفان على سيقان خشبية، أما السيد جريندر نفسه فكان يمشي مترجلاً على ساقيه الطبيعتين حاملاً طيلة على ظهره.

كان الزي العام للشابين هو الزي التقليدي الإقليمي لسكان المرتفعات أو الإسكتلنديين، لكن برد الليل كان قارساً، فارتدى الشاب فوق تنورته الإسكتلندية معطفاً طويلاً للبحارة، يصل إلى كاحليه، وقبعة ناعمة لامعة، وكانت الشابة مثله تماماً، تلفتحت بستره نسوية طويلة وقديمة تربط على رأسها وشاحاً. أما السيد جريندر فقد حمل على آلتة الموسيقية قلنسوة إسكتلندية، مزخرفة بريش قاتم السواد.

قال السيد جريندر، متقطع الأنفاس، لاهثاً: «إنكم ذاهبون حتماً إلى أرض السباق كما أرى.. وكذلك نحن. كيف حالك يا قصير؟». مع انتهائه من قوله، كانا قد تصافحا بالأيدي بطريقة ودية للغاية. كان الشaban مرتفعين جداً كي يقدرّا على تقديم التحية المألوفة للاستقبال، لذلك ألقيا التحية على القصير، لكن بطريقتهما الخاصة. أدار الشاب ساقه الخشبية اليمنى، وربّت بها على كتفه، أما الشابة فقد هزت الدف في مرح.

قال القصير، مشيراً إلى سيقانهما الخشبية: «هل يتدربان؟».

رد عليه السيد جريندر: «لا! لقد خُيرا بين حملها أو المشي بها، وبالطبع فضلاً المشي بها. إن الأمر ممتع جداً بالنسبة لهما.. قل لي، أي طريق تسلكونه؟ نحن ذاهبون عبر الطريق الأقرب».

قال القصير: «إننا في واقع الأمر سنذهب عبر الطريق الأطول؛ لأننا بعد ذلك سنتمكن من التوقف طوال الليل، لم يعد أمامنا تقريباً سوى ميل ونصف. لكن ثلاثة أو أربعة أميال لليلة، سيوفر الكثير لنا غداً، لكن في حال إذا واصلت فعلك، س...، أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نمضي معاً».

سأل جريندر: «أين شريكك؟».

صاح السيد توماس كودلين: «ها هو!». ثم أخرج رأسه من مقدمة المسرح الخشبي، وعلى ملامحه تعبيرٌ، ينم عن هدوء ورزانة، قلما نراهما على وجهه، ثم أكمل قائلاً: «وسيرى شريكه يُسلق حيّاً، قبل أن يكمل مسيرته الليلة.. وهذا ما يقول».

جادله القصير: «حسنًا حسنًا.. لا تقل مثل هذا القول أمامهم، إن العصا كُرست من أجل المتعة.. احترم الجماعات يا تومي، خاصةً إذا كنت تنتقد بشدة».

قال السيد كودلين: «بشدة أو بلين». ضرب بيده نحو أسفل قدميه، حيثما كان بانث راقداً، متلمساً تطابق ساقيه، وكفاءة جواربه الحريرية، التي صُنعت من أجل إثارة الإعجاب العام، ومن ثمَّ استطرد في حديثه: «بشدة أو بلين.. لن أذهب أكثر من ميل ونصف الليلة. لن أتوقف حتى الوصول إلى نزل (جولي ساندبوينز) وليس في أي مكان آخر. إذا رغبت في المجيء إلى هناك، فلتأت. إذا رغبت في الاستمرار بمفردك، فاستمر بمفردك، وافعل ذلك من دوني، إذا سولت لك نفسك أنك تستطيع حقاً».

هذا ما قاله السيد كودلين، وإذ به يختفي في لمح البصر، ويظهر في التو واللحظة خارج المسرح، يحمله على كتفيه في رجة عنيفة، وانطلق في خفة ملحوظة.

بدا أي جدال في ذلك الوقت مرفوضاً تماماً، لم يكن في سعة القصير، سوى أن يترك السيد جريندر ويلحق برفيقه المتجههم نكد المزاج. بعد أن بقي لبضع دقائق عند اللافتة المرورية؛ يرى السيقان الخشبية تتمايل في ضي القمر، وحامل الطلبة يكد في مشيته في بطاء من بعدهما، نفخ في بوقه عدة مرات، كإشارة لوداعهم، ومن ثمَّ انطلق بكل ما أوتي من قوة في سرعة بالغة؛ كي يلحق بالسيد كودلين. مع انتهاء هذا المشهد، مدَّ يده الشاغرة إلى نيل، موصياً إياها بأن تبتهج فقد قارباً على نهاية رحلتهم لتلك الليلة، باعثاً بإيماءات تشجيعية للعجوز، تفيد التأكيد نفسه، ثم قادهما بوتيرة سريعة، نحو وجهتهم، رغم أن ذلك كان آخر ما يرغب في القيام به؛ فقد كان القمر غائماً، والسحب تنذر بهطول الأمطار.



الفصل الثامن عشر

كان (جولي ساندبويز) نزلًا صغيرًا، يقع على جانب الطريق، منذ الزمن القديم الجميل، تميّز بشعار خاص على الجانب المقابل من الطريق، كان عبارة عن ثلاثة صبية يبعثون البهجة في إفراط حاملين أباريق الجعة وسُرر ذهب، تصر وتتأرجح في مكانها. أما المرتحلون فكانوا قد أبصروا الكثير من الدلائل، التي تشير إلى اقترابهم الحثيث من مدينة السباق، فقد رأوا معسكرات الغجر والعربات المحملة بمقصورات المقامرة ولوازمها ومقدمي الاستعراضات المتجولين أصحاب الطقوس المتنوعة والشحاذين والمتنقلين ذوي الأعراق المختلفة، يتوافدون من كل حذب وصوب نحو الوجهة عينها، مع تلك المظاهر، كان السيد كودلين مرتابًا؛ يخشى أن يكون أحدٌ قد استولى على مكان إقامة استعراضه، كان خوفه يتزايد أكثر فأكثر؛ كلما تقلصت المسافة الفارقة بينه وبين النزل، لذلك سرّع من وتيرة سيره، على الرغم من ثقل ما وجب عليه حمله، حافظ على سرعة هرولته، حتى وصل إلى عتبة الباب. لكن السيد كودلين شعر فور وصوله بالامتنان العارم؛ فقد

اكتشف أن مخاوفه لم يكن لها أي داعٍ من الأساس؛ فقد رأى مالك النزل يقف في تكاسل، مستندًا إلى الباب، ينظر في رتابة إلى المطر، الذي بدأ يهطل في انهمار شديد في تلك الأثناء، ولم يدو في الأفق أي رنين للجرس المصدوع، أو صيحات عالية، أو أصوات الجوقة الصاخبة، أو أيُّ مما قد يدل على وجود أي رفقة بالداخل.

قال السيد كودلين، وهو يضع حمله أرضًا، ماسحًا جبهته براحة يده: «ألا تزال بمفردك؟».

رد مالك النزل، معلقًا عينيه إلى الأعلى، ناظرًا نحو السماء: «بمفردي حتى الآن، لكنني أظن أنه مع حلول الليل سيكون لدينا الكثير من الرفقة. فليأت أحدكم أيها الصبية؛ كي يحمل لوازم هذا العرض إلى الحظيرة. هيا أسرع نحو الداخل إلى الدفء، بعيدًا عن الأمطار يا توم.. لقد أوصيتهم أن يشعلوا النيران، يمكنني أن أجزم لك أن المطبخ الآن به شعلة متوهجة عظيمة، سينشرح لها قلبك بمجرد رؤيتها».

تبعه السيد كودلين بشغف خالص إلى الداخل. وفور وصوله، سرعان ما استدل على السبب وراء ثناء مالك النزل على فعله؛ مدرّجًا أن مقدار تمجيده لتحضيراته لم يكن من فراغ. اشتعلت النيران أسفل الموقد، وارتفع صوت الأزيز، ليكشف عن مرجل حديدي كبير موضوع على الموقد، يبقب ويغلي ما فيه، باعثًا أجواء لطيفة. خيم على الغرفة لون ضارب إلى الحمرة الغامقة، أذكى مالك النزل النيران وسعّرها، زائدًا من لهيبها، فأخذت الشعلة تعلو ويتقافز شررها، ثم أزاح غطاء المرجل الحديدي، ففاحت الرائحة اللذيذة، وبدا صوت

البقبة غنيًا وأكثر عمقًا، وقد تصاعد البخار المشبع بالدهن، عالقًا فوق رؤوسهم في سحب ضبابية غنية باللذة. حينما فعل مالك النزول ما فعل، شعر السيد كودلين أن قلبه قد غُمر بالسعادة. جلس إلى جانب المدخنة، يتسّم مبتهجًا.

جلس السيد كودلين إلى جانب المدخنة يتسّم بكل قسمات وجهه، يثبت ناظريه على مالك النزول، الذي اعتلت وجهه نظرة لئيمة، بينما كان يحمل غطاء الرجل في يده، متظاهرًا أن ما يفعله ضروريٌّ، من أجل إضفاء الجودة على الطهي، لكنه في واقع الأمر كان يوجه الأبخرة الشهية نحو ضيفه؛ لتداعب أنفه. أضفى توهج النيران على رأس مالك النزول الأصلع لمعة مميزة، أوضحت بريق عينيه، وكشفت عن فمه الذي يسيل منه اللعاب، ووجهه الممتلئ بالبثور، واستدارة جسده السمين.

سحب السيد كودلين طرف كفه، واضعًا إياه على شفتيه، قال متممًا: «ما هذا؟».

قال مالك النزول لاعتقًا شفتيه في تلذذ: «إنها يخنة من اللحم والخضار»، ثم لعق شفتيه ثانية: «وكرع بقرة»، ثم لعق شفتيه مرة أخرى: «ولحم الخنزير المقدد»، ثم لعق شفتيه لمرة إضافية: «وشريحة من لحم البقر»، ثم لعق شفتيه للمرة الرابعة على التوالي: «والبازلاء والقرنبيط والبطاطس ونبات الهليون، كلها مختلطة ببعضها تنضج في مرق دسم لذيق واحد». بمجرد أن أنهى قوله، وتبيّن عليه أنه وصل إلى قمة النشوة، لعق شفتيه مرات عديدة متتابعة في شره شديد، أخذ نفسًا طويلاً وعميقًا، يتشمم رائحة الطعام الذكية التي تفوح من حوله، ثم وضع غطاء الرجل

مرة أخرى، مكمداً الهواء، الذي انتهى به الحال هابطاً على الأرض.
سأل السيد كودلين بصوت واهن قائلاً: «في أي وقت ستكون جاهزة؟».

قال مالك النزل، ناظرًا إلى الساعة، التي عكست لونها على وجهه الأبيض السمين: «ستكون جاهزة حينما...»، ثم تطلع إلى ساعة (جولي ساندبوز) على سبيل الاستعانة والتشاور: «ستكون جاهزة في تمام الساعة الحادية عشرة واثنين وعشرين دقيقة».

قال السيد كودلين: «حسنًا! فلتحضر لي نصف لتر من البجعة الدافئة، ولا تدع أحدًا يدخل إلى هذه الغرفة، حتى وإن كان من أجل أن يجلب البسكويت، حتى يحين ذلك الوقت».

عبر مالك النزل عن موافقته بإيماءة تجاه تلك التوصية المشددة الحاسمة، وانتقل من فوره ليحضر البجعة، ومن ثم عاد بها، سكبها في وعاء صغير على شكل قمع؛ كي يكون ملائمًا للإمساك به عند توجيهه نحو النيران من أجل تدفئتها. سرعان ما انتهى، قدّمها إلى السيد كودلين، وقد اعتلى سطحها الزبد الكريمي، الذي دائماً يكون أفضل ما في شراب الشعير.

نعم السيد كودلين بفائض من الراحة بفضل ذلك الشراب الملطّف، جلس يتفكّر في صحبته، مُطلِعاً مَنْ كان مضيئاً له من الصبية أنهم على وشك الوصول. كان المطر ينهمر بغزارة في الخارج، متساقطاً على النوافذ، متدفقاً في سيول جارفة، وكرد فعل غير معهود من السيد

كودلين، تمثّلت عاطفته الجياشة في تعبيره لأكثر من مرة عن أمله الجاد في ألا يكونوا أغبياء بالقدر الذي يعرضهم للغرق في مياه الأمطار.

على أي حال، بعد مضي فترة من الوقت، وصلوا أخيرًا، وقد غمرتهم مياه الأمطار تمامًا، على الرغم من أن القصير كان قد قام بإيواء الطفلة، أسفل ذيل معطفه، بدوا جميعًا في حال بائس يرثى له، مقطوعي الأنفاس جراء العجلة التي تحركوا بها. كان مالك النزل يقف منتظرًا عند الباب الخارجي، يعتريه القلق، يراقب المارة؛ مترقبًا وصولهم فور سماعه وقع أقدامهم على الطريق عند وصولهم، سارع نحو المطبخ ورفع الغطاء عن المرجل. كان تأثير ما فعله فعّالًا؛ إلى الدرجة التي جعلتهم يتقدمون مبتسمي الوجوه، على الرغم من المياه التي كانت تقطر من ملابسهم على الأرض، لم يُعِر القصير أي انتباه لحاله، وأدلى من فوره بملاحظته الأولى قائلاً: «يا لها من رائحة زكية!».

لم يكن من الصعب إطلاقًا نسيان المطر والوحل بمجرد أن أصبحوا بجانب النيران الباعثة على السكينة وفي غرفة مضيئة. سرعان ما تزودوا بنعال وملابس جافة من النزل أو من حزمهم الخاصة، ومن ثمّ التفتوا من تَوَّهم في زاوية دافئة، إلى جانب المدخنة، مثلما فعل السيد كودلين من قبل، وسرعان ما نسوا مشاكلهم الأخيرة، -أو أقرب إلى الواقع- سرعان ما تعايشوا بكافة جوارحهم مع اللحظات السعيدة التي يمرون بها في وقتهم الحالي. مع هيمنة الدفء والراحة على المكان، وسيطرة الإنهاك على جسد نيل وجدها، لم يلبثا في مقعديهما كثيرًا، حتّى راحا في نوم عميق من فورهما.

قال مالك النزل هامسًا: «مَن هما؟».

هزَّ القصير رأسه، بما يدل على أنه كان يتمنى لو يعرفهما.

التفت من توه نحو ضيفه الآخر، وسأل السيد كودلين: «ألا تعرفهما أيضًا؟».

أجابه قائلاً: «لا أعرفهما.. لكنني أحسب أنهما غير جديين».

قال القصير: «بلى! قل إنهما غير مؤذيين.. كي أثبت رأيي، دعني أوضح لك واقع ما هما عليه.. إن الرجل العجوز ليس في كامل قواه العقلية..».

قاطع السيد كودلين مدمدمًا، محدقًا في الساعة: «إذا لم يكن لديك معلومة مفيدة تقولها، سيكون من الأفضل أن تدعنا وشأننا؛ كي نتناول العشاء دون إزعاج».

رد عليه صديقه في حسم: «اسمعي أولًا.. هل سيكون ذلك ممكنًا؟ أعلم أن ما قلته واضحٌ للجميع، لكنني أريد أن أخبرك أنهما ليسا معتادين على تلك الطريقة من الحياة.. لا تقل لي إن هذه الطفلة الرقيقة معتادة على الارتحال هنا وهناك، فلقد أبصرت بنفسك كيف كان حالها في اليومين أو الثلاثة أيام الماضية. أحسب أنني أعرف هذا أفضل من أي أحد آخر».

عارضه السيد كودلين بحجة حاسمة: «حسنًا.. كيف لك أن تعرف هذا! مَن الذي أخبرك بأنها حقًا على نحو ما تعتقد؟». حينها نظر إلى الساعة، ومن ثمَّ التفت إلى الرجل، ثم أكمل قائلاً: «ألا يمكنك

التفكير في شيء أكثر ملاءمة للظروف الحالية، أفضل من أن تقول شيئاً
ثم تناقضه برأي آخر في التو؟».

رد القصير: «كم أود لو يقدم أحدهم العشاء لك؛ لعلك تُهدئ من
روحك، ويتتابك السلام! هل لاحظت مدى قلق الرجل العجوز حيال
المضيّ قُدماً.. لطالما استشعرت رغبته نحو الهروب بعيداً.. الهروب
بعيداً جداً.. هل لاحظت ذلك؟».

تمتم توماس كودلين: «آه! وماذا بعد؟».

استطرد القصير: «ماذا بعد! إن هذا الرجل العجوز قد نصب على
أصدقائه. تدبر فقط ما أقول.. إن هذا الرجل العجوز قد نصب على
أصدقائه، ومن ثمّ أقنع تلك الطفلة البريئة الرقيقة أن تكون هي دليله
ومرشدته ورفيقة ترحاله، مستغلاً حبها إيّاه وولعها به.. إنه كمن ضل
سبيله، لا يعرف أين وجهته من الأساس. لذلك أنا على وشك أن أوقف
هذا».

صاح السيد كودلين: «إنك لن توقف أي شيء». نظر نحو الساعة
مرة أخرى، شدّ شعره من كلا الجانبين، في نوع من السعار المجنون،
كان من الصعب تحديد ما إذا كان مصدره ملاحظات رفيقه أم بطء مرور
الوقت: «إنك لن توقف أي شيء، إن هذا هو حال الدنيا التي نعيش
فيها».

ردد القصير بشكل متقطع وبوتيرة بطيئة: «إنني لن.. أوقف أي..
شيء! بلّى! إنني لن أقف متفرجاً، أرى تلك الطفلة المسكينة تقع تحت

طائلة أيادٍ شريرة، وتُسحب إلى واقع به أناس لا يشبهونها، بدلاً من أن تنخرط في عالم يشبهها مليءً بالملائكة، تحظى من بينهم على أصدقاء عاديين. لذلك، عندما يعقدا النية على أن يفارقا صحتنا، سأتخذ التدابير لاحتجازهما؛ ومن ثمَّ سأعيدهما إلى أصدقائهما، أكاد أجزم أن سُمعتهما في هذا الحين قد لُطخت في جميع شوارع لندن، وأصبحت سيرتهما مضغة بين كل الناس».

كان السيد كودلين قد أسند رأسه على راحة يديه، واتكأ بمرفقيه على ركبتيه، يهز نفسه بلا صبر حيناً، مدبباً على الأرض في أحيان أخرى، حينما فرغ القصير من قوله، نظر إلى الأعلى متلهف العينين، وقال: «اسمعني يا قصير! من المحتمل أن شعوراً جيداً غير مألوف قد راودني حيال ما قلته، وأنني أستسيغ قولك. على أي حال، إذا صح قولك، وحصلت على مكافأة، تذكر فقط أننا شركاء في كل شيء يا قصير!».

لم يكن لدى رفيقه الوقت الكافي للرد عليه، سوى بإيماءة تعني موافقته. استيقظت الطفلة في اللحظة نفسها. حينما كانا يتهاامسان معاً، كانا قد اقتربا من بعضهما، لكنهما فور سماعهما اقتراب خطوات غريبة، دنت من الدخول إلى مجلسهما، انفصلاً في عجلة مبتعدين، حاولا في غرابة اختلاق حوار آخر، يتبادلان حوله الحديث، متصنعين نبرة صوتهما العادية.

لم يكن هناك أي أحد على الإطلاق، فقد كانت أصوات الخطوات لأربعة كلاب شديدة القبح، جاءت واحداً تلو الآخر،

يتقدمها كلب عجوز ذو مظهر كئيب، توقف عند عتبة الباب عندما وصل آخر أتباعه، انتصب على قائمته الخلفيتين، ومن ثمَّ نظر إلى رفقته، فقلدت جلسته في الحال، وانتصبت جميعاً على قوائمها الخلفية، واصطفت في مظهر حزين وقابض. لم يكن هذا بالشيء الوحيد الملحوظ، الذي بدا على الكلاب، فقد كان كل كلب على حدة مرتدياً معطفاً صغيراً ذا ألوان مبهرجة، مزركشاً بلمعة فقدت بريقها، وكان أحدها معتمراً قبعة على رأسه، مربوطة بإحكام أسفل ذقنه، لكنها سقطت على أنفه، فغمت عينيه تماماً، إضافة إلى ذلك، كانت المعاطف المبهرجة شديدة البلل، طُمث لونها بفعل ماء المطر، أما مرتدوها، فقد بدت الكلاب جميعها متسخة، تتناثر منها قطرات المياه التي أغرقتها تماماً، لكن صبية النزل قد أوضحوا ماهية ذلك المظهر غير المألوف لهؤلاء الزوار الجدد.

مع ذلك، لم يكن القصير أو مالك النزل أو توماس كودلين أقل دهشة، بالرغم من أنه تمت الإشارة إلى أنها كلاب (جيري)، وأنه على وشك الوصول في أي لحظة؛ فلا يمكن له أن يكون بعيداً عن الركب. ثبتت الكلاب على الوضع الذي اتخذته سابقاً في صبر، لكنها باتت تغمز إلى الرجل وتنظر إليه وتحقق فيه، إلى أن ظهر جيري نفسه، عدلت عن وضعها من توها، وسارت في الغرفة بطريقة طبيعية. وعلى الرغم من رجوعها إلى الوضع العادي، لم يحسن ذلك كثيراً من المظهر العام، أو يقلل من حالة الاستنكار؛ فلا تزال أذيال معاطفها غير متوافقة مع أذيالها الخاصة، وإن بدا كل شيء على حدة عادياً.

كان جيري هو مدرب تلك الكلاب الراقصة، كان طويلاً ذا بشرة داكنة، يرتدي معطفاً مخملياً، بدا معروفاً تماماً لصاحب النزل وضييفه، فقد شاعت مودة عظيمة فيما بينهم. أخفض آلة الأُرغُن الموسيقية عن عاتقه، بوضعها على كرسي، لكنه احتفظ بسوط في يده؛ كي تخشاه رففته الفكاهية، وجلس بالقرب من النيران؛ كي يجفف نفسه، ومن ثمَّ أشرك نفسه في الحديث.

قال القصير، مشيراً إلى ثياب الكلاب: «إن رفقتك لا تسافر عادةً في مثل تلك الثياب، أليس كذلك؟ ينبغي أن يكون لمجيئكم مجيءٌ حافلٌ مردود ثمين، أليس كذلك؟».

رد جيري قائلاً: «لا! إنها ليست عادتنا. لكننا قدّمنا عروضاً بالفعل اليوم ونحن في طريقنا حيث خرجنا مرتدين ثياباً جديدة، بينما كنا متجهين نحو أرض السباقات، لذلك حسبت أن خلع الملابس أمر لا يستحق التوقف.. إلى الأسفل يا بيدرو!».

كان هذا الأمر موجهاً إلى الكلب الذي اعتمر قبعة، بدا عليه أنه عضو جديد انضم حديثاً إلى باقي الجمع، غير مدرك لما يتوجب عليه فعله، فثبَّتَ عينيه المغشيتين على رئيسه في اضطراب، واقفاً على قائمته الخلفيتين طوال الوقت، من دون أي مناسبة. كان يسقط، ويقف مرة أخرى، ثم يسقط ثانيةً.

قال جيري، واضعاً يده في الجيب الواسع لمعطفه، غامساً إياها في زاوية واحدة منه، يتحسس شيئاً دائرياً، في حجم برتقالة صغيرة أو تفاحة مثلاً: «لقد حصلت على حيوان آخر، إن لديّ حيواناً صغيراً هنا، أحسب

أنك تعرف شيئاً عنه يا قصير!».

صاح القصير: «آه! دعني أُلقي نظرة عليه».

أظهر جيري جرّوا صغيراً جدّاً من سلالة (التريير) وقال: «إنه نسخة من (توبي)، أليس كذلك؟».

في بعض الأجزاء الدرامية الحافلة التي يقدمها بانش، كان هناك كلب صغير - في النسخة الحديثة - يعتبر ملكية خاصة لهذا الرجل، وكان يُدعى دائماً (توبي). كان ذاك الكلب المدعو (توبي) قد سُرق من رجل آخر، وتم بيعه بطريقة احتيالية إلى البطل حسن الظن بالناس، الذي لا يعتريه أدنى شك حيال مكر نفوس الناس، لكن توبي ظل ممتناً بشدة لسيده القديم، متعتاً في الاختلاط بأي رعاة جدد، لم يكن رافضاً تدخين الغليون؛ مزايداً على بانش فحسب، بل أظهر أكثر ما يبين إخلاصه لراعيه القديم، فقبض على أنفه واعتصرها في عنف شديد بأنياه، مؤثراً بعمق في نفوس المتفرجين جميعاً. كان هذا هو السلوك الذي يؤديه توبي الصغير ببراعة، إذا شعر بأي ريب حيال أي موقف يواجهه، يلزم الحذر في حرص متخذاً السلوك نفسه من فوره، وذلك هو ما فعله تماماً، لكنه حينما لمح القصير والصندوق المسطح إلى جانبه، لم يقتصر الأمر على إظهار العنف نفسه، بل بدت عليه أكثر أمارات الوعي بما يدور حوله، نابحاً بشراسة شديدة، ينظر إلى الصندوق، كأنه على مرأى من الأنف الورقية التي بداخله، لذلك اضطر حامله إلى كبت هياجه وإعادته إلى جيبه مرة أخرى؛ كي لا يصيب باقي الرفقة بالذعر، ما أضفى ارتياحاً كبيراً على نفوسهم.

على غرار ما يحدث دائماً، انشغل مالك النزل في بسط غطاء المائدة، وساعده السيد كودلين طواعية، فوضع سكينته وشوكته الخاصة في أكثر الأماكن ملائمة له مستكيناً وراءهما. حينما أصبح كل شيء جاهزاً، رفع مالك النزل غطاء المرجل لآخر مرة، وأحدث صوتاً يعد بالعشاء، بدا السيد كودلين كما لو كان سينقض بنفسه على الموقد، إذا وضع مالك النزل غطاء المرجل مرة أخرى، أو أعلن مثلاً عن أن العشاء سيؤجل.

على كل الأحوال، لم يحدث شيء من هذا القبيل، بدلاً من ذلك تقدّم وساعد إحدى الخادومات في تفريغ محتويات المرجل في سلطانية كبيرة، وقد كان ذلك أمراً مشهوداً بالنسبة إلى الكلاب جميعها، إذ صارت تتلهف في نهم شديد، يزداد مع تساقط النقاط الساخنة على أنوفها. في النهاية، حُمِلت السلطانية إلى الطاولة، وقد رُصت عليها أكواب الجعة مسبقاً في شكل دائري، وغامرت نيل بترديد أدعيتها وتقديم الثناء، قبل بدء العشاء.

مع بدء تلك التحضيرات، وقفت الكلاب ثابتة على قوائمها الخلفية بشكل مذهش، بينما أشفقت الطفلة على حالها، وأوشكت على إلقاء بعض فتات الطعام لها قبل أن تتذوقه حتى، على الرغم من شعورها بالجوع القارس، لكن مالك الكلاب حينما رآها مقبلة على فعلها، تدخل في الحال:

«لا! لا يا عزيزتي.. إنها لا تأكل حتى الذرة من أي يدٍ أخرى غير

يدي.. لكن إذا سمحتي! هذا الكلب..». أشار جيرى إلى القائد القديم للحشد، مستكملاً حديثه في لهجة مخيفة: «هذا الكلب قد أضاع علينا نصف بنس اليوم، لذلك سيمضي دون عشاء».

وقف المخلوق المسكين على قوائمه الأربعة مباشرة، هز ذيله، ينظر إلى سيده في التماس شديد.

مشى جيرى غير مكترث نحو الكرسي، الذي وضع عليه آلة الأُرغُن، ومن ثمّ جلس في هدوء، وقال: «يجب أن تكون أكثر حذرًا يا سيدي.. تعالِ إلى هنا. الآن يا سيدي! عليك أن تعزف طوال فترة تناولنا للعشاء، وإياك أن تجرؤَ على التوقف ولو لوهلة».

شرع الكلب من فوره في العزف، لكن الموسيقى كانت نشازًا وكثيية. أراه سيده السوط الذي أمسك به، بينما ظل جالسًا على مقعده، واستدعى باقي الكلاب، التي رضخت من فورها إلى توجيهاته، مصطفة على التوالي، كأنها فرقة عسكرية.

قال جيرى، وهو ينظر إليها في انتباه: «الآن أيها السادة، بإمكان الكلب الذي سوف يسمع اسمه أن يأكل، أما الكلاب الأخرى، التي لن تكون قد سمعت أسماءها بعد، فعليها أن تبقى هادئة.. كارلو!».

التقط المحظوظ الذي نُطق اسمه في البداية، لقمةً أُلقيت نحوه، بينما ظلت الكلاب الأخرى ثابتة في مكانها دون حراك. ظل الأمر على هذا المنوال، تطيع الكلاب سيدها، تأكل حسب إرادته. في تلك الأثناء، كان الكلب الأول في حالة من النكبة الشديدة عند الأُرغُن، يُسرّع

أحياناً من إيقاع العزف، ثم يبطئ أحياناً أخرى، لكنه أبداً لم يتوقف ولو للحظة. عندما كان يعلو صوت رنين السكاكين والشوك بشدة، أو تُلقى قطعة كبيرة من الطعام -على نحو غير مألوف- إلى رفاقه، كان يصاحب عزفه عواء قصير، لكنه سرعان ما يكف عنه؛ حينما يلتفت إلى سيده ويراه ناظرًا إليه، فينكب من فوره على عزف لحن الترنيمة «المثوية» بمزيد من الحرص.



الفصل التاسع عشر

لم يكن العشاء قد انتهى، حينما وصل مسافران آخران إلى (جولي ساندبوز)، قاصدين ملاذ الراحة نفسه الذي قصده البقية، كانت مياه الأمطار تغمرهما بالكلية؛ فقد سارا تحت المطر لعدة ساعات متواصلة، وصلا مبليين ثقلين لامعين بسبب المياه. كان أحدهما هو الحاوي صاحب العملاق والسيدة الضئيلة، مَنْ كانت تتخط داخل عربة، فلا ساقان لها ولا ذراعان، وكان الآخر رجلاً صامتاً لا يُكثر الحديث، يكسب قوته عن طريق تأديته للألعاب السحرية، والقيام ببعض الخدع بالبطاقات الورقية، أو عن طريق قيامه بالألعاب أفسدت بدورها ملامح وجهه؛ فقد اعتاد على أن يضع حُصياً صغيرة كالرصااص في عينيه، ومن ثمَّ يخرجها من فمه، وكانت تلك الخدعة إحدى أبرع إنجازاته المهنية. كان اسم أول القادمين الجدد هو (فوفين)، أما الآخر فكان اسمه (ويليام الجميل)، لكن لقبه قد بدا كأنه بالأحرى تهكمًا على مدى قبح شكله. تحرَّك مالك النزل في مظهر رشيق؛ كي يهَيئ لهما سبل الراحة، يرحب بهما، ويفسح لهما مكانًا، وبعد مرور لحظات قليلة فحسب، كانا قد أُلِفا المكان.

قال القصير، بينما كانوا جميعاً يدخنون حول النيران: «كيف حال العملاق؟».

رد عليه السيد فوفين: «أصبحت قائمتاه ضعيفتين.. أخشى أن ينحدر به الحال ويخر راکعاً على ركبتيه».

قال القصير: «سيكون منظرًا سيئًا».

رد السيد فوفين، وهو ينفخ في النيران بتنهيذة عميقة: «آي! وأي سوء! بمجرد أن يترنح العملاق قليلاً، ويتبين للعامة أن قائمتيه لم تعودا قادرتين على حمله، لن يكثرثوا به على نحو أكبر من اكتراثهم بقلب ملفوف ذابل».

قال القصير، ملتفتاً إليه مرة أخرى، بعد أن أشاح بنظره قليلاً: «ماذا حلَّ بالعمالقة العجائز؟».

قال السيد فوفين: «عادةً يتم احتجازهم في القوافل؛ لانتظار الأفرام».

علّق القصير، ناظرًا إليه في ارتياب شديد: «لكن الاحتفاظ بهم من دون عرضهم سوف يكلف الكثير، أليس كذلك.. هاه؟».

قال السيد فوفين: «في واقع الأمر هذا أفضل بكثير؛ من أن أطلق سراحهم في الشوارع أو في الأبرشية.. إن حدث وأصبحت العمالقة مألوفة لدى العموم، لن يستهووها مرة أخرى. تأمل السيقان الخشبية. إذا كان هناك شخص واحد لديه ساق خشبية، فما الرجاء منها إذن!».

رد القصير ومالك النزل في نفس واحد: «نعم.. هذا صحيح جدًّا».

لاحقهم السيد فوفين قائلاً: «ولكنك إذا كنت تقدم عرضاً لشكسبير، وعرضته كاملاً بواسطة أرجل خشبية، أعتقد أنك حينها لن تحصل حتى على ستة بنسات».

قال القصير: «بالطبع، أظن فعلاً أنك لن تحصل عليها». وهذا ما قاله مالك النزل أيضاً.

قال السيد فوفين، زائراً دخان غليونه، نافذ الصبر: «إن هذه العروض هي بوليصة الحفاظ على استمرارية وجود العمالقة في القوافل، فهم يحصلون على الطعام والسكن طوال حياتهم، مقابل لا شيء، وبصفة عامة يا له من نعيم بالنسبة إليهم. حدث ذات مرة أن أحد العمالقة - العملاق الأسود حسبما أتذكر - بمجرد أن غادر قافله قبل نحو عام؛ لكي يُسَخَّر في تسديد فواتير مدربه في لندن، أصبح لا يعول عليه، أصبح رخيصاً في مثل رخص مقشات الطرق، ومات..». ثم نظر في ما حوله في جدية، وأكمل قائلاً: «إنني لا ألمح بكلامي ضد أي شخص على وجه الخصوص، أردت أن أقول فقط أنه دمر التجارة.. ومن ثم مات».

التقط مالك النزل أنفاسه بصعوبة شديدة، ونظر إلى مالك الكلاب، حينما هز رأسه، وقال في فظاظة أنه يتذكر.

قال السيد فوفين، في نبرة مهتمة: «أعلم أنك كذلك يا جيري.. أعلم أنك تتذكر فعلاً، وأعلم أيضاً أن الرأي العام يجد أن ما حدث خدمه بشكل أو بآخر على نحو صائب. أحسب أنني أتذكر الفصول الشتوية، وقت انتهاء الموسم، حيث كان (موندرز) العجوز يأوي في كوخه الريفى، في حقول (اسبيا)، ثمانية من الأقزام، ذكوراً كانوا أو

إنّا، يجلسون يومياً ليتناولوا العشاء، وفي انتظارهم جنباً إلى جنب يجلس ثمانية من العمالقة، في معاطفهم الخضراء، وملابسهم التحتية الحمراء، وجواربهم القطنية الزرقاء، وأحذيتهم عالية الرقبة، وكان من بين الأقزام واحد، صار كهلاً وحشياً؛ حينما يجد عملاقه غير سريع بما يكفي لإرضائه، يلصق البنسات بقدميه، فلم يكن ليصل لأعلى من ذلك. أعني تماماً بحقيقة ما قلت ومتأكد تماماً من صحة حديثي؛ فقد أخبرني بهذا الأمر (موندروز) نفسه».

عقب مالك النزل مستفسراً: «وما مصير القزم عندما يصير كهلاً؟». أجابه السيد فوفين: «كلما صار القزم كهلاً، كلما أصبح الأمر أفضل، تصوّر معي أن قزماً عجوزاً ذا رأس شاع فيها اللون الرمادي، وتجددت بشرته تماماً، في الحال نفسه، بالطبع سيمحي كل التكهّنات، وبإمكانه التأقلم. على الصعيد الآخر، تصور معي أن عملاقاً صار كهلاً، ولم يعد يستطيع أن يقف على قائمته، وظهر عليه الوهن! حينها لن أملك أي حيلة سوى أن أحتجزه في العربة، ولا أظهره أبداً على أي حال، مهما كلف الأمر، ومهما كانت الإغراءات التي تُعرض عليّ».

بينما كان السيد فوفين وصديقه يدخنون غلايينهم، ويعملون على إضاعة الوقت في حديث كهذا، ظل الرجل الصامت في ركنه الدافئ، يبتلع -أو كما يبدو وكأنه يبتلع- ست عملات من فئة نصف البنس؛ كتدريب على عرضه، ويوازن ريشة على أنفه، ويختبر مآثر أخرى من البراعة على الشاكلة نفسها، دون إيلاء أي انتباه لرفاقه الذين لم يلتفتوا

إليه أيضاً، تاركينه دون اكتراث مهما فعل. على كل حال، بعد مضيّ فترة من الوقت، حثّت الطفلة المتعبة جدّها على أن ينسحباً من المجلس، وهذا فعلاً ما قاما به، فتركا الصّحبة جالسة حول النيران، والكلاب نائمة على مقربة منهم.

بعد أن لبّت كافة احتياجات جدّها، وقَدّمت إليه كل شيء ممكن، وتمنّت له ليلة سعيدة، انزوت نيل المسكينة منعزلة في علية النزل، حينما وصلت، وبمجرد أن أغلقت الباب خلفها، سمعت طرقات خافتة عليه.. فتحت الباب مباشرة، وذهلت حقاً من رؤية السيد توماس كودلين، فقد تركته للتو، نائماً أسفل الدرج.

قالت الطفلة: «ما الأمر؟».

رد عليها زائرها: «ليس بالأمر المهم يا عزيزتي.. أريدك فقط أن تحتسبيني صديقاً. ربما لا تتوسمين فيّ خيراً، ولا تعتبريني على هذا النحو، لكنني أنا مَنْ سأكون صديقاً لك.. وليس هو».

قالت الطفلة مستفسرة: «مَنْ هو؟».

قال كودلين: «أقصد القصير يا عزيزتي، دعيني أخبرك أمراً.. أعلم أن كل ما فعله معكما طوال الطريق يجعلكما تميلان إليه وتعجبان به.. لكن أنا الرجل الصادق الحقيقي. أعلم أنني لا أبدو كذلك، لكن تلك هي حقيقتي في الواقع، أنا الرجل الصادق، أنا صاحب القلب اللين».

بدأت الطفلة تشعر بالارتياح، تظن أن الجعة قد أثرت في عقل السيد كودلين، وأن ثناءه على نفسه كان نتيجة عادية لذلك.

استأنف الناقم على البشرية حديثه، وقال: «إن القصير شخص جيد جدًا، يبدو عطوفًا، لكنه أصبح يزايد في كونه كذلك. أما أنا الآن، فلا». من المؤكد أنه إذا ما استشعرنا أي غرابة أو خطأ فيما قاله السيد كودلين تجاه سلوكه، فسيكون في تخليه من الأساس عن إبداء أي عطف تجاه من حوله، وليس المزايدة به. لذلك استحوذت الحيرة على تفكير الطفلة، وباتت لا تدرك ماذا عليها أن تقول.

قال كودلين: «استمعي إلى نصيحتي واعلمي بها، ولا تسأليني لماذا! لكنني أريدك أن تعلمي بها حقًا. مهما طال سفرنا، كوني بالقرب مني قدر ما تستطيعين. ولا تقترحي أو تبدي أي نية أبدًا تلمح عن رغبتك في مغادرة صحبتنا.. ليس تحت أي ظرف من الظروف.. كوني بجانبني فقط، وذكّري نفسك دائمًا أنني أنا صديقك. هل ستضعين ما أقوله لك في الاعتبار يا عزيزتي، وترددي في عقلك أنني أنا صديقك حقًا؟».

استفسرت الطفلة ببراءة شديدة: «قل لي متى.. وأين؟».

رد عليها كودلين، بنفس الطريقة التي بدا السؤال عليها: «أوه! من الآن.. وأينما نكون.. إنني حريص فقط على أن تفكري فيّ على هذا النحو، وأن تكوني عادلة في حكمك عليّ. إنك لا تدركين حقًا إلى أي مدى أهتم بشأنك. لماذا لا تخبريني بالقصة التي تكمن خلفك.. لماذا لا تخبريني قصتك أنت والسيد العجوز المسكين يا عزيزتي؟ إنني أفضل ناصح يمكنك اللجوء إليه.. أفضل بكثير جدًا من القصير.. حسنًا حسنًا! أحسب الآن أنهم قد فضوا مجلسهم في الأسفل.. كوني حريصة

على ألا تخبري القصير بأي شيء، لست في حاجة مطلقاً لاقترافك ذلك الأمر. لا تخبريه أبداً، أننا تحدثنا معاً. فليباركك الرب! تذكرني أنني أنا حقاً صديقك. إن السيد كودلين هو صديقك المخلص، أما القصير فلا. كلما كان القصير بعيداً، كلما كان ذلك أفضل.. إن السيد كودلين هو صديقك المخلص، أما القصير فلا».

بهذا الإفراط في تقديم الخير، والمظهر الذي يسعى إلى الحماية، والنفس العطوفة، غادر توماس كودلين منسلاً على أطراف أصابعه، تاركاً الطفلة في حالة من الذهول العارم. لا تزال أفكارها تتخبط داخل رأسها تجاه سلوكه غير المعهود المثير للدهشة، بينما كان الآخرون يدعسون أرضية النزل ودرجه المتصدع؛ ذاهبين إلى أسرّتهم. حينما مروا جميعاً، وابتعدت أصوات وقع أقدامهم، عاد صوت الهسهس مرة أخرى، بينت أن أحدهم كان متردداً، يدور ويحور في الممر؛ لا يعرف أي باب عليه أن يطرقه، لكنه في النهاية طرق بابها.

ردت الطفلة من الداخل: «نعم!».

قال صوت نافذ من ثقب المفتاح: «إنه أنا! القصير.. أردت فقط أن أبلغك أن علينا الرحيل في الصباح الباكر يا عزيزتي؛ إذا ذهبنا بعد رفقة الكلاب والساحر، فلن نحصل على بنس واحد من القرية بأكملها. يجب عليك أن تكوني على أهبة الاستعداد مبكراً.. سوف أمر لأصطحبك»..

أجابته الطفلة بالإيجاب، ردت عليه بمثل ما اختتم به حديثه قائلة: «ليلة سعيدة»، ومن ثم سمعته يمشي بعيداً بخطوات خفيفة. شعرت الطفلة بعدم الارتياح إزاء الاهتمام المفاجئ من كلا الرجلين في الحين

ذاته، فتزايدت مخاوفها؛ خاصةً حينما تذكرت حديثهما الهامس في أول الليل، أسفل الدرج، وارتباكهما عندما استيقظت، لتؤكد تمامًا من أنهما ليسا بالرفقة الصالحة، التي ينبغي الاعتماد عليها. على كل حال، لم يكن ما صارعته الطفلة من أفكار مضطربة وشعور بعدم الارتياح، شيئًا يُذكر أمام ثقل تعبها، سُرعان ما حلَّ عليها النعاس وانتشلها مما تخوض فيه.

في الصباح الباكر لليوم التالي، أوفى القصير بما وعد، طرق بابها بهدوء، متوسلاً إليها أن تستيقظ في الحال؛ إذا لم يضيعوا وقتًا، ستتاح لهم فرصة جيدة وسيكونون السابقين؛ فلا يزال مالك الكلاب يغط في نومه، والساحر يتكلم وهو نائم، والذي تبين من سماعه أنه كان يحلم بموازنة حمار على أنفه. نهضت الطفلة من سريرها في الحال دون تأخير، وأيقظت العجوز على أوج السرعة، لدرجة أنهما كانا جاهزين في الوقت نفسه الذي كان فيه القصير جاهزًا، مما جعله في حالةٍ من سرورٍ وارتياح لا يمكن وصفها.

بعد أن تناولوا وجبة إفطار جافة غير متوازنة على الإطلاق، تتكون من لحم خنزير مقدد وخبز وجعة، ودَّعوا مالك النزل، ثم غادروا من باب (جولي ساندبوز). كان الصباح معتدلًا يميل إلى الدفء، وكانت الأرض رطبةً أسفل الأقدام بفعل الأمطار التي استمرت حتى وقت متأخر من الليل، والسياح أكثر اخضرارًا، والهواء صافيًا، وكل شيءٍ منتعشًا نابضًا بالحياة. بسبب كل تلك العوامل التي تضيف ارتياحًا على النفس، ساروا جميعًا في حالة من السرور والرضى.

لم يكونوا قد قطعوا مسافة طويلة، حتى أصبحت الطفلة مرة أخرى في مواجهة مع السلوك المريب للسيد كودلين، بدلاً من استمراره في النقمة على البشرية، وتفاخره بنفسه، مثلما اعتاد أن يفعل، ظل على مقربة منها، وحينما أُتيحت له الفرصة لينظر إليها دون أن يلمحه رفيقه، قام بتحذيرها مرة أخرى، مؤكداً عليها بتشديد صارم وبملامح ممتعضة وإيماءات حادة وهزات رأس تنهاها عن أن تجعل القصير محل ثقة، وأنه يتحتم عليها أن تثق فيه ثقة عمياء. لم تقتصر ردود أفعال السيد كودلين على الإيماءات فحسب، بل أظهرت أيضاً أن غيرته وعدم ثقته في أوجهما؛ حينما رآها هي وجدها يمشيان إلى جانب القصير، مستمتعين مستمعين إلى ثرثرته المبهجة الاعتيادية، أخذ يمشي على مقربة منها، ينكز كاحليها بين الحين والآخر بقائمة مسرحه الخشبية، بطريقة مفاجئة ومؤلمة للغاية.

كان من البديهي أن تجعل كل تلك التصرفات الطفلة في حالة من اليقظة والرغبة، سرعان ما لاحظت أن السيد كودلين -أيّما توقفوا جميعاً خارج القرية، ليقدم العرض مع صديقه، وتوقفت هي وجدها بعيداً- يبقي ناظريه مثبتين عليها وعلى العجوز، بل أمعن فيما يفعله، مظهرًا الكثير من ود الصداقة، فدعا الأخير لمشاركته عرضه، مبقياً إياه على مقربة منه، إلى أن انتهى العرض، وهمّوا بمتابعة سيرهم مرة أخرى. بدا القصير متغيراً معهما أيضاً، وأضاف على سلوكه الجيد تجاههما شيئاً من التوق إلى إبقائهما داخل طوق آمن. زاد كل هذا من مخاوف الطفلة، وجعلها أكثر قلقاً واضطراباً.

خلال هذه الأثناء، بينما كانوا يقتربون من المدينة، حيث تُقام السباقات في يومهم التالي، مروا على العديد من الغجر والمرتحلين، الذين أتوا من كل حذب وصوب، ومع مرور الوقت تدفق زحام من الناس، قادمين من كل ممر جانبي وزقاق، كان منهم من يسرون إلى جانب عرباتهم، ومن يسرون إلى جانب أحصنتهم، ومن يسرون إلى جانب حميرهم، وآخرون يسرون في كدّ؛ حاملين حاجياتهم الثقيلة فوق ظهورهم، لكنهم جميعاً كانوا متجهين إلى النقطة نفسها، وقد اندمجوا بينهم تدريجياً. تحولت المساكن الجانبية القابعة على جانبي الطريق من كونها خاوية وخالية من الضوضاء، إلى مساكن تعج بصخب الصياح، تعلو من نوافذها الضبابية سحب الدخان، حيث تتجمهر جموع هائلة من الناس ذوي الوجوه الحمراء؛ ناظرين منها إلى الأسفل على الطريق. أصبحت كل رقعة من تلك الأرض، سواء أكانت عادية أم مقفرة، غير شاغرة؛ حيث أقام بعض المقامرين الصغار في أماكن متفرقة تجارتهم الصاخبة، جعلت المرتحلين غير العابئين بالوقت يتوقفون؛ لتجربة حظهم، والكشف عن نصيبهم. مع مرور الوقت، أصبح الحشد أكثر عدداً وأعلى صخباً. على إثر ذلك، تجمعت عربات خبز الزنجبيل الذهبي، معبأة الجو بغبار لامع، وبين الحين والآخر، كانت تمر عربة تجرها أربعة خيول، تخلف وراءها غيمة رملية، حاجبة الرؤية.

ساد الظلام قبل أن يصلوا فعلياً إلى البلدة نفسها، بدت المسافة طويلة، على الرغم من كونها أميالاً قليلة في الواقع. بدا كل شيء مضطرباً

في حالة من الهرج والمرج؛ فقد امتلئت الشوارع بحشود هائلة من الناس - كانوا على ما يبدو غرباءً؛ من خلال نظراتهم الفضولية التي يلقونها على كل شيء هنا وهناك-، دُقت أجراس الكنائس، وتردد صدى الدقات في الآفاق، وعُلقت الأعلام على النوافذ وأعلى المنازل. انتشرت حالة من الهرج، داخل النزل الكبيرة، فتخبط النُّدل في مشيهم، ذهاباً وإياباً، نحو الخارج وإلى الداخل، يصطدمون ببعضهم، في الخارج كانت الخيول تركض محدثة قعقة على الصخور غير المستوية، فتتأرجح العربات.. ومن داخل المساكن، فاحت روائح الأعشبة الباعثة على الغثيان، تعبئ الهواء بنفحات ثقيلة ساخنة. فُرضت حالة من التأهب المضطرب، داخل النزل الصغيرة، حيث استحضر العازفون قوتهم الكاملة، يعزفون نشازاً، خارج اللحن، يترنحون على أقدامهم، إلى جانب المغنين السكاري، الذين غفلوا عن كلمات أغانيهم ونسوها، فغدوا يغنون في رتابة، كانت أقرب إلى عواء لا معنى له، حجب بدوره صوت اللحن الخافت ليظهرهم في همجية مفرطة.. احتشدت مجموعات متفرقة حول الأبواب؛ يشاهدون الراقصة المتجولة، فيمتزج صخب صيحاتهم العالية، بصوت المزممار الرنان وضربات الطبل المدوية.

جاء ذلك المشهد المفعم بالهذيان، غدت الطفلة خائفة نافرة من كل ما رآته بالكلية، تشبث بالمسؤول عنها الذي بدا مرتبكاً هو الآخر، ومالت لتقترب من رفقتها، مرتجفة؛ تخشى أن تنفصل عنهم، فتهيم على وجهها؛ تبحث عن الطريق بمفردها. صاروا يسرعون في خطواتهم؛ كي يخرجوا من الزحام، ويتعدوا عن الصخب، بعد أن مرت فترة طويلة

وهم على الحال نفسه، كانوا قد مروا خلالها عبر البلدة كلها، وصلوا أخيرًا إلى المضمار المخصص، حيث أُقيم على مساحة ميل كامل، تفصل بين أقصى طرفيه على أرض مفتوحة فوق ربوة شاسعة.

على الرغم من وجود الكثير من الناس هناك، لم يكن من بينهم أي شخص حسن المظهر أو الملبس؛ كانوا جميعًا مشغولين ينصبون خيامهم، يدقون الأوتاد في الأرض، ينتقلون في كل اتجاه، يثيرون في الجو ترابًا بأقدامهم، يتوعدون بعضهم بأشد التوعيدات، تواجد فيما بين ذلك الجمع الغفير أطفال كثر، كانوا منهكين، متكئين على أكوام القش، بين عجلات العربات، سيكون إلى أن يحل عليهم النوم، وعلى الرغم من ترك الخيول والحمير دون لجام، أخذت تجول بين النساء والرجال، والأواني والغلايات، ترعى إلى جانب دفء النيران المشتعلة، ونهايات لهب الشموع الفانية في الهواء، شعرت الطفلة بأنها قد لاذت بالفرار أخيرًا من المدينة، وأصبح بإمكانها التنفس بحرية كبيرة. بعد عشاء زهيد، أنفقت الطفلة عليه القليل من مدخراتها التي كانت أساسًا بخسة، تبقى لديها بضع عملات من فئة نصف البنس، احتفظت بها؛ من أجل شراء وجبة إفطار يومهما التالي، استلقت إلى جانب الرجل العجوز في زاوية الخيمة، حيث ناما، على الرغم من مَرَج الاستعدادات، وهرج الازدحام حولهما طوال الليل.

حلَّ الصباح، وحن الوقت الذي يجب عليهما فيه بدء التسول والشحاذة. بعد مرور فترة وجيزة من شروق الشمس، خرجت الطفلة من الخيمة، تجولت عبر بعض الحقول على مسافة قريبة؛ تقطف

بعض الزهور البرية والورد النادي؛ لتجعل منها باقات زهور صغيرة؛ تقدمها للسيدات في عرباتهن، فور وصولهن. على الرغم من انشغالها، لم تكن أفكارها مرتبة هادئة، حينما عادت إلى الخيمة مرة أخرى، جلست إلى جانب جدها في زاوية منها، تربط الزهور معًا، بينما كان الرجلان الآخران مستلقين نائمين في الزاوية الأخرى، نكزت جدها، وشدته من كُمه؛ وهي تلقي نظرة خاطفة عليهما، قائلة في صوت خافت:

«يا جدي! أريد أن أقول لك أمرًا، لا تنظر إليهما، واحرص على ألا يبدو عليك أننا نتحدث عنهما مطلقًا، حاول أن تجعل ملامح وجهك، كأني أخبرك بشيء غير الذي سأخبرك به. أتذكر ما قلته لي قبل مغادرتنا المنزل القديم؟ قلت إنهم إذا علموا شيئًا عن مرادنا، سيدعون أنك مجنون، وسيأخذونني منك، ويرغموننا على الانفصال! أليس كذلك؟».

التفت إليها العجوز من فوره، وقد استحوذ عليه الرهاب والارتباب بالكلية، لكنها نبهته كي يهدأ، دافعةً إليه من فورها بحزمة من الزهور؛ ليمسك بها، بينما تظاهرت بأنها تربطها، حينئذٍ تمكنت من جعل شفيتها أقرب إلى أذنه، وأكملت قائلة:

«أعلم.. أعلم أن هذا ما قلته تمامًا، لا تحتاج إلى التكلم يا عزيزي. إنني أتذكره جيدًا. لم يكن أمرًا قابلاً للنسيان. اسمعني يا جدي، إن هذين الرجلين يشبهان في أننا خلّفنا سرًّا وراءنا، وتركنا أصدقاءنا خفيةً، قاصدين أن يهتما بنا، إلى حين نعود مرة أخرى، قبل أن يجدنا

أي رجل آخر. إذا فزعت الآن، وتركت الخوف يسكن قلبك، لن تتمكن أبداً من الفرار منهما، لكنك إذا بقيت هادئاً، وحافظت على ضبط النفس، وسيطرت على رعشة يديك، سيكون من السهل علينا أن نفعل ذلك».

تمتم العجوز: «وكيف ذلك؟ كيف لنا أن نفعل ذلك يا حبيبي نيلي؟ إنهم بالتأكيد سيحتجزونني في غرفة حجرية، مظلمة وباردة، ويكبلونني في الحائط بالأصفاد يا نيل.. إنهم سيجلدونني بالسوط حتماً، ولن يسمحوا لي أن أراك مطلقاً!».

قالت الطفلة: «إن يدك ترتعش، وجسدك يرتجف مرة أخرى.. يا جدي! كن فقط إلى جوارى طوال اليوم. ولا تعباً لأمرهما.. لا تنظر إليهما، ثبتّ ناظريك تجاهي. وحرّ يي أن أجد الوقت المناسب؛ كي نهرب منهما. حينما أفعل، يجب عليك أن تأتي معي على الفور، لا تتوقف ولا تقل أي كلمة. صه! هذا كل شيء».

كان السيد كولين قد رفع رأسه، متثائباً، حينما قطعت الطفلة حديثها على نحو مفاجئ، وقال: «صباح الخير.. ما الذي تفعلينه يا عزيزتي؟». ثم نظر تجاه رفيقه، وجده لا يزال نائماً، فأضاف في همسات خافتة: «إن السيد كودلين هو صديقك المخلص، أما القصير فلا.. تذكري ذلك جيداً».

أجابته الطفلة قائلةً: «إنني أحزم بعض باقات الزهور.. سأحاول بيعها، خلال أيام السباق الثلاثة. هل تأخذ لك واحدة.. أقصد كهدية بالطبع؟».

همَّ السيد كودلين بالنهوض كي يأخذها منها، لكن الطفلة سارعت نحوه، ووضعتها في يده. أمسك بها، وعلقها في عروة سترته، في مظهر دل على رضى الناقم على البشرية التام عن النفس، ثم نظر إلى القصير اللاواعي، متممًا في ابتهاج مرح، بينما يعيد نفسه إلى وضع النوم مرة أخرى: «إن السيد كودلين هو صديقك المخلص، أما ال...!».

مع مرور الوقت، اكتسبت الخيمات مظهرًا رائعًا، وأضحت أكثر إشراقًا، صارت الخطوط الطويلة التي خلفتها عجلات عربات الخيول ملحوظة على عشب الأرض. ظهر الرجال الذين تسكعوا طوال الليل بشباب فضفاضة وبناطيل جلدية، مختلفين تمامًا، ظهر الحُواة والسحرة مرتدين سترات حريرية وقبعات مزينة بالريش، ظهر الخُدام ممن يجذبون الناس بحديثهم المعسول داخل مقصورات القمار مرتدين بذلات أنيقة، إلى جانب النصابين ممن يخدعون الناس بحيلهم في الألعاب غير المشروعة مرتدين ثيابًا أنيقة. تجمعت الغجريات صاحبات العيون السوداء، مقتنعات بمناديل مبهرجة، تكشفن عن النصيب، وتبين المصير، وانتشرت السيدات ذوات الوجوه النحيلة الشاحبة، يتسكعن وراء المتحدثين من بطونهم والمشعوذين؛ تحصين عمالات الستة بنسات بأعين مترقبة، قبل وقت طويل من حصولهم عليها. تواجد عدد كبير من الأطفال بين الحمير والعربات والخيول، تظهر عليهم أمارات الفقر والالتساخ، على الرغم من محاولات السيطرة عليهم وإبقائهم في أماكنهم، تمكنوا من الركض والانسلال إلى جميع الأماكن المتشابكة، فتسللوا بين أرجل الناس، وبين عجلات العربات، يخرجون دون أذى،

متفادين حوافر الخيول. خرجت الكلاب الراقصة ومعتلو السيقان الخشبية، والسيدة الضئيلة والعملاق الطويل، وجميع الأمور الأخرى الجاذبة للانتباه، فضلاً عن أعداد غفيرة لا تعد ولا تحصى من الفرق الموسيقية حاملة آلاتها، خرجوا جميعاً من كل زاوية وركن، كانوا قد قبعوا فيه طوال الليل، متوافدين في كامل رونقهم تحت ضوء الشمس. على طول المسار غير الواضح، قاد القصير حفله، نافخاً في البوق النحاسي، متحدثاً بصوت بانش، راقصاً، يتبعه في أعقابهِ السيد كودلين كالمعتاد، حاملاً مسرح العرض، لكنه في تلك المرة راقب نيلي عن كثب، وأبقى عينيه عليها هي وجدها، بينما كانا يمشيان في الخلف. حملت الطفلة على ذراعها سلة صغيرة تحوي أزهارها، تتوقف بين الحين والآخر، في سميت خجول ومتواضع، تعرض باقات زهورها على العربات، لكن -وبكل أسف!- كان هناك الكثيرون غيرها من المتسولين والشحاذين الأكثر جرأة منها، فضلاً عن الغجريات محط آمال أزواجهن، والمكدين في تجارتهم.. على الرغم من أن بعض السيدات هزرن لها رؤوسهن مبتسمات بكل لطف، وأخريات صحن عالياً؛ يجذبن انتباه من كان بجانبهن من السادة قائلات: «انظر.. يا له من وجه جميل!»، مشين كلهن في طريقهن، تاركات الوجه الجميل يمضي بعيداً، دون أن يفكرن أبداً في كم بدت صاحبة ذاك الوجه الجميل متعبة أو حتى جائعة!

لم يكن فيما بينهن كلهن سوى سيدة واحدة، بدت متفهمة لحالة الطفلة المسكينة، كانت تجلس بمفردها في عربة باهظة، بينما ترجل منها للتو شابان يرتديان ملابس أنيقة، يتحدثان ويضحكان معاً بصوت

عالٍ على مسافة قريبة منها، بدوا كأنهما نسيها تماماً، أثناء ذلك الوقت، كان هناك العديد من السيدات في كل مكان، لكنهن التفتن عنها، ناظرات إلى مكان آخر، أو إلى الشابين -على نحو لم يكن غير مناسب- تاركات السيدة بمفردها. أبعدت عنها سيدة غجرية، أرادت أن تقرأ لها الطالع، قائلة لها إنها على علم به؛ فقد قُص عليها بالفعل منذ عدة سنوات، لكنها نادت على الطفلة؛ وأخذت منها باقات أزهارها، وأعطتها المال في قبضة يدها المرتعشة، وأوصتها -حباً في خالقها- بأن تعود إلى المنزل، وتسكن إليه.

ظل الجميع على هذا الحال والمنوال، عدا الأحصنة، حينما دق الجرس؛ لإخلاء المضمار، فعادت لتستريح، بين العربات والحمير، إلى أن تنتهي ذروة الحرارة. بينما ظل عرض بانث قائماً في أوج فكاهته الكاملة، كانت عينا السيد كودلين مثبتة عليهما، وبات واضحاً أن الفرار دون أن يراهما يعد أمراً مستحيلاً.

بعد مضيّ فترة طويلة، في وقت متأخر من اليوم، قدّم السيد كودلين عرضه في مكان موفّق وملائم، فاحتشد الجمع حوله، يشاهدون عرضه، وهم في غاية الابتهاج. جلست الطفلة إلى جانب العجوز على مقربة منه، تفكر كم هو غريب أن الخيول -تلك المخلوقات الصادقة الجميلة- عليها أن تبعث الحيرة في نفوس الرجال الذين راهنوا عليها، إلى أن انتشلها من تفكيرها في عواقب ما يحدث أثناء اليوم، صوت الضحكات العالية للحشد على واحدة من مزحات السيد القصير، مجبراً إياها على النظر حولها.

إذا سنحت لهما الفرص كي يلوذا بالفرار، ستكون هذه الفرصة هي الأعظم من بينها جميعا. كان القصير مندمجاً في الضرب بالعصا المجلجلة في حيوية، صافعاً جميع شخصيات العرض وسط معركة صاخبة، كان الحشد من حوله ضاحكاً، تظهر أمارات البهجة على وجوههم، بينما استرخى السيد كودلين، وابتسم ابتسامة متجهمة؛ إثر رؤية عينيه الهائمتين لأيدٍ تلتقط من جيوب الصدريات العملات من فئة الست بنسات في خفية. إذا سنحت لهما الفرص؛ كي يلوذا بالفرار من دون أن يراهما أحد ستكون هذه الفرصة هي الأعظم من بينها جميعاً. وإذ بهما يقتنصانها، ويفرّان من فورهما.

شقا طريقهما بين المقصورات والعربات، منسلين بين حشود الناس، دون توقف، أو دون حتى النظر إلى الوراء. مع مرور الوقت، دق الجرس، وفتح مضمار السباق، حينها كانا قد وصلا إلى حباله، لكنهما عبرا دون الالتفات إلى الصراخ والصيحات التي انهالت على مسامعهما من كل حذب وصوب؛ لاختراقهما إياه، زاحفين نحو التل بوتيرة سريعة، منتقلين من فورهما إلى الحقول الفسيحة.



الفصل العشرون

يومًا بعد يوم من الاعتياد على توجيه خطواته تجاه المنزل، أثناء عودته بعد جهود بحث مضمّنية عن عمل جديد، داوم كيت على أن يرفع عينيه صوب نافذة الغرفة الصغيرة؛ اشتياقًا للطفلة، متمنيًا لو يرى أي إشارة تدل على وجودها. بناءً على رغبته المتلهفة الجادة، إلى جانب التأكيد الذي تلقاه من السيد كويليب، غُمرت نفسه بيقين في عودتها في أي وقت؛ تطلب المأوى المتواضع، الذي عرضه عليها من قبل، على الرغم من موت أمله كل يوم واندثاره، كان يقين جديد ينبثق، وأمل آخر يتجدد مع كل يوم جديد.

قال كيت متنهّدًا، وهو يلقي بقبعته جانبًا بمظهر شديد الإنهاك: «أعتقد جدّيًا أنهما من المؤكد سيأتيان غدًا يا أمي.. لقد رحلا منذ أسبوع كامل.. من المؤكد أنهما لن يظلا بعيدًا أكثر من أسبوع.. أليس كذلك يا أمي؟».

هزّت الأم رأسها في حسرة، وذكرته بالمرات السابقة التي خاب فيها أمله بالفعل، رغم أنه كان لديه اليقين ذاته.

قال كيت: «إن كلامك صحيح، بالنسبة لما حدث فعلاً.. إنك تتحدثين بعقلانية، لطالما تفعلين ذلك يا أمي. على الرغم مما تقولين، لا يزال لديّ بعض الأمل؛ فإن مضيّ أسبوع كامل يعتبر فترة طويلة بما فيه الكفاية، على أن يسيرا على أرجلهما.. ألا تظنين ذلك أيضاً؟».

- بلى! إنها فترة طويلة إلى حد معقول، بل فترة أطول من الحد المعقول، لكن هذا لا يعني أن عودتهما مؤكدة في النهاية.

صار كيت للحظة منزعاً جداً من هذا التناقض، وما زاد من شعوره هذا تصديقه في قرارة نفسه لرأي والدته، فلم يكن منافياً لما توقعه في ذهنه، أو أكثر من إدراكه لواقع الأمر أبداً. لكن انزعاجه كان مؤقتاً، لم يدم طويلاً، سرعان ما تغيرت نظرتة المفعمة بالغضب إلى نظرة لطيفة، قبل أن يغادر الغرفة.

- حسناً! ترى ما رأيك حيال ما قد يكون حدث لهما يا أمي؟ ألا تظنين أنهما على أي حال من الأحوال قد عبرا إلى البحر؟

أجابته الوالدة مبتسمة: «أظن أنهما لم يذهبا إلى البحر.. لكن لا يمكنني التوقف عن التفكير في أنهما ذهبا حتماً إلى بلد أجنبي».

صاح كيت، وأمارات الحزن بادية على وجهه: «لا تتحدثي بتلك الطريقة يا أمي؛ إنك تناقضين نفسك.. من فضلك استمعي إلي!».

قالت: «إنني أخشى أن يكونا قد فعلا ذلك حقاً، وأن تلك هي الحقيقة التي يجب عليك تصديقها.. إن ذلك ليس رأيي فحسب، بل حديث الجيران أيضاً، إن البعض منهم رآهما بالفعل على متن إحدى

السفن، إنهم يستطيعون إخبارك أكثر مما أعرفه، يستطيعون إخبارك بالجهة التي قصدها.. أعلم أن الأمر وقع صعب عليك، لكن هذا هو الواقع».

قال كيت: «إنني لا أصدق! إنني لا أصدق أي كلمة مما تقولين، إنهم ليسوا إلا مجموعة من الثرثارين، كيف لهم أن يعرفوا!..».

ردت عليه والدة: «قد يكونون مخطئين بالطبع.. لكنني لا أستطيع إثبات ذلك، على الرغم من أنني أعتقد في أن ما قالوه غير مستبعد، وأنهم على صواب؛ أتذكر الحديث المتداول عن أموال السيد العجوز التي أخفاها، ولا أحد يعرف عنها شيئاً، حتى ذلك السيد الضئيل القبح، الذي حدثني عنه.. ما اسمه؟ السيد كويلب.. ربما اعتمد عليه، ومن ثمَّ رحل هو والأنسة نيل للعيش في الخارج، حيث لن تؤخذ الأموال منهما، أو يزعجهما أحدهم.. أعتقد أن الأمر أصبح الآن أكثر منطقية، أليس كذلك؟».

حك كيت رأسه في حزن، رافضاً أن يقر بحقيقة ما قالت والدته، شبَّ حتى وصل إلى المسمار القديم؛ أنزل القفص، وجلس؛ ليُطعم العصفور. تذكر لتوه ذلك السيد العجوز الذي أعطاه شلناً كاملاً، فتخلص من تسلط الأفكار الأخرى عليه، وتذكر من فوره أن اليوم الذي يحياه، هو اليوم نفسه الذي قصده السيد العجوز، منتبهاً إلى أن الساعة قد اقتربت تمامًا من الموعد، الذي سوف يكون فيه السيد العجوز متواجداً في منزل كاتب العدل مرة أخرى. لم يمضِ على تذكره أي وقت، حتى عمد إلى تعليق القفص من فوره، مطوحاً إياه، ثم أوضح باختصار على

عجل طبيعة مهمته، وانطلق مسرعاً نحو المكان المحدد.

كان المكان المقصود على مسافة كبيرة من منزل كيت، حينما وصل إليه، كان الوقت المحدد قد مرَّ عليه دقيقتان؛ لكن لحسن الحظ لم يكن السيد العجوز قد وصل بعد، أو على الأقل لم تكن هناك أي عربة يسحبها مهر مرئية بالجوار، لذلك من غير المحتمل أن يكون قد جاء ورحل في تلك الفترة الزمنية القصيرة. تنفس كيت الصعداء، وتخلى الارتياح صدره، فور إدراكه أن الموعد لم يُفُتْ بعد، لذا وقف مستنداً على عمود الإضاءة، يلتقط أنفاسه، وينتظر مجيء المهر وراعيه. سيكون من البديهي بالطبع، إذا ما أتينا على ذكر المهر، أن نشير إلى أنه بمجرد وصوله إلى زاوية الشارع، بدا متعتناً، ينتقي مواضع خطواته، ويراقب بدقة؛ بحثاً عن أنظف الأماكن على الأرض؛ ليطأها بقدمه رافضاً بشتى المعاني أن يخطو على أي قاذورات، أو أن يسرع من وتيرة خطواته بأي شكل من الأشكال. كان السيد العجوز يجلس خلف المهر، وإلى جانبه كانت تجلس السيدة العجوز، تحمل باقة زهر مثل التي أحضرتها من قبل.

مر السيد العجوز وبصحبه السيدة العجوز، والمهر والعربة، في الشارع في جمع مثالي، حتى عبروا بما يقرب من نصف دسنة أبواب شابهت باب منزل كاتب العدل، حينها اختلط الأمر على المهر، وخُذع بصفيحة نحاسية تواجدت أسفل قارع باب الخياط، حيث عرج نحوه، ومن ثم توقف في هدوء، ثابتاً في صمت، موحياً باقتناعه التام بأن هذا المنزل هو مقصدهم.

قال السيد العجوز: «ألن يكون من الجيد إذا أكملت سيرك الآن يا سيدي؟ إنه ليس المكان المرجو!».

في ذلك الحين، كان المهر ينظر في تمعن بالغ صوب محبس مطافئ، على مقربة منه، وبدا غارقًا تمامًا في تأمله، منفصلاً عما يدور حوله.

صاحت السيدة العجوز: «أوه! إنك حقًا مشاغب يا ويشكر! بعد أن كنت جيدًا جدًا، تسير طوال الطريق معتدلاً، تفعل ذلك! عار عليك! إنني أشعر بالخجل الشديد مما تقترفه الآن، ومن سلوكياتك جميعها.. إنني لا أعرف حقًا ما الذي يتوجب علينا فعله معك.. لا أعرف حقًا».

بعد أن شعر المهر بالرضى التام؛ إثر تحديقه في محبس المطافئ، وتبين زواياه مكتشفًا ماهيته، مُشيحًا برأسه في الهواء؛ يحاول إبعاد أعدائه القدامى من الذباب، فتطن في أذنيه، هازًا رأسه، محرّكًا ذيله، بدا مستكينًا، منغمسًا في أفكاره تمامًا. ترجل السيد العجوز من العربة؛ يحاول مرارًا وتكرارًا إقناعه باستكمال السير، وقد استنفذ كافة السبل، لكن المهر لم يتجاوب معه على الإطلاق؛ ربما ظن أنه إذا فعل ما يؤمر به، سيكون ذلك تنازلًا مشينًا، أو ربما لفت انتباهه محبس المطافئ الآخر، أو ربما كان تواقًا إلى إغاضتهم، لكنه على حين فجأة، انطلق مسرعًا صوب المكان الصحيح، يحمل في عربته السيدة العجوز، تاركًا السيد العجوز يتبعه لاهثًا.

فور وصوله، تقدّم كيت نحو رأس المهر، رافعًا قبعته وهو يبتسم.

صاح السيد العجوز: «أوه! حمداً للخالق أن الفتى هنا! هل رأيت ما حدث يا عزيزي؟».

قال كيت مربتاً على رقبة المهر: «لقد قلت لك إنني سأكون هنا.. أمل أن رحلتك إلى هنا قد كانت جيدة، إنه مهر صغير لطيف جداً».

قال السيد العجوز: «أوه يا عزيزي! إنك فتى غير عادي، فتى جيد، أنا متأكد تماماً».

انضمت السيدة العجوز إلى الحديث قائلة: «وأنا أيضاً متأكدة من ذلك، إنه فتى جيد جداً، وأحسب أنه ابن جيد أيضاً».

قابل كيت ما سمعه من إطراء بثقة واعتراه الخجل الشديد في الوقت ذاته، فتلمّس قبعته، واحمر خجلاً. مدّ السيد العجوز يده إلى السيدة العجوز لتتكئ عليها؛ وترجل من العربة، وبعد أن نظر إليه مبتسماً ابتسامة تفصح عن رضى تام، استطردا في الحديث عنه في طريقهما إلى داخل المنزل، مما جعل كيت عاجزاً عن الكلام، مرتبكاً تماماً. لم يمضِ وقت طويل، حتى خرج السيد ويزردن إلى النافذة، وهو يشم رائحة باقة زهر في غاية الانتشاء، ناظراً إليه، ثم تبعه السيد هاويل ونظر إليه، وبعد ذلك تبعهما السيد والسيدة العجوز، ناظرين إليه أيضاً، ثم اجتمعوا كلهم ونظروا إليه معاً، ما تسبب في إصابة كيت بالحرج الشديد، وقد تظاهر بعدم ملاحظته لهم، وانكب على رعاية المهر أكثر فأكثر مربتاً عليه، وقد أطلق له المهر الحرية الكاملة في تصرفه.

لم تنتقل تلك الوجوه بعيداً عن النافذة لعدة لحظات، حتى ظهر

السيد تشوكستر على الرصيف، مرتديًا معطفه الرسمي، معتمرًا قبعته بشكل مائل، كما لو كانت معلقة على مشجب، وقال له إنه مستدعى إلى الداخل، وإنه سيعتني بدلًا منه بأمر المهر والعربة. بعد أن أبلغه وأرشده إلى الاتجاه، أضاف تعقيبًا أخيرًا، بأنه يتمنى أن يكون مباركا ويتمكن من اكتشاف ما إذا كان - (كيت) -: «عزيز بالفطرة». أم: «عزيز بالادعاء». لكنه على أي حال هز رأسه في غير ثقة، وبدأ ميالًا أكثر إلى الرأي الأخير.

دخل كيت إلى المكتب مرتجفًا، في حالة من التوتر الكامل؛ لم يكن معتادًا على أن يمر بسيدات وسادة غرباء، وبين علب صفيح، ورزم من الأوراق المغبرة، كانت لها جميعًا وقعٌ مبجلٌ ومروعٌ على نفسه. بدا السيد ويزردن رث الملبس، لكنه كان رجلًا مفعمًا بالطاقة، يتكلم بصوت عالٍ وبسرعة، يجتذب الأنظار؛ وكانت جميع أعين من الغرفة مصوبة إليه.

قال السيد ويزردن: «حسنًا أيها الفتى! لقد جئت للعمل مقابل ذلك الشلن.. ولم تأتِ وفي نيتك أنك سوف تحصل على آخر! أليس كذلك؟».

رد كيت، وهو يجمع شتات نفسه، ويستجمع شجاعته لينظر إلى الأعلى: «في الواقع، لا يا سيدي.. لم أكن أفكر في ذلك الأمر من الأساس».

قال كاتب العدل: «هل والدك حي؟».

- ميت يا سيدي.

- ووالدتك؟

- نعم يا سيدي.

- هل تزوجت مرة أخرى؟

جاءت إجابة كيت على نحو مفعم بالنقمة، قائلاً إنها أرملة ترعى ثلاثة أطفال، إذا عرف أي سيد مقبل على الزواج منها بهذا الأمر، سيكشف عن التفكير من فوره. بناءً على هذه الإجابة، دفس السيد ويزردن أنفه بين الزهور مرة أخرى، يتشمم رحيقها، ومال إلى جانب الباقة هامساً إلى السيد العجوز أنه على اعتقاد تام، بأن الفتى صادق كما هو حري بالصادق أن يكون.

بينما كانوا يستفسرون منه عن أمور أخرى، قال السيد جارلاندا: «حسنًا! لن أعطيك أي شيء..».

رد كيت على نحو عاجل، وفي جدية تامة: «شكرًا لك يا سيدي»..، نافضًا عنه بذلك التنبيه، الشكوك التي ألمح إليها كاتب العدل.

أكمل السيد العجوز قائلاً: «..لكنني.. ربما أريد معرفة المزيد عنك، لذلك أخبرني أين تعيش؛ لأسجل عنوانك في دفترتي».

أخبره كيت بعنوان مسكنه، ودونه السيد العجوز بقلمه. بالكاد أنهى ما كان يكتب، حتى سمعوا جميعًا ضجيجًا كبيرًا في الشارع، أصاب الهلع السيدة العجوز، وهرعت من فورها نحو النافذة، صاحت بأن ويشكر قد هرب، انطلق كيت من فوره إلى الخارج للحاق به، ثم تبعه الآخرون.

تبين أن السيد تشوكستر، كان واقفاً يضع يديه في جيبه، ينظر إلى المهر بلا مبالاة متناهية، يوبخه بين الحين والآخر، ملقياً عليه أوامر على شاكلة: «اثبت مكانك»، «كن هادئاً»، «واااااوو». وما شابه ذلك من عبارات، يستنكرها المهر، ولا يتحمل أن تُقال له من الأساس. بالتالي لم يقدم المهر أي اعتبار لواجباته الإلزامية، أو يمثل لفروض الطاعة، ومضى في طريقه، دون اكرات أو خوف من أعين الناس المصوبة نحوه.. أما السيد تشوكستر في تلك اللحظة فقد كان واقفاً خلف العربة من دون قبعته، واضعاً قلمه خلف أذنه، يبذل جهوداً غير مجددة بتاتاً، محاولاً سحبها نحوه إلى الاتجاه الآخر، محاولاً كسب إعجاب الناظرين المذهولين، الذين بدوا غير قادرين على الحديث. كان المهر عنيداً جانحاً حتى في هروبه؛ لم يكن قد قطع مسافة كبيرة، حينما توقف فجأةً، ومن ثمّ تقهقر ورجع حيثما كان ثانيةً، بنفس وتيرته السريعة التي انطلق بها، دون أدنى عون من أحد. حينها طوّح السيد تشوكستر بنفسه إلى داخل المكتب في أكثر المشاهد المثيرة للضحك، وقد غلب عليه الانهالك والاضطراب الشديد.

صعدت السيدة العجوز إلى مكانها المخصص في العربة، وجلس هابيل في مكانه - حيث أتيا بالأساس من أجل اصطحابه. بعد أن ألقى السيد العجوز على المهر حديثاً عقلاً، لم يخلُ من التوبيخ الشديد إزاء تصرفه الماجن، وقد بذل قصارى جهده؛ ليعدّل من هيئة السيد تشوكستر، صعد إلى العربة، ومن ثمّ انطلقوا في طريقهم، ملوحين إلى كاتب العدل ومحرره، ملتفتاً أكثر من مرة بإيماءات عطوفة نحو كيت؛ يحببه بها، كيت الذي ظل يرنو إليهم طوال الطريق، إلى أن اختفوا تماماً عن الأنظار.

الفصل الحادي والعشرون

غادر كيت، وسرعان ما نسي أمر المهر والعربة والسيدة العجوز والسيد العجوز والسيد الصغير، فانغمس ثانية في التفكير في سيدة الراحل، وحفيدته الجميلة، اللذين استحوذا على كافة تأملاته. لا يزال يختلق حجبًا جديدة في الظاهر بالتصديق، تبرر عدم ظهورهما طوال ذلك الوقت، محاولاً إقناع نفسه بأنهما سوف يعودان حتمًا في القريب العاجل، وجه خطاه نحو بيته، عازمًا على إنهاء مهمته التي قاطعها تذكره المفاجئ لوعده، ومن ثمَّ خرج ثانية؛ ساعيًا، يبحث عن قوت يومه، مفتشًا عن مصيره.

حينما وصل إلى الساحة التي يقطن فيها، سكنته الدهشة؛ فور رؤيته للمهر مرة أخرى واقفًا عند الناصية، بدا أكثر عنادًا من أي وقت مضى، وكان جالسًا في العربة السيد هابيل بمفرده، وقد أبقى على نظرتة الثابتة مع كل طرفة عين، لكنه بمحض الصدفة، رفع عينيه، ورأى كيت يمر قبالة، فأومأ إليه برأسه في حماس، كما لو كان يطيح بها.

لم يكن كيت متعجبًا؛ بسبب رؤية المهر فقط؛ بل بسبب رؤيته على مسافة قريبة جدًا من بيته، لم يكن أمرًا واضحًا بالنسبة إلى قدرة

استيعاب كيت، فدارت في عقله تساؤلات حول الغرض من جود المهر قبالة بيته، وإلى أين ذهب السيد والسيدة العجوز، ظلت تلك التساؤلات مشوشة في حالة من التخبط داخل رأسه، إلى أن رفع مزلاج الباب، ودخل، فرأهما جالسين في الغرفة، يتحدثان مع والدته، ومع رهبة ذلك الموقف غير المتوقع، رفع كيت قبعته، وقدم انحناءة مميزة لهما، رغم ارتبائه.

قال السيد جارلاند مبتسمًا: «لقد سبقناك إلى هنا، كما ترى يا كريستوفر».

قال كيت مشوشًا: «نعم.. بالطبع يا سيدي». ثم التفت إلى والدته، تعلو وجهه علامات الاستفهام، يحاول استخلاص سبب الزيارة منها. قالت، ردًا على ذلك الاستجواب الصامت: «إن السيد عطوف بسخاء يا عزيزي.. لقد أتى؛ مستفسرًا عما إذا كنت تعمل في مكان جيد، أو أي مكان في العموم، وقد أخبرته أنه ليس لديك أي مكان، لذلك كان من الكرم الكبير أن يقول ..».

قاطعها السيد والسيدة العجوز معًا، حيث قالوا في صوت واحد: «..إننا نريد فتى طيبًا في منزلنا.. ربما تفكرنا بالطبع في الأمر، وستتخذ قرارًا بتنفيذه، إذا وجدنا كل شيء موافقًا لما تمنيناه».

بعد أن تدبر كلامهما، تبين له أنهما كانا يقصدانه، شارك كيت والدته اضطرابها فور سماعه ما قيل، واختل خفقان قلبه، وصار يرتجف، أما الزوجان العجوزان، فقد كانا في غاية المنهجية الحذرة في حديثهما،

أخذًا يطر حان عليه العديد من الأسئلة، لدرجة أن الخوف انتابه؛ خشية إضاعة أي فرصة في النجاح.

قالت السيدة جارلاند لوالدة كيت: «كما تعرفين يا سيدتي العزيزة، إنه أمر ضروري، وعلينا أن نتحرى الدقة، ونكون حذرين للغاية خاصة في مثل تلك الأمور؛ لأننا أسرة صغيرة مكونة من ثلاثة أفراد فقط، نعيش في هدوء، بالتالي سيكون أمرًا مؤسفًا، إذا ارتكبنا أي نوع من الأخطاء، أو إذا وجدنا أي اختلاف بين الواقع وما كنا نتوقعه ونأمله».

ردت والدة كيت بناء على ما قيل إنه صحيح تمامًا، وصائب جدًّا، وموضوعي في الآن ذاته، وأنه أمر لا تستطيع القيام به، فقد حرّمته السماء، فهي لا تملك أي سبب يدفعها إلى الكذب تجاه حقيقة ما هي عليه، أو حقيقة شخصية ابنها، فهو نعم الابن الجيد، وتشهد بذلك لأنها أمه التي أنشأته، وعلى غرار ذلك، تملّكتها الجرأة لتقول بأنه أخذ طبائع والده، الذي لم يكن ابنًا صالحًا لأمه فحسب، بل كان زوجًا مخلصًا لها، ووالدًا عظيمًا لهم، مؤكدة على أن كيت باستطاعته تأييد ذلك، وأن جايكوب الصغير أو الرضيع إذا كانا في سن كافية للاستيعاب - لكنهما بكل أسف ليسا كذلك - لأدركا من فورهما حجم الخسارة التي تعرضا لها، أو ربما كان من الأفضل لهما أن يكونا كما هما صغيرين؛ لا يعيان ما يدور حولهما.. هكذا أخذت والدة كيت تسرد حكاية طويلة، تكفكف دموع عينيها بمئزرها، تربت على رأس صغيرها جايكوب، الذي كان يهز المهد، محدقًا بكل قوة في السيدة والسيد الغريبيين.

حينما أنهت والدته كيت حديثها، تدخلت السيدة العجوز من فورها مرة أخرى، وقالت: إنها متأكدة تمامًا، من كونها امرأة صادقة، وشخصية فاضلة تستحق الاحترام، وإلا ما كانت صرحت بما في نفسها على هذا النحو بكل صدق، وأنه من المؤكد أن مظهر الأطفال ونظافة المنزل، يستحقان ثناءً عظيمًا، وأن الفضل كله يرجع لها، على هذا النحو، انحنى والدته كيت احترامًا لها، وامتنانًا لتعزيتها لها. استطردت المرأة الطيبة في حديثها وانطلقت في سرد طويل ودقيق لحياة كيت، منذ نعومة أظافره إلى وقتهم الحالي، غير غافلة عن ذكر سقوطه من النافذة الخلفية للردهة، حينما كان طفلًا في سنواته الأولى، أو معاناته غير المألوفة عندما أصيب بالحصبة، التي تمثلت في محاكاة سليمة لسلوكه الحزين، في أثناء طلبه للخبز والماء، ليلاً ونهارًا، قائلاً: «من فضلك يا أمي، لا تبكي، سأكون على ما يرام قريبًا»، وكإثبات لما أشارت إليه، بإمكاننا اللجوء إلى المستأجرة، السيدة (جرين) بائعة الجبن بالجوار، وإلى العديد من السيدات والسادة في أنحاء مختلفة من إنجلترا ومدينة (ويلز) على وجه الخصوص، (بالإضافة إلى السيد (براون) كان من المفترض أنه قد كان عريفًا في جزر الهند الشرقية حينذاك، لقد تحمل عنا بالطبع بعض المشاكل القليلة)؛ فقد كانوا جميعًا على معرفة شخصية بعواقب الظروف التي حلت بنا.. فور انتهاء هذا السرد، طرح السيد جارلاند على كيت بعض الأسئلة، التي تتعلق بمهاراته ومقننياته العامة، في حين ظلت السيدة جارلاند تتابع الأطفال، وتستمتع إلى والدته كيت التي شرعت تحكي الأحداث المميزة التي مرّت عليها أثناء ولادة كل ابن لها، فقد لاقت تشابهًا كبيرًا،

جعلها تستحضر ذكرى ولادة ابنها السيد هابيل، بدا من الحديث ومما استحضرتة ذاكرتها، أنها ووالدة كيت، مثل جميع النساء الأخريات -مهما كانت الحالة أو العمر- حياتهن حافلة بالتحديات والأخطار. أخيراً، جرت التساؤلات بشكل طبيعي، مستفسرين عن حالة ملابسه، محبذين إضافة بعض التعديلات الحسنة عليها، معلنين أنه قد عُيِّن رسمياً بدخل سنوي قدره ستة جنيهاً، وأنهما سيتكفلان بمأكله وبإقامته، التي ستكون في فيلا هابيل ببلدة (فيتشلي).

كان من الصعب تحديد أي طرف من الطرفين بدا أكثر سعادة من الآخر؛ بما توصلوا إليه من ترتيب نهائي، انتهى إلى أن كيت يجب عليه أن يتواجد في منزله الجديد، في صباح يومهم التالي، لكن خلاصة القول أن الابتسامات المبهجة ارتسمت على وجوه كلا الطرفين، في مظهر لطيف. وأخيراً أعطى الزوجان العجوزان عملتين لامعتين من فئة (الشلين ونصف الشلن)، واحدة لجايكوب الصغير، والأخرى كانت من نصيب الرضيع، ومن ثمَّ غادرا، اصطحبهما مضيئُهما الجديد إلى الشارع، وأحكم لجام المهر العنيد، بينما جلسا في مقعدهما، وظل ينظر إليهما، وهما يتعدان عن ناظره، بقلب يغمره الفرح.

سرعان ما انطلق كيت ثانية إلى داخل بيته، وهو يقول: «حسناً يا أُمي! أحسب أن مصيري قد كُتِب الآن واتضح، إنني على مقربة من تكوين ثروتني يا أُمي».

ردت عليه والدته: «إنني أستشعر ذلك بالفعل.. هل تتخيل الأمر! ستة جنيهاً في العام الواحد!».

حاول كيت الحفاظ على ضبط النفس؛ من أجل التمتع في أمر ذلك المبلغ، وإدراك مدى جدية الموقف، لكنه ابتسم رغمًا عنه، وقال: «إن هذا ما يُدعى مالا حقًا».

قال كيت تلك العبارة، منتشيًا، وقد أخذ نفسًا طويلًا، ووضع يديه في جيبه، كما لو كان في كل واحد منهما أجر عام على الأقل، ونظر إلى أمه، كما لو أنه رأى عبرها في الجانب الآخر وأسفلها كمًا هائلًا من الجنيهات الذهبية الإنجليزية:

«أتخيلين يا أمي! هاه! ستة جنيهات في العام الواحد.. يا إلهي! حينها ستكونين دومًا تلك السيدة التي تكونين عليها في أيام الأحاد، سيحظى جايكوب بتعليم جيد، وسيدل هذا الرضيع، وسنحظى بغرفة مفروشة أعلى الدرج. ستة جنيهات في العام الواحد..».

تنحّص صوت غريب أجش: «احم احم! ستة جنيهات في العام الواحد! ماذا بشأن تلك الستة جنيهات؟». بمجرد أن طرح ذلك الصوت استفساره، دخل السيد كويليب مباشرةً، وفي أعقابه ريتشارد سوفييلر.

قال كويليب، ناظرًا بحدة في كافة الأرجاء: «مَن قال إنه سيحظى بستة جنيهات في العام؟ هل قال العجوز ذلك؟ أم أن نيل هي مَن أخبرتكما؟ ولماذا سوف يحصل عليها؟ وأين هما من الأساس؟».

ذهلت السيدة الطيبة من الظهور المفاجئ لتلك القطعة المجهولة من القبح، قفزت من توها انتشلت الرضيع من مهده، ورجعت في لمح البصر إلى أقصى زاوية في الغرفة، بينما ظل جايكوب الصغير على

مقعده، واضعاً يديه على ركبتيه، ناظرًا إليه، كأنه مسحور، يزجر صახبًا طوال الوقت. في ذلك الحين، كان ريتشارد سويفلر ينظر من فوق رأس كويليب إلى أفراد العائلة في هدوء، أما كويليب نفسه، فقد وقف واضعاً يديه في جيبه، يتسم، تبدو عليه حالة من الاستمتاع المفرط؛ جراء ما أثاره من ضيق في نفوس الجميع.

قال كويليب بعد لحظة من الصمت: «ليس هناك أي داعٍ للخوف، إن ابنك يعرفني، علاوةً على ذلك، إنني لا ألتهم الأطفال، وذلك لأنهم ليسوا طعامي المفضل، إنني لا أحبهم. أوقفي فقط صراخ ذلك الجعجاء الصغير، وإلا حينها سأندخل وأتعمد الأذى فعليًا.. مرحبًا يا سيدي! هل لك أن تكون هادئًا؟».

ارتعد جايكوب الصغير من توه، حابسًا دمعته، كادت أن تنزلقا من عينيه، وانكمش في نفسه في حالة من الذعر الصامت.

تابع كويليب قوله، ناظرًا إليه في عنف قاسٍ: «أتمنى ألا تكون رافضًا لعدم الصراخ ثانيةً، أيها الوغد الماكر، لأنك إذا صرخت سأريك وجوهًا لن تفضل رؤيتها، وحينها ستنفجر حقًا في البكاء.. الآن يا سيدي، لماذا لم تأت إليّ كما وعدت؟».

رد كيت بحسم بالغ: «لماذا يتوجب عليّ أن آتي لك؟ ليس لديّ أي عمل معك، وليس لديك أي عمل معي».

ابتعد عنه كويليب من فوره، وسرعان ما اتجه إلى والدته كيت: «حسنًا! قل لي أيتها السيدة.. متى كانت آخر مرة أتى فيها سيده العجوز

أو أرسل إليه؟ هل هو هنا الآن؟ وإذا لم يكن، قل لي أين ذهب؟».

ردت عليه قائلةً: «لم يكن هنا على الإطلاق، وكم أود حقاً لو أعرف إلى أين ذهب! لأن ابني حينها سيهدأ، ويكف عقله عن التفكير، وسيكون هذا هو حالي أيضاً. إذا كنت أنت فعلاً المدعو بالسيد كويليب، فمن المرجح أنك أنت من تعرف مكانه، هكذا أظن، وهذا ما كنت أخبره به كل يوم».

«هوف». زفر كويليب ممتعضاً، خائب الأمل؛ لا يصدق أن ما قالته هي الحقيقة، وقال: «هل كنت ستقولين الكلام نفسه لهذا السيد.. أليس كذلك؟».

ردت عليه: «إذا أتى هذا السيد؛ كي يسألني السؤال ذاته، لم أكن لأخبره بأي شيء آخر يا سيدي.. وأتمنى حقاً لو أستطيع معرفة ما هو أكثر؛ من أجل مصلحتنا جميعاً».

نظر كويليب إلى ريتشارد سوفلر، فقد كانا قد تقابلا عند عتبة المنزل، مفترضاً أنه جاء للتفتيش عن أي معلومات خاصة بشأن الهاربين. متسائلاً ما إذا كان افتراضه صحيحاً؟».

قال ديك: «نعم! هذا هو الهدف من وراء تعجيلي بالمجيء. لقد تخيلت أن ذلك ممكن.. دعنا ندق أجراس الهوى، أنا من سيبدأ، دينغ دونغ..».

قال كويليب: «ما لك تبدو خائب الأمل!».

قال ديك: «مُحتار يا سيدي، إنني مُحتار فقط.. هذا كل ما في الأمر».

إن عقلي مشغولٌ بالتفكير في مسألة ما، جعلتني محتارًا؛ فتقديم قربان مفعم بالجمال والإشراق لمذبح تشيجز، ليس بالأمر السهل. هذا كل ما في الأمر يا سيدي».

نظر القزم إلى ريتشارد بابتسامة ساخرة، لكن ريتشارد -الذي تناول غذاءً دسمًا مع صديق له- لم يعره أي انتباه، مستمرًا في استنكار مصيره، في مظهر حزين بائس. لاحظ كويليب بكل وضوح أن هناك سببًا سرّيًا وراء هذه الزيارة، ووراء خيبة أمله غير العادية، أملًا في وجود ضرر كامن في الأمر، عازمًا على أن ينتهي من ذلك الأمر. لم يمضِ الكثير على عقده ذلك العزم، حتى كانت قد ظهرت أمارات الصدق على ملامح وجهه، بقدر ما استطاع التعبير عن مكنونه، حتى بدا متعاطفًا بإفراط مع السيد سوفييلر.

قال كويليب: «إنني أشعر بخيبة أمل أيضًا؛ لكنني أنا المتسبب فيها؛ بدافع الإحساس الودي الذي أكنه لهما، لكنك بلا شك تملك أسبابًا حقيقية وراء شعورك بذلك الكم من البؤس، أو ربما أسبابًا شخصية، وذلك يجعل ما تشعر به أكثر ثقلًا مما أشعر به».

عقب ديك بنكد: «نعم هو كذلك فعلاً».

«أؤكد لك أنني آسف للغاية، أنا بالفعل آسف جدًا. إنني أفضل أن نزيع من على عاتقنا تلك الأحزان. بما أننا رفيقان في الشدائد، فهل لنا أن نكون رفيقين في إيجاد أضمن طريقة لنسيانها؟ إذا لم يكن لديك أي عمل ضروري، من اللازم عليك إتمامه، دعني آخذ بيدك الآن إلى منحى آخر». جذب كويليب من كمه، ناظرًا إلى وجهه نظرة مأكرة من زاوية

عينيه، وقال مجادلًا: «يوجد نزل على الضفة، لديهم هناك أفخم أنواع النبيذ في جميع أنحاء العالم، وهو نبيذ مهرَّب بالطبع، ابقَ هذا الأمر سرًّا بيننا. إن المالك يعرفني. وهناك أيضًا نزل صيفي صغير، يطل على النهر، فيمكننا أن نأخذ كأسًا من هذا المشروب اللذيذ هناك مع نفحة من أفضل أنواع التبغ - وهو الأفضل والأعلى جودة، على حد علمي - حينها سننعم بالدفع والسعادة على أكمل وجه، ها! هل يمكننا القيام بذلك التدبير، أم أنك مرتبط بشأن خاص، سوف يأخذك إلى منحى آخر يا سيد سويفيلر؟ ها!».

بينما كان القزم يتحدث، استرخى وجه ديك تمامًا، وشرع يتسم بتسامة طيبة، وبدأت حواجه تستقيم في ببطء بعد عبوس. بحلول الوقت الذي كان كويليب قد أتمَّ حديثه فيه، صار ديك ينظر إلى كويليب بالنظرة نفسها التي كان ينظر بها كويليب إليه، لذلك لم يبقَ هناك أي شيء، عليهما القيام به، غير الخروج والذهاب إلى النزل المقصود. وقد كان، حيث غادرا من فورهما. في اللحظة التي أدارا فيها ظهريهما، تلاشى تيبُّس جسد جايكوب الصغير، وشرع يبكي ثانيةً من النقطة التي استوقفه كويليب عندها، وعلى الوتيرة نفسها.

كان النزل الصيفي الذي ذكره كويليب في حديثه، عبارة عن صندوق خشبي متصدع، شاع فيه عفن ظاهر للعيان، قائمًا على طين النهر، مهددًا بالانزلاق فيه في أي لحظة. أما الحانة التي تجاوره، فقد كانت عبارة عن مبنى عطب، جرفته وقوضته الفئران، إلا أنه لا يزال قائمًا بسبب ألواح خشبية كبيرة، دُقت على جدرانها، تصدت لانهيائه لفترة طويلة، لكنها

بدأت تتحلل، وتميل مع ميل حمولتها، إذا صادف وحلت ليلة عاصفة، تُسمع في الحال أصوات صرير وتصدع كما لو كانت البناية كلها على وشك أن تنقلب وأن يُخسف بجدرانها الأرض. وحرىُّ بنا أن نقول إن المنزل كان قائماً، مثل أي شيء عتيق خرب، على أرض نائية مهجورة، تغطيها غيوم من دخان متصاعد من مداخن المصانع، يدوي في أركانها صدى صرصرة العجلات الحديدية، وصوت الموج عند تدافع المياه العكرة. كان وصف الصورة الخارجية، أفضل تلميح عما يكنه الداخل. كانت الغرف منخفضة تغلب عليها الرطوبة، تشققت جدرانها الدبقة، وتوغلت فيها الثقوب والحفر، غَوَّر الماء أرضيتها، حتى أضحى منظر العوارض الخشبية النائثة، يبعث الحذر في نفس كل غريب عن حيهم، ممن تسول له نفسه الاقتراب.

حينما مرا قبالة، وقف السيد كويليب يمعن النظر في انجذاب واضح، منتشياً، يراقب جماله، بعدها اقتاد السيد ريتشارد سويلر إلى داخل النزل الصيفي، وسرعان ما جلبا برميلاً خشبياً، مملوءاً إلى آخره بالنبيذ الفاخر، إلى طاولة مخدوشة بحروف أولية، مربوطة بأحبال كثيرة. شرع كويليب يصب من خمره في الكأسين بمهارة وتمرس، ويضيف مقدار الثلث ماءً، ومن ثمَّ وضع أمام ريتشارد سويلر حصته من الخمر، مشعلاً غليونه من لهب شمعة قاربت على الذوبان بالكلية، كانت موجودة في فانوس صديءٍ قديمٍ، ثم جلس بالقرب من صديقه، نافخاً دخان غليونه.

قال كويليب، بينما كان ريتشارد سويلر يضم شفتيه: «هل مذاقه

جيد؟ هل تشعر بقوته وطعمه الحار؟ هل يجعل عينيك تغمزان ويسيل
منهما الدمع؟ هل تشعر بالاختناق، وأن نفَسَك أصبح قصيراً؟ نعم؟
إنك حقاً تشعر بما أقول.. أليس كذلك؟».

صرخ ريتشارد سوفييلر فور تذوقه، ملقياً بما احتواه كأسه، وملأه
بالماء قائلاً: «أليس كذلك! بل هو كذلك.. لماذا يا رجل! لِمَ لم تخبرني
أنني سأشرب ناراً ملتهبة؟».

رد عليه كويليب: «لا! لا تشربه. انظر هنا. ثم هنا. ثم عاود النظر
هنا ثانية. لا تشربه!».

بينما كان دانيال كويليب يتحدث، كان قد شرب ملء ثلاث كؤوس
صغيرة من نبيذه المعتق، تبعها بسحب أنفاس متتالية من غليونيه في
شراهة، مبتلعاً دخانه، حابساً أنفاسه، زافراً من أنفه سحابة ضبابية من
الدخان بعد فترة. كان ما فعله دانيال كويليب، قد أعاده إلى شخصيته
المعتادة، فصار يقهقه بإفراط.

صاح كويليب فجأة: «دعنا نقدم نخباً». ومن ثمَّ شرع يذق على
الطاولة بقبضة يده ومرفقه بالتناوب، بطريقة بارعة، بوقع ملحن، وقال:
«من أجل امرأة.. من أجل الجمال.. دعنا نقدم نخباً من أجل الجمال،
ونفرغ كؤوسنا إلى آخر قطرة فيها. هيا قل لي اسمها.. هيا!».

قال ديك: «حسنًا! إذا أردت اسمًا، فليكن صوفي واكلز».

صاح القزم في صخب قائلاً: «صوفي واكلز! الآنسة صوفي واكلز!
بل قل السيدة ريتشارد سوفييلر. فليكن نخباً من أجل السيدة حرم

ريتشارد سويلر .. حتمًا كما أقول .. حتمًا حتمًا .. ها ها ها!..».

قال ديك: «آه! كان الأخرى بك لو قلت قولك هذا منذ بضعة أسابيع ماضية؛ لأن الوقت قد انتهى على تحقيق ذلك .. فقد قدمت نفسها قربانًا على مذبح تشيجز...».

رد عليه كويليب قائلاً: «تشيجز! تشيجز المسموم.. فلتُنزع أذناه من مكانهما، لا أريد أن أسمع هذا الاسم ثانيةً. إنها ستكون حرم السيد سويلر، أو لن تكون حرمًا لأحد آخر. سأشرب في صحتها مرة أخرى، وفي صحة والدها، وأمها، وأخواتها جميعًا وإخوانها.. في صحة عائلة واكلز المبجلة، في صحتهم جميعًا في كأس واحدة، في صحة العائلة المجيدة، منذ أول كأس إلى حد الثمالة».

توقف ريتشارد سويلر لوهلة عن استمراره في ادعاء رفع الكأس إلى شفتيه، وبات ينظر إلى القزم في شيء من الدهول؛ وهو يلوح بيديه وساقيه، وقال: «حسنًا حسنًا! أتعلم أنك أفضل صديق للكأس، من بين جميع رفقاء الكأس، الذين تواردوا عليّ، أو سمعت عنهم؛ إن لديك طريقة استثنائية متفردة، تحظى بها حياتي معك».

زاد هذا التصريح المعلن من غرابة أطوار السيد كويليب، بدلًا من كبح جماحها، لدرجة أن ريتشارد سويلر دُهل حقًا من رؤيته مندمجًا في مثل هذا المزاج الصاخب، فبات يتجرع -هو الآخر- عددًا ليس بقليل من كؤوس الخمر، من أجل صحبته، وشرع ينخرط في الأجواء رويدًا رويدًا بقدر بسيط، لكنه مع الوقت أصبح أكثر ثقةً وأنسًا؛ جراء شعوره أن السيد كويليب يسانده، حتى أصبح مندمجًا تمامًا، وروحه

أكثر خفةً في الواقع. بمجرد أن أعاده دانيال كويليب إلى هذا المزاج، وعرف مفتاح لغز شعوره بالضيق وخيبة الأمل، أصبحت مهمته سهلة نسبياً؛ فبات يعرف تقريباً التفاصيل الكاملة لمخططة المفترض، الذي سيتم بين ديك سهل المراس، وصديقه المولع بالتأمل.

قال كويليب: «مهلاً مهلاً! أهذا هو الأمر؟ بالطبع هذا هو الأمر. أتعلم! يجب أن يتم تحقيقه، يجب حتماً أن يتم تحقيقه.. ثق فيّ فقط، وسأقدم لك يد العون، إنني صديقك المخلص بدءاً من هذه اللحظة». تفاجأ ديك من ذلك الدعم العظيم، ومن ثمّ قال مستفسراً: «هل تظن أنه لا يزال لدينا فرصة؟».

ردد القزم: «فرصة! بل قل يقين.. قد تصبح صوفي واكلز، حرم تشيجز أو أي أحد آخر تبغاه، لكنها لن تكون حرم سوفييلر. أيها الكلب المحظوظ! إنه أغنى من أي أحد حي، أما أنت، فأنت رجل عصامي. لا أراك الآن على أي صورة غير صورتك كزوج لنيلي، الذي يتمرغ في الذهب والفضة. سوف أساعدك، يجب أن يتم ذلك الأمر، وسوف يتم، تذكر كلامي فقط.. يجب حتماً أن يتم».

قال ديك: «لكن كيف؟».

قال القزم: «إن هناك متسعاً من الوقت.. وسوف يتم الأمر. سنجلس معاً مجدداً، وسنتحدث في الأمر مرة أخرى طوال الطريق. املاً قنيتك، بينما سأذهب إلى مكان ما، وسأعود على وجه السرعة.. سأعود مباشرة.. سأعود في الحال».

مع انتهاء كويليب من إلقائه لتلك الكلمات في عجلة، ركض مسرعاً إلى ساحة عراء، خلف المنزل العام، خصصت للعب القناني الخشبية، ألقى بنفسه على الأرض، يصرخ متدحرجاً متمرغاً في فرحة مفرطة.

قال صارخاً: «سيداً اللهو.. أصبح كل شيء ملكاً ليدي، مرتباً وجاهزاً، ينتظر التنفيذ فقط، سيداً اللهو، وسيداً استمتاعي به. أليس هو ذلك الغبي الذي أبرحني ضرباً وجعلني أشعر بالآلام في كامل جسدي ذاك اليوم.. أليس صديقه هو ذلك المتآمر المدعي السيد ترينت الذي لطالما حاول لفت أنظار السيدة كويليب، فيبتسم لها ويغمز، أليس كذلك؟ بعد تكبدهم العناء لمدة عامين أو ثلاثة أعوام في مخططهم الثمين، يستفيقون في النهاية على أنهم لم يحصلوا على أي شيء سوى متسول شحاذ، وأن واحداً منهم مقيد مدى الحياة. ها ها ها! حتماً سيتزوج نيل. يجب أن يحدث ذلك، يجب أن يحصل عليها، عند زواجهما، سوف أكون أول رجل، يقول لهما حقيقة ما حصلوا عليه، وكيف ساعدتهما. ستكون هذه العملية عملية تصفية حسابات قديمة، لقد جاء الوقت لتذكيرهما من أنا، لتذكيرهما كم كنت صديقاً رأسمالياً، وكيف ساعدتهما في وراثة الثروة الضخمة. ها ها ها!».

في أوج تلك النشوة التي يعيشها، كان السيد كويليب تحت الملاحظة، كان مراقباً على نحو لن يروق له؛ فقد كان يتدحرج بالقرب من بيت مكسور لكلب شرس ضخم، انتهب الفرصة، وانقضَّ عليه انقضاضاً عنيفاً، وهو ما كان ليصير إلى نتائج غير حميدة، لولا أن

سلسلته المقيد بها كانت أقصر من المسافة اللازمة. ظل القزم كما كان، راقداً على ظهره في أمان تام، على الرغم من أن المسافة الفاصلة بينهما لا تتعدى القدمين، يسخر ويستهزئ من الكلب بحركات بغیضة من وجه؛ معلنا انتصاره عليه؛ يعلم عجزه عن التقدم نحوه بشبر واحد آخر.

قال كويليب، وهو يتراقص أمام الكلب، يفتعل أصوات تثير جنونه: «لماذا لا تأتي وتعصني؟ ها! لِمَ لا تأتي وتقطعني إلى أجزاء؟ ها! أيها الجبان؟ هل أنت خائف أيها الصغير؟ بل أنت مرعوب، وتعلم أنك كذلك».

أخذ الكلب يتقافز، ويشد سلسلته؛ محاولاً انتزاع نفسه بالقوة، ينظر إليه بعينين ضاريتين، وينبح في غضب عارم، لكنه كلما غضب أكثر، كلما كان القزم يقرب منه إصبعه، ويومئ إليه بإيماءات تمتلئ بالتحدي والاحتقار. حينما شعر كويليب أنه أصبح مسيطرًا بشكل كافٍ على فرحته، نهض، ثم وضع يديه على خصره، وأمال مرفقيه إلى الخارج، راقبًا حول بيت الكلب رقصة شيطانية، على حدود امتداد السلسلة بالضبط؛ محاولاً إثارة غيظه أكثر فأكثر. بعد أن أنهى مجونه، حاول ضبط نفسه، وإعادتها إلى طبيعتها المعهودة، ثم عاد إلى رفيقه المسالم، الذي وجدته واقفاً، ينظر إلى المد في وقار، منغمساً في التفكير، يسترجع كل شيء ذكره السيد كويليب بخصوص الذهب والفضة.

الفصل الثاني والعشرون

كان ما تبقى من ذلك اليوم واليوم الذي يليه حافلاً تماماً، بالنسبة إلى عائلة نابلز، التي صبت اهتمامها كله على تحضير ملابس كيت، واستعدادات رحيله، بدت تلك اللحظات لأفراد العائلة لحظات عظيمة ومهمة، كما لو أنه على وشك عبور قارة أفريقيا، أو القيام برحلة بحرية حول العالم. سيكون من الصعب استيعاب أن صندوقاً واحداً حوى كل ملابسه وضرورياته بالكامل، لقد فُتح وأُغلق، مرات عديدة، من المستبعد حصرها، على مدار أربع وعشرين ساعة كاملة، ولم يسلم بالطبع من فحص وتمحيص عينين صغيرتين؛ مثل لهما الصندوق بما يحتويه من ثلاثة قمصان، وجوارب متناسقة مع مناديل الجيب، منجماً ذهبياً، فظل جايكوب الصغير يراقبه في حماس مذهل، دون أن يغفل ولو للحظة. أخيراً، في يومهم التالي، نُقلت حاجيات كيت إلى مَنْ سيحملها عنه، في بلدة (فينتشلي)، لكنَّ سؤالين بقيا في رأس كيت ولم يذهبا عن تفكيره، أولهما: ماذا لو أن الحمال أضاع صندوقه، أو لم يكن نزيهاً، وزعم أنه فقَّده خلال الطريق، وثانيهما: كيف ستعتني والدته بنفسها أثناء غياب ابنها!

قالت السيدة نابلز، في قلق شديد، ردًا على السؤال الأول المطروح: «لا أعتقد أن هناك احتمالًا لفقد من الأساس.. لكنني في الوقت نفسه، من دون شك، أعلم مدى الإغراء الذي يقع الحمالون تحت وطأته، مدعين أنهم فقدوا أشياء أثناء قدومهم».

قال كيت فرعًا، وهو ينظر في جدية تامة: «من دون شك! حسنًا يا أمي! في هذه الحالة لا أظن أنه من الصحيح الثقة به على الإطلاق. لذلك كان يجب أن يذهب أحد مع الحاجيات.. إنني أخشى فعلًا ضياعها».

قالت الأم: «لا حيلة لنا الآن! أعلم أن ذلك كان من حماقة والخطأ. لكن الناس يجب ألا يغريهم شيء في المطلق». قرر كيت في قرارة نفسه أنه لن يختبر نزاهة أي حمال أبدًا بعد ذلك، وأنه إذا اضطر سوف يختبرهم أولاً بصندوق فارغ، وقد أقسم على فعله هذا، وبعد أن عقد هذا العزم، حوّل فكره إلى السؤال الآخر:

«تعلمين بالطبع يا أمي، أنه واجب عليك أن تبقي على معنوياتك مرتفعة، وألا ينتابك الشعور بأي وحدة بسبب عدم وجودي في البيت. أعدك أنني في كثير من الأحيان، عندما أكون متواجدًا هنا في البلدة، سأتي إليك، وبالطبع سوف أرسل إليك خطابًا بين الحين والآخر، وبكل تأكيد حينما تنتهي فترة عملي، وأحصل على عطلة، سأتي إليكم، وأصطحب جايكوب الصغير إلى السيرك، وأعرفه ما هو الـ (محار)».

قالت السيدة نابلز: «آمل ألا تكون العروض مشينة، تقودنا إلى الذنوب والمهلكات.. إنني.. إنني خائفة حقًا».

رد عليها ابنها في فظاظة: «أعلم من نقل إليك تلك المخاوف، ووضع تلك الأفكار في رأسك.. إنه ذلك المكان الديني الصغير الذي تتردين عليه. الآن! أقولها لك يا أمي: عديني ألا تداومي على الذهاب إلى هناك؛ لأن وجهك الباش الذي كان يضفي بهجة على المنزل، تحوّل إلى وجه حزين مهموم، أصبح لرضيعك الوجه المهموم الحزين ذاته، ما دامنا كلنا مذنبين، إذن هل لك أن تسميه الرضيع المذنب -بارك الله قلبه- أو أن تسميه ابن الشيطان -وكأنه منسوب إلى أحد أسماء والدنا الميت- إن علمت فقط أن هذا تكرر ثانية، وأن جايكوب الصغير بدا حزيناً مهموماً مثلكما، سأطوع من فوري وأصبح جندياً، وحينها سوف أضع رأسي أمام أول قذيفة مدفعية قادمة نحوي».

- أوه! كيت، لا تتحدث أبداً بهذه الطريقة.

- لا سأحدث يا أمي.. وإذا كنتِ ترغبين حقاً في جعلي أشعر بالضيق وعدم الارتياح أكثر، احتفظي بتلك العقدة على قلنسوتكِ أيضاً، أظن أنكِ قد حسمتي رأيك على عدم حلّها طوال الأسبوع الماضي. هل تظنين أنه من العار، إذا ما بدت عليكِ السعادة، أو إذا ما كنتِ مبتهجة، في ظل ظروفنا الفقيرة؟ هل يجب عليّ أن أظهر في مظهر المتباكي، الوحيد، المتحدث في همس، المتخفي عن الأنظار، وأظن أن هذا ما سيساعدني على تجاوز الأمور، هل تظنين أنه يجب عليّ حينما أتحدث عن حالي، أن أتحدث في حزن وانكسار؟ لا يا أمي! على العكس من ذلك تماماً، أنا لا أغفل عن الأسباب التي تجعلني على النقيض من ذلك تماماً.. اسمعي! ها ها ها! أليس هذا طبيعياً؟ أليس هذا جيداً على

الصحة مثل المشي؟ ها ها ها! أليس هذا طبيعيًا مثل ثغاء الغنم، ونخير الخنازير، وصهيل الخيول، أو تغريد الطيور؟ ها ها ها! أليس هو كذلك يا أمي؟

كان من الواضح أن هناك شيئًا معديًا في ضحكة كيت؛ فوالدته التي بدت منذ وهلة في أوج حزنها، كَفَّتْ عن حزنها، وقد تبسّم ثغرها، إلى أن انفجرت في الضحك بحرارة، بينما يضحك كيت ويكرر قوله أليس هذا طبيعيًا، ويضحك أكثر فأكثر. صار كيت ووالدته يضحكان بقهقهات عالية، أيقظت الرضيع، الذي لم يكن حينها بين ذراعي والدته، فبات ينظر حوله، مستشعرًا أن أجواء المرح والوئام تغمر البيت، فبدأ يضحك ويركل بساقيه في نشاط وسعادة. على ذات وتيرة هذا المنحى الجديد الذي اتخذه جدالهما، وبسبب الضحك الكثير، ترنّح كيت ساقطًا إلى الخلف على كرسيه، في حالة من الإنهاك الشديد، غير قادر على التقاط أنفاسه، ثم مال على الرضيع، وأخذ يهدده، ويدغدغ جانبيه، ثم يعاود هدهدته. بعد أن التقط أنفاسه، عاود الضحك ثانية، وظل على هذا المنوال مرتين أو ثلاث مرات، حتى هداً تماماً، مسح عينيه، قال دعاء الطعام، ونَعِمَ بوجبة عشاء هنيئة رغم بساطتها.

غادر كيت منزله في صباح يومه التالي، مصحوبًا بدموع منهمرة، وقبلات وأحضان؛ ذاهبًا إلى فينتشلي، بدا على مظهره شعوره العارم بالفخر الكافي؛ وقد ضمن رحيله عن تلك الجماعة المتطرفة المفرطة في الحداد، التي تسببت في إضفاء الحزن على وجه أمه، عالمًا بأنه لن يتردد على ذلك المكان الديني ثانيةً، على الأقل طوال ذلك الوقت.

خشية أن يشعر أحدكم بالفضول حيال ما كان يرتديه كيت، وجب ذكر أنه لم يرتد زياً مخصصاً لعمله، بل ارتدى معطفاً (صولت آند بيير) لونه أقرب إلى امتزاج الملح بالفلفل، وصدرية باللون الكناري، وبنطالاً باللون الرصاصي، بالإضافة إلى تلك الأناقة غير المعتادة، ارتدى زوجاً جديداً ومتيناً من الأحذية ذات الرقبة العالية، واعتمر قبعةً، كان بريقها وهاجاً، إذا طرقت عليها في أي موضع بسلميات الأصابع، لسمعت صوتاً كقرع الطبل. وفي ملبسه هذا، سار بين الناس متعجباً من جذبته لنظرات عدد قليل منهم فقط، لكنه سرعان ما أسند ذلك إلى أن عدد الناس الذين استيقظوا في هذا الوقت المبكر بالأساس قليل، فانطلق راضياً متحمساً يشق طريقه إلى فيلا هابيل.

لم ينتهِ طريق كيت في رتابة، دون تعرضه إلى حدث مؤثر، بينما كان سائراً، لاحظ صبيّاً، يعتمر قبعة لا إطار لها، هزيل الجسم، رث الثياب، ذكره بنفسه في السابق، لذلك اقتسم معه الستة بنسات، التي حصل عليها من قبل، مستكملاً سيره نحو بيت الحمال، حيث وجد صندوقه في أمان، غير منهوب أو ضائع، أخذه من زوجة هذا الرجل النزيه الأمين، فحمله على كتفه مباشرة، ومضى يشق طريقه مرة أخرى.

في واقع الأمر، لم تكن فيلا هابيل منزلاً ريفياً مترفاً عادياً، بل كانت منزلاً جميلاً على صغره، سقفه من القش، اعتلت نهايات سقفه المحدّب قمم مستدقة، وزينت بعض نوافذه بقطع زجاجية ملونة، لم يتعد حجمها حجم كتب الجيب. كانت هناك في أحد جوانب المنزل حظيرة صغيرة، تناسب حجم المهر، بالإضافة إلى غرفة صغيرة، تناسب

حجم كيت تقريباً. كانت الستائر البيضاء الناصعة ترفرف في الهواء إلى خارج النوافذ، وإلى جانبها تغرد الطيور في طرب، داخل أقفاصها، التي بدت مصنوعة من الذهب الخالص، وعلى جانبها الآخر نُسقت النباتات، وصنعت عناقيد على الباب، كانت الحديقة مفعمة بالحياة، مشرقة بألوان أزهارها المتفتحة، تبعث بعبيرها في كل النواحي، تغمر المكان بالسكر والأناقة، في مظهر تسر له الأعين وترتاح له الأنف. بدا كل شيء داخل هذا المنزل وخارجه، في كمال تألف من النظام والدقة. لم يكن في الحديقة أي عشب، يمكن رؤيته، واستناداً إلى وجود أدوات بستنة نظيفة، وسلّة، وزوج من القفازات، ملقاة في أحد ممشيها، يتبيّن أن السيد جارلاند العجوز كان يعمل في تلك الساعة المبكرة من الصباح.

نظر كيت في ما حوله نظرة يملؤها الإعجاب الشديد، بعد أن أطل النظر، أرغم نفسه على الالتفات، وتوجيه ناصيته نحو طريقه، ليقرع الجرس. كان هناك متسع من الوقت، للنظر في ما حوله مرة أخرى؛ على الرغم من أنه قرع الجرس مرتين وثلاث مرات، لم يأت أحد ليفتح الباب، لذلك وضع صندوقه قبالة الباب، وجلس عليه منتظراً.

بات يقرع الجرس، ويجلس، ثم يقرعه ثانية، ويجلس.. ظل على هذا المنوال مرات عديدة، ورغم ذلك لم يأت إليه أحد. لكنه في النهاية، بينما كان جالساً على الصندوق شاردًا، يأخذه خياله بعيداً، فكر في قلاع العمالقة، والأميرات التي تُربط في الأوتاد من شعورهن، والتنانين التي تنفث لهيباً من وراء البوابات، وغيرها من الأحداث المماثلة، الشائعة

في الكتب القصصية، التي دائماً ما ترد إلى أذهان الصغار، عند زيارتهم الأولى للأماكن الغريبة، فُتِح الباب برفق، وظهرت فتاة صغيرة، بدا من هيئتها أنها خادمة، لكنها كانت مهندمة وخجولة ورزينة، بالإضافة إلى كونها فائقة الجمال أيضاً، قالت له: «أحسب أنك كريستوفر يا سيدي.. أليس كذلك؟».

وقف كيت عند صندوقه وقال: «نعم، إنني أنا هو».

عاودت الخادمة الحديث قائلة: «أخشى أن تكون قد قرعت الجرس كثيراً، ربما لم نكن نسمعك حينذاك؛ فقد كنا جميعاً نحاول اللحاق بالمهر، والإمساك به».

تعجب كيت مما قالته له، لكنه بدلاً من أن يتوقف ويستفهم عن مقصدها، وبطرح أسئلة، حمل الصندوق على كتفه مرة أخرى، وتبع الفتاة إلى الداخل، لكنه لمح السيد جارلاندر، من خلال الباب الخلفي، يقود مسيرة انتصار في الحديقة، بعد أن راوغ المهر صاحب الإرادة الحرة - كما سيتبين بعد ذلك - العائلة بأكملها، في حقل صغير بالخلف، لمدة ساعتين إلا ربع.

استقبله السيد العجوز في ترحاب ولطف، وكذلك فعلت السيدة العجوز، التي زاد انطباعها الجيد نحوه درجات، حينما لمحتة يمسح حذاه على الحصى، قبل دخوله، لدرجة أن أخصص قدميه كادا يلتهبان. أخذاه بعد ذلك إلى الردهة، حيث فُحصت ملابسه الجديدة، على الرغم من خضوعه للتفقد مرات عديدة، إلا أن مظهره أضفى على نفسه ارتياحاً بلا حدود، بعد أن انتهت تلك المعاينة، أرشده إلى الحظيرة، حيث

استقبله المهر بلين غير مألوف على سلوكه، ثم أرشده إلى الغرفة الصغيرة، التي رآها بالفعل في وقت سابق، وقد بدت نظيفة ومريحة، ثم إلى الحديقة، حيث أخبره السيد العجوز أنه يجب عليه أن يُعلِّم نفسه بنفسه، وأنه كلما أخلص في عمله، وأنجز مهامَّ، وحقق نتائج جيدة، كلما نال استحسانًا، عازمًا على أن يجعله مرتاحًا وسعيًا، إذا وجده يستحق ذلك فعلاً. جراء هذا القدر من الود، عبَّر كيت بأساليب متنوعة عن امتنانه الشديد، متمسكًا بعبته الجديدة، التي استقبل طرفها الكثير من الطرقات عليه. بعدما انتهى السيد العجوز من قول ما توجب عليه قوله من وعود وتوجيهات ونصائح، وأتبعه كيت بالتعبير عن امتنانه، وتأكيده على أنه سيفعل ما في وسعه، سُلِّم كيت ثانيةً إلى السيدة العجوز، التي استدعت من فورها الخادمة - كان اسمها باربرا - وأمرتها باصطحابه إلى أسفل الدرج؛ كي يأكل ويشرب بعد رحلته الطويلة.

ذهب كيت إلى حيثما قالت السيدة العجوز، ومع نهاية الدرج، كان هناك مطبخ لم يسبق أن كان له مثيل، ولم يَرَهُ أحد - من وراء نافذة متجر بيع الألعاب حتى - أو يسمع عنه؛ كان كل شيء مشرقًا ذا بريق، منسَّقًا في مثالية، حتى باربرا نفسها كانت مثالية. جلس كيت في هذا المطبخ، على مائدة بيضاء ناصعة البياض، عليها مفرش له اللون نفسه، حيث أكل اللحم البارد، وشرب القليل من نبيذ المزر، لكنه كان مرتبِّغًا للغاية، يستخدم شوكتة وسكينه بطريقة خرقاء للغاية؛ فقد كانت باربرا تنظر إليه وتراقبه.

ومع ذلك، لم يكن هناك أي شيء مثير للريبة بخصوص باربرا؛ قد

عاشت حياة هادئة، وكثيرًا ما تخجل، وتشعر بالحرَج الشديد والتوتر الهائل حيال ما يجب عليها أن تقوله أو تفعله، كما هو الحال مع كيت نفسه. بعد مضيِّ بعض الوقت منذ جلوسه، ناظرًا في انتباه إلى تكتكة الساعة، غامر بتقليب نظره فيما حوله، فنظر إلى خزانة الملابس، ثم إلى الأواني والأطباق، فوجد صندوق عمل باربرا الصغير، مع قفل صغير لغلّقه، تتدلى منه كرات من القطن، وإلى جانبه كتاب صلوات باربرا، وكتاب الترانيم الخاص بها، والكتاب المقدس الخاص بها كذلك. علّقت مرآة باربرا في مكان جيد الإضاءة إلى جانب النافذة، علّقت قلنسوة باربرا على مسمار خلف الباب. بعد كل تلك الملاحظات الصامتة، والنظرات السرية، التي حدثت في وجودها، بات ينظر إلى باربرا نفسها، كانت قد جلست في صمت مثله تمامًا، تفرط البازلاء في طبق، يحملق في رموشها - في بساطة حتمها قلبه عليه - متسائلًا بينه وبين نفسه ما لون عينيها، إلى أن رفعت باربرا رأسها قليلًا، والتفتت نحوه، وتلاقت عيناها، فإذ بها تستحي، وتخفضهما من فورها، وتنكب على عملها في فرط البازلاء، والآخر ينظر في صحنه، وأصبح كل منهما في ارتباك وخجل شديد من أن يضبط أحدهما الآخر وهو ينظر خلسة.



الفصل الثالث والعشرون

عاد السيد سوفييلر من نزل البرية - بسبب اسمه ذلك، كان هذا النزل أكثر الاختيارات ملائمةً لكويليب- بعد الكثير من الترنح والسير في اعوجاج، بعد الكثير من التعثر ومن المحاولات غير المجدية لضبط الاتزان، كان يتوقف فجأةً، ملتفتاً، ينظر ملياً إلى الأفق الفسيح، ثم ينطلق مرة أخرى بأقصى سرعة لديه، ولا يكاد يتجاوز بضع خطوات، حتى يعاود الوقوف المفاجئ، ظل يهز رأسه، يهذي دون وعي، بات جسده ينتفض بالكامل، ويرتعش دون أي إرادة أو تحكم منه، عاد السيد سوفييلر أدراجه نحو بيته، يتخبط ويتعثر، يقع ثم ينهض ويكمل، في حالة يعتبرها الرجال ممّن نزغهم الشيطان دليلاً بيناً على الثمالة، لكنّ شخصاً مثله كان يعتبرها لحظة من الحكمة والتفكير مع النفس، لحظة يُدرك فيها الممثل حقيقة ما هو عليه، لذلك غرق في أفكاره، يتدبر ما إذا كان مخطئاً حينما جعل القزم محلاً للثقة؛ لأن القزم نفسه شخص لا يُعهد إليه بأمر، ولا يؤتمن على سر على مثل هذا القدر من الحساسية والأهمية. ساقته أفكاره النادمة إلى التفكير في حالته باعتبارها حالة من حالات الثمالة التي يقع فيها الكثير من الرجال ممّن نزغهم الشيطان

-السابق ذكرهم- فإذا به يلقي بقبعته على الأرض، ويصرخ في أنين مدوّ، يردد أنه قد كان يتيمًا غير سعيد، وأنه إذا لم يكن يتيمًا، لم يكن شيءٌ مما مرَّ به قد حدث له.

ظل السيد سوفييلر ينتحب، ويقول في فجعية: «تُركت رضيعًا، وذهب عني والدي، تُركت منذ أن كنت رضيعًا في المهد.. أُلقيت في عالم موحش، وأنا في كامل براءتي، أُلقيت تحت رحمة قزم مضلل آثم، من في الكون يهتم لأمرِي في لحظة ضعفي وانهزامي! يا لك من يتيم بائس...». ثم رفع صوته إلى أقصى درجاته، ناظرًا حوله بعين منكسرة: «... يتيم بائس!». ارتفع صوت أجش، قال في جدية: «حسنًا.. دعني أكون أبًا لك».

تمايل السيد سوفييلر إلى الأمام وإلى الخلف؛ يحاول ضبط اتزانه بالكاد، ينظر عبر سحابة ضبابية أحاطته من كل جهة، يريد أن يعرف مصدر ذلك الصوت، لاحظ أولاً اقتراب عيين منه، ومع الوقت استطاع أن يبصر وجود أنف وفم أسفلهما. نظر نظرة شاملة على مظهرها معًا، واستنبط أنها تشكل وجهًا، أشاح بناظره إلى الأسفل شيئًا فشيئًا، رأى ساقين، فأصبح واعيًا بحتمية وجود جسد يصلها معًا، وبعد أن تدبّر هيئة ذلك الجسد في مجملها، شعر بالرضى؛ فور اكتشافه أن صاحب تلك الهيئة هو السيد كويليب نفسه، الذي كان بالفعل في صحبته طوال ذلك الوقت، لكنه بدا في الأغلب مشوشًا، تحيره الأفكار المبهمة؛ حول تركه بالخلف على مسافة ميل أو ميلين.

قال السيد سوفييلر في جدية: «لقد ضللت يتيمًا يا سيدي.. لقد خدعت يتيمًا».

رد عليه كويليب مستنكراً: «أنا! إنني بمثابة أب ثانٍ لك».

رد عليه ديك متممًا: «بمثابة أب لي! أريد فقط أن أستعيد رباطة جأشي، أرجوك اتركني بمفردي يا سيدي».

صاح كويليب: «يا لحسك الفكاهي المسلي اليوم!».

ارتكن ديك إلى أحد الأعمدة، وقال ملوحًا بيده: «اذهب يا سيدي! اتركني وشأني! اذهب.. أيها المخادع.. اذهب.. لعلك في أحد الأيام تستيقظ من الحلم الوردي الذي تعيشه، على فجيرة اليتيم المنبوذ.. هل ستظل واقفًا، أم ستذهب يا سيدي؟».

لم يُعِرْ القزم تلك المناشدة أي اهتمام، وإذ بالسيد سوفييلر يتقدم نحوه، عازمًا على أن يلحق به الضرر. لكنه سرعان ما تراجع عَمَّا نوى فعله، قبل أن يقترب منه، حيث أحكم قبضة يده، وتعهد بصدقة أبدية وليدة تلك اللحظة، معلنًا في وضوح، وبصراحة مقبولة، أنهما منذ ذلك الحين، سيكونان إخوة في كل شيء، عدا اختلاف الشكل بينهما. أخبره بسره مرة أخرى، لكنه في هذه المرة، أوضح شعوره المثير للشفقة حيال شتى ما يخص الأنسة واكلز، مدققًا على أن ما يشعر به هو تأثير قوة مشاعره، وليس من تأثير الخمر المعتق الوردي عليه. وحينما انتهى تعانقا، في مشهد تغمره المحبة.

قال له كويليب، بينما كانا يفترقان من عناقهما: «إنني حاد، حاد جدًا، حاد كالنمس، وكائد ماكر مضلل كابن العرس. أحضر لي تريت فقط، وأكد له أنني صديقه، على الرغم من أنني أخشى أن يكون غير

واثق فيّ، أنا لا أعلم دافعه، وجاهل تمامًا بحقيقة عدم ثقته فيّ والسبب وراء ذلك، إنني لا أستحق هذا مطلقًا.. أتعلم! إن فعلتما ما أُمليه عليك الآن، حينها من وجهة نظري، ستكونان قد مهدتما طريقكما لصناعة الثروة».

رد عليه ديك: «هذا أسوأ ما في الأمر، هذه الثروة المبنية على وجهة نظرك، تبدو بعيدة المنال».

قال كويليب، قابضًا على ذراعه: «إنهما أصغر في حقيقتهما، مما يبدوان عليه.. على أي حال، اسمع كلامي جيدًا، وردده في عقلك، لن يكون لديك أي فكرة عن قيمة منالك حتى تقترب منه وتعرف حقيقته.. انتبه لكلامي!».

قال ديك: «في عكس ما أقول؟».

أجابه القزم: «أي نعم! إنني متأكد تمام التأكد مما قلته لك.. أحضر فقط ترينت لي. وأخبره أنني صديقه وصديقك أيضًا.. كيف يجب أن لا أكون؟».

رد عليه ديك: «لا يوجد أي سبب يمنعك من أن تصبح صديقنا بكل تأكيد.. على العكس تمامًا لديك مقومات عظيمة تجعلك صديقًا لنا.. على الأقل ليس هناك أمر غريب، حيال رغبتك الملحة في أن تكون صديقي، لكن صداقتنا إذا ما كانت مبنية على اختيار الروح، فأنت تعرف حتمًا أنك لن تكون أبدًا اختيارًا للروح».

صاح كويليب مستنكرًا: «لن أكون اختيارًا للروح.. كيف ذلك؟».

قال ديك: «من الممكن أن تكون اختيارًا لروح شيطانية على ما أحسب يا سيدي. إن رجلاً في مظهرك هذا حتمًا لن يكون غير ذلك.. إذا كان من اللازم نعت روحك بأي صفة يا سيدي، فسوف تكون الروح الشريرة. إن اختيار الأرواح..»، سدد ديك ضربة قوية إلى صدره، ثم أكمل قائلاً: «إن اختيار الأرواح شيء يختلف تمامًا، مثلما يختلف الناس عن بعضهم.. على أي حال، يمكنك الآن أن تصون ما تعاهدنا عليه في هذا الخصوص يا سيدي».

رمق كويليب صديقه المتكلم بحرية وانطلاق، بنظرات يختلط فيها المكر والاستنكار، قابضًا على يده بقوة في اللحظة نفسها، وأعلن أنه شخص غير عادي، لكنه حظي على أحر التقدير والاحترام. هكذا، تفرقا عن بعضهما، اتجه السيد سوفييلر؛ لتحقيق أفضل ما يتمناه في هذه اللحظة، ماضيًا في طريقه نحو منزله؛ ليهنأ بنوم عميق، بينما مضى كويليب؛ ليتدبر أمر اكتشافه الجديد، متشفيًا باحتمالية وجود مجال متاح أمامه، يقوده إلى الغنى والانتقام في الآن ذاته.

لم يكن صباح اليوم التالي جيدًا بالنسبة للسيد سوفييلر؛ حيث شاب صباحه الهموم والاشمئزاز، رغم شعوره بعصف داخل رأسه بسبب ما شربه من خمر، قصد إلى مسكن صديقه ترينت - كان على سطح نزل قديم، أقرب إلى نزل تسكنه الأشباح - روى له بالتفصيل الرتيب وبوتيرة هادئة، ما حدث بينه وبين كويليب بالأمس. بعد أن استمع صديقه للقصة، لم يُبد أي اندهاش تجاه دوافع كويليب، ولم تكن هناك تكهنات عديدة حولها، لم يملك أيضًا الكثير من التعليقات المريرة حول حماقة تصرفات سوفييلر.

قال ريتشارد نادماً: «إنني لا أدافع عن نفسي، إن لديه تلك الطريقة الغربية، التي تجعلك تدلي بكل شيء دون اتخاذ أي حيلة.. إنه كلب ماهر، جعل تفكيري كله طوال فترة وجودي معه ينصب على أنه لا ضرر ولا ضرار من إخباره بما يكنه صدري، بينما كنت غارقاً في التفكير مع نفسي، تحدثت دون إرادتي، كان الأمر كأنه قد سحب الكلام من داخلي. إذا كنت رأيته يدخن ويشرب الخمر الممتق مثلما رأيته، لم تكن لتخفي أي سر عنه، إنه كالسمندل كما تعرف، حيوان مفترس انتهازي، هذه حقيقته بالضبط».

دون طرح أي استفسار حيال ما إذا كان من الممكن الوصول في السمندل^(٩) بالضرورة، أم من الأولى الوثوق بمن كان مقاوماً للنار^(١٠) بكل تأكيد، ألقى فريدريك ترينت نفسه على كرسي، ووضع وجهه بين راحتي كفيه، وأخذ يتدبر في دوافع كويليب الخفية، وما يكمن وراء تلميحاته، وتسلكه إلى داخل ذهن ريتشارد سوفييلر، طالباً ثقتة.. كانت الدوافع وراء سعي كويليب وراء ما يريد، واضحة بما فيه الكفاية، لم

(٩) سمندل: سحلية النار، توجد أسطورة تفيد بأن السمندل يمكنه أن يظل حياً في النار، لكن عالم الطبيعة الروماني بليني الأكبر في القرن الأول الميلادي، ألقاه في النار ليرى إذا كان سينجو من النار أو يطفئها، كما ادعى أرسطو أن مثل هذه الحيوانات يمكنها ذلك، لكن السمندل مات ولم تخمد النار، لكن لم يصدقه أحد. واستمر تداول المعتقدات والأساطير حول قدراته السحرية الغربية. وقد ذكر في التلمود.

(١٠) يرجح أن الكاتب يقصد الفتية الثلاثة (شدرخ وميشخ وعبدنغو) الذين ذكروا في الكتاب المقدس في سفر دانيال وقد كانوا أصدقاء لدانيال.. وقد جاءوا معاً في السبي البابلي الأول.. رفضوا أن يسجدوا لتمثال الذهب الذي نصبه نبوخذ نصر، فأمر جبابرة القوة بأن يلحقوا بهم في وسط النار المتقدة، لكنهم خرجوا من النار سالمين.

يكن ديك مضطراً للكشف عنها، وإن كان قد فعل عن غير عمد، وبسبب طبيعته المعهودة؛ فقد كانت أسباب محاولته لإغرائه بيّنة.

لقد اعترضه القزم مرتين بالفعل؛ بينما كان يحاول معرفة أي معلومات تخص الهاربين. إن لم تكن الشبهات قد أثّرت حوله، وأصبح مصدرًا لإثارة القلق والاضطراب في وقت سابق، فإن إلحاحه المتزايد الآن أصبح سببًا كافياً، لإيقاظ كافة الشكوك حول ذلك المخلوق غير الجدير بالثقة والغيور بالفطرة، إذا ما نُحي الفضول الذي اعتراه بالتأكيد جراء السلوك المضطرب لديك الغافل. لكن السؤال العويص هنا، أعوص حتى من محاولة الإجابة عنه، إذا افترض معرفته بمخططهما، لماذا يود أن يشاركهما، -بل ما هو أكثر من ذلك- لماذا يعرض عليهما مساعدته؟ لكن عقليات المخادعين تتلاقى، ويعلم كل منهم ما يدور ويحور في رأس الآخر، لذلك تواردت الفكرة على الفور إلى ذهنه، وطرحت نفسها، مبينة أن دافع كويليب الأساسي هو شعوره الغاضب نحو الرجل العجوز؛ إثر عقبات وخيمة نتجت عن معاملتهما السرية، التي هي في الغالب على صلة وثيقة أيضاً باختفائه المفاجئ، لذلك نظراً لرغبته في الانتقام منه، لم يجد وسيلة أكثر شراً من تدبير مكيدة، يقع فيها مَنْفذ حبه الوحيد ومصدر قلقه الدائم، عن طريق جعلها على صلة بمن يدرك تماماً أنه يكرهه ويفزعه. لكن لماذا تقع عليه الملامة، ففريدرك ترينت نفسه، تغاضى تماماً عن كونها أخته، وأخفى الغرض ذاته في صميم قلبه، منتظراً لحظة انتصاره عليه، لذلك اتضح له هدف كويليب ودافعه الأساسي وراء كافة تصرفاته. بمجرد أن أتمّ كويليب مخططه الخاص، شرع يحرضهما،

عن طريق استغلاله لغرضهما الخاص، وفي تلك الحالة يكون من السهل تصديقه طواعية، بما أنه أثبت مرات عدة أنه مساعد قوي دون شك، ويعوّل عليه، لذا وافق ترينت على تلبية دعوته، والذهاب إلى بيته في تلك الليلة، على شرط تأكيد ما جزم به قولاً وانطباعاً، والتأكيد على موافقته على مشاركتهما الجهد والتنفيذ، لا الربح.

رتّب تلك الأفكار في ذهنه، وفور وصوله أخيراً إلى ذلك الاستنتاج، أخبر ديك بتأملاته، لكنها لم تكن كاملة، أبلغه فقط بالقدر المناسب - لكن ديك على أي حال شعر بالرضى التام إزاء ذلك القدر القليل - تاركاً له ما تبقى من النهار؛ للتمشيت نفسه، واستعادة وعيه من تأثير الخمر؛ كي يصطحبه معه إلى منزل السيد كويليب في المساء.

كان السيد كويليب سعيداً جداً برؤيتهما، أو ربما بدت على وجهه أمارات السعادة، كان على غير العادة مهذباً على نحو مخيف تجاه السيدة كويليب والسيدة جينيوين، لكنه سرعان ما رمق زوجته بنظرة حادة للغاية فور دخول الشاب ترينت إلى منزله؛ فقد رأى كم كانت زوجته مولعة ومتحمسة، عندما وقعت عينها عليه. لكن السيدة كويليب كانت بريئة تماماً مما نُسب إليها، فقد ماثلت نظرتها نظرة والدتها، كانت مجردة من أي مشاعر عاطفية، تخفي ألماً لكنها في الآن ذاته نظرة ودودة، لكنها بسبب نظرة زوجها إليها، ارتبكت واضطرب تفكيرها تماماً، وارتعدت من فورها، تجهل ما يجب عليها فعله، أو ما هو مطلوب منها فعله، لم يكن ما صارعته من شعور متضارب، خفياً بحيث لا يلحظه السيد كويليب، لكنه تغاضى عما حدث؛ حتى يظل في

كامل تركيزه، بخصوص ما يدور في ذهنه، يضحك سرًا بينه وبين نفسه بسبب ما خططه، رغم غيرته المتأججة في صدره.

لم تظهر أي أمارات على وجه السيد كويليب، تخص مكنوناته، بل كان على النقيض تمامًا، اعتمد أسلوبه على الدماثة واللفظ، واعتزم فتح قنينة خمر بكل ود ظاهري.

قال كويليب: «دعني أفكر لوهلة.. أحسب أن أول مرة تعرفنا فيها، كانت منذ عامين تقريبًا».

قال ترينت: «بل وفقًا لما أظن أحسب أنها أقرب إلى ثلاثة أعوام».

صاح كويليب: «أوه! أقرب إلى ثلاثة أعوام، إن الوقت يمر بسرعة شديدة حقًا، هل يبدو لك الأمر على النحو نفسه يا سيدة كويليب؟».

جاء ردها على محمل يؤسف له فعلًا؛ فقالت: «نعم! إنني أظن أنها ثلاثة أعوام كاملة يا كويليب».

تردد صوت كويليب داخل رأسه وهو يقول: «أوه! فعلًا! ما بالك كنت تتلهفين على مضيها.. أليس كذلك؟ عظيم جدًا يا سيدتي.. عظيم جدًا».

قال بصوت عالٍ: «حسنًا حسنًا.. لكنك ذهبت بالأمس إلى (ديميرارا)^(١١) في سفينة (ماري آن)، نعم! أعلنها على الجميع أن هذا

(١١) منطقة تاريخية في غيانا تقع على الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية. كانت مستعمرة هولندية حتى عام ١٨١٥ ومن ثم صارت مقاطعة غيانا البريطانية ١٨٣٨ حتى ١٩٦٦ وكانت تقع على الممرات السفلية لنهر ديميرارا.

حدث بالأمس.. إنني أحب المجون، لقد كنت ماجناً في السابق».

وثق السيد كويليب اعترافه بغمرة فاحشة، دلت على تردي وانحطاط ماضيه، ما استشاط غضب السيدة جينيون، تذرعت بالصبر، لكنها لم تستطع كتمان أنفاسها، التي حملت تنبيهاً ملحوظاً له أن يؤجل اعترافاته، على الأقل حتى تغيب زوجته، لكنه استكمالاً لتمرده ووقاحته، نظر إليها دون اكتراث، ثم شرب نخب صحتها، في ابتهاج.

قال كويليب، وقد أنزل كأسه عن فمه: «لقد ظننت أنك ستأتي مباشرة يا فريد.. حينما عادت بك ماري آن إلى الميناء، كنت أعتقد أن ذلك ما سيحدث، بدلاً من أن تبعث خطاباً تبين فيه، كم كنت نادم الفؤاد، وكم أصبحت سعيداً بالظرف الذي توفر لك.. لكنني على كل حال كنت متشياً.. متشياً للغاية. ها ها ها!».

ابتسم الشاب الصغير، على الرغم من أن الموضوع المطروح لم يكن أكثرها قبولاً، من أجل اختياره كموضوع مسل لجلستهم، لكن كويليب فور ملاحظته امتعاضهم، انتهر الفرصة، واستأنف حديثه.

قال: «إنني سأقول دائماً: متى كانت هناك علاقة وطيدة بين شابين صغيرين، أو بين الإخوة، أو الأخوات، أو حتى بين أخت وأخيها، ثم يأتي واحد يقترب من أحدهما على وجه الخصوص، وينحي الآخرين، فإنه حتماً خاطيء».

تحرك الشاب وأوماً بنفاد صبره، لكن كويليب استطرد في حديثه في هدوء تام، كما لو كان يناقش مسائل مجردة، رغم أن لا أحد من

الحاضرين لديه أدنى اهتمام شخصي بما يقول.

قال كويليب: «إن هذا في منتهى الصحة.. أنعلم أن جدك كان يختصك في قوله ملحقًا على بعض الكلمات، منها الغفران، والجحود، والعصيان، والإسراف، دائمًا ما كنت أقول له: «إنها أخطاء شائعة. لكنه كان يقول: إنه وغد. فأقول له -من أجل مجاراته في الجدل بالطبع-: إنه أمرٌ مألوف، فكثير من الشباب النبلاء والسادة أوغاد أيضًا! لكنه لم يقتنع أبدًا».

قال الشاب الصغير في تهكم واضح: «إنني مندهش حقًا يا سيد كويليب».

قال كويليب: «حسنًا.. حسنًا! لقد انتابني نفس الشعور، كنت مثلك تمامًا في ذلك الحين، لكنه كان متعنتًا طوال الوقت. على الرغم من أنه كان صديقًا لي، كان عنيدًا متشبثًا برأيه الخاطيء دائمًا. إن نيل فتاة لطيفة.. ساحرة.. لكنك أخوها يا فريدريك. إنك أخوها في كل الأحوال وبعد كل شيء، أتذكر!، لقد أخبرته ذلك بنفسك في المرة الأخيرة التي تقابلتما فيها، وهذا ما لا يمكنه تغييره أبدًا، مهما فعل».

رد الشاب الصغير بفارغ الصبر: «لو استطاع، لفعل من توه وهذا ما أوقعه في بلبلة وحيرة، والأمور الأخرى المدعاة للشفقة.. لكن لا شيء سيغير من الوضع الآن، أو يجعلنا نحيد عن تنفيذ مخططنا، دعونا ننفذ ما نوبنا عليه، تحت مسمى المكر والدهاء».

قال كويليب: «أتفق معك.. وأبدي موافقتي واستعدادي الكامل.

لكنني أود أن أقول لك: لِمَ أشرت في حديثي إلى تلك النقطة تحديدًا؟ من أجل أن أبين لك يا فريدريك، أنني لطالما كنت صديقك، وأدعم صفك. إنك على دراية ضحلة بمن هو صديقك حقًا، ومن هو عدوك الآن.. أليس كذلك؟ لقد ظننت أنني ضدك، لا تنكر؛ فقد تمثل ما ظننته في معاملتنا الفاترة، لكن ذلك الشعور كان من جانبك، أو غالبًا كان من جانبك بالكامل. على أي حال، دعنا ننسَ الماضي، ونتصافح بالأيدي على ما تواعدنا مرة أخرى يا فريد.

بعدما غاص برأسه بين كتفيه، وارتسمت على وجهه ابتسامة قبيحة الشكل، وقف القزم ومد ذراعه القصير عبر الطاولة. بعد مرور لحظات من التردد، مد الشاب الصغير ذراعه أخيرًا، وإذ بالسيد كويليب يحكم قبضة إحدى يديه على أصابعه، موقفًا مسار تدفق الدم لوهلة، ويبدء الأخرى ضغط على شفاهه، مديرًا رأسه تجاه ريتشارد البريء، ناظرًا إليه وهو مقطب الحاجبين، ثم أطلق سراح أصابعه، وجلس ثانية.

لم يستسغ ترينت الأمر؛ فقد أدرك من فوره، أن ريتشارد كان مجرد أداة في يده يحركها كيفما شاء، على الرغم من أنه لم يعرف أكثر مما قاله، واعتقد أنه مناسب للإدلاء به، واستبصر أن القزم يفهم ملابسات موقفهما، ويتقمص بجدارة شخصية الصديق. إنه أمر يستحق التقدير، حتى إذا كان الخداع والاحتيال أساسه. لم يقل هذا الإجلال الصامت لقدراته الفائقة قدرًا عن شعوره بقوة داخلية، أشاعها فيه تصوره السريع تجاه كويليب، لذلك في نهاية المطاف، مال الشاب الصغير إلى ذلك القبيح الجدير، حاسمًا رأيَه على أن يستفيد من مساعدته.

فور جلوسه، عقد كويليب العزم على أن يغير الموضوع على وجه السرعة؛ خشية أن يفضح ريتشارد سوفييلر بتلقائيته وعدم وعيه، أي شيء غير مناسب أمام السيدتين، حيث اقترح لعبة الورق (كريبج)، وقسّم اللاعبين إلى مجموعتين، ضم السيدة كويليب إلى فريدريك ترينت، وضم ديك نفسه إلى فريقه. استبعدت السيدة جينيون من أي مشاركة في اللعبة، من قبل صهرها، بإصرار شديد، وأوكل إليها مهمة إعادة ملء الكؤوس بالخمير من حين لآخر، ومن هذه اللحظة، أبقى السيد كويليب إحدى عينيه عليها، حتى لا تتذوق قطرة مما يشربونه تحت أي ظرف من الظروف، فبهذه الطريقة وُضعت السيدة العجوز البائسة تحت ضغط مضاعف -لولعها بالخمير واللعب بالورق على حد سواء- مختبرًا سلوكها الحاذق.

لم تكن السيدة جينيون وحدها من خضعت لحصار نظرات السيد كويليب، وصب عليها تركيزه كاملاً؛ فقد كان هناك العديد من الأمور الأخرى، التي تطلبت يقظته المستمرة. من بين سلوكياته المتعددة غريبة الأطوار، كانت لديه طريقة غش طريفة في لعب الورق، لطالما مثلت ضرورة ملحة بالنسبة له، في كل مرة احتفل فيها ولعب؛ فلم يكن يعتمد فقط على التركيز، والمراقبة في دقة، أو على مهارة العد والتسجيل، بل زاد عليها حبكة التصحيح المستمر، عن طريق النظرات الموجهة عن عمد، أو العبوس اللحظي، أو حتى الركل من أسفل طاولة اللعب، ما جعل شريكه في اللعبة ريتشارد سوفييلر في اندهاش وحيرة متواصلة؛

بسبب تغير أوراقه المفاجئ؛ التي لطالما غُيّرت أسفل الطاولة في سرعة فائقة، لدرجة أنه في بعض الأحيان لم يستطع كبج تعبيراته المندهشة، وصدماته المتتالية. لم يقتصر تركيزه أيضًا على هذا، فنالت السيدة كويليب قسطاً كبيراً، فأوقعها جلوسها إلى جانب شريكها في اللعبة السيد ترينت الصغير، تحت المراقبة المستمرة، لم تفلت أي نظرة كانت بينهما أو أي كلمة تحدثوا بها أو أي بطاقة لعبوها، لم يجعل تفكيره منصباً على ما يدور فوق الطاولة فحسب، بل ظل متأهباً طوال الوقت للإشارات، التي ربما يتبادلانها فيما بينهما أسفل الطاولة، نصب جميع الفخاخ، التي قد تمكنه من اكتشاف أي حيلة أو حركة، طوال الفترة التي استغرقتها جلستهم، داوم على وطء أصابع قدمي زوجته؛ ليرى ما إذا كانت ستصرخ، أم ستظل صامتة كالعادة، رغم تعرضها للألم، كما كان ذلك ليظهر تماماً، ما إذا كان ترينت نفسه قد وطأ أصابع قدميها أيضاً من قبل أم لا. على الرغم من كل تلك الإلهاءات، داوم على إبقاء إحدى عينيه على السيدة العجوز، وبمجرد ما كان يلمحها، تُقَرَّب ملعقة ناحية كأس بالقرب منها -وقد كانت مداومة على فعل ذلك- من أجل تذوق طعمه اللذيذ، ينتظر حتى تشعر براحة اقترابها من إتمام فعلتها، ثم يرفع صوته من فوره مستهزئاً، ويقول فلنشرب نخب صحتها الثمينة. على الرغم من كثرة ما كان يهتم به، ويصب تركيزه عليه، لم يَبْدُ كويليب منشغلاً أبداً، ولم يلفظ بأي كلمة متلعثمًا بتاتاً.

مرَّ الوقت، وبعد أن لعبوا جولات كثيرة، وشربوا من الخمر

جرعات عديدة، أمر السيد كويليب زوجته في نبرة تحذيرية، أن تترك اللعبة وتذهب لتستريح، وقد خضعت من فورها لأمره، وتبعته في الحال والدتها الغاضبة، وغلب النوم السيد سوفيلىر، أخذ الرفيق المتبقي من الطرف الآخر للعب، إلى آخر الغرفة؛ ليعقد معه اجتماعاً مصغراً، وأمسيا يتهاامسان.

قال كويليب، لاوياً قسماً وجهه، وهو ينظر إلى ديك النائم: «أعلم أنه لا ينبغي عليّ قول ذلك، لكنني أريد أن أقول لك إن هناك أكثر من شخص يمكنه المساعدة أكثر من صديقنا العزيز هذا.. هل هي صفقة أبرمت فيما بيننا يا فريد؟ هل من المحتم علينا إتمام أمر زواجه من نيل الزهرة المتفتحة الوردية قريباً؟».

قال الآخر: «يجب أن تكون لديك نهاية أخرى؛ كي أجيبك على ما سألت».

ابتسم كويليب، بسبب ما خطر على باله بشأن النهاية الحقيقية التي يدبر لها، وما يتوقعه الآخر، وقال: «آه! بالطبع.. إن لديّ بالطبع نهاية أخرى يا فريد، قد تكون بدافع نزوة ما، أو بدافع الانتقام. إن لديّ دافعاً يحثني إما على المساعدة، وإما على المعارضة؟ فأى الطرق يجب عليّ أن أتخذ؟ طالما يوجد مقياسان، وطالما تسير الأمور وفقاً لواحد منهما».

قال ترينت: «حسنًا! دع الأمر لي من هذه اللحظة، وألق به على عاتقي».

مد كويليب ذراعه، ثم أراح قبضة يده، وفتحها كأنه يلقي بشيء كان ممسكًا به، وقال: «إنه في مجال تصرفك الآن يا فريد، تذكر هذا».

قال ترينت متسائلًا: «أتدري أين ذهبا؟».

هز كويليب رأسه نافيًا، وقال إن تلك النقطة يتعين أن تكون قيد الكشف، وهو الكشف الذي يجب أن يتم في سهولة وسرعة؛ لأن تقدمهم فيما خططوا له متوقف على هذا الأمر، فبمجرد اكتشاف مكانهما، سوف يقدمون على تنفيذ الخطوة الأولى في مخططهم. حينها سيتوجب عليه أن يزور الرجل العجوز، أو سيزوره ريتشارد سوبفيلر - لن يشكل هذا فارقًا - ومن خلال التأثير عليه، وغرس قلق عميق في نفسه على مصدر اهتمامه، وحثه على الاستقرار في منزل ذي قيمة كبيرة غير بخس، سيجعل هذا الطفلة تشعر من فورها بالامتنان والرضى. ثم قال: إنه بمجرد أن يتحرك إعجابها، سيكون من السهل الفوز بها في غضون عام أو عامين؛ لأنها كانت تظن أن الرجل العجوز فقير، وستدرك أن ما فعله كله يعد جزءًا من سياسته في التقطير - كما هو شائع بين العديد من البخلاء الآخرين - فيتظاهر بكونه فقير فعلاً.

قال ترينت: «لقد اعتاد في أغلب الأحيان على أن يتظاهر أمامي بما فيه الكفاية بكونه كذلك».

رد القزم: «أوه! تظاهر بالأمر نفسه معي! وذلك ما يجعل الأمر غير مألوف؛ لقد ظننت أنه رجل فاحش الثراء».

قال ترينت: «أحسب أنك على حق».

تلفظ القزم بما هو حقيقي بالفعل، قائلاً: «هذا ما أحسبه أيضًا».

بعد أن تبادلوا بضع كلمات في همس، عادا مرة أخرى إلى الطاولة، ثم أيقظ الشاب الصغير ريتشارد سوفييلر من نومه، وأخبره أنه ينتظره كي يغادرا. استفاق ديك من فوره، مُرحَّبًا بما قيل له. همًّا بالمغادرة، وبعد أن أنهيا حديثهما بكلمات أفادت ثقتهما في نتيجة مخططهم، تبادلوا الابتسامات، ورحلا عن كويليب، متمنين له ليلة سعيدة.

مشى كويليب على أطراف أصابع قدميه متسللاً نحو النافذة؛ ليستمع إليهما، بينما كانا يسيران في الشارع. حينها سمع ترينت يردد إطراءات في حق زوجته، ثم سمعهما معاً يتعجبان من موقفها، متسائلين عن أي سحر أصابها، جعلها تتزوج هذا البائس الشرير. بعد أن تتبع القزم ظلهم حتى اختفى عن مجال رؤيته تمامًا، تعلو وجهه ابتسامة عريضة، انسل في الظلام إلى سريره في هدوء.

في خضم تأمرهما لحبك مخططهما، لم يفكر ترينت ولا كويليب في سعادة أو شقاء نيل البريئة المسكينة. مضى واحد في طريقه، ومضى الآخر نحو سريره. ربما يكون من الغريب أن الماجن عديم المبالاة، مَنْ كان أضحوكتهم، لم يكثرث البتة بما قيل، ولم يأخذه بعين الاعتبار؛ فقد كان رأيَه في أهليته وشمائله هو الحاسم، وهو ما جعل مخططه جديرًا بالثناء وليس الهجاء، فضلاً عن أنه إذا حظي بزيارة شخص غير مرحَّب به على الإطلاق، في ظل هذه الظروف، كان لا بد إما أن يضرب زوجته وإما في الأغلب يقتلها - في وحشية غير متناهية؛ إرضاءً لنزعتَه

الغريزية- لكنه على الرغم من ذلك هداً من روعه ملتتمساً لنفسه أنه لم يكن يقصد ضرب زوجته أو قتلها، وبالتالي بعد كل ما قيل وفُعل، فهو يعتبر من وجهة نظره زوجاً جيداً ومقبولاً جداً.



الفصل الرابع والعشرون

لم يحن وقت توقفهما بعد، على الرغم من أنهما استنفدا طاقتيهما تمامًا، ولم يعد بإمكانهما الحفاظ على الوتيرة السريعة نفسها كي يهربا بعيدًا عن أرض السباق، لكن الرجل العجوز غامر في النهاية ومعه الطفلة، وكفًا عن الركض، وجلسا على حدود أيكة صغيرة. على الرغم من أن رؤية المضمار حُجبت بالكلية في مكانهما، كانا ولا يزالان يسمعان صخب الصيحات والهتافات وقرع الطبول في وضوح. مع تسلق الطفلة للربوة التي كانت تفصل بينهما وبين الموقع الذي تركاه، تمكنت من تمييز الأعلام المرفرفة، والقمم البيضاء للمقصورات، ولم ترَ أي أحد يتبعهما، أو يقترب من مكانهما، لذلك كان مكان استراحتهما - منذ البدء وبعد أن تحققت الطفلة بنفسها - منعزلاً تمامًا، لا تطوّه أي قدم.

مر بعض الوقت إلى أن تمكنت الطفلة أخيرًا من طمأنة رفيقها، وإعادته إلى حالة من الهدوء النسبي. لكن مخيلته المضطربة أوهمته مع كل حفيف لأوراق الأشجار، أن حشدًا من الناس ينهال عليهما من كل حذب وصوب، من بين الشجيرات، يمينًا ويسارًا، ومن أمامهما ومن

خلفهما، يتربصون بهما في كل خندق، قابعين بين الأشجار، ينتظرون الفرصة للانقضاض عليهما. لقد كان ممسوسًا بمخاوفه، يخشى أن يُكبَّل ويؤخذ أسيرًا في مكان مظلم موحش، يُجلد فيه، ويكمن الأسوأ في أن نيل حينها لن تتمكن أبدًا من المجيء لرؤيته، وانتشاله من بين القضبان الحديدية، والأسلاك الشائكة. لم تسلم الطفلة من انتقال مخاوفه إليها، فقد سكن الرعب روحها المسكينة. وخانتها شجاعته وفشل قلبها في طمأننتها. أصبح أكبر شر تخشاه في عالمها يتمثل في الانفصال عن جدها، وقد لازمها ذلك الشعور طوال الوقت، تداهما الريبة كلما ذهبت إلى أي مكان، تشعر أن هناك أحدًا ما يتعقبهما، وأنها لن تجد ملاذًا آمنًا إلا في الاختباء.

من غير المفاجئ أبدًا انغماس روح هذه الصغيرة المسكينة - غير المدركة لوقائع الأمور- في السوداوية، بعد حدوث كل ما مرت به، وتعرض براءتها مؤخرًا لتلك المشاهد غير المألوفة لها. لكن دائمًا ما تحافظ الطبيعة الأم على طهارة القلوب النبيلة الباسلة في صدور الإناث -فليباركهن الرب- حينما أجهشت الطفلة في البكاء، ونظرت بأعين سكتتها الدموع نحو الرجل العجوز، تتذكر كم كان ضعيفًا، وتتدبر كم سيصبح معدومًا واهنًا إذا تخلت عنه، كان قلب الطفلة مع كل ذرة ألم تشعر بها يتسع أمام المآزق، فلا يعرف الضيق مدخلًا إليه، ويمدها بقوة جديدة وقدرة على الثبات.

قالت: «نحن الآن في مأمن، ولم يعد لدينا ما نخشاه يا جدي العزيز».

رد الرجل العجوز عليها قائلاً: «لم يعد لدينا ما نخشاه! لم يعد لدينا ما نخشاه، إذا ما أخذوني منك وأبعدوني عنك! لم يعد لدينا ما نخشاه إذا افترقنا! لا أحد يكثرث لأمرى، لا أحد صادق معي. لا أحد بتاتاً، حتى أنتِ يا نيل!».

ردت الطفلة من فورها: «أوه! إنني حتماً لا أقصد ذلك.. لا نقل هذا يا جدي؛ إذا كان هناك مَنْ هو صادقٌ معك، ويكثرث لأمرك بمشاعره المخلصة الخالصة، فسأكون أنا يا جدي. سأكون أنا بكل تأكيد. وأنت تعرف جيداً أنني كذلك».

قال العجوز، وهو ينظر حوله في خوف شديد: «كيف إذن؟ كيف تقدرين على التفكير في أننا في مأمن بذلك الارتياح، بينما هم في كل مكان؛ يبحثون عني، ربما يأتون إلى هنا في أي لحظة، يتسللون نحونا، يحيطون بنا، ربما يصلون إلينا، وأنتِ تتكلمين حتى.. قولي لي كيف؟».

قالت الطفلة: «لأنني واثقة تمام الثقة أن لا أحد يتبعنا.. احكم بنفسك يا جدي، فلتقف، وتنظر حولك، تبين بنفسك واشعر بمدى الهدوء الذي يحدثنا، ولا يزال يحدثنا، رغم مرور الوقت. إننا هنا بمفردنا، ربما نتجول كيفما نشاء أيضاً.. لسنا في مأمن؟ أعتقد أنه من السهل.. أعتقد أنه كان من السهل الهين على نفسي، أن أشعر بأن هناك أي خطر يهددك؟».

أحكم العجوز قبضته على يد الطفلة، كان لا يزال يتلفت يميناً ويساراً في ارتياح، وقال: «حسناً، حسناً! لكن ما كان هذا الصوت إذن؟».

أجابت الطفلة: «إنه مجرد طائر.. طائر يحلق بين الشجيرات، ربما يرشدنا إلى طريق علينا اتباعه. أتتذكر حينما قلنا إننا سنجوب الأودية والحقول سيرًا على الأقدام، سنمشي وإلى جانبنا الأنهار، سنشق في قدرة أنفسنا وفي رعاية خالقنا لنا.. هل تتذكر هذا الحديث؟ وها هنا نحن حيث تشرق الشمس فوق رؤوسنا، وتنتشر إشراقتها حولنا، ها هنا نحن حيث يبدو كل شيء مشرقًا مفعماً بالحياة وسعيدًا، والآن بعد أن تحقق ما آملناه، نجلس في كبد، ونضيع الوقت! قف وانظر حولك، متّع ناظريك، انظر إلى كيف هي الطرق ساحرة.. انظر إلى هذا الطائر! -إنه الطائر نفسه- يحلق بين شجرة وأخرى، ثم يستقر حينًا على أخرى؛ ليغرد.. هيا قف وانظر واستمتع بهذا الجمال!». .

حينما وقفا من جلستهما على الأرض؛ وأكملتا سيرهما إلى الطريق المظلل عبر الأيكة، انطلقت الفتاة تسير في خطوات أقرب إلى التحليق، تغرس أصابع قدميها الصغيرة في أرض الأيكة المكسوة بالطحلب، في مرونة وانسيابية، فتتطبع آثار أقدامها بفعل ضغطها الخفيف، وترد الأرض عليها فعلها، كأنعكاس أشبه بانعكاس المرايا، تعود إلى موضعها الأولي كأنها تتنفس أسفل قدميها. هكذا، تمكنت من جذب انتباه العجوز لها، ملتفتة نحوه، تفتعل حركات وإيماءات؛ لتجذب ناظريه إليها، تشير في خفة نحو طيور تقف منفردة بنفسها، على أغصان الشجيرات، تغرد هنا وهناك، على طول مسارهما، تنتظر حينًا؛ تستمع إلى تغريدها، الذي يتخلل الصمت بروح مبتهجة، وتقف لوهلة؛ لترى أشعة الشمس المتخللة بين جذوع الأشجار القديمة، كأنها مسارات

تشكّلت من نور. مع مرور الوقت، واستكمالهما لدربهما، يفرقان بين أغصان الشجيرات، التي اعترضت طريقهما، يفسحان المجال لمرورهما، خالج شعور بالأمان والصفاء - كانت قد افترضته الطفلة في البداية - صدر جدها، لم يكن قد مر وقت طويل، حتى كان جدها قد ألقى عن عاتقيه مرارة القلق والاضطراب، متوقفاً عن النظر خلفه في ارتياب، علاوة على أنه فور مروره بين الشجيرات، مستظلاً بظلالها الخضراء، شعر بالراحة والبهجة، فمضيا آمنين مطمئنين، يؤمنان في أن تدابير خالقهما تحيط بهما، وتضفي السلام عليهما.

ظلا على هذا الحال، على طول مسارهما، كلما مضيا فيه أكثر، كلما أصبح أكثر هوادهً وتمهيداً، قادهما هذا المسار إلى نهاية الأيكة، وفتح أمامهما سبيلاً عبر طريق عام. سارا على طول له مسافة قصيرة، إلى أن وصلا إلى حارة، على جانبيها أشجار مرتفعة، تشابكت فروعها أعلى رأسيهما، فتشكلت قنطرة من أوراقها الخضراء على طول الطريق الضيق. أرشدتهما لافتة مروية مكسورة، إلى قرية تقع على بعد ثلاثة أميال من مكانهما، حينها نشط عزمهما من جديد؛ ومضيا أكثر همة، إلى مقصدهما.

بدت لهما الأميال الثلاثة طويلة، لا نهاية لها، لدرجة أن الظنون قد ساورتها؛ وتراءى لهما أنهما قد ضلّا الطريق. لكن الفرحة والسرور غمرهما في النهاية؛ فقادهما الطريق إلى منحدر، تقابله جداول مياه وممرات للمشاة، وتقع في آخره منازل القرية بازغة في جوف بين الأشجار في الأسفل.

لقد كان مكاناً صغيراً جداً، يلعب فيه الرجال والصبية لعبة الكريكت على ساحاته الخضراء، أخذاً يتجولان صعوداً وهبوطاً بأقدام غير ثابتة، غير متأكدين تمامًا من المكان الذي يمكن لهما أن يحلا فيه كي يبحثا عن سكن متواضع. لم يكن هناك غير رجل واحد عجوز، يجلس في حديقة أمام بيته الريفي، كانا مترددين تمامًا حيال اقترابهما منه، كان من الواضح أنه معلم، وما أكد لهما ذلك كلمة (مدرسة) المكتوبة خلفه على النافذة بحروف سوداء، على لوحة بيضاء. لقد كان رجلاً بشرته شاحبة، له مظهر بسيط ومتواضع، ذا هيئة هزيلة ونحيلة، يجلس بين أزهاره وخلايا النحل، يدخن غليونيه، في رواق صغير قبالة الباب.

قال الرجل العجوز هامساً: «اذهبي، وتحدثي إليه».

قالت الطفلة في خجل شديد: «أخشى أن أزعجه، أعتقد أنه لم يلحظ وجودنا على الإطلاق، ربما إذا انتظرنا قليلاً، سوف يدير رأسه نحونا، ويلحظ وجودنا».

مكثا في مكانهما منتظرين، لكن المعلم لم يُلقِ نظرة واحدة عليهما، كان ولا يزال جالساً، في الرواق الصغير، غارقاً في صمته وتفكيره. كان لديه وجه عطوف، وقد أكسبته بدلته السوداء القديمة، التي كان يرتديها، مظهرًا شاحبًا وهزيلًا أكثر من واقع حاله. استطاعا أن يشعرا أيضًا، بروح الوحدة والانعزال التي سكنت البيت وحتى الهواء؛ ربما لأن بقية الناس كانوا مجتمعين على مبعدة منه في الساحة الخضراء، وظل هو جالسًا منفردًا في هذا المكان.

لقد كانا متعبين للغاية، لكن الطفلة كانت قوية وجريئة بما فيه الكفاية، كي تخاطب المعلم، على الرغم من أنهما لاحظا عليه أنه غير مرتاح ومكروب لسبب ما. بينما كانا واقفين على مسافة قصيرة منه، مترددين، ظل جالسًا لبضع دقائق، هائمًا في بحور أفكاره الخاصة، لكنه نحى غليونه جانبًا؛ وهمَّ بالسير في حديقته، حتى وصل إلى البوابة، وألقى بنظرة نحو الساحة الخضراء، ثم عاد ليجلس، مثلما كان من قبل، آخذًا غليونه مرة أخرى، مطلقًا تنهيدة.

ولأنه لم يظهر أحد غيره، وأوشك الظلام على الحلول قريبًا، استحضرت نيل شجاعتها كاملة، وفور رؤيته مستكينًا في مجلسه، يدخل الغليون، غامرت بالاقتراب منه، وقد اقتادت جدها نحوه، ممسكة بيده. لفتت تلك الضجة الخافتة، التي فعلاها، حينما رفعها مزلاج البوابة الصغيرة انتباهه، وأرغمته على النظر صوبهما. نظر إليهما نظرة عطوفة لم تخلُ من الانكسار والوهن، ثم رحب بهما بإيماء بسيطة.

ألقت نيل عليه التحية، وانحنت إجلالًا له، فنحى المعلم غليونه جانبًا، وهمَّ بالوقوف مباشرة، ومضى ينظر إليها بجدية طوال فترة حديثها، أخبرته أنهما مسافران فقيران، يبحثان عن مأوى، يسكنان فيه في الليل، وسيدفعان مقابل ذلك في سرور بكل تأكيد، حسبما تسمح لهما إمكانيتهما.

قالت الطفلة: «إذا أرشدتنا إلى المكان يا سيدي، سنكون ممتنين جدًا لعطفك».

قال المعلم: «يبدو لي أنكما قد قطعتما مسافة طويلة سيرًا على الأقدام».

ردت الطفلة: «طويلة جدًا يا سيدي».

قال لها، وهو يربت على رأسها في لطف: «لكنك صغيرة جدًا على اختبار السفر يا طفلي.. هل هي حفيدتك يا صديقي؟».

صاح العجوز: «آي! نعم يا سيدي، إنها حفيدتي ومصدر بقائي وراحتي في هذه الدنيا».

قال المعلم: «حسنًا! تفضلًا بالدخول».

دون أي مقدمات إضافية، قادهما نحو غرفته الصغيرة داخل المدرسة، كانت عبارة عن صالة صغيرة ومطبخ بالحجم نفسه، أخبرهما أنهما مرحَّبُ بهما، للبقاء تحت سقف ذلك المكان، حتى يحين الصباح. قبل أن يتناوبا على شكره، كان قد بسط قماشة بيضاء خشنة على الطاولة، ووضع عليها السكاكين والأطباق، وأخرج لهما بعضًا من الخبز واللحم البارد وإبريقًا من الجعة، طالبًا منهما أن يأكلا ويشربا.

نظرت الطفلة حولها، في كل أنحاء الغرفة وأركانها، بينما كانت تتخذ لها مقعدًا. كان هناك في ذلك المكان تختان، بهما العديد من الخرابيش، مليئتان بالملاحظات والكتابات، يغطيها الحبر في كل مكان، ومكتب صغير له أربعة قوائم، حيث يجلس السيد المعلم بلا أدنى شك، وكتب تُنيت ورقة في كل منها، موجودة على رف

علوي، وإلى جانبها كانت هناك مجموعة متنوعة من لعبة الخُذروف، والكرات، والطائرات الورقية، والبلي مختلف الألوان، ونصف تفاحة مأكولة، ومستلزمات وأشياء أخرى كان من الواضح أنها ملكية لولد صغير. أما على امتداد الحائط، فكانت هناك المشاجب، حيث عُلق عليها مسطرة وعصا، وعلى مقربة منها، كان هناك رف صغير آخر، وضع عليه طُرطور لعقاب المتكاسلين من التلاميذ، مصنوعاً من ورق جرائد قديم، مزخرف بورق ملون عريض صارخ اللون. أما زخارف الحائط فكانت عظيمة، عبارة عن عبارات أخلاقية، منسوخة في تصميم دائري بديع، ومسائل حسابية بسيطة من الجمع والضرب، كُتبت بالخط نفسه، ولصقت بكثرة في جميع أنحاء الغرفة؛ من أجل فائدة مزدوجة، أولهما: كانت برهاناً على تميز المدرسة. وثانيهما: كانت محاكاة ثرية لما يتم تدريسه في المدرسة للطلاب.

قال المعلم العجوز، ملاحظاً أن تلك اللوحات الأخيرة قد جذبت انتباهها: «نعم! إنها كتابات بديعة يا صغيرتي، كُتبت بخط منسق وجميل».

قالت الطفلة في خجل: «هل هو خطك يا سيدي؟».

«خطي!». أخرج السيد العجوز نظارته، ولبسها، مدققاً النظر في الكتابات، كأنها من أعظم الانتصارات العزيزة على قلبه، وقال: «إنني لا أستطيع الكتابة بمثل هذا الخط المنسق هذه الأيام يا عزيزتي. لا! إنه ليس خطي. إن جميعها قد كُتبت بيد واحدة، بيد صغيرة واحدة، ليست

كبيرة حتى كيدك، يد صغيرة حقًا، لكنها ماهرة جدًّا».

بينما كان المعلم المسكين في خضم حديثه، لاحظ وجود بقعة حبر، قد لطخت إحدى اللوحات، فأخرج من فوره سكين من جيبه، وذهب إلى الحائط، وأزالها بعناية فائقة وحرص شديد. حينما انتهى، عاد بظهره دون أن يلتفت، مثبتًا نظريه على اللوحة، يتأملها في إعجاب خالص، كأنها لوحة فنية فريدة، لكنه حينما بادر بالكلام، كان في صوته أنين ملتحاق، أحسته الطفلة، على الرغم من أنها لا تعرف أي شيء عن المكروه الذي أصابه.

قال مدير المدرسة المسكين: «يد صغيرة حقًا.. من بين جميع رفاقه وأصدقائه، من بين جميع زملائه في التعليم، وأصحابه في اللعب، اختارني أنا، اختار أن يولع بي أنا! لا عجب أنني أحبه هذا الحب، لكنه كان لزامًا عليه أن يحبني...»، قطع المعلم المسكين حديثه فجأة، وخلع نظارته؛ كي يمسخها، كما لو كانت قد غُبرت.

قالت نيل، وقد ساورها القلق: «آمل ألا يكون هناك خطب ما يا سيدي».

رد عليها المعلم قائلاً: «لا داعي للقلق حيال أمري يا عزيزتي.. كنت آمل فقط أن أراه على الساحة الخضراء ليلاً. لطالما كان دائماً من بينهم، في طلائعهم الأولى. لكنني أحسب أنه سيتواجد غدًا».

سأله الطفلة من فورها، في تعاطف حقيقي: «هل كان مريضاً؟».

- ليس مريضاً جدًّا. لقد قالوا بالأمس إن هذيان الحمى أصابه، وقبل

أمس قالوا الكلام نفسه. لكن هذا جزء من ذاك النوع من الاضطراب. أمل ألا تكون إشارة سيئة لشيء أخطر.. أمل ألا تكون إشارة سيئة على الإطلاق.

قبعت الطفلة في صمتها، بينما سار نحو الباب بخطوات متثاقلة، ينظر إلى الخارج في شroud وحن. كان الليل قد ألقى بظلاله، أما ما دون ذلك فقد بقي على ما هو عليه.

لكنه عاد إلى الغرفة ثانية، وقال: «إن أراد يومًا أن يتكئ على أحد، ويعتمد عليه، سيأتي حتمًا إليّ.. أنا أعرف تمامًا! دائمًا ما كان يأتي إلى الحديقة؛ ليقول لي: ليلة سعيدة. لكن مرضه ربما أعجزه عن الخروج. ربما تأخر الوقت على خروجه، بالإضافة إلى أن الجو رطب للغاية، والندى المتكاثف يتساقط. من الأفضل حتمًا ألا يأتي الليلة».

أشعل المعلم شمعة، أحكم إغلاق النافذة، ثم أغلق الباب، وبعد أن أتم هذا كله، جلس صامتًا لبعض الوقت، ثم خلع قبعته، وقال: إنه سيذهب ليحظى ببعض الراحة لنفسه، على أن تنتظره نيل حتى يعود مرة أخرى. امتثلت الطفلة في سهولة لما قال، ثم رحل.

جلست الطفلة في مكانها قرابة نصف الساعة أو أكثر، تشعر بالغرابة الموحشة والوحدة المضجرة؛ فقد كانت قد أخذت جدها ليفترش سريريه، وظلت يقظة لا تفعل شيئًا، تستمع فقط إلى دقات الساعة القديمة، وصفير الرياح بين الأشجار. حينما عاد -كما قال لها- أخذ مقعده إلى جانب المدفأة، وجلس صامتًا لفترة طويلة. ظل على الحال نفسه، إلى أن نظر إليها أخيرًا في عطف، يطلب منها أن تخصص الطفل

المريض في دعائها الليلة، متمنية له الشفاء.

قال المعلم المسكين، مدخناً غليونه -الذي نسي إشعاله- وهو
ينظر في شروود وحزن إلى الحوائط: «إنه طالبي المفضل! إنها يد صغيرة
حقاً، على أن تُبدع هذا الرقي، ثم يأتي المرض ويضيع كل هذا الإبداع
الجم هباءً.. إنها يد صغيرة حقاً.. يد صغيرة جداً».



الفصل الخامس والعشرون

بعد قضاء ليلة هادئة في غرفة، سقّفها من القش، بدت كما لو كان خادم كنيسة قد سكنها لعدة سنوات واتخذ منها مأوى له، ثم هجرها مؤخرًا إلى زوجته وكوخ آخر له، استيقظت الطفلة في الصباح الباكر، وانتقلت إلى الغرفة، التي تناولت فيها العشاء في ليلتها الماضية. لم يكن في الغرفة أحد؛ فقد نهض المعلم عن سريره، وغادرها بالفعل، لذلك كرسَتْ نفسها؛ لتجعل الغرفة نظيفة ومريحة، وحينما أنهت ترتيبها للغرفة، كان المضيف الطيب قد عاد لتوه.

شكرها مرات عديدة، وأخبرها أن السيدة العجوز المسؤولة عن تلك المهام، قد ذهبت لتمرّض الطفل الصغير، الذي أخبرها عنه، سألتها الطفلة، كيف حاله، آملّة أن تكون حالته في تحسن دائم.

رد عليها المعلم المسكين، بينما يهز رأسه بالنفي، في ضيق وحزن شديد، قائلاً: «لا! إن حالته لا يطرأ عليها أي تحسن على الإطلاق.. إنهم يقولون إن حالته تزداد سوءًا».

قالت الطفلة: «إنني حقًا آسفة لسماعي ذلك يا سيدي».

كان من الواضح تمامًا على المعلم المسكين امتنانه لمشاعرها الصادقة، لكنه سرعان ما هام في حالته الأولى، وأضاف في عجلة أن الأشخاص المضطربين عادةً ما يهولون الأمور ويفاقمون من شرها، وقال: «آمل ألا تكون حقيقة الأمر مثلما صوروا لي، لا أصدق أن حالته تزداد سوءًا».

استأذنت منه الطفلة كي تعد الإفطار، بينما نزل جدها الدرج، ومن ثم تناول ثلاثتهم الإفطار معًا. أثناء تناولهما الإفطار، لاحظ مضيفهما أن الرجل العجوز مُنْهَك للغاية، ومن الجلي حاجته الشديدة إلى الراحة القصوى.

قال: «إذا كانت رحلتكما لا تزال طويلة، فلن يكون تأخير يوم واحد عقبة أمامكما، وفي تلك الأثناء أُرْحَبُ بكما بكل امتنان؛ للمكوث هنا لليلة أخرى. سأكون سعيدًا جدًا إذا وافقت يا صديقي».

حينها لاحظ أن الرجل العجوز ينظر إلى نيل، تظهر على وجهه أمارات عدم التأكد، حيال قبوله العرض أم رفضه، لذلك أضاف قائلاً: «سأكون سعيدًا برفقتكما الطيبة ليوم آخر. إذا كان بإمكانك أن تقدم معروفًا لرجل وحيد، وتحصل على قسط من الراحة في الآن ذاته، فمن فضلك لا تتردد. لكن إذا تحتم الأمر وكان لزامًا عليك استكمال المضيِّ قدماً في الرحلة، فسوف أصطحبك لمسافة يسيرة، قبل بدء موعد المدرسة».

قال الرجل العجوز في صراحة غير متناهية: «ماذا علينا أن نفعل يا

نيل؟ أشيري عليّ يا عزيزتي بما علينا فعله».

لم يتطلب الأمر بذل الكثير من محاولات الإقناع، لحث الطفلة على أن تقول إنه من الأفضل لهما قبول الدعوة والبقاء. لم تتوانَ الطفلة للحظة واحدة عن إظهار امتنانها العام للمعلم الطيب، فقامت من فورها بإتمام الواجبات المنزلية التي يحتاجها بيته الصغير، في سعادة وعن طيب خاطر. حينما فرغت من عملها، أخرجت الإبرة والخيط من سلتها، وجلست على مقعد مجاور للنافذة، حيث تفوح الرائحة الزكية لشجيرة زهر العسل ذات البتلات الرقيقة، التي انتشر أريجها في أرجاء الغرفة جميعها. أما جدها، فقد خرج ليستمتع بحرارة أشعة الشمس الدافئة، يتشمم عطر الأزهار، يتأمل السحب في سكون، وهي تطوف في السماء، بفعل النسيمات الصيفية الرقيقة.

انهمك المعلم في تعديل وضع التختين، وحينما انتهى، جلس على مقعده الخاص خلف مكتبه، وقام بالتحضيرات اللازمة؛ استعدادًا لبدء اليوم الدراسي، حينها خافت الطفلة أن تعرقل سير عمله، فعرضت عليه أن تنسحب وتلزم غرفتها الصغيرة. لكنه لم يوافقها، وبدأ مُرحَّبًا جدًّا وسعيًا لوجودها معه، لذلك ظلت الطفلة كما كانت جالسة إلى جوار النافذة، منهمكة فيما بدأت فعله.

سألته: «هل لديك العديد من الطلاب يا سيدي؟».

هز المعلم المسكين رأسه وقال: «إنهم بالكاد يشغلون التختين».

عاودت الطفلة حديثها، سائلةً، بينما تنظر إلى الجوائز المعلقة على

الحائط: «هل باقي الطلاب ماهرون على النحو نفسه يا سيدي؟».

رد عليها المعلم قائلاً: «إنهم أولاد جيدون.. جيدون بما يكفي يا صغيرتي، لكنهم لا يستطيعون أبداً فعل ما يضاهي ذلك مثيلاً».

بينما كان يتحدث، ظهر صبي صغير، ذو شعر أبيض خفيف، ووجه لفحته الشمس، وقف أمام الباب، قدم انحناء بسيطة؛ إجلالاً لمعلمه، ثم دخل، متخذاً مكانه على إحدى التختين. أخرج كتاباً فجأة، كانت إحدى صفحاته قد طُويت، ووضعه على ركبتيه، ثم أقحم يديه في جيبيه؛ وبدأ يعد البلي الذي ملأهما، لكن قسمات وجهه أفصحت تماماً عن عقل يمتاز بقدرة استيعاب ملحوظة؛ لأنه بدأ بتهجئة ما وقعت عليه عيناه من فوره. لم يمر وقت طويل، وإذا بصبي آخر ذي شعر أبيض أيضاً يأتي، جاء متأثياً، ثم أعقبه صبي أصهب، ثم اثنان آخران لهما الشعر الأبيض نفسه، ثم أتى من بعدهما صبي ذو شعر أصفر، وظل الحال على هذا المنوال، إلى أن امتلأت التختان باثني عشر طالباً، أو ما يقرب من ذلك، كانت لهم ألوان شعر مختلفة، لم يكن من بينها الرمادي، تتراوح أعمارهم بين الأربعة أعوام والأربعة عشر عاماً، أو حتى أكبر من ذلك، حينما جلسوا جميعاً، لم تتمكن سوق أصغر اثنين منهم من ملازمة الأرض، كانت تبعد عن الأرض تماماً، أما أكبرهم، فقد بدا أحمر، طلق المحيا، أطول من المعلم نفسه، فقد كان طول الأخير إلى نصف رأسه تقريباً.

جلس الطلاب جميعهم على التختين، لكن مكاناً على رأس التخته الأولى -منصب الشرف للطلاب- ظل شاغراً، كان بالضرورة يخص

الطالب الصغير المريض، أما المشاجب فقد اتجه إليها من حضروا بقبعات وطاقيات؛ ليعلقوها عليها، وظل مشجب واحد فارغاً. لم يحاول أي طالب منهم انتهاك خصوصية مكان الغائب أو مشجبه على الإطلاق، بات الطلاب جميعهم ينظرون إلى المعلم عبر المساحات الفارغة، التي تفصل بينهم وبينه، ووقف واحد بجانب ذراعه، يهمس إليه.

بدأت همهمات استذكار دروسهم في العالي، تخالطها أصوات همسات أحاديثهم، وضحكات تبعت مزاحهم معاً، متشدقين بالكلام في جو من الصخب، إلى جانب الأصوات المختلفة الاعتيادية التي تعج بها المدارس، في خضم هذه الضجة، ظل المعلم المسكين جالساً في أبهى صور الوداعة والبساطة، يحاول دون جدوى ترتيب أفكاره، وحصر واجباته الإلزامية ليومه، وإخراج صديقه الصغير من حيز تفكيره. كان من البين الجلي، أن تفكيره كله منصب على تلميذه النجيب، حتى إذا تظاهر بتقليل فكره بين طالب وآخر، بدا عليه أنه مشتت بالكلية.

لم تكن تلك الحالة التي غاص فيها المعلم المسكين خفيةً على الطلاب المشاغبيين، فقد استغلوها أسوأ استغلال؛ عالمين أنهم سيفلتون من العقاب، صاروا يتحدثون بصوت أكثر ارتفاعاً وفي جرأة غير متناهية، يلعبون في الخفاء أو حتى تحت أنظار المعلم، يأكلون التفاح علناً دون رادع، مدركين أنهم لن يتلقوا أي توبيخ على أفعالهم، يتدافعون، لاكزين قارصين أجساد بعضهم، في جوٍّ من لهو صبياني، دون الالتزام بأدني قدر من الحيطة، يقطعون أوراقاً حملت توقعاتهم،

ملقين بها بجوار قوائم مكتبه، دون أي اكتراث. بدا الطالب الواقف إلى جواره هامساً، بليدًا مرتبكا، يحاول استظهار درسه شفهيًا مما كان قد حفظه، لكنه لم يعد ينظر إلى السقف؛ محاولاً تذكر كلمة قد نسيها؛ لأنه سرعان ما اقترب من مرفق المعلم؛ ينظر في جراحة -دون اختلاس للنظر أو شعور بالرهبة- إلى الصفحة المفتوحة أمامه، أما مهرج ذلك الجمع الصغير، فبدأ يلوي قسمات وجهه؛ ويغمض عينيه نصف إغماضة، ويحوّل؛ لإضحاك أصغر طفل بينهم بالطبع، دون أن يفتح أي كتاب أمام وجهه كي يستعين به في إخفاء ما يقوم به، لكن ما فعله لم يقتصر على إضحاك الصغير فقط، فقد ضحك كل مشاهديه، دون أن يحاولوا كبح سعادتهم، أو فرض أي حظر على ضحكاتهم. إذا حدث ولملم المعلم شتات عقله، منتشلاً نفسه من حالة شرود ذهنه، محاولاً استرداد يقظته، والظهور حيًا مدرّكًا للواقع، يتوقف الصخب للحظة، يتجنبون تمامًا التقاء أعينهم بعينيه، يتظاهرون أنهم مكدون في استذكار درسهم، في وداعة وحلم، لكن فور انتكاسه، وعودته إلى الحال الذي كان عليه، تنفجر صيحاتهم، وصخب حديثهم من جديد، بل أعلى عشر مرات من ذي قبل.

أوه! كيف كان بعض هؤلاء الطلاب لا يفعلون شيئًا، سوى النظر إلى النافذة وعبر الباب المفتوح؛ يتوقون في تلك اللحظة إلى ترك أماكنهم، كما لو أن نصفهم قد عقدوا العزم بالفعل وعقدوا النية على الانطلاق في شغب؛ ليمرحوا في الأيكة، نافضين عن أنفسهم الكسل، عاقدين العزم على أن يكونوا أطفالاً مشاغبيين، تتملكهم الهمجية

والوحشية. من الواضح أنه إذا ما اجتاحت أفكارٌ متمردة مخيلة صبي قوي، فسوف تغريه كي يقفز في مياه النهر المنعشة، والسباحة في أماكن الاستحمام المظلمة بأشجار الصفصاف، ذات الأفرع المنغمسة في الماء؛ بدا المنظر فاتنًا، يلح عليه، لقد كان مرتديًا قميصًا، ياقته غير مزررة، مزحزحة إلى الوراء إلى أقصى درجة، يجلس مروحًا على وجهه المتوهج بكتاب الهجاء، متمنيًا لو يصبح حوتًا أو صغير سمكة أبي شوكة أو حتى ذبابة، أو أي شيء آخر عدا أن يكون طالبًا في مدرسة في هذا الحر! في يوم قائل! شمس لافحة! وإلى جانبه ذلك الصبي الآخر، الذي كان مقعده أكثر قربًا إلى الباب، حيث سنحت له العديد من الفرص، التي مكنته من الانسلاخ في خفة نحو الحديقة، مثيرًا جنون رفاقه، عن طريق غمس وجهه في دلو البئر، والتدحرج على العشب، فأضحوا يتحاورون فيما بينهم، لو أن هناك ما يضاهي يومهم رتابة، حيث يجلسون هم في أماكنهم، بينما يحلق النحل من زهرة إلى أخرى، يرتشف الرحيق، غارزًا خرطومه عميقًا في الزهور، ويقف أينما يشاء، بدوا كما لو أن مخيلتهم قد جرفتهم بعيدًا، وصاروا لا يتمنون شيئًا غير التعطل عن أعمالهم، ليمضوا صانعين العسل. لم يكن اليوم باعثًا في النفوس إلا شعورًا بالكسل، فلا يفعل المرء شيئًا، غير الاستلقاء على ظهره في المروج الخضراء، ينظر إلى السماء، حتى يرغمه سطوع نورها على إغلاق عينيه، فينام في سبات عميق، لكنهم جلوسٌ هنا، ينظرون في شروء إلى كتب بالية موضوعة أمامهم، في غرفة مظلمة، على الرغم من أن الشمس المنيرة واحدة! يا له من أمر فظ رهيب!

جلست نيل بجوار النافذة، مشغولة تمامًا، مستغرقة في استكمال عملها، يعترئها الخجل بين الحين والآخر، وتتمكن منها الرهبة؛ بسبب شغب الصبية الصاخبين. انتهى وقت الهجاء الشفهي، وحان موعد الكتابة، لم يكن في تلك الغرفة غير مكتب واحد، يخص المعلم، فاستند عليه الطلاب، التفوا حوله متزاحمين، وضعوا أوراقهم مثنية وملوية لضيق الحيز، بينما يمر المعلم على كل واحد منهم على حدة. كان هذا الوقت هو أكثر الأوقات التي شهدتها اليوم هدوءًا، فالمعلم يمر من حولهم، ينظر من فوق أكتافهم، ينه كل واحد منهم في لطف، ويطلب منه أن ينظر إلى اللوحات المعلقة على الحائط؛ ليرى كيف ترتسم الحروف بإتقان وبراعة، يشطب بخط صغير هنا وهناك، موصيًا إياهم بأن يتبعوا النموذج الأساسي. لكنه توقف فجأة؛ متسائلًا عما قاله الطفل المريض لهم في الليلة الماضية، وإلى أي مدى كان متشوقًا إلى الانضمام إليهم مرة أخرى، حينما لاحظ الطلاب جميعهم كم بدا المعلم المسكين مهمومًا مكروبًا، وكم هو حنون رقيق المشاعر، شعروا بالندم الشديد من فورهم؛ لما سببوه من قلق وإزعاج جراء صخبهم وشغبهم، لذلك التزموا الصمت، وبقوا هادئين تمامًا، لا يأكلون التفاح، لا يقطعون الأوراق، لا يؤذون بعضهم، متوقفين عن اللكز والقرص، لا يلونون قسماات وجوههم لمدة دقيقتين كاملتين.

قال المعلم، حينما دقت الساعة الثانية عشرة بالضبط: «أعتقد يا أولادي، أنني سأمنحكما باقي اليوم من بعد الظهر، إجازة إضافية».

بمجرد أن ألقى المعلم تلك الكلمات، هلل جميع الصبية بصيحة

عالية، بقيادة الصبي الطويل، في مشهد صاخب، كان فيه المعلم، لا يزال يتحدث، لكن صوته لم يكن مسموعاً على الإطلاق. رفع يده؛ إشارة منه إلى رغبته في إلزامهم الصمت، فانصاعوا لرغبته على الفور في تأدب واضح، لدرجة أن الهواء في لحظة لم يعد يحمل إلا صوت أنفاسهم.

قال المعلم: «يجب عليكم أولاً أن تعدوني ألا تكونوا صاخبين، أو على الأقل، إن تسببتم في ضجة صاخبة، كونوا بعيدين.. بعيدين جداً.. وأقصد بكلمة بعيدين، هو أن تكونوا بعيدين عن القرية بأكملها، أنا متأكد تماماً أنكم لا تريدون إزعاج رفيق لعبكم ودراستكم القديم».

سادت أصوات الهمهمات النافية، مؤكدين أنهم لا يريدون إزعاجه البتة، وقد بلغت مشاعرهم الصادقة أوجها -ربما لكونهم صبية أنقياء- ربما كان الولد الطويل هو الأكثر صدقاً من بينهم، بالإضافة إلى أنه دعا من حوله كي يشهدوا أنه حتى صياحه كان صياحاً هامساً.

قال المعلم: «هؤلاء هم أولادي الأعزاء.. لا تنسوا مطلقاً، ما طلبته منكم، ونفذوه كما لو كنتم تقدمون إليّ معروفاً. كونوا سعداء قدر الإمكان، ولا تكونوا غافلين أبداً عن أن الصحة نعمة، وأنتم قد بوركتم بها.. الوداع يا أولادي الأعزاء!».

قالوا مرات عديدة بأصوات متنوعة متتابعة: «شكراً يا سيدي.. الوداع يا سيدي». ثم خرج الصبية تباعاً بطاءً، وفي نظام وهدوء. حينها ازداد بهاء ضوء الشمس ولمع، زقزقت الطيور وذاع غناها، وكأن الشمس تشرق، والطيور تزقزق في أيام الإجازات فقط، أو في أنصاف الأيام التي يحتمسها المعلمون إجازةً، بدت الأشجار كأنها تلوح للصبية

جميعهم؛ تدعوهم إلى التراجع على أغصانها المورقة، بدا القش كأنه يستحثهم على الإتيان إليه؛ نشره في الهواء الطلق، بدا حقل الذرة كأنه يغريهم؛ للعدو نحو الأيكة والجدول المائي الصغير، كانت الأرض لا تزال رطبة ملساء، تنبض فيها الحياة، يختلط على سطحها الظلال مع النور، تحض الجميع على الركض والقفز وحتى السير إلى مسافات بعيدة، لا يعلمها إلا الخالق. تحمّل أكثر من صبي كافة تلك الإغراءات، التي تحيط بهم من كل جانب، إلى أن ابتعدوا تمامًا، حينها انطلقوا، ضاحكين، مهللين، أينما ذهبوا.

قال المعلم المسكين، وهو يتبعهم بنظراته: «إنها طبيعة الدنيا.. أشكر الخالق! إنني سعيد جدًا؛ لأنهم لم يعارضوني!».

بالطبع كما اكتشفنا جميعنا في أوقات سابقة من الحياة، أنه -على أي حال- سيكون من الصعب إرضاء كافة الأطراف، حتى لو ظهرت الأسباب، وكشفت القصة الرمزية عن العبرة التي تحملها، ففي فترة ما بعد الظهر، توافدت أمهات الأطفال وعماتهم وخالاتهم ممتعضات؛ يفصحن عن رفضهن الكامل للإجراءات التي اتخذها المعلم، اقتصرت قلة منهن على إلقاء التلميحات، مثل الاستفسار في أدب، عما إذا كان يومهم يومًا احتفاليًا طبقًا للتقويم، أو يوم عيد القديسين مثلاً.. أما الأخريات -كن من المخضرمات في السياسية في القرية- فتجادلن معه، قائلات: إن فعله يعتبر تجاهلاً وازدراءً للعرش، وإهانةً للكنيسة وللمملكة، وإنه منساق وراء المبادئ الثورية، فكيف له أن يمنح الطلاب نصف يوم إجازة، لمناسبة غير مهمة، ليست على ذات قدر أهمية عيد

ميلاد الملك.. أما الأغلبية منهم؛ فعبّرن عن استيائهن لأسباب خاصة واضحة، قائلات له: إن تخصيص وقت قصير لتعليم الطلاب، لا يعد إلا نصباً واحتيالاً صريحاً، لكن سيدة عجوزاً وحيدة وجدت أنه من غير اللائق التحدث مع المعلم الحليم على هذا النحو، ولم ترد أن تزعجه وتثير غضبه، فخرجت من منزله، وتحدثت عنه مع سيدة عجوز أخرى، لمدة نصف ساعة أمام نافذته، قائلة: إنه من اللازم أن يخصم أجر نصف اليوم من راتبه الأسبوعي، وأن يتقبل الوضع، وإلا سيكون من البديهي أن يلاقي معارضة ضده، لن تُحمد نتائجها، وهنا رفعت السيدة العجوز صوتها، قائل: إن الحي ليس في حاجة على الإطلاق إلى شباب كسول عاطل عن العمل، شباب كسول لا يستطيع حتى أن يكون معلماً؛ لأن الوضع حينها سيصبح مأساوياً، ولن يمكنهن السيطرة عليهم، تنبهن إلى أن عليهن رعايتهن رعاية فائقة، وأنه لزم عليهن أن تعجلن بالتعامل مع الأمر.. على الرغم من كل تلك التوبيخات الساخرة والتهكمات التي انهالت على مسمع ومرأى من المعلم، إلا أنها فشلت جميعها في جعل المعلم ينطق بكلمة واحدة، فقد جلس إلى جوار الطفلة، وربما بدا أكثر كآبة وغمّاً، لكنه ظل صامئاً تماماً غير متذمر.

قيل هبوط الليل، جاءت سيدة عجوز إلى الحديقة، تحاول جاهدة أن تركز بأسرع ما يمكنها، لكن ارتخاء مفاصلها لم يهبها القدرة على فعل ذلك، حينما وصلت إلى الباب وقابلت المعلم، طلبت منه أن يذهب مباشرة في التو إلى السيدة (ويست)، ويُفضل لو أن يسبقها إلى هناك. قبل ذلك بلحظة، كان هو والطفلة يتأهبان للخروج معاً في نزهة، يدًا بيد، لكنه

فور سماعه لما قالته السيدة العجوز ركض مسرعاً إلى وجهته، دون أن يفلت يد الطفلة، تاركاً الرسول كي تأتي خلفه على مهلٍ.

فور وصولهما، طرق المعلم الباب بيده في رفق، ووقفاً أمامه. فُتح الباب فوراً دون إضاعة أي وقت. دخلا الغرفة، فوجدا مجموعة من السيدات يلتفن حول سيدة أخرى، لكنها أكبر من البقية، كانت تبكي في حرقه شديدة، وبمرارة مفاجئة، تعتصر يديها الواحدة بالأخرى، ترتج بشدة للأمام وللخلف.

اقترب المعلم من كرسيها قائلاً: «أوه! هل الأمر بهذا السوء يا سيدتي؟».

صاحت السيدة العجوز: «إن حالته تتدهور بسرعة، إن حفيدي يحتضر.. كل هذا بسببك. يجب ألا تراه الآن، لكنه أصر وكان جاداً. إن هذا ما نلناه وما أصابه من تعليمه. أوه! يا ربي! يا ربي! يا ربي! ماذا عليّ أن أفعل!».

استحثها المعلم الحليم قائلاً: «من فضلك، لا تقولي إنني على خطأ، وأن هذا بسببي، إنني لن أتعمد الإيذاء يا سيدتي.. لا لا! أحسب أنك في حالة من التشوش، ولا تعنين أيّاً مما قلتيه.. أنا متأكد من أنك لا تعنين ذلك على الإطلاق».

ردت السيدة العجوز عليه: «بل أقصد! أقصد كل كلمة تفوهت بها. لو لم يكن منكباً على كتبه طوال ذاك الوقت؛ خوفاً منك، لكان الآن في حالة طيبة وحميدة، أعرف ذلك».

جال المعلم بناظره بين النساء الأخريات، كأنه يستعطفهن؛ من أجل أن يقلن كلمة لطيفة في حقه، لكنهن هززن رؤوسهن، متهامسات فيما بينهن، يدمدمن بأنهن لم يعتقدن يومًا أنه جيد في التعليم، وأنهن مقتنعات جدًا بذلك. دون أن ينطق بكلمة واحدة، ردًا على ما اقترفته في حقه، نظر إليهن نظرة عابرة، ثم أشاح بنظره عنهن، ملتفتًا إلى السيدة العجوز التي استدعته - حيث انضمت إليهم أخيرًا في اللحظة نفسها -، وتبعها إلى الغرفة الأخرى، حيث يرقد صديقه الصغير، نصف عارٍ، مستلقيًا على السرير.

لقد كان ولدًا صغيرًا، أو على وجه الدقة كان طفلًا هادئًا صغيرًا. كان شعره لا يزال مجعدًا، ينسدل على وجهه، كانت عيناه لامعتين، تشعان نورًا، ليس كمثل الذي نراه على الأرض، بل نورًا من الجنة. جلس المعلم على مقعد إلى جواره، وانحنى على وسادته، ونادى باسمه هامسًا. نبضت الحياة في الطفل، لمس وجهه بيده، مرتميًا في أحضانه، مطوقًا ذراعيه حول رقبته، صائحًا أن هذا هو صديقه المخلص العزيز.

قال المعلم المسكين: «كم أتمنى لو كنت كذلك فعلاً.. لأنني قصدت فعلاً أن أكون كذلك، والرب يشهد على ما أقول».

قال الفتى، وهو ينظر إلى نيل: «من هذه؟ إنني أخشى تقبيلها؛ حتى لا أنقل إليها مرضي، قل لها أن تصافح يدي».

اقتربت منه الطفلة الباكية، وأخذت يده الهزيلة في يدها، وأمسكت بها. ثم أراحتها مرة أخرى بعد فترة من الوقت، فأرخاها الفتى المريض بلطف إلى جانبه.

قال المعلم هامساً، يريد أن يستحث الفتى على الاستيقاظ، يريد أن يثير النشاط فيه، لقلق تلمسه، يحيط بهم: «أتذكر الحديقة يا (هاري)، وتذكر كم كانت نابضة بالحياة في الأوقات الليلية، تضفي السعادة على النفس؟ يجب عليك التعجيل بزيارتها مرة أخرى؛ أحسب أن الزهور قد اشتاقت لك، فمنذ أن تغيب عنها، أصبحت أقل زهواً من طبيعتها المعتادة.. سوف تأتي قريباً يا صغيري، قريباً جداً.. أليس كذلك؟».

تبسّم الفتى في وهن شديد -وهن شديد جداً جداً-، ووضع رأسه على يد صديقه صاحب الشعر الرمادي. وحرك شفثيه متحدّثاً، لكن لم يُسمع له صوت، لم تصدر عنه همهمات مسموعة حتى.

أثناء الصمت الذي أعقب تلك اللحظة، ترددت الأصوات الأخرى في الأجواء، فحملها هواء المساء إلى مسامعهم عبر النافذة المفتوحة، حينها، قال الفتى المريض، وقد فتح عينيه: «ما هذه الأصوات؟».

- إنهم الصبية الآخرون يلعبون في الساحة الخضراء.

أخذ الفتى منديلاً من أسفل وسادته، محاولاً أن يلوح به فوق رأسه، لكن ذراعيه الهزيلتين لم يمكّناه من ذلك، وخارت عاجزة. قال المعلم من فوره: «هل لي أن أساعدك؟».

جاءت الإجابة بصوت واهن لا يسمع، فقال: «نعم! لوّح به من النافذة من فضلك! ثم قم بربطه خارجها.. فربما يراها البعض منهم، فيتذكرونني، ويفكرون فيّ».

رفع رأسه قليلاً، يرمق بناظريه الإشارة التي وضعها لرفاقه، ثم إلى كتابه ودفتره، الموضوعين على الطاولة في الغرفة، إلى جانب باقي ممتلكاته الصببانية. أزاح نفسه قليلاً، مرتخياً إلى الأسفل مرة أخرى، ثم سأل ما إذا كانت الفتاة الصغيرة لا تزال في الغرفة؛ لأنه لم يعد يتمكن من رؤيتها.

تقدّمت الطفلة نحوه، ولمست يده الموضوعة فوق الغطاء بيدها، وربتت عليها. احتضن الصديقان القديمان ورفيقتهما بعضهم -حريّ بنا أن نقول (الصديقان)، على الرغم من أنهما لم يكونا غير رجل وطفل صغير - إلى أن التفت عنهما الطالب الصغير، موجّهاً وجهه إلى الحائط، ونام.

ظل المعلم جالساً في موضعه، يمسك بيد الطفل المثلجة، يفركها بين يديه، يحاول تدفئتها، لكن الدفء لم يمتد إليها مرة أخرى؛ لأنها لم تكن إلا يد طفل ميت. لقد أحس المعلم بوقع ذلك فعلاً، لكنه رفض رفضاً قاطعاً أن يتركها، ظل على حاله عازماً ومثابراً على تدفئتها.



الفصل السادس والعشرون

غادرت نيل ورفيقها مفطوري القلب، عائدتين إلى منزله. في خضم انفطار قلبها وأوج حزنها، عزمت نيل على أن تكون حريصة تمامًا؛ حيال كبت دموعها ومنعها من الظهور، وإخفاء السبب الحقيقي عن الرجل العجوز، فالصبي المتوفى كان حفيدًا، غادر الحياة الدنيا في وقت مبكر عن أوانه، تاركًا فردًا واحدًا من عائلته، مفجوعًا في مصيبته.

فور عودتها، تسللت نيل إلى فراشها بأسرع ما يمكنها، حينما تأكدت من أنها وحدها، انفجرت مُنْفَسَةً عما كُنَّ صدرها من حزن وكر، فاق ثقله قدرة احتمال قلبها. لكن المشهد المؤلم الذي عايشته، لم يمر عليها هونًا، فقد اتخذت منه عبرة وعظة، مدركة معنى تمتع الفرد بالصحة والحرية، عازمة على أن تكون أكثر طاعة وحمداً، فما واجهته لم يزد عن كونها قد ابتعدت عن فرد واحد من عائلتها، وصديق مقرب، وانتقلت من مكان إلى آخر، لكن هذا كله كان من أجل أن تنعم بالعيش في عالم جميل، في حين أن الكثير من الصغار -ممن يماثلونها سنًا، ممن كانوا نابضين بالحياة ومفعمين بالأمل- ماتوا وابتاتوا يفترشون قبورهم. كم من رابية، قد كساها العشب الأخضر، مرت عليها مؤخرًا في فناء الكنيسة القديم، وفي جوفها تسكن قبور الأطفال! على الرغم

من كونها طفلة، ربما لم تستطع أن تفكر بما يكفي، في كم الرأفة والسعادة التي ينعم بها من يموتون صغاراً، كم يكون الموت راحةً لهم، وخلاصاً نهائياً من آلام رؤية موت من يحيطون بهم، تحتويهم القبور في عطف ورأفة، أما الآخرون ممن يشاهدون موتهم، فكأن القبور تستأصل جزءاً من قلوبهم وتورثهم الكمد - ذلك ما يجعل كبار السن يصارعون آلام الموت عدة مرات في حياة واحدة طويلة - لكنها تفكرت في الأمر بحكمة كافية، من أجل استخلاص معنى بسيط مما عايشته في ليلتها، تتعظ به، وتحفظ به في دفائن ذكرياتها.

دارت أحلامها كلها حول ذلك الطالب الصغير، لكنه لم يكن مكفناً أو حتى مغطىً، كان يرقص مع الملائكة، يطوفون معاً مبتسمين في سعادة. داعبتها شمس الصباح المشرقة، تسللت إلى غرفتها، فأيقظتها، والآن حان الوقت ليتوجب عليهما أن يتركا منزل المعلم الحليم المسكين، ويمضيا في دربهما مرة أخرى.

بالتزامن مع الوقت الذي تأهبا فيه للرحيل، كان موعد بدء اليوم الدراسي قد حان. وقد شاع نفس هرج الأمس، في الغرفة المظلمة مرة أخرى، لكنه لم يكن ذلك الهرج المعتاد؛ كان أقل صخباً، ربما أقل بكثير، أو على وجه أدق كان الصخب منعدماً. قام المعلم عن مقعده، واصطحبهما إلى البوابة.

قدّمت له الطفلة بيدٍ، تملك منها الرعدة والارتجاف، تلك الأموال التي أعطتها لها السيدة في ساحة السباق، حينما اشترت منها الزهور، قدّمتها له، وكانت تتلثم أثناء شكرها له؛ كانت هائمة في أفكارها، وقد

احمرت وجنتها خجلًا؛ لأن المبلغ المقدم بخس. لكنه اعترض يدها، وعرض عليها أن تدخره لنفسها، وانحنى قليلًا؛ ليقبّل وجنتها، ثم التفت عائداً إلى منزله.

لم يكونا قد سارا أكثر من ست خطوات، إلا ووجداه عند الباب مرة أخرى، عاد الرجل العجوز على عقبيه لمصافحته، ومن ثمّ تبعته الطفلة كي تقوم بالأمر نفسه.

قال المعلم المسكين: «فلتصحبكما السلامة والحظ الحسن والرزق الوفير، إنني رجل وحيد الآن، إذا حدث، ومررتما من هنا ثانية، فلا تنسيا مدرسة القرية الصغيرة».

قالت نيل: «لن ننساها أبداً، ولن ننسى أبداً أن نكون ممتنين شاكرين لعطفك وكرمك معنا».

قال المعلم، وهو يهز رأسه، وبالكاد يبدو مبتسماً: «لقد سمعت مثل هذه الكلمات من أفواه العديد من أولادي، أقصد طلابي، لكنهم سرعان ما ينسون ما كانوا قد وعدوا به. لكنّ واحداً فقط هو من كان على اتصال وثيق بي، كان صديقاً صغيراً.. بل أفضل صديق لكونه صغيراً.. لكن كل شيء قد انتهى.. فليبارككما الخالق!».

مشيا ببطء، يكثران من التلفت كي ينظرا خلفهما؛ يلوحان له، ويودعانه، إلى أن غاب عن ناظرهما تماماً. هكذا غادرا القرية، تاركين كل ما بها وراءهم، حتى حجب الضباب بين الأشجار الرؤية، فلم يعد بإمكانهما رؤيته. أكملتا سيرهما الآن بوتيرة أسرع، عاقدين العزم على

أن يتخذا من الطريق الرئيس دربًا لهما، غير قاصدين مكانًا بعينه، بل هائمين إلى أي مكان يقودهما الطريق إليه.

لكن الطرق الرئيسة دائمًا ما كانت تمتد لمسافات طويلة، طويلة جدًا. باستثناء مرورهم بتجمعين أو بثلاثة تجمعات لأكواخ ريفية، لم يقفا بها، ومنزل عام واحد منعزل، توقفا عنده؛ كي يحصلوا منه على الخبز والحب، لم يقودهما هذا الطريق العمومي إلى أي شيء - فقد وصلا إلى ساعة متأخرة من العصر - ولا يزال الطريق طويلًا ممتدًا أمامهما، لا يختبران شيئًا جديدًا، رتابة الطريق وغيمه وتعرجه نفسه، ظلا على هذا الحال طوال يومهما. لم يكن أمامها خيار آخر غير أن يكملا سيرهما في الطريق نفسه، لكنهما أمسيا يمشيان ببطء؛ فقد أنهكهما التعب، وباتا واهنين ومرهقين.

انقضى العصر، وحل مساء لطيف، حينها كانا قد وصلا إلى نقطة فارقة، حيث ألقى الطريق بهما في أرض مشاع. وجدا على حدود الطريق أرضًا قُسمت إلى حقول مزروعة، أبصرا بالقرب من السياج، عربة متوقفة، - وبسبب ما حلَّ بهما طوال اليوم - ذهبا من فورهما فجأة تجاهها، لدرجة أنهما لم يتمكنوا من تجنبها، ولو أرادا ذلك.

لم تكن عربة رثة مغبرة أو حتى داكنة، لقد كانت عبارة عن بيت صغير متنقل على عجلات، نوافذه مزينة بستائر بيضاء باهتة، ومصاريعها خضراء، ذات أطر حمراء قاتمة، على الرغم من تناقض الألوان، وعلى الرغم من أن الألوان كلها صاحبة مبهرجة، بدا المظهر العام لامعًا مشرقًا. لم تكن تلك العربة، عربة من النوع العادي، الذي يسحبه حمار أو حتى حصان هزيل، بل كان يسحبها حصانان صحتهما جيدة، لكنهما تركا يرمحان، يعبثان

في العشب. لم تكن العربية ذات طابع عجري، كانت تجلس أمام بابها -المزين بمقراع من النحاس الأصفر اللامع- سيدة، بدينة، تبعث الراحة فيمن ينظر إليها، تعتمر قبعة كبيرة تتدلى منها أربطة مزخرفة. لم يَدُ على العربية مطلقاً -من حيث البهجة والمظهر الغني- عدم هيمنة تلك السيدة عليها، كانت تجلس منتعشة في سرور، تشرب الشاي. كانت مستلزمات الشاي، إلى جانب قنينة ذات شكل مميز، محتواها مجهول، وقطعة من اللحم المقدد، موضوعة على طبلية، مغطاة بمفرش أبيض، ظهرت كما لو أنها من أعظم وألطف الموائد المستديرة في العالم كله، هناك، عندها جلست هذه السيدة المرتحلة، تشرب الشاي، مستمتعة بالأفق.

في لحظة مرورهما، كانت سيدة العربية ممسكة بفنجانها -على الرغم من أنه فنجان عادي، دائماً ما نراه في وجبات الإفطار، لكن كل شيء من حولها كان متسمًا بطبعها ذاته، من الامتلاء والبهجة وإضفاء الحس المرح- ترفعه إلى شفيتها، وقد رفعت عينيها نازرة إلى السماء، في استمتاع مفرط بنكهة الشاي المميزة، التي قد مُزجت غالباً بشيء من محتوى تلك القنينة- الذي يُضفي على شاربه حيوية وبريقاً، قد يكون هذا تكهناً لا يمت للواقع بأي صلة- بدا الأمر كأنها منفصلة عن الواقع، منتشلة منه في استمتاع؛ لذلك لم ترَ المسافرين للوهلة الأولى. لكن بعد لحظات، لمحت الرجل العجوز مصطحباً الطفلة، يمشيان ببطء إلى جانبها، لم تكن سيدة العربية قد أنزلت عن شفيتها الفنجان بعد، ترتشف منه رشفة طويلة، أنهت محتويات الفنجان، بينما أخذت تنظر إليهما بعينين متواضعتين، يملؤهما الإعجاب الشديد.

صاحت سيدة العربية من فورها، وهي تنفض الفتات من حجرها، وتبتلع الثميلة المتبقية في جوفها، وقبل أن تمسح شفيتها قالت: «ياااا كي أكون متأكدة.. قل لي من فاز بطبق (هيلتر سكيلتر)^(١٢) أيتها الفتاة؟».

قالت نيل مستفسرة: «فاز بماذا يا سيدتي؟».

- طبق هيلتر سكيلتر، إنه أحد السباقات أيتها الطفلة.. ذلك الطبق الذي كانوا يعدون له العدة في أنشطة اليوم الثاني.

- أي يوم ثانٍ يا سيدتي؟

كررت السيدة بنفاد صبر: «اليوم الثاني! نعم اليوم الثاني.. ألا تستطيعين الإجابة عن سؤال مَنْ فاز بطبق هيلتر سكيلتر، إذا ما سُئلت عن ذلك في صيغة متحضرة؟».

- لا يا سيدتي! أنا لا أعرف حقًا.

قالت سيدة العربية مكررة: «لا تعرفين! كيف لكِ ألا تعرفي، وقد رأيتكِ بعينيِّ هناك؟».

ارتبكت نيل قليلاً فور سماعها ذلك؛ تحسب أن تلك السيدة ربما تكون على صلة وثيقة بالقصير وكودلين، لكن الكلمات التالية التي تفوهت بها السيدة، ساهمت كثيراً في طمأننتها.

قالت سيدة العربية: «لقد كنتِ في منتهى الأسى؛ حينما رأيتكِ مع رفقة بانش، إنها رفقة بائسة ووضيعة وعملية بلا رحمة وسوقية، يجب

(١٢) عبارة عن (زحليقة) لولبية تُبنى حول برج عالٍ، ويقام السباق فيصعد المتسابقون داخل البرج حتى يصلوا إلى قمته، ثم ينزلون مترحلين إلى الخارج.. عادة كانت تُبنى من الخشب ليسهل تفكيكها وإعادة بنائها في المواقع التي تقام فيها السباقات أو المعارض.

على الناس جميعاً أن ينظروا إليها باحتقار».

قالت الطفلة: «لم يكن لدينا أي خيار آخر؛ حينها لم نكن نعرف أي طريق علينا أن نسلكه، وقد كانا رجلين عطوفين معنا؛ وسمحا لنا بالسفر معهما.. هل تعرفينهما يا سيدتي؟».

صاحت سيدة العربة بصرخة عالية مستنكرة: «أعرفهما أيتها الطفلة! أنا أعرفهما! انظري إليّ، انظري إلى تلك العربة.. لكنكِ صغيرة، لا خبرة لديك، لا تدركين الكثير من الأمور، سأعتبر هذا عذرِك الوحيد، لطرحكِ مثل هذا السؤال. هل تبدو لكِ تلك العربة كأنهما قد مرّا أمامها حتى؟».

قالت الطفلة، وقد تملكها الخوف من أن تكون قد ارتكبت خطأً جسيماً: «لا، لا يا سيدتي! أستمحكِ عذراً».

على الرغم من اعتذارها الفوري، كان ولا يزال من الملاحظ على السيدة أنها منزعجة ومتأففة تماماً بسبب افتراضها المهين. أوضحت الطفلة فيما بعد أنهما تركا أرض السباقات أثناء اليوم الأول، ثم سافرا قاصدين المدينة المجاورة التي تقع على الطريق، حيث ينبغي لهما أن يقضيا ليلتهما. حينها لانت ملامح السيدة البدينة، فغامرت الصغيرة وتساءلت إلى أي حدّ تبعد.. لم يأتِ الرد إلا بعد أن أوضحت السيدة أنها ذهبت إلى أرض السباقات في اليوم الأول بالعربة، باعتباره يوماً احتفالياً، وكرحلة ممتعة، وأن وجودها هناك لم يكن له أي علاقة بالأعمال أو الترحب.. ثم قالت إن المدينة على بعد ثمانية أميال.

خبيت تلك المعلومات المحبطة آمال الطفلة جميعها، رمت الطريق المظلم الممتد أمامها بعينين ترقق فيهما الدمع، تحاول جاهدة ألا تبكي. لم يُبدِ جدها أي تضرر أو شكوى، لكنه تنهد في عمق، وتوكلًا على عصاه، يحاول عبثًا المضى قُدماً في المسافة المتربة.

همّت سيدة العربة تلملم لوازم الشاي؛ تمهيداً لتنظيف المائدة، لكنها ترددت، ثم توقفت ولم تكمل ما بدأته؛ حينما لاحظت أمارات الاضطراب بادية على الطفلة. انحنت الطفلة تقديرًا لها، وشكرتها على ما أفادت به من معلومات، ثم مدت يدها، تحاول اللحاق بالرجل العجوز، الذي سار بالفعل خمسين ياردة بعيدًا، لكن سيدة العربة نادتها من فورها، وطلبت منها أن تعود مرة أخرى.

قالت، وهي تشير لها؛ كي تقترب: «اقتربي.. اقتربي أكثر. قولي لي، هل أنت جائعة أيتها الطفلة؟».

- لست جائعة جدًّا، لكنني حقًا متعبة، وإنها.. إنها مسافة طويلة.

قالت صاحبها الجديدة: «حسنًا! إن كنتِ جائعة أو لم تكوني.. يستحسن بك أن تتناولي بعضًا من الشاي.. أحسب أنه ليس لديك أي اعتراض، وأنت موافق على ذلك أيها الرجل الوقور؟».

تراجع الجد في هدوء، وخلع قبعته في تواضع جم، ثم شكرها. طلبت السيدة منه أن يقترب، مثلما فعلت مع الطفلة تمامًا، لكن الطبلبة التي صنعت منها مائدة لتناول الشاي، لم تكن مريحة، ليجلس عليها فردان، لذلك جلسا على العشب، قدمت إليهما صينية الشاي والخبز والزبد

وقطعة من اللحم المقدد.. باختصار، قدمت إليهما كل شيء كان لديها، عدا القنينة؛ خصت بها نفسها، منتهزةً الفرصة، وزجت بها في جيبيها.

قالت صديقتهما، وهي تراقب التحضيرات من الأعلى: «ضعيها بالقرب من العجلات الخلفية؛ هذا أفضل مكان.. الآن، أعطيني إبريق الشاي؛ كي تحصلا على المزيد من الماء الساخن، والشاي الجديد، أريد منكما أن تأكلا وتشربا حد الشبع، وألا تقتصدا في شيء.. هذا كل ما أطلبه منكما».

قاما فعلاً بما طلبته السيدة منهما، لكن فعلهما لم يكن منوطاً به، فقد كانا سيفعلان الشيء نفسه، سواء أملت عليهما به، أم لم تمل به على الإطلاق. لكن طلبها خفف عنهما وطأة الإحراج والشعور بالحساسية وعدم الارتياح، فتناولوا وجبة شهية، واستمتعا بها إلى أقصى حد.

بينما كانا مستغرقين في تناول وجبتهما، أخذت سيدة العربية تنحني ثم تقف ثانية ويدها متشابكتان إحداها بالأخرى وراء ظهرها، فتأرجح قبعتها الكبيرة على رأسها تأرجحاً شديداً، ثم أخذت في المشي صعوداً وهبوطاً، من وإلى العربية، في خطوات محسوبة وبسلوك مهيب، أخذت تتفقد العربية من وقت إلى آخر، متنهدة في سعادة وهدوء، مستمدة طاقة حيوية خاصة، كلما وقعت عيناها على الأطر الحمراء، وعلى المقرع النحاسي. بعدما واصلت القيام بهذا التمرين لبعض الوقت، جلست على الدرج، ومن ثمّ نادى على (جورج)، عندئذ ظهر رجل في ملابس السائقين، كان مختفياً تماماً عن الأنظار، وسط تداخلات فروع الأشجار، كان قادراً على رؤية كل شيء من موقعه، لكن لا يمكن لأحد أن يراه في الوقت ذاته، فرّق الأغصان، مفصّحاً عن نفسه، حيث

كان جالسًا، يسند إلى ساقيه طبق فرن، وقارورة من الفخار سعتها نصف جالون، وممسكًا بسكين في يده اليمنى، وبشوكة في يده اليسرى.

قال جورج: «نعم يا سيدتي!».

- كيف وجدت الفطيرة الباردة يا جورج؟

- إنها ليست سيئة يا سيدتي.

قالت سيدة العربة، وقد بدا عليها أنها أكثر اهتمامًا بهذا السؤال عن الذي سبقه: «والجعة! هل هي جيدة يا جورج؟».

- إنها ليست جيدة كما ينبغي لها أن تكون، لكن لا بأس بها، ليست سيئة على أي حال.

تناول رشفة من القارورة الفخارية - لم تكن رشفة عادية، فقد شرب ما يقرب من نصف لتر مرة واحدة - حتي يهدأ بالها وتكف عن القلق، ثم ضم شفتيه، وغمز بعينه، وهز رأسه. ثم استأنف من فوره أكل الفطيرة، مستخدمًا شوكته وسكينه، بنفس الرغبة الودودة، وبطريقة أكثر نهمًا؛ كتأكيد عملي على أن الجعة لم تؤثر بأي حال بالسلب على شهيته.

نظرت إليه سيدة العربة في رضى لبعض الوقت، ثم قالت: «هل شارفت على الانتهاء؟».

«لقد انتهيتُ يا سيدتي». وبالفعل، بعد أن كشط الطبق كاملاً بسكينه، ورفع الفتات البنية إلى فمه آكلًا، وشرب آخر قطرات الجعة من قارورته الفخارية، في مشهد مرئي بالكاد للعيان، أمال رأسه إلى الوراء شيئًا فشيئًا، إلى أن استلقى على الأرض مقتربًا منهم، باسطًا كامل جسده، كأنه يعلن

انفصاله عن الحديث، لكنه سرعان ما تراجع عن فعله.

قالت السيدة، مظهرة تعاطفًا كبيرًا مع سعيه البطيء: «آمل ألا أكون قد جعلتك في عجالة من أمرك يا جورج».

رد عليها تابعها في حكمة؛ تحسبًا لأي طوارئ، من الممكن أن تحدث، وقال: «حتى لو كنتِ فعلتِ ذلك، فالوقت قد ولى، علينا أن نعوض عن ذلك في المرة القادمة، هذا كل شيء».

- لسنا بالحمل الثقيل يا جورج.. أليس كذلك؟

قال الرجل، وهو ينظر مطولاً حوله في الأفق، كما لو أنه يناشد الطبيعة بشكل عام، حول تلك الافتراضات الوحشية: «هذا ما تقوله النساء دائمًا، إذا رأيت أي امرأة تقود عربة، حينها ستدركين أنها مهما أبقت سوطها مرفوعًا، ومهما ركض الحصان سريعًا، لن يركض بالسرعة التي تجدها كافية. لو حملنا على الدواب الثقل المناسب، فلم يكن بالقليل أو الكثير، لا يمكنك أبدًا إقناع امرأة بأن الحمل كافٍ وأن الدابة لن تتحمل المزيد. ما سبب هذا كله من الأساس؟».

لم تجب السيدة على تحقيقه المتفلسف، وقالت، مشيرة إلى نيل والرجل العجوز، اللذين تأهبا لاستكمال رحلتهما سيرًا على الأقدام: «هل هذان المسافران سيشكلان فرقًا مهولًا، أو ثقلاً كبيرًا على الحصانين، إذا أخذناهما معنا؟».

قال جورج بإصرار: «بالطبع سوف يشكلان فرقًا في سرعة تقدمنا في الطريق».

كررت السيدة قائلة: «هل سيشكلان فرقًا يا جورج؟ إنهما ليسا بالحمل الثقيل».

قال جورج متطلعًا إليهما، بنظرة رجل يحسب شيئًا في حدود النصف أوقية أو نحو ذلك: «قد يكون ثقلهما معًا طفيفًا، ليس بشيء يُذكر بالنسبة إلى أحمال (أوليفر كرومويل)»^(١٣).

اندهشت نيل بشدة من الثقة التي تحدث بها الرجل؛ يجب عليه أن يكون على دراية تامة بوزن الشخص الذي ذكر اسمه، كانت قد قرأت أن الرجل المذكور، قد عاش في زمن بعيد عن وقتهم، لكنها سرعان ما نسيت هذا الموضوع لفرحتها الغامرة حين سمعت سيدة العربية، تقول لهما أن يصعدا إلى العربية، وانهالت عليها بعبارات شكر وعرفان في حماس غير متكلف. انطلقت من فورها تساعد السيدة في جمع لوازم الشاي، وغيرها من الأشياء المنشورة هنا وهناك، وفي الوقت نفسه، شد على الحصانين سرجهما، حينما انتهت، صعدت إلى العربية، وتبعها جدها فرحًا. أغلقت راعيتهما الباب، ثم جلست على الطبلّة، وفتحت النافذة، كان جورج يرصّ حاجياتهم ويخزنها أسفل العربية، ثم اتخذ مكانه، وانطلق يشق الطريق، صاحبت مسيرتهم ضجة صاحبة من الخفقان والصرير وخبب الحصانين، وبسبب الاهتزازات العنيفة، وتأرجح العربية الدائم، ظل مقراع الباب الذي لم يطرق عليه أحدهم من قبل، يُطرق في ضربات مزدوجة من تلقاء نفسه.

(١٣) قائد عسكري وسياسي إنجليزي، يُعرف بأنه هزم الملكيين في الحرب الأهلية الإنجليزية.

الفصل السابع والعشرون

بعد أن مضوا في طريقهم لمسافة قصيرة، غامرت نيل باختلاس بعض النظرات إلى أرجاء العربة، متفحصة إياها عن كثب. تبينت أن نصفها - كان على الأغلب النصف الأكثر راحة - حيث جلست راعيتهما، مغطى بالسجاد، وقُسم من أجل استيعاب مكانٍ للنوم، صُمم على هيئة تخت على متن سفينة، مغطى بالكامل، بستائر بيضاء ناعمة، مثل تلك التي أُسدلت على النوافذ الصغيرة، بدا مظهره مريحاً للأعين، لكن ما سيظل لغزاً من غير الممكن سبر غوره، ما هي التمارين الرياضية التي يمكن للسيدة أن تواظب عليها، وتمكنها من الدخول إلى هناك. أما النصف الآخر، فكان مخصصاً للمطبخ، جُهِّز بموقد، له مدخنة صغيرة تمر من خلال السقف. احتوى أيضاً ثلاجة صغيرة، ودولاباً، بالإضافة إلى العديد من الصناديق، وقوارير المياه الكبيرة، وعدد قليل من أواني الطهي، وغيرها من الصحن الفخارية. كانت تلك الأغراض المذكورة آنفاً معلقة على الحائط، في مساحة يتبين أنها مخصصة لسيدة العربة، حيث باتت مكدسة بأغراضها، المزخرفة بحُلَيّ لامعة ومشركة، مثلما زُخرف المثلث الموسيقي والدُّفّان.

جلست سيدة العربية جوار إحدى النوافذ في جلال وعزة، وسط حس شعري أضفته عليها آلاتها الموسيقية، وجلست نيل وجدها في الجانب الآخر في تواضع، وسط الأواني الفخارية والصحون والغلاية، بينما تتأرجح العربية، وتسير ببطءٍ، تاركة حمرة الشفق، التي لا تزال تتخلل ظلمة الليل. في البداية، لم يتحدث المسافران غير كلمات قليلة، وكان حديثهما همسًا، لكنهما بعد أن أصبحا أكثر دراية بالمكان، شعرا بالألفة والراحة، فغامرا بالتحدث بحرية أكبر، متحدثين عن القرية التي مرا بها، والأمور الأخرى التي اختبرها معًا، حتى نام الرجل العجوز، حينها دعت سيدة العربية نيل؛ كي تأتي وتجلس إلى جوارها.

قالت: «حسنًا أيتها الطفلة! قولي لي إلى أي مدى تحبين السفر بهذه الطريقة؟».

ردت نيل عليها قائلةً إنها تعتقد أن السفر ممتع للغاية؛ حينها وافقتها السيدة على ما قالته، وخصت بالذكر أن السفر يكون ممتعًا حقًا، حينما يكون مع أشخاص من نفس طباعها. ثم خصت بالحديث نفسها قائلةً: إنها دائمًا ما تكون منزعجة بسبب افتقار روحها للحياة، عادةً ما تعوض عن ذلك بحافز روحي.. يعتبر ما قالته أنفًا إشارة خفية، حملت في مكنونها بشكل أو بآخر، تلميحًا لتلك القينة مجهولة المحتوى، أو لأي مصدر آخر غير معروف، لم تفصح عنه.

أكملت قائلةً: «إنها السعادة؛ أنتم أيها الصغار لا تدركون معنى أن يكون المرء مفتقدًا للحياة، لم يعد يشتهي شيئًا، وأصبح شعوره معطلًا، لا يكثرث لشيء البتة. أما أنتم أيها الصغار، فدائمًا ما يكون

لديكم الحافز الداخلي، الذي يحافظ على شهيتكم، ويا لها من راحة نفسية!». .

على الرغم من أنه قد كان لنيل رأي آخر، وأنها اعتقدت، أنه أمر طبيعي؛ فدائمًا كانت تفقد شهيتها بسهولة شديدة في بعض الأحيان، علاوة على أنها لم تجد أي أمانة بادية في مظهر السيدة الشخصي، حين كانت تتناول الشاي، توحى بأنها كانت فاقدة لشهيتها، مما يؤدي إلى استنتاج، مفاده أن حاسة تذوقها الطبيعية للحم وللمشروب هي السبب وراء كل ذلك، إلا أنها صدّقت على حديث السيدة، وأبقت على صمتها؛ كما ينص الذوق العام؛ وانتظرتها حتى تتحدث مجددًا.

ومع ذلك، عوضًا عن التحدث، جلست السيدة تنظر إلى الطفلة لفترة طويلة، ملتزمة الصمت، إلى أن وقفت وأخذت من ركن العربة لفافة كبيرة من القماش الكتاني، يبلغ عرضها حوالي ياردة كاملة، وضعتها على الأرض، وقامت ببسطها بقدمها، حتى وصلت تقريبًا من أقصى العربة إلى أقصاها.

قالت: «هنا أيتها الطفلة.. اقرئي ذلك».

تقدمت نيل، وقرأت بصوت عالٍ، ما نُقش عليها بأحرف سوداء كبيرة: «أعمال الشمع للسيدة جارلي».

قالت السيدة، بينما يغمرها شعور بالرضى: «اقرئي ذلك مرة أخرى».

كررت نيل: «أعمال الشمع للسيدة جارلي».

قالت السيدة: «إنها أنا.. أنا السيدة جارلي».

نظرت السيدة إلى نيل نظرة مشجعة مليئة بالحماس؛ تريد طمأنتها، وإعلامها أنها على الرغم من وقوفها إلى جانب السيدة جارلي الحقيقية، يجب ألا تدع نفسها ترتبك، وعليها أن تواصل التعامل كأن الأمر طبيعي.. بسطت السيدة لفافة أخرى، كان منقوشًا عليها: «مائة مجسم بالحجم الكامل نابض بالحياة».. ثم بسطت أخرى، نُقش عليها: «المجموعة الوحيدة المذهلة في العالم لأعمال الشمع الحقيقية»، ثم باتت تبسط بالتتابع لفائف أخرى أقل حجمًا، نُقش عليها: «الآن تُعرض داخل...»، «السيدة جارلي الأولى والوحيدة في مجالها...»، «المجموعة المتفردة للسيدة جارلي»، «السيدة جارلي هي بهجة النبلاء والشرفاء».. «العائلة المالكة رعاة للسيدة جارلي».. حينما فرغت من عرض تلك اللفائف الضخمة أمام أعين الطفلة المشدوهة، أحضرت عينات من أوراق في حجم الفواتير، كان بعضها يحوي محاكات ساخرة على نفس وزن الألحان الشعبية مثل: «صدقوني ما دامت أعمال الشمع للسيدة جارلي نفيسة»، «رأيت العرض في زهوة مجده»، «من فوق الماء إلى السيدة جارلي»... بينما راعت تلك العبارات كافة الأذواق، جاءت الأخرى أكثر طرافة، منتهجة روح الهزل؛ فقد تم تأليفها من أجل إضفاء المرح، كانت مثل المحاكاة الساخرة لمطلع: «إذا كان لديّ حمار..».

إذا كان لديّ حمار

وعلمت أنه لن يذهب

ويشاهد عرض السيدة جارلي المختار

هل تظن أنني سأبقى إلى جانبه في فعل الانتظار

أوه، لا لا لا!

سأركض بالتأكيد إلى هناك، وسأترك الحمام

إلى جانب العديد من المؤلفات النثرية الأخرى، التي تزعم كونها حوارات بين إمبراطور صيني وبين محار، أو حوار دار بين رئيس أساقفة مدينة كانتربري وأحد المنشقين حول ضرائب الكنيسة الأبرشية، لكن رغم اختلافها، كانت لديها الروح ذاتها، التي تقصد التهافت على عروض السيدة جارلي، وأنه مسموح بدخول الأطفال والخدم بنصف الثمن. حينما انتهت السيدة جارلي من إحضارها لكل الوثائق الدالة على مكانتها المهمة، لتعرضها على رفيقتها الصغيرة، طوتها جميعاً مرة أخرى، ووضعتها جانباً في حرص تام، ثم جلست إلى جوارها مرة أخرى، تنظر إلى الطفلة في ابتهاج، فرحة بالنجاح.

قالت السيدة جارلي: «إذن لا تذهبي أبداً مع رفقة بانش الساذجة؛ بعد أن رأيت هذا كله».

قالت نيل: «إنني لم أشهد من قبل أيّاً من أعمال الشمع يا سيدتي، هل هي أكثر إضحاكاً من عرض بانش؟».

قالت السيدة جارلي في صوت حاد: «أكثر إضحاكاً! إنها ليست مضحكةً بتاتاً».

تنهدت نيل في أعلى درجات القنوت: «أوه!».

أكدت السيدة جارلي على ما ذكرته سابقاً، قائلة: «إنها ليست مضحكةً بتاتاً.. إنها هادئة، وماذا يسعني أن أقول ثانية.. ترى ما هي

الكلمة المناسبة.. ناقدة مثلاً من النقد! لا.. بل إنها كلاسيكية، نعم هذه هي الكلمة المناسبة.. إنها هادئة وكلاسيكية. ليس بها طُرقات أو ضربات أو حتى صفعات، ليس بها دعابات أو صخب أو صيحات، مثل التي في عرض عزيزك (بانث)، لكنها في الواقع على الشاكلة نفسها، لا تتغير؛ دائماً ما تكون راقية وبسيطة، أو حتى تشبه الحياة، شبيهة بالكائنات الحية، أتعلمين إذا كانت أعمال الشمع تتحدث وتمشي فقط، ما كنتِ لتلمسين فارقاً بينها وبين الأحياء إلا بصعوبة بالغة. لا أريد أن أبالغ في الأمر وأقول: إنني رأيت أعمال شمع نابضة بالحياة، ورأيت ما هو نابض بالحياة فعلاً ويشبه بالضبط أعمال الشمع».

تيقظ فضول نيل تمامًا، جراء وصف السيدة، فسألت: «هل هي هنا يا سيدتي؟».

- ما الذي هنا أيتها الطفلة؟

- أعمال الشمع يا سيدتي.

- كيف! فليباركك الرب أيتها الطفلة؟ كيف يتصور لك أن تكون هذه المجموعة هنا، وقد رأيت كل شيء هنا عدا ما تحويه الخزانة وقليل من الصناديق المغلقة؟ لقد نُقلت في العربات الأخرى إلى غرفة التجميع؛ سوف يتم عرضها بعد غد. إنكِ ذاهبة إلى المدينة نفسها، التي سيتم عرضها فيها، وأنا متأكدة من أنكِ سوف ترينها. أن أتوقع رؤيتكِ لها، هذا أمر بديهي، فليس لديَّ أي شك في أنكِ ستفعلين ذلك. أحسب أنه إذا أُتيحت لكِ فرصة تجربة أمر مماثل، فلن تتواني عن ذلك أبداً.

قالت الطفلة: «أخشى ألا أكون في المدينة حينها يا سيدتي».

صاحت السيدة جارلي: «لن تكوني في المدينة! إذن أين يفترض بك أن تكوني؟».

- لا أعرف.. أنا.. أنا.. لست متأكدة تمامًا.

قالت سيدة العربية: «إنك حتمًا لا تقصدين قول إنك تسافرين حول البلد، دون أن تعرفي إلى أين أنتِ راحلة؟ كم أنتما مثيران للعجب وللفضول! إلى أي فئة تنتمين أيتها الطفلة؟ لقد نظرت إليك في السباقات، كما لو كنتِ لا تنتمين إليهم البتة، وأنكِ ذهبتِ إلى هناك مرغمة، أو بمحض الصدفة».

أجابت نيل، وقد تملك منها الارتباك بفعل ذلك الاستجواب المفاجئ: «لقد كان ذهابنا بمحض الصدفة، إننا فقراء يا سيدتي، ولا نملك أي شيء نفعله غير التجول هنا وهناك؛ بحثًا عن القوت.. لا نملك شيئًا آخر لنفعله.. كم أتمنى فعلًا لو كان لدينا».

ظلت السيدة جارلي صامتة لبعض الوقت، كما لو كانت جالسة بمفردها، ثم قطعت صمتها قائلة: «إنك تثيرين دهشتي أكثر فأكثر.. حسنًا! ماذا تسميان نفسيكما؟ لستما شحاذين؟».

ردت الطفلة: «بل نحن كذلك بالفعل يا سيدتي.. لا أعرف ماذا ينبغي علينا أن نكون غير ذلك».

قالت سيدة العربية: «فليحفظني الرب.. لم أسمع من قبل شيئًا كهذا، من كان يحسب ذلك؟».

الترملت السيدة الصمت بعد أن أدلت بتعجبها، بينما شعرت نيل بالخوف الشديد؛ خشية أن تكون قد استدرت تعاطفها، وجعلتها تتحدث مع شخص فقير مثلها، أو أن تكون قد أهانت كرامتها، حيث لا يشفع شيء عن ذلك. لكن ردها أتى ليكسر حاجز الصمت، في نبذة أكدت على هذا الرأي، قالت:

«لا يمكنني أن أتعجب أيضًا، إذا علمت أنك تجيدين القراءة والكتابة أيضًا.. أليس كذلك؟».

قالت نيل في صوت مرتعش؛ تخشى أن تقر بشيء خاطئ آخر، فيُحتسب عليها: «نعم يا سيدتي».

قالت السيدة جارلي: «حسنًا! أما أنا فلا أعرف!».

«فعلًا!». لفظت نيل تلك الكلمة بنبرة توحى ضمنيًا بأنها قد تفاجأت تمامًا لكن على نحو مقبول؛ بسبب اكتشافها أن السيدة جارلي الأولى والوحيدة، وبهجة النبلاء والشرفاء، ومن رعتها العائلة المالكة، تفتقد هذه المهارة البسيطة، لكنها فكرت في أنها سيدة عظيمة بالقدر الذي يجعلها لا تلتفت مطلقًا إلى مثل هذه الإنجازات العادية. على أي حال، عندما استقبلت السيدة جارلي رد فعل نيل، لم تُستفز، فتُكمل استجوابها، ولم تُستحث أيضًا، فتبدي أي ملاحظات أخرى في ذلك الوقت؛ لأنها ساعتها انغمست في تفكيرها صامتة، وظلت على هذا الحال لفترة طويلة، فانسحبت نيل من جانبها إلى حيث النافذة الأخرى؛ لتنضم إلى جدها من جديد، جدها الذي استيقظ الآن.

بعد مضيِّ فترة من الوقت، تخلصت سيدة العربة من انغماسها في التفكير، وانتفضت لاستدعاء السائق؛ كي يأتي لها أسفل النافذة التي جلست إلى جوارها، حينها جرت محادثة طويلة بينهما بصوت منخفض جدًّا، بدت السيدة كما لو كانت تطلب مشورته في أمر حتمي، وتناقش معه حيال إيجابيات وسلبيات شأن ذي أهمية بالغة. اختتمت هذه المناقشة أخيرًا بعد إسهاب، والتفتت مرة أخرى إلى الداخل، ثم أشارت إلى نيل كي تقترب منها.

قالت السيدة جارلي: «حريُّ بالسيد العجوز أن يأتي أيضًا؛ أريد أن أحادثه في أمر.. قل لي أيها السيد، هل تريد أن تنعم حفيدتك بأمر جيد؟ إذا أردت ذلك، فبإمكاني أن أمهد لها السبيل، وأتيح لها الفرصة.. ها قل لي ما رأيك؟».

أجاب الرجل العجوز: «لكنني لا أستطيع أن أتركها.. لا يمكننا أن نفصل عن بعضنا مطلقًا. مَنْ سأكون من دونها؟».

ردت السيدة جارلي بلهجة حادة قاسية: «أحسب أنك كبير بما فيه الكفاية، كي ترعى شؤونك الخاصة، وتكون قادرًا على الاهتمام بنفسك.. إذا صح التعبير أيها السيد».

قالت الطفلة في همسات جدية: «إنه غير قادر على ذلك.. أخشى أن يكون غير قادر على الإطلاق.. من فضلك حبًّا في خالك، لا تتحدثي معه بهذه القسوة.. إننا شاكرون جدًّا لأفضالك علينا، ولكننا..». ثم قالت بصوت عالٍ: «لن نفصل عن بعضنا أبدًا، ولو نُصِّفت ثروات العالم أجمع بيننا».

شعرت السيدة جارلي بقليل من الارتباك بسبب الرد الذي تلقتة على اقتراحها، فوجهت ناظرها إلى الرجل العجوز، الذي أمسك يد نيل في حنان، وقد أحكم عليها قبضته؛ كما لو كان في إمكانها الاستغناء عن صحبته، أو عن وجوده على وجه الأرض بالكلية. بعد لحظة صمت مريبة طالت بينهم، دفعت السيدة رأسها إلى خارج النافذة مرة أخرى؛ وانفردت باجتماع آخر مع السائق، فتناقشا في بعض النقاط، التي اتضح أنهما لم يصلا إلى قرار سريع وسهل بشأنها، كما كان الحال في النقاش السابق، لكنهما اختتما النقاش على أي حال، والتفتت السيدة إلى الداخل، وتحدثت إلى الجد مرة أخرى.

قالت السيدة جارلي: «حسنًا! إذا كنت ترغب جدًّا في عمل أي شيء؛ كي تكون إلى جوارها، فسيكون هناك الكثير كي تفعله على سبيل المساعدة، مثل إزالة الغبار عن الأشياء، وأخذ الفواتير، وما إلى ذلك. أما عن المطلوب من حفيدتك، فستكون وظيفتها هي أن تقتاد الناس نحو جماعتنا، ومن ثمَّ تحيطهم علمًا بالأعمال، أحسب أن لديها طريقتهما الخاصة، في جذب الانتباه وإضفاء السرور على الناس، على الرغم من أنها أقل مني قدرة في هذا الشأن طبعًا.. لطالما اعتدت على التجول بين الزائرين بنفسي، وأحسب أن الاستمرار في هذا الفعل أمرٌ ضروريٌّ، لكن روعي المعنوية باتت تحثني دائمًا بأن القليل من الراحة قد أصبح أمرًا أكثر ضرورة الآن. إن العرض الذي أقدمه لك غير شائع، ونادر ما يُعرض على أحد، فكر فيه مليًّا، وضع هذا في اعتبارك». ثم قالت السيدة في لهجة اعتادت على أن تخاطب بها جماهيرها، وقد رفعت

صوتها عاليًا: «إنها أعمال الشمع للسيدة جارلي، تذكر هذا.. المثال الحي للأناقة والتألق. إن الواجبات المفروضة عليكما يسيرة وراقية، وكل شيء مجهز بدقة، ستكون أماكن العرض في غرف التجميع، وقاعات البلدة، والغرف الكبيرة في النزل، وصلات عرض المزادات. تذكر جيدًا أن لا مجال للتسكع في رحاب السيدة جارلي، احرص جيدًا على ألا توجد قطعة قماش أو نشارة خشب في أي مكان في رحاب السيدة جارلي. إن كل التفاصيل مكتوبة بدقة وإسهاب في المنشورات الإعلانية، حتى هذه اللحظة نحن متفردون تمامًا في إضفاء إشراقة براءة منقطعة النظر على هذه المملكة. تذكر جيدًا أن رسوم الدخول ستة بنسات فقط، وأن هذه فرصة لن تتكرر مرة أخرى!».

بعد أن انتهت من طرح تلك النقطة، اندثرت كبرياء السيدة المهية على نحو مفاجئ، وانتقلت إلى مناقشة نقطة أخرى تتعلق بالحياة العادية؛ فشرعت في الإشارة إلى الأجور، وقالت: إنها غير ملزمة إطلاقًا بدفع أجر مخصص لنيل، حتى تختبر قدراتها بشكل كافٍ، وتراقبها عن كثب أثناء قيامها بواجباتها. لكنها ذكرت أن كل ما يخص المأكل والسكن، هي ملزمة بتوفيره لها ولجدها، علاوة على ذلك، أوضحت بكلمات أخرى مفادها أن المأكل سيتوافر لهما بجودة عالية وبكميات وفيرة.

تساورت نيل مع جدها بشأن ما أوصحته السيدة لهما، وبينما كانا منخرطين في حديثهما، تمشت السيدة ذهابًا وإيابًا في العربة، في جلال مهيب، وعلو شأن عظيم، تعقد يديها خلف ظهرها، مثلما كانت تمشي

في السابق في الأرض المقفرة بعد أن فرغت من تناول الشاي. لم يَئُدْ فعل السيدة فعلاً هامشيّاً، لا يستحق الذكر؛ إذا ما تذكرنا حركة العرب غير المستقرة، المتأرجحة طوال الوقت، فلن يستطيع أحد الثبات وعدم الترنح غير شخص ذي جلال مهيب فطري وكياسة مكتسبة.

التفتت نيل إليها، فصاحت السيدة جارلي من فورها، وقالت: «ماذا الآن أيتها الطفلة؟».

قالت نيل: «إننا طوع أمرُك يا سيدتي، ونشكرُك جدّاً على العرض الذي قدمتيه لنا».

قالت السيدة جارلي: «لن تأسفي على قبولك عرضي أبداً. إنني متأكدة تمام التأكد من ذلك. أصبح كل شيء على ما يرام الآن، فدعونا نتناول العشاء معاً».

في غضون ذلك، أخذت العربّة تتخبط وتتأرجح أكثر فأكثر، كما لو أنها شربت جعة أيضاً، وغلب عليها ترنح السكر، على كل حال وصلت العربّة أخيراً إلى شوارع المدينة المرصوفة، كانت هادئة تماماً، وخالية من المارة والمسافرين؛ فقد شارف الوقت على منتصف الليل، وأمسى سكان المدينة أجمعون في أسرهم. كان الوقت متأخراً جدّاً من أجل إجراء أي تعديل على غرفة العرض، لذلك عرجوا جانباً إلى أرض جدباء، تقع مباشرة إلى جانب بوابة البلدة القديمة، وأقاموا بها ليلتهم، إلى جانب عربّة أخرى، كان معلقاً عليها لوحة قانونية، حملت الاسم العظيم لجارلي، وإلى جانبها إثباتٌ لمليكيته لأعمال الشمع، التي تعتبر فخراً لبلدها، موثقة بعلامة تجارية، ومرقمة أيضاً -سبعة آلاف ومائة-

كانت متوقفة هناك، كما لو كانت شحنتها الثمينة مجرد دقيق أو فحم! أمست تلك العربة غير المستخدمة الفارغة - حيث أودعت أحمالها في مكان العرض، وبقيت في ذلك المكان، رهن احتياجهم لها مرة أخرى - مكاناً لنوم الرجل العجوز، يبيت فيه ليلته، داخل جدرانها الخشبية، أعدت نيل أفضل سرير، يمكنها أن تعده بالإمكانات المتاحة حولها. أما بالنسبة لها، فقد أعدت فراشها في عربة السفر الخاصة بالسيدة جارلي؛ علامة بينة على أن تلك السيدة قد حظت على تفضيلها وثقتها.

تركت نيل جدها نائماً، بينما كانت عائدة إلى العربة الأخرى، افتتحت بهدوء الليل، ونعمت بنسماته المنعشة، فانتظرت قليلاً في الهواء الطلق. انعكس ضي القمر اللامع على بوابة البلدة القديمة، تاركاً الممر المنخفض مظلمًا، يسود فيه الليل الحالك، على الرغم من شعورها بالخوف، انتابها الفضول في الآن ذاته، فاقتربت من البوابة ببطء، ووقفت مكتوفة اليدين، تنظر عبرها، مندهشة؛ كم بدت قديمة باردة مظلمة قاتمة!

كانت هناك مشكاة فارغة، يبدو أنها قد كانت مكاناً لتمثال ما قديم، إما سقط عن مكانه، وإما نُقل إلى مكان بعيد منذ مئات السنوات، بينما كانت واقفة مكتوفة اليدين، تفكر فيما يراه الغرباء، حينما يقفون في ذلك المكان، وكم من صعوبات قد واجهتهم، وكم من جرائم شنيعة قد ارتكبت، على تلك الرقعة الحالكة التي يطبق عليها الصمت، زحف خيال فجأة أسفل البوابة المقنطرة، تبين أنه خيال لرجل ما. لكنها في

اللحظة التي ظهر فيها، تمكنت من التعرف عليه -فمن يخطئ في التعرف عليه-، لقد كان كويليب القبيح مشوه الشكل بشحمه ولحمه! كان الشارع ضيقًا حالكًا، يشيع فيه بدرجة طاغية سواد ظلال البيوت المصطفة على جانب واحد منه، ظهر فيه فجأةً كأنه انبثق من الأرض. لا يهم الآن من أين أتى، فقد أمسى موجودًا أمامها. انزوت الطفلة سريعًا في ركن مظلم، وبقت صامتة مرتعدة، وهي تراه يمر على مقربة منها. ابتعد عن ظلال البوابة، وباتت ملامحه ظاهرة، ساعتها استند إلى البوابة، ونظر إلى الوراء مباشرة، نحو المكان التي كانت تختبئ فيه بالضبط، أو مأ برأسه وأشار نحوها في فتور بالغ..

هل كان يشير إليها؟ لا! حمدًا للخالق، لم يكن يشير إليها.. كانت الطفلة تقف منكماشة في نفسها، يتملك منها الخوف، ترتعد بالكلية، مترددة، لا تعرف إذا كان عليها أن تصرخ طالبة للنجدة، أم تبرح مكانها وتلوذ بالفرار سريعًا، لكنه قبل أن يصبح على مقربة أكبر منها، ظهر خيال آخر أسفل البوابة المقنطرة، تبين أنه خيال لصبي صغير، يحمل صندوقًا على ظهره.

صاح كويليب، ناظرًا عبر البوابة القديمة، وقد بدا في ضوء القمر، كأنه وحش ليلي، انبثق من الظلام، ملتفتًا إلى الوراء، كأنه يلقي نظرة خاطفة على منزله القديم، وقال: «أسرع أيها الفتى.. أسرع!».

قال الصبي مستعطفًا: «إنه حمل ثقيل جدًا يا سيدي.. إنني أمشي حقًا بأقصى سرعة لدي».

دمدم كويليب: «تأتي بأقصى سرعة لديك! إنك تأتي زاحفًا أيها الكلب! إنك تقيس سرعتك بالنسبة إلى سرعة دودة. هل تسمع دقات الساعة، إنها الثانية عشرة والنصف صباحًا».

توقف لوهلة؛ كي يستمع إلى دقات الساعة، ثم اندفع تجاه الصبي على نحو مفاجئ في ضراوة شديدة، وسأله في أي ساعة تمر حافلة لندن عند زاوية الطريق، أجابه الصبي من فوره قائلاً في تمام الواحدة صباحًا. قال كويليب: «فلتسرع إذن، وإلا سأكون متأخرًا.. هيا أسرع.. أسمعني؟ أسرع».

بذل الصبي قصارى جهده؛ كي يسرع من خطواته، بينما استمر كويليب في فعله، يتقدم خطوات، ثم يلتفت، ينهال عليه بعبارات تهديدية، ويحثه على الإسراع أكثر فأكثر. لم تجرؤ نيل مطلقًا على أن تحرك طرفًا لها، ظلت ساكنة، حتى غابا عن الأنظار تمامًا، ولم تعد تسمعهما، حينها هرعت إلى المكان الذي تركت فيه جدها، لا يشغل عقلها إلا أنه حيثما تواجد القزم على هذا القرب منه، فسوف يتتاب جدها الفزع، وتعتريه الرهبة. لكنه كان نائمًا بعمق، فانسحبت في هدوء.

بينما كانت عائدة في خطوات ثقيلة إلى فراشها، عقدت العزم على عدم التفوه بأي كلمة، تخص ما واجهته في ليلتها، بغض النظر عن السبب الذي من المحتمل أن يكون قد أتى بالقزم إلى هنا -على الرغم من أنها كانت مرتعدة؛ خشية أن يكون السبب الأساسي هو بحثه عنهما- اتضح من خلال استفساره عن حافلة لندن، أنه عائد إلى منزله، وبناءً على قدومه إلى هذا المكان ثم رحيله عنه، سيكون من المنطقي

افتراض كونهما في أمان في هذا المكان، عن أي مكان غيره، وأنهما قد سلما من تحقيقاته عنهما. على الرغم من افتراضها ذلك، لم يهدأ اضطرابها، فقد كانت مرعوبة لدرجة أنها لم تستطع استعادة رباط جأشها، شعرت كما لو أن كويليب يطوقها من كل اتجاه، وأن ذرات الهواء كله عبارة عن حشود من كويليب نفسه.

أما عن بهجة النبلاء والطبقة العليا وموضع رعاية العائلة المالكة، والمزايا الأخرى التي احتفظت بها في قرارة نفسها، فقد افترشت سريرها في عربة السفر، وأمست تغط في نوم عميق، في سلام تام، بينما تتلأأ حولها انعكاسات براقّة، بفعل سقوط ضوء خافت للمصباح المتدلى من السقف، على أربطة القبعة المزخرفة، الموضوعة بحرص على الطبلّة. لقد أُعدَّ فراش الطفلة على الأرض، وأمسى من دواعي ارتياحها، أن تسمع وقع الأقدام يبرح المكان فور دخولها، وأن همسات من الخارج، والباب المغلق، والمطرقة النحاسية، سوف تحجب أي خطر عنها. بالإضافة إلى سماعها لصوت همهمات متداولة بين الحين والآخر في الخارج عبر أرضية الغرفة، وسماعها صوت حفيف قش، ما جعلها تدرك أن السائق، قد افترش الأرض بالقرب من العربة، مما أضفى عليها شعورًا إضافيًا بالأمان.

على الرغم من كافة سبل الحماية التي حظت بها، لم تهنأ نيل بأي قسط من النوم؛ بسبب نوبات اضطرابها وقلقها طوال الليل؛ خوفًا من كويليب الذي تجسد في أحلامها كلها، فباتت تحلم به مع أعمال الشمع، أو هو نفسه من تجسد في هيئة تمثال شمع، أو تجسد لها في

صورة السيدة جارلي وأعمال الشمع معًا، أو حتى تجسد في كافة تلك الأشكال معًا، على الرغم من أنه لم يشبه أيًا منها. لكن النوم العميق انتصر أخيرًا على قلقها في نهاية ليلتها، فأجبرها على أن تغمض عينيها، وتكف عن مراقبة ما حولها في تيقظ مضطرب، منتشلًا إياها إلى بؤرة لا وعي، تنعم فيها براحة لا تُعوض ولا يضاهيها مثيلٌ.



الفصل الثامن والعشرون

هيمن النوم على جفني الطفلة لفترة طويلة عندما استيقظت، كانت السيدة جارلي في كامل رونقها، معمرة قبعتها الكبيرة ذات الأربطة المزخرفة، ومنهمكة فعلياً في إعداد الإفطار. استقبلت اعتذار نيل عن نومها إلى وقت متأخر بروح عطوفة، قائلة لها إنها لم تكن تنوي أن توقظها، ولو نامت حتى الظهر.

قالت سيدة العربية: «إن النوم مريح لك، خاصةً عندما يتتابك التعب، إنه بمثابة تخلص من إرهاق الأيام الشاقة، لذلك يجب على المرء أن ينال قسطاً كافياً من النوم، حتى يشعر أنه استعاد كامل عافيته.. إن النوم بمثابة استمتاع من نوع آخر لأوقاتنا في الحياة.. كم كنت هادئة في نومك».

سألت نيل: «هل كانت ليلتك سيئة يا سيدتي؟».

ردت السيدة جارلي متنهدة، متقمصة دور الضحية: «نادرًا ما تكون غير ذلك أيتها الطفلة، لدرجة أنني أتساءل أحياناً، كيف أصبحت صامدة إلى الآن».

لكن مع تذكر أصوات الغطيط، التي ترددت من ذلك الشق الموجود في العربة، القادم من الجزء المخصص لمالكة أعمال الشمع طوال الليل، اعتقدت نيل أن ما سمعته ربما كان ضمن أحلامها التي راودتها طوال الليل، حتى وهي يقظة. لذلك أعربت عن أسفها الشديد لسماع مثل هذا الوصف المحزن لحالتها الصحية والنفسية، وبعد وقت قصير، جلست هي وجدها والسيدة جارلي كي يتناولوا الإفطار معًا. بعد أن أنهوا وجبتهم، تطوعت نيل لتغسل الصحون والأكواب، وتضعها في أماكنها المحددة، إلى جانب القيام بالأعمال المنزلية الأخرى الاعتيادية، أما عن السيدة جارلي فقد وضعت على كتفها شالًا براقًا؛ بغرض لفت الانتباه والاستحواذ على الأنظار في شوارع المدينة.

قالت السيدة جارلي: «سيأتي أحدهم؛ كي يحمل هذه الصناديق، حريٌّ بك أن تأتي في العربة أيتها الطفلة.. إنني مرغمة على السير؛ اتباعًا لرغبات الناس، حتى لو كان عكس ما تمليه عليَّ رغبتني، أو ضد إرادتي تمامًا، يجب عليَّ أن أفعل دائمًا ما يتوقعون مني فعله؛ فلا يمكن للشخصيات العامة في هذا الصدد أن يكونوا مالكي أو مالكات أنفسهم أو أنفسهن.. على أي حال، قولي لي كيف أبدو أيتها الطفلة؟».

ردت نيل عليها بإجابة مُرضية، أسعدتها، حينئذ أخذت السيدة تضع العديد من الدبابيس في أجزاء مختلفة ومتفرقة من زيها، محاولةً دون جدوى الالتفات مرارًا وتكرارًا؛ كي تحصل على رؤية كاملة لظهرها، لكنها في النهاية، رضيت أخيرًا عن مظهرها، وخرجت في جلال مهيب. لم تكن العربة قد تحركت مسافة كبيرة، بينما كانت تخرق شوارع

البلدة، إلّا وكان الفضول قد استحوذ على نيل تمامًا، تريد أن ترى أي الأماكن قد حلوا فيها، لذلك أخرجت رأسها من النافذة، على الرغم من خوفها المتزايد مع كل طرفة عين من رؤية وجه كويليب اللعين. لقد كانت بلدة كبيرة وجميلة، بها ساحة فسيحة، تقدموا عبرها ببطء، تقع في منتصفها قاعة البلدة، التي اعتلى مبناها ساعة ودوارة الرياح. وكان على جانبي الطريق بيوت من الأحجار، وبيوت من الطوب الأحمر، وبيوت من الطوب الأصفر، وبيوت من الخشب والجص، وبيوت أخرى خشبية، كان معظمها قديمًا جدًا، مطوقًا بمنحوتات لوجوه على العوارض، تبدو كأنها تحديق في الشوارع. كانت نوافذ البيوت قليلة جدًا، وأبوابها مقنطرة منخفضة، لدرجة أنها في بعض الطرقات الأكثر ضيقًا، تعلو الأرصفة بالكاد. بدت الشوارع نظيفة إلى أبعد حد، ومشرقة، غير مزدحمة على الإطلاق، لكنها مضجرة بعض الشيء. لم يكن بها غير عدد قليل جدًا من الرجال المتسكعين حول النزلين، وفي الأسواق الخاوية، وأمام الدكاكين التجارية، وقليل من العجزة الذين غلبهم النعاس على مقاعد، مصفوفة بمحاذاة حائط بيت صدقة، إذا تراءى لأي مسافر أن يمر في شوارعها، ليرى معالمها، لتردد صدى صوت وقع أقدامه على الأرصفة الساخنة في الأفق لبضع دقائق، حتى بعد مغادرته. لم يكن أي شيء فعالاً أو نابضاً بالحركة غير الساعات، ذات الأشكال الغريبة، وعقاربها المتمهلة التي تصدر صريراً، يؤكد على سرعتها البطيئة، وتوقيتها المتأخر. كانت جميع كلاب الشوارع منبطحة على الأرض، نائمة أسفل أشعة الشمس، أما الذباب فكان يطن،

ناسيا أجنحته وفرط حركته، ليلتصق ماصًا السكر الرطب، في محلات البقالة، أو أن يُشوى حتى الموت من لفحة الشمس، في الجوانب المغبرة للنوافذ.

بعد أن أحدثت العربة ضجة من صرير تقشعر له الأبدان، توقفت أخيرًا أمام مكان العرض، حينئذ ترجلت نيل، وسط مجموعة رائعة من الأطفال، الذين باتوا ينظرون إليها في لهفة، بأعين تشع منها الدهشة والفضول؛ يحسبون أنها ضمن مجموعة أعمال الشمع، وأن جدها نفسه تمثال متقن للغاية من الشمع. أُخرجت الصناديق كاملة من الحافلة، ووضعت في حيازة السيدة جارلي، التي كانت منتظرة بصحبة جورج، ورجل آخر يرتدي سروالًا مخمليًا وقبعة سمراء مزينة بتذاكر الدخول، إلى أن يتم ترتيب المحتويات كافة -التي كانت عبارة عن أكاليل حمراء وغيرها من الحاجيات الأخرى اللازمة للتزيين وأعمال التنجيد- اللازمة لإضفاء أفضل زينة على الغرفة.

تحضروا جميعًا للعمل دون إضاعة للوقت، فأصبحوا يكدون في أعمالهم كافة. كانت المجموعة المتفردة مغطاة بالقماش بالكامل؛ خشية أن يجد الغبار إليها ثغرة، فيُفسد من إطلالتها، كرس نيل نفسها للمساعدة في تزيين الغرفة، إلى جانب جدها الذي انهمك هو الآخر في مساعدتهم بجهد مذكور. أما الرجلان فقد أنجزا العديد من المهام في وقت قصير بهمة نشطة، أما السيدة جارلي فقد خدمتهم عن طريق توفير الدبابيس المصنوعة من القصدير والتي أخرجتها من الجيب الكتاني -كانت قد وضعتها مسبقًا لهذا الغرض من الأساس - أخذت تُحمّسهم

وتحُثُّهم على العمل وتجدد من عزمهم.

بينما كانوا منهمكين في أعمالهم، ظهر رجل طويل ذو أنف معقوف وشعر أسود، يرتدي معطفًا عسكريًا قصيرًا جدًا، ذا أكمام ضيقة، وجدائل مطرزة وأبازيم في كل جزء منه، لكنه الآن مع الأسف أصبح في حالة رثة، يكاد يكون تطريزه مقطوعًا بالكامل، كان يرتدي سروالًا رماديًا قديمًا، يناسب حجم ساقه بالضبط، ويتنعل حذاءً يتناسب بالكاد مع فصل الشتاء، تقدم من الباب، وابتسم في لطف ملحوظ. كانت السيدة جارلي في ذلك الحين تقف مولية ظهرها إليه، هز الرجل العسكري سبابته؛ ناهيًا الجميع عن إطلاعها على وجوده، مشى على أطراف أصابعه في هدوء تام، حتى اقترب منها، ثم لمس رقبتها صارخًا: «بوووه!».

صاحت سيدة أعمال الشمع: «ماذا! أوه! السيد سليم.. يا لها من فترة طويلة قد مضت حقًا! مَنْ كان يظن أنني سأراك هنا!».

قال السيد سليم: «أوه! إنه من دواعي سروري واعتزازي، إنه شرف لي، إنها ملاحظة جيدة من سيادتكم.. إنه من دواعي سروري واعتزازي، إنه لشرف لي، إنها ملاحظة حكيمة من سيادتكم.. مَنْ كان يظن ذلك فعلاً! أوه! جورج.. رفيقي المخلص الأمين، كيف حالك؟».

تلقى جورج هذا الترحيب بلا مبالاة مؤكدة، مشيرًا أنه جيد بما فيه الكفاية، مفتعلًا طرقات مدوية طوال الوقت.

قال الرجل العسكري، ملتفتًا إلى السيدة جارلي: «لقد أتيت إلى هنا، وإنه من دواعي سروري واعتزازي أن أفعل ذلك، لكنني بالكاد

أعرف لأي سبب قد جئت. إن الأمر محير تمامًا، كيف لي أن أخبرك؛ أنجذني يا جاد^(١٤). إنني أريد بعض الإلهام والانتعاش وتغيير أجواء أفكارى..». ثم تابع الرجل العسكري متلفتًا ينظر في أنحاء الغرفة ومتفقدًا نفسه: «إنه من دواعي سروري واعتزازي أن أقول لك كم تبدو الأجواء كلاسيكية رائعة، أوه أنجذني يا جاد! إنها أعمال تتبع إلهة العقل والحكمة وربة المهارات والحرف اليدوية (مينيرفا)».

قالت السيدة جارلي: «ستبدو أكثر حُسنًا، حينما ننتهي وتصبح جاهزة للعرض».

قال السيد سليم: «عظيم جدًّا! هل تصدقيني إذن حينما أقول إنه من دواعي سروري واعتزازي في هذه الحياة أن أكون منخرطًا في الشَّعر، كي أسخر قلبي في مدح تلك التحف الساحرة؟ بالمناسبة.. أي أوامر؟ هل هناك أي شيء يمكنني فعله من أجلك؟».

قالت السيدة جارلي: «إنها باهظة الثمن للغاية.. ولا أحسب أنها جيدة».

رد السيد سليم، رافعًا يده: «صه! لا لا! لا تفوهي بتراهات واهية. لن أسمع لك أبدًا. لا تقولي إنها ليست جيدة. فأنا أعرف ما هي عليه أكثر منك!».

قالت السيدة جارلي: «لكنني لا أحسب أنها جيدة بما يكفي».

صاح السيد سليم: «ها ها! إنك تفسحين الطريق، إنك تمهدين

(١٤) ابن يعقوب وزلفة.

الطريق نحو سقوطك. أسألي العطارين، أسألي ملمعي الأحذية، أسألي صانعي القبعات، أسألي مالكي مكتب اليا نصيب القديم، أسألي أي رجل منهم، ماذا فعلت له أشعاري، واستمعي إلى ما أقوله جيداً، خذي كلامي بعين الاعتبار.. إنهم يمجّدون اسم سليم. إذا كان رجلاً أميناً صادقاً ذا حس فني، فسوف يوجه عينيه صوب السماء، ويمجد اسم سليم.. خذي كلامي بعين الاعتبار! هل أنتِ على صلة بدير (وستمنستر آبي) يا سيدة جارلي؟».

- نعم، بالتأكيد.

رد السيد بحسم، ناقرأ على جبينه بطريقة تعبير، تلمح إلى أن ما وراء جبينه ليس إلا فتات ذكرى صغيرة: «إذن سيكون من دواعي سروري واعتزازي يا سيدتي، أن أبلغك أن هناك بكل تأكيد في زاوية ما من مجموعة البنات الكئيبة، ركنًا يُسمّى (ركن الشعراء) إنها أسماء أقل شأنًا من اسم سليم بكل تأكيد، أحسب أن معي القليل من الأشعار هنا..». خلع السيد قبعته، وقد كانت تعج بقصاصات ورق، قائلاً: «إن معي القليل منها هنا.. على الرغم من أن ما سأقترحه عليك الآن سيكون دون تفكير أو حتى تدبير، لكنني أكاد أجزم أن ما سأطرحه عليك هو ما ترغبين في سماعه نفسه، وهو ما سوف يملأ ذلك المكان تهليلاً. إنها قصيدة، تُدعى في هذه اللحظة (المكان المكتظ) إن فكرتها قابلة للتغيير، لكنها مفعمة بالإلهام الإيجابي، إنها من أجل السيدة جارلي فقط. هل ستأخذين القصيدة؟».

قالت السيدة جارلي: «حسنًا! أحسب أنها مميزة».

قال السيد سليم، مستخدماً قلمه كأنه مسواك: «خمسة شلنات
إذن.. أرخص من أي نص نثري».

قالت السيدة جارلي: «لا لن أعطي في مقابلها أكثر من ثلاثة
شلنات».

قال سليم بحسم: «..اجعليها ثلاثة شلنات وستة بنسات.. هيا!
ثلاثة شلنات وستة بنسات».

لم تُبِد السيدة جارلي أي اعتراض على الطريقة التي تعامل بها
الشاعر، فقد دَوَّن السيد سليم من فوره في دفتر ملاحظاته الصغير:
«ثلاثة شلنات وستة بنسات»، ثم سحب من فوره القصيدة، عازماً على
أن يجري عليها بعض التعديلات، وبعد أن أظهر الكثير من الود لراعيته
السيدة جارلي، غادر، واعدًا بأنه سيعود مرة أخرى في أقرب وقت
ممكن، مع نسخة معدلة للطباعة.

لم تتأثر استمرارية أعمال التحضير على الإطلاق أثناء تواجده،
فلم تنقطع أو تتوقف، كانوا قد قطعوا شوطاً طويلاً بالفعل، لدرجة
أنهم انتهوا مباشرة من كافة التحضيرات بعد وقت قصير من مغادرته.
بمجرد أن انتهوا من تعليق أحبال الورد جميعها في أناقة مبهرة، كشفوا
الغطاء عن المجموعة المتفردة كاملةً، وعرضوها على منصة مرتفعة
على بعد قدمين من الأرض، موازية لحوائط الغرفة، وطوقوها بحبل
قرمزي؛ ليفصلها عن الجمهور الفضولي اللفظ، كانت عبارة عن تماثيل
لشخصيات مشهورة، سواء أكانوا فرادى أم في مجموعات، في ثياب
تحاكي أوقاتاً وعصوراً مختلفة، تقف في ثبات أو في غير ثبات على

أرجلها، وأعينها واسعة جدًا وجاحظة، وفتحات أنوفها كبيرة جدًا، أما عضلات أذرعها وأرجلها فقد سُكِلت في تصوير دقيق للغاية، سادت على وجوهها جميعاً تعبيرات الاندهاش العارم. كان كل السادة ذوي صدور جوَّية عالية، وذقونهم تميل إلى الزرقاء، أما السيدات فكنَّ في غاية السحر، أما السادة والسيدات معاً فكانوا لا ينظرون إلى مكان محدد، يحدقون فقط بملامح وجوه متيِّسة إلى اللا شيء.

عندما استنفدت نيل كامل دهشتها في النظر إلى المعروضات النفيسة وهذا المشهد المهيِّب، أمرت السيدة جارلي بإخلاء الغرفة تماماً، على أن تبقى هي والطفلة بمفردهما، حينها جلست على كرسي بمسندين وسط الغرفة، وقدمت لنيل بشكل رسمي عصا من خشب الصفصاف؛ كانت قد استخدمتها لفترات طويلة؛ للإشارة بها على شخصيات العرض، وفي مشقة مضنية أخذت توجهها وتبين لها واجباتها المكلفة بها.

قالت السيدة جارلي في لهجتها التي اعتادت أن تتحدث بها أمام الجماهير في العرض، بينما تشير نيل إلى أحد الشخصيات الموجودة على طرف المنصة: «هذه.. كانت إحدى الوصيفات في عصر الملكة إليزابيث، ماتت بسبب وخزة في إصبعها نتيجة لعملها في أحد أيام الآحاد. لاحظوا شكل الدم الذي كان يتدفق من إصبعها، والإبرة ذات الرأس الذهبية التابعة لذلك العصر، التي كانت تعمل بها».

كررت نيل كل ما قالته السيدة مرتين أو ثلاث مرات، مشيرة إلى الإصبع والإبرة في الأوقات المناسبة، ومن ثمَّ انتقلت إلى التمثال التالي.

قالت السيدة جارلي: «أما عن هذا سيداتي سادتي فهو (جاسبر باكليمرتون) صاحب الذكرى الشنيعة، فقد تودد إلى أربع عشرة امرأة وتزوج منهنّ جميعاً، سعى إلى تدميرهن، عن طريق دغدغة باطن أقدامهن، بينما كنّ نائمات في كل براءة وفضيلة. حينما أحضره إلى المشنقة، سُئل عما إذا كان آسفًا حيال ما فعله، قال نعم إنه آسف، لكن أسفه بسبب أنه جعلهن يرحلن بتلك السهولة، متمنيًا أن يعفو الأزواج جميعهم عنه ويغفروا له تلك الذلة. لذلك على كل سيدة شابة أن تأخذ من ذلك عبرة وعظة وأن تتحرى الدقة في اختيار الزوج. لاحظوا شكل أصابعه الملتوية، كما لو كانت بسبب قيامه بالدغدغة، وانظروا إلى هذا الوجه، وإلى تلك الغمزة التي تعتلي عينيه، كما لو كان ماثلاً أمامكم حين ارتكابه لتلك الجرائم الوحشية.

حينما ألّمت نيل بكافة المعلومات حول السيد باكليمرتون، وأصبح في إمكانها ذكر ما قالته السيدة دون تلعث، انتقلت السيدة جارلي للحديث عن الشخصية التي تليه، انتقلت إلى الشخص السمين، ثم إلى النحيف، ثم إلى الرجل الطويل، ثم إلى القصير، ثم إلى السيدة العجوز التي توفيت جراء رقصها في عمر المائة واثنين وثلاثين عامًا، ثم إلى صبي الأدغال، ثم إلى المرأة التي تسببت في تسمم أربع عشرة عائلة بالجوز المخلل، ثم تابعت على نفس المنوال، تحكي قصصًا شيقة عن كل الشخصيات التاريخية الأخرى، المثيرة للاهتمام والمضللة في الآن ذاته. هكذا استفادت نيل من إرشادات السيدة لها، وأصبحت مستعدة تمامًا لذكرها كاملة، فبعد أن مر عليهما ساعتان كاملتان في عزلةتهما

معاً، أصبحت نيل ملمةً تماماً بتاريخ المؤسسة كاملاً، ومؤهلةً بالقدر الكافي لتنوير الزوار.

لم تتوانَ السيدة جارلي عن إبداء إعجابها الشديد بتلك النتيجة المدهشة، أخذت رفيقتها الشابة وتلميذتها النجيبة؛ لتفقد الترتيبات المتبقية في الغرفة، لقد غُيِّرَت هيئة الممر تماماً، وأصبح كأنه بستان من الجوخ الأخضر، معلق عليه العبارات المقتبسة -أعمال السيد سليم- التي رأتها بالفعل في السابق، وزُينت الطاولة بزخرفة مبهجة، حيث وضعت في الجانب العلوي، المخصص للسيدة جارلي نفسها، حيث تجلس على رأس الطاولة وتأخذ الأموال، في صحبة جلالة الملك (جورج الثالث)، والسيد (غريمالدي) القائم بدور المهرج، والسيدة (ماري) ملكة إسكتلندا، وأحد أفراد الجماعة البروتستانتية، والسيد (بيت) الذي كان يحمل في يده، النسخة المعدلة لفاتورة الرسوم الضريبية النافذة. لم تُهمل متابعة التجهيزات خارج غرفة العرض أيضاً، فقد وجدت راهبة بهيئة عظيمة لافئة للأنظار، تقف كأنها تتلو صلواتها عند الرواق الصغير إلى جانب الباب، ومنادياً ذا رأس شعره أسود قاتم، وبشرة صافية تماماً، يجوب المدينة في عربة؛ عارضاً صورة مصغرة لسيدة.

فور انتهائهم، أخذوا بعين الاعتبار وجوب توزيع مؤلفات السيد سليم في تروٍّ، فهذه الدعاية الشجية يجب أن تجد طريقها إلى داخل كل البيوت والمتاجر، وأن المحاكاة الساخرة المعنونة بـ (إذا كان لديّ حمار) يجب أن تحصر على الحانات، وتوزع بين كتاب المحامين

ورواد تلك الأماكن فقط. تولت السيدة جارلي بنفسها شأن المدارس، حيث انتظرت أمامها، ومعها كتيب مؤلف خصيصًا لها؛ كي تثبت أن أعمال الشمع تفيد العقل وتنمي الذوق وتوسع مدارك الفهم الإنساني. حينما تم ذلك على أكمل وجه، جلست السيدة التي لا تعرف الكلل، لتناول العشاء، ولتشرب من تلك القنينة مجهولة المحتوى، كي تجدد نشاطها.



الفصل التاسع والعشرون

مما لا شك فيه أن السيدة جارلي كانت تتمتع بعبقرية لا مثيل لها، حريّ بنا أن نقول عنها إنها كانت عبقرية ومبتكرة. إلى جانب اهتمامها بأعمال الشمع ورونقها، والتحضيرات اللازمة لبدء عرضها، لم تكن نيل خارج حساباتها. في الصباح الباكر، كانت عربة المنادي، التي دائماً ما يجوب بها الشوارع، مزينةً بأعلام وشارات مبهرجة جذابة، حيث انطلق بها عبر شوارع البلدة، مادحاً الصورة التي حملها كعادته، بينما جلست نيل على مقعد بجانبه، مزينة ومتوجة بورد صناعي، إثر تلك الأجواء الاحتفالية الممتعة، قاد العربة ببطء، متسكعاً في جميع الشوارع طوال النهار، أخذاً في توزيع المنشورات الإعلانية على الناس على وقع دقات الطبل ونفخ البوق. أثار جمال الطفلة وحسن روحها وخجلها الطبيعي جلبة كبيرة في البلدة الصغيرة. أصبح المنادي الذي من المفترض أن يكون مصدرًا حصريًا لجذب الانتباه شيئاً ثانوياً؛ انحصرت أهميته في كونه مجرد جزء من عرض، كانت هي فيه نقطة الجذب الرئيسية. تهافت

الناس؛ لرؤية صاحبة الأعين اللامعة، لدرجة أن بعض الشباب وقعوا في غرامها من أول نظرة على نحو بئس، تاركين لها باستمرار أمام معرض أعمال الشمع عبوات من المكسرات وأقفاص من التفاح مع جواب صغير.

على ذكر العبقرية المبتكرة للسيدة جارلي، لم يكن الانطباع الفاتن الذي أثارته نيل في شوارع البلدة أمرًا غير متوقع بالنسبة لها، لذلك وخشية من أن تكون نيل شيئًا عاديًا غير مبهر لهم، سرعان ما استدعتهما؛ لكنها أرسلت المنادي مرة أخرى بمفرده، وأبقت نيل في غرفة العرض، تقدم المعروضات كل نصف ساعة لحشد كبير من الجماهير المعجبة. كانت تلك الجماهير من النوع الراقي جدًّا، بالإضافة إلى أنها تضمنت عددًا غفيرًا من الفتيات الصغيرات، اللاتي توافدن من المدارس، في تصرف دلّ على أن جهود السيدة جارلي لم تضع هباءً، وقد تكللت بالاستحسان والتوفيق، قدّم السيد غريمالدي، بعد أن بدل ثوبه ليظهر بوجه وملابس بهلوانية، السيد (ليندلي موراي) حيث انضم بمشاركة عن قواعد اللغة الإنجليزية، ثم تحوّل من فوره إلى السيدة (هانا مور) القتالة الأكثر شهرة.. وقد حاز عن تأديته للدورين على إعجاب الأنسة (مونفلاذرز) المشرفة الأولى والمسؤولة الرسمية عن تنظيمات اليوم في البلدة، وقد حاز على إعجابها أيضًا بعد نظرة متفحصة ثماني فتيات مختارات، حيث أبهرنها بكافة المقاييس. أما السيد (بيت)، فقد قدّم مرتديًا منامة وقلنسوة، حافي القدمين، الشاعر (كاوبر) بدقة متناهية.. أما السيدة (ماري) ملكة إسكتلندا، فقد أتت واضحة شعرًا مستعارًا داكنًا،

مرتدية ملابس رجالية، وقميصًا ذا ياقات بيضاء، في صورة كاملة مشابهة لـ (اللورد بايرون) بالضبط، لدرجة أن الفتيات الصغيرات صرخن عاليًا فور رؤيتها. ما جعل الأنسة مونفلاذرز تستنكر من فورها صياحهن، منتهزةً الفرصة لتأنب السيدة جارلي، مشددة على أنها يجب أن تكون أكثر حرصًا حيال انتقاء مجموعتها، معقبة أن جلالته جراء ذلك الفعل ربما شكّل آراءً لا تناسب مكانة أعمال الشمع بالتأكيد، مضيفة تعقيبات أخرى بشأن كبير الكهنة ورجال الكنيسة، لم تفهم السيدة جارلي منها شيئًا.

على الرغم من أن واجباتها الإلزامية قد كانت شاقة بما فيه الكفاية، وجدت نيل أن سيدة العربة لطيفة ومراعية لمشاعر الآخرين إلى أبعد حدٍّ؛ لم يكن استمتاعها الخاص منحصراً في أن تشعر بالراحة وحدها، بل شمل راحة الجميع كافة.. وبالنسبة لحسها المرهف ومراعاتها لمشاعر الآخرين، ربما يعد أمراً مميزاً يستحق الذكر؛ حتى بالنسبة إلى الأشخاص الذين يعيشون في أماكن أكثر رقيًا من العربات، فإنه يعد أمراً استثنائيًا غير مألوف، وخصوصاً أنه على أي حال ليس بالنتيجة الحتمية. أما نيل، فنظرًا لشعبيتها التي أكسبتها القليل من الإكراميات المتنوعة من الزائرين المتوافدين، خاصةً أن راعيتها لم تطلب منها رسومًا عليها، وجدها الذي لاقى معاملة حسنة، وأصبح مستقرًا وصالحًا، لم يعد لديها أي سبب يدعو للقلق بشأن عملها في معرض أعمال الشمع، سوى ذلك القلق الذي كان يساورها بين الحين والآخر؛ عندما تتذكر كويليب، وخوفها من عودته، ومقابلته فجأةً في يوم من الأيام.

في الواقع، لطالما كان كويليب كابوسًا مؤرقًا، يطارد الطفلة باستمرار بهيئته الضئيلة ووجهه القبيح طوال أيام إقامتها. اعتادت على أن تنام في غرفة أعمال الشمع؛ كانت تعتبرها أكثر الأماكن أمنًا لها، لم تكن تبرح مكانها أبدًا طوال الليل، على الرغم من ذلك، كانت تعذب نفسها - حقيقةً لم يكن لديها أي حيلة - لطالما كان يُخيل إليها وجود تشابه بين القزم وبين تلك الوجوه المتبسة التي يسكنها الموت، ومع استحواذ تلك الخيالات على أفكارها، كانت أقرب إلى تصديق أنه قد سكن أحد تلك الأجساد ووقف مكانه مرتديًا الثياب نفسها. كانت الأجساد كثيرة، تجدها واقفة وراء بعضها البعض حول سريرها، تصوب عليها أعينها الزجاجية التي يسكنها الموت، على الرغم من سكونها وصمتها الكئيب، بدت كأنها مخلوقات حية، فظلت المخاوف تجد منفذًا إلى روحها، تخشى مقصدها، وسبب اصطافها، ترقد تترقب تلك الأجساد الشمعية المغبرة في حذر، إلى أن يتملك منها الرعب تمامًا، فتنهض مرة أخرى مجبرة؛ لتشعل شمعة، أو لتجلس إلى جانب النافذة المفتوحة، فتأنس بضوء النجوم الساطع. لطالما كانت تتذكر في مثل هذه الأوقات منزلها القديم، والنافذة التي اعتادت الجلوس إلى جوارها بمفردها، ثم لا تملك خيارًا، فتتذكر كيت المسكين، ولطفه الجرم معها، حتى يترقق الدمع في عينيها، فتبكي وتبتسم في الوقت نفسه. مع ذلك الكم الهائل من القلق، في تلك الساعات التي يهيمن عليها الصمت، غالبًا ما كانت تمحور فكرها ثانيةً حول جدها، تتساءل عن مقدار تذكره لحياتهما سابقًا، وهل هو مدرك حقًا للتغيير الذي طرأ

على حالهما، وعجزهما وعوزهما المدقع الذي ي صارعانه في الفترة الأخيرة. عندما كانا يجوبان الأودية معًا ويمشيان في الطرقات، نادرًا ما كانت تفكر في تلك الأمور، لكنها الآن لا تستطيع منع نفسها من التفكير فيما سيحل بهما إذا مرض العجوز، وخانتها قدرتها، وخذلتها قوتها، ولم تعد تستطيع التحمل. لقد كان صبورًا ومستعدًا لتنفيذ أي مهمة بسيطة يقدر على إتمامها، وسعيدًا لشعوره بأنه صالح ومفيد ثانية، لكنه لا يزال هو نفسه كما في السابق، الشخص الذي لا يعول عليه أحد، دون أي احتمال للتحسن، مجرد طفل صغير، مخلوق مسكين منعدم الفكر، عجوز فقير لا ضرار منه، سريع التأثير بحبها له ومراعاتها له، شديد الحساسية تجاه الانطباعات سواء أكانت جيدة أم مفعجة، يجب القول بأنه مجرد جسد حي لا أكثر من ذلك. لقد كان أمرًا مؤسفًا، مؤسفًا حقًا، يجعلها تكابد أحزانها أكثر.. حينما كانت تراه يجلس شاردًا إلى جانبها، يبتسم ويومئ برأسه إليها، حينما كان يلعب الأطفال ويحمل الصغار جيئةً وذهابًا، مثلما كان يفعل معها تمامًا، حينما كانت تراه مرتبكاً محتارًا إثر استفهامات كثيرة تتصارع داخل رأسه، حينما كانت تراه صابرًا داخل جسده الواهن الهزيل، حينما كانت تراه يئن وبالكاد يدرك ما حوله، حينما كانت تراه في خضم هذا كله، ذليلاً أكثر من قبل، محتجزًا داخل عقل مجرد طفل صغير.. لقد كان أمرًا مؤسفًا حقًا، أن تراه هكذا، فلا تملك في نفسها وفي نفسه شيئًا، تنفجر باكية، وتنسحب إلى عزلتها، تخر على الأرض، جاثية على ركبتيها، تصلي داعية بأن يعود إلى طبيعته مرة أخرى.

على الرغم من أن ما صارعته كان وقعه على قلبها الصغير
كالمصائب المفجعة، لم تكن مرارة وجعها أو حتى تحليلاتها الفردية
على معرفة واضحة بحالته الشاملة، حينما كان يبدو هادئاً أو مستكيناً
على الأقل. فالحزن المهلك الثقيل لم يأت بعد.

في يوم عطلة، وقت الغروب، خرجت نيل وجدها للتمشية. كادا
يكونان محبوسين لبضعة أيام، أصبح الجو دافئاً، فقررا التنزه لمسافة
طويلة. خرجا من البلدة، سارا عبر ممر يتخلل حقولاً ساحرة، عاقدين
العزم على أن يصلا إلى الطريق الذي مرا به من قبل، ومن ثم سيعودان
مرة أخرى من الطريق نفسه. لكن الطريق كان طويلاً جداً، عكس ما كانا
يفترضان، غير أن منظر غروب الشمس سحرهما تماماً، فظلا يسيران
مستمتعين إلى أن وصلا إلى الطريق الذي كانا يبحثان عنه، ومن ثم توقفا
للاستراحة.

على الرغم من أن الجو كان في بداية جولتهما دافئاً، أمسى تدريجياً
مليئاً بالغيوم، أعتمت السماء، واكفهر السحاب، باستثناء مكان المغيب؛
فبدت الشمس كتلاً من ذهب، وكرة من نار مشتعلة، تغوص إلى عمق
الأرض، تعكس لمعة حمراء وهاجة، كأنها تلقي بجمرات مفتتة هنا
وهناك وسط الظلام المخيم. بدأت الرياح تصفر في الخلاء الأجوف،
بينما تنحسر الشمس لتهم بالشروق على مكان آخر، حل محلها ركام
من السحب الضبابية، أُنذر بدوي الرعد وإبراق السماء. سرعان ما
هطلت الأمطار، وزحفت السحب الغيمية وانتشرت في السماء كافة.
دوى هزيم الرعد في الأفق البعيد، وومضت شرارة البرق في سحب

العاصفة الرعدية؛ لتنبير السماء في لحظة، ويهيمن الظلام على الأرض في اللحظة التالية، كأنه انبثق في طرفة عين.

في ظل هذا الجو العصيب فر العجوز ومعه الطفلة نحو الطريق السريع قلقاً من اتخاذ أسفل الأشجار، أو جانب السياج مأوى لهما؛ على أمل العثور على منزل يمكنهما اللجوء إليه، حتى تنقشع العاصفة التي هبَّت في شدة الآن، وأخذت تزداد بعنف مع مرور كل لحظة. مرا بجانب منزل منفرد، دون أن يلحظا مدى قربهما، مغمورين تمامًا في مياه الأمطار، مذعورين من صوت الرعد الذي يصم الآذان، مشوشين من وهج البرق المتشعب، لكنَّ رجلاً نادى عليهما، كان واقفاً إلى جانب الباب؛ وألحَّ عليهما بشدة أن يدخلوا.

قال وهو يتراجع بعض الخطوات نحو الباب، بينما يظلل على عينيه يده؛ في إثر وميض البرق الذي شق السماء مرة أخرى: «يجب أن تكون أذانكما على أي حال حساستين للسمع أكثر من أي أحد آخر، فإني أرى أن البرق قد أصابكما بالعمى المؤقت». حينما وصلا إليه، أضاف قائلاً، وهو يغلق الباب، ويقودهما عبر ممر طويل إلى غرفة خلفية: «ما الذي خُيل إليكما أنكما تمضيان نحوه؟ هاه!».

ردت نيل: «لم نكن نرى منزلك يا سيدي، حتى سمعناك تنادينا».

قال الرجل: «لا عجب من ذلك، فتأثير البرق على الأعين يفعل ذلك. على أي حال، من الأفضل لكما أن تقفا إلى جانب النيران؛ وتجففا نفسيكما قليلاً. يمكنك أن تطلب ما تريد، إذا أردت أي شيء. وإذا لم تكن تريد أي شيء، فأنت لست مضطراً إلى فعل ذلك. هذا منزل عام،

يحل به مَنْ يشاء، وهذا كل ما في الأمر. دائماً ما يكون الجندي الباسل في خدمة الناس كافة».

سألت نيل: «هل هذا المنزل يُدعى (الجندي الباسل) يا سيدي؟». قال مالك المنزل: «لقد ظننت أن الجميع يعرفون ذلك.. من أين أنتما، ما دمتما لا تعرفان الجندي الباسل حق المعرفة مثل معرفتكما بتعاليم الكنيسة؟ هذا هو (الجندي الباسل).. إنه (جيمس جروفز).. (جيم جروفز) الصادق الأمين (جيم جروفز)، إنه الرجل ذو الطبيعة الأخلاقية التي لا تشوبها شائبة، إضافة إلى أن لديه أرضاً جيدة للعب القناني الخشبية. إذا كان هناك أي أحد يريد أن يقول أمراً آخر لجيم جروفز، دعه يقوله لجيم جروفز، فيمكن لجيم جروفز أن يضمه إلى الزبائن الآخرين، بناء على أي شروط، مقابل أربعة جنيهات فقط وحتى أربعين جنيهًا».

مع انتهائه من تلك الكلمات، نقر المتحدث على صدريته ليبين أنه كان ذا الشأن المجيد المدعو جيم جروفز، بدا أنه منضم على وجه العموم إلى حفلة سمر في غرفة ذات إطار أسود بجوار المدفئة، وقد رفع إلى شفتيه كأسه نصف المملوءة بمشروب روحي ممزوج بالماء، شارباً في صحة جيم جروفز.

بالإضافة إلى الجو الدافئ الذي شاع في الغرفة، كان هناك لوح كبير قائم، في الجهة المقابلة لحرارة النيران. بدا أن شخصاً ما في الجهة الأخرى من اللوح، قد أثار الشكوك حول مروءة السيد جروفز، مستفزاً نزعته المغرورة، فتحرك السيد جروفز من فوره؛ لينهي الاستخفاف

المُثار ضده، فسدد بسلاميات أصابعه طريقة عنيفة على اللُّوح، متوقفاً
لوهلة في انتظار رد من الجهة الأخرى.

قال السيد جروفز، عندما لم يتلقَ أي رد: «لا يوجد هنا عدد كبير
من الرجال؛ فَمَنْ سيغامر بالمجيء إلى هنا، أسفل سقف جيم جروفز.
أحسب أنه رجل واحد، لديه الجرأة ليقدم على فعل كهذا، لكن هذا
الرجل ليس على بعد مائة ميل حتى. لكن إحقاقاً للحق فهو رجل تعدل
براعته براعة ستة من الرجال الآخرين، بسبب ذلك أدعه يقول ما يحلو
له في شأني.. وهو يعرف ذلك بالتأكيد».

في مقابل ذلك المدح العابر، ارتفع صوت أجشّ دعا السيد
جروفز قائلاً: «أوقفه عن الصخب وأشعل شمعاً»، ثم قال الصوت
نفسه مخاطباً السيد نفسه: «لا تضيع أنفاسه في التباهي، فمعظم الناس
يعرفون جيداً من أي طينة قد سُكِّل».

قال الرجل العجوز هامساً، وقد سيطر عليه الحماس فجأةً:
«أسمعين يا نيل! إنهم.. إنهم يلعبون الورق. تسمعينهم يا نيل، أليس
كذلك؟».

قال الصوت: «اقترب من ضوء الشمعة؛ كي تنظر بوضوح، فإن هذا
هو أكثر ما يمكنني فعله؛ كي أرى الأرقام على ورق اللعب كما هي،
وأغلقُ هذا المصراع بأقصى سرعة لديك، وإلا أعتقد أن الجعة ستصبح
أسوأ جعة على الإطلاق، بسبب هذا الرعد الليلي.. العبوا! سبعة شلنات
وخمسة بنسات.. مررهم لي يا إسحاق».

قال الرجل العجوز مرة أخرى هامساً، وقد ازدادت حماسته المتقدة، حينما سمع رنين النقود على طاولة اللعب: «أسمع يا نيل! هل تسمعونهم؟».

ارتفع صوت حاد، في نبرة كشفت عن امتعاضه الشديد، بينما دوى صوت الرعد في الأفق: «لم أرَ عاصفة رعدية كهذه، منذ تلك الليلة التي فاز فيها (لوك ويزرس) ثلاث عشرة مرة، كاسراً جميع الحدود. لقد قلنا جميعاً إنه كان لديه حظ أبالسة، بما أنها ليلة شبيهة بتلك الليالي، التي يتبين فيها أن الشيطان حر طليق ومشغول بأعماله، أحسب أنه واقف على كتفيه الآن، ينظر إلينا، إذا كان بإمكان أحدكم أن يراه».

ثم عاد الصوت الأَجَش مرة أخرى قائلاً: «آه! بمناسبة الحديث عن انتصارات لوك خلال السنوات الأخيرة العصبية منها أو الحميدة، أتذكر ذلك الوقت الذي كان فيه الأقل بختاً والأسوأ حظاً بين الرجال. لم تصادفه أي مرة يمسك فيها بزهر النرد أو ببطاقة لعب، إلا وقعس وسُلب منه كل شيء تماماً».

قال العجوز هامساً ثانية: «هل تسمعون ما يقوله يا نيل؟ هل تسمعون ذلك يا نيل؟».

كانت الطفلة مشدوهة تماماً من تغير مظهره المفاجئ. فقد تدفق الدم في وجهه، وانعكست على ملامحه أمارات التلهف، جحظت عيناه في توتر، صكت أسنانه، أصبحت أنفاسه قصيرة وصوت صفيها غليظاً، أما يده المتوكئة على ذراعها فارتعدت في عنف، لدرجة أن ذراعها اهتزت تحت قبضته.

تمتم العجوز ناظرًا إلى الأعلى: «أشهد على أن هذا ما قلته دائمًا، وما عرفته، وما حلمت به، وما شعرت أنه الحقيقة، لذلك يجب أن يتحقق في الحال! كم لدينا من نقود يا نيل؟ تعالي إلى هنا! لقد رأيت معك نقودًا بالأمس. قل لي ولا تقفي صامتة هكذا. كم لدينا من نقود؟ أعطيتها لي فورًا».

قالت الطفلة مذعورة: «لا، لا! دعني أحفظ بها. دعنا نرحل بعيدًا عن هنا. لا تكثرث لهطول الأمطار، دعنا نذهب من هنا من فضلك».

قال الرجل العجوز بشراسة: «قلت لك أعطيني المال فورًا.. صه صه! لا لا! لا تبكي يا نيل.. أنا لا أقصد أن أتحدث معك بحدة يا عزيزتي! لقد أسأت القول، إنني ظلمتك بالفعل، لكنني سأصحح ما فعلت.. ثقي في أن ما سأفعله من أجل مصلحتنا يا نيل. قل لي فقط أين المال؟».

قالت الطفلة: «لن تأخذها! من فضلك لا تأخذها يا جدي العزيز.. إن كان الأمر من أجل مصلحتنا فعلاً كما قلت، دعني أحفظ بها، أو حتى أرميها بعيدًا، فضلًا عن أن تأخذها الآن لهذا السبب.. دعنا فقط نذهب من هنا.. دعنا نذهب من هنا من فضلك يا جدي».

عاد العجوز يقول: «قلت لك أعطيني المال يا نيل. يجب أن أحصل عليه في الحال. هيا! نعم.. هذه هي عزيزتي نيل. سأثبت لك أنني على حق في يوم من الأيام يا طفلي. سأثبت لك أنني على حق، لا داعي للخوف يا عزيزتي!».

أخرجت نيل محفظة صغيرة من جيبيها. سرعان ما تقدم نحوها، وانتزع المال بنفاد صبر، يشبه النبرة التي تحدث بها، ثم شق طريقه من فوره إلى خلف اللُّوح. لقد كان من المستحيل كبح جماحه، على الرغم من أن الطفلة المرتعدة تبعته.

وضع مالك المنزل مصباحًا على الطاولة، ومن ثم انضم إليهم، بعد أن أسدل الستار على النافذة. كان المتحدثان اللذان سمعت صوتيهما رجلين، لديهما رزمة من بطاقات اللعب، وبينهما عملات نقدية، بينما تم تسجيل نتائج الجولات التي لعبوها بالطباشير على اللوح نفسه. كان الرجل صاحب الصوت الأَجَش، رجلًا في منتصف العمر، قوي البنية، بدينًا، له شارب كبير أسود، ووجتان عريضتان، وفم كبير غليظ، ورقبة ضخمة، كانت ظاهرة تمامًا لأن ياقة قميصه كانت مشدودة فقط بمنديل أحمر، حُلَّت عقده. كان يرتدي قبعة ذات لون بني داكن، وإلى جانبه عصا سميكة. أما الرجل الآخر، الذي ناداه رفيقه (إسحاق)، فقد كان ذا بنية نحيلة جدًّا، أحدب، له أكتاف عالية، ووجه قبيح، وعينان قد أصابهما الحول، كانت لديه أكثر النظرات بغضًا وشرًا.

قال إسحاق وهو ينظر حوله: «والآن قد أتى نحونا رجل عجوز.. هل تعرف أحدنا من الأساس كي تدخل هكذا؟ إنه مكان خاص يا سيدي».

قال الرجل العجوز: «آمل أن وجودي لن يشكل إزعاجًا».

قال الآخر، مقاطعًا حديثه: «لكن يـ.. أحسب أن هذا هو الإزعاج يا سيدي؛ عندما تتطفل على اثنين من السادة، جالسين بمفردهما، يعتبر

هذا إزعاجًا يا سيدي».

قال الرجل العجوز، وهو ينظر في اضطراب إلى بطاقات اللعب: «لم أنو أبدًا أن أزعجكما، أو أن أقطع ما كنتما تفعلانه. لقد اعتقدت أن..».

تمتم الآخر: «ليس لديك أي حق كي تعتقد أي شيء من الأساس يا سيدي. أي سخف من الممكن أن يعتقد رجل في عمرك أيها العجوز؟».

قال الرجل ذو البنية القوية، رافعًا عينيه عن بطاقات اللعب لأول مرة: «لا لا وجود للتنمر هنا يا صديقي.. ألا يمكنك السماح له بإكمال حديثه؟».

كان مالك المنزل طوال ذلك الوقت صامتًا، لم يتفوه بأي كلمة، بدا أنه قرّر أن يظل محايدًا؛ إلى أن يعرف أي جانب سيدعمه الرجل قوي البنية، كي يتخذ نفس الجانب، لذلك قرر أن يخرج عن صمته أخيرًا وقال: «آه! مثلما قال تمامًا.. ألا يمكنك السماح له بإكمال حديثه يا إسحاق ليست؟».

سخر إسحاق من حديث مالك المنزل، فقال بصوت صاخب، مقلدًا قدر استطاعته النبرة التي تحدث بها: «ألا يمكنك السماح له بإكمال حديثه يا إسحاق ليست.. بلى، يمكنني السماح له بإكمال حديثه يا جيمي جروفر».

قال مالك المنزل: «حسنًا! فلتدعه إذن.. هل ستدعه؟».

بدأت نظرة أعين السيد ليست الحولاء نذيرة بإطالة الجدل، بينما كان رفيقه ينظر نظرة حادة إلى الرجل العجوز، واضعاً حدّاً لجدالهما في الوقت المناسب.

قال، وقد اعتلت عينيه نظرة ماكرة: «ومن يعرف! أليس من المحتمل أن يكون الرجل العجوز قد أتى إلينا، كي يطلب منا بكل تحضر أن ينال شرف اللعب معنا!».

صاح العجوز من فوره: «نعم نعم.. هذا ما قصدته تمامًا، وأردت قوله فعلاً.. إنني أريد اللعب معكم الآن!».

قال الرجل الآخر: «مثلما توقعت بالضبط! حسنًا من كان يعرف حقًا.. لكن الرجل العجوز يدرك بالتأكيد اعتراضنا على اللعب الودي، بكل تحضر أريد أن أحيطك علمًا بأننا نلعب من أجل المال.. أتفهم ذلك؟».

جاءت استجابة الرجل العجوز في صورة رد فعل فقط، فهزّ المحفظة الصغيرة بيد متحمسة، وألقى بها على الطاولة، وأخذ يجمع بطاقات اللعب كما البخيل حين يمسك ذهبًا.

قال إسحاق: «أوه! في الواقع.. إذا كان هذا ما قصده الرجل العجوز النبيل منذ البداية، فأنا أستمح الرجل العجوز النبيل عذرًا. هل هذه هي محفظتك أيها الرجل العجوز النبيل؟ إنها محفظة صغيرة جدًا..». ثم أضاف قائلاً، بينما أمسكها في يده، ملقيًا بها في الهواء، ثم التقطها مرة أخرى ببراعة متناهية: «إنها صغيرة، وخفيفة أيضًا.. لكنها على أي حال

تكفي لتسلية رجل عجوز نبيل لمدة نصف ساعة أو ما يقرب من ذلك». قال الرجل ذو البنية القوية: «حسنًا! سنلعب جولة رباعية، وسينضم إليّ جروفز.. هيا تعال يا جيمي».

اقترب مالك المنزل من الطاولة دون تردد وعلى سجيته، بدا كأنه معتاد على مثل تلك الحفلات الصغيرة، اتخذ مقعده على الفور. أما الطفلة فقد اقتربت من جدها وجذبتة نحوها، وطلبت منه بنبرة دلت على معاناتها الفائقة، أن يذهب بعيدًا.

قالت الطفلة: «هيا دعنا نذهب من هنا، وربما نصبح سعداء حقًا».

رد عليها العجوز على عجل: «سنصبح سعداء بالتأكيد، دعيني أذهب فقط يا نيل. إن هذه هي سعادتي يا نيل، إن سعادتي تتمثل في الزهر والبطاقات. إن المكاسب الصغيرة ستؤدي حتمًا مع الوقت إلى المكاسب الوفيرة. أعرف أنني لن أكسب قدرًا كبيرًا هنا، لكن المكسب الوفير كما قلت سيأتي مع الوقت. حتمًا سيفعل، لكن يجب عليّ أن أكسب حصتي أولاً. إن كل هذا من أجلك يا عزيزتي».

صاحت الطفلة: «فلتساعدني يا رب! أوه! ما هذا الحظ العسر الذي جاء بنا إلى هنا؟».

قال العجوز، واضعًا يده على فمها من فوره: «صه! إننا لا نتحدث هكذا عن الحظ. لا يمكننا إلقاء اللوم أبدًا على الحظ. لا يجب أن نويخ الحظ مطلقًا؛ وإلا سينبذنا إلى الأبد. إنني أعرف ذلك يا نيل، لقد اكتشفته مع مرور الوقت».

قال الرجل ذو البنية القوية: «هيا يا سيدي! إذا كنت لن تأتي وتلعب بنفسك، فلتعطنا البطاقات إذن.. هل سمعت؟».

صاح الرجل العجوز: «لا إني قادم بنفسي». ثم عاد يهمس: «هيا يا نيل اجلسي يا عزيزتي، اجلسي وانظري كيف سألعب. كوني مطيعة، إن كل هذا من أجلك يا عزيزتي، إن كل بنس هو من أجلك يا عزيزتي.. كل بنس. لن أخبرهم بذلك، بالطبع لا لن أفعل هذا، وإلا لن يلعبوا معي. إني حقًا خائف؛ لأنهم لن يقدموا مثل هذه الفرصة ثانية. انظري إليهم يا عزيزتي. انظري إليهم وانظري إلى طريقي في اللعب. من يشكك في أمر مكسبنا!».

قال إسحاق، متظاهرًا بأنه يهتم بالوقوف؛ لبيتعد عن طاولة اللعب: «أعتقد أن الرجل العجوز النبيل لديه أمر أفضل، ولن يلعب معنا.. أنا أسف حقًا على ذعره.. فلا شيء يستحق المجازفة.. لا شيء يستحق التراجع.. لكنني أعتقد أن الرجل العجوز النبيل يعرف ما هو الأفضل». قال العجوز: «لا لماذا! إني جاهز، لكنني بطيء فقط.. فلا أحد يشعر بالتلهف الشديد كي نبدأ أكثر مني».

بينما كان يتكلم، سحب كرسيًا إلى الطاولة، ومن ثم اقترب منه الثلاثة الآخرون، وبدأت اللعبة.

جلست الطفلة على مقربة منهم، بينما كانت تشاهد تقدم جدها بعقل مضطرب.

بغض النظر عن أي حظ سيلازمه، سواء أكان جيدًا أم سيئًا،

والشغف المتهور الذي سيطر على جدها تمامًا، فقد كان المكسب أو الخسارة بالنسبة لها على حد سواء.

ظل جالسًا في مكانه، يهمل من أجل الانتصارات البسيطة، ويتذمر وقت الخسارة، لكن الروح الحماسية الجامحة، هيمنت عليه بالكلية، يجلس دون استقرار أو هدوء، يختبر مشاعر كثيرة في لحظات قليلة، كان مفرطًا في حماسه واضطرابه، متلهفًا إلى حد كبير، نهماً جدًا إلى المكاسب الزهيدة، أما الطفلة فظلت تراقبه في صمت وحسرة، فما شعرت به خلال ذلك الوقت يبين أنها إذا رآته ميتًا قد يكون أهون عليها من أن تراه في خضم هذا الموقف. ومع ذلك، كانت براءتها وحدها المتسببة في تعذيبها، أما هو، فلم يكن لديه أي فكرة عما تخوضه، يقامر في تعطش وحشي، لم يسبق أن شعر به أي مقامر نهم حتى؛ لم تكن فكرة أنانية واحدة فقط هي ما تسيطر عليه!

على العكس من ذلك تمامًا، كان الثلاثة الآخرون -تبيين من طريقة لعبهم أنهم مخضرمون تمامًا- جالسين في رزانة، على الرغم من أنهم كانوا يصوبون جل تركيزهم على اللعبة، بدوا هادئين مسالمين، كما لو أن جميع الفضائل تركزت في صدورهم. على الرغم من التشتت اللحظي بين الحين والآخر، فيرفع أحدهم عينيه عن الورق؛ لينظر إلى الآخر مبتسمًا، أو نافخًا تجاه شعلة الشمعة الخافتة، أو يلقي نظرة على وميض البرق الذي يتكشف من النافذة المفتوحة والستارة المرفرفة، أو يستمع في انتباه أكثر من الآخرين إلى قصف الرعد، في حالة متكررة من نفاد الصبر، كما لو كان قد أخرجه من مزاج اللعبة، كانوا جميعًا جالسين

في أماكنهم، غير مكترئين بأي شيء غير بطاقات اللعب، كأنهم فلاسفة عظماء، يتبادلون الأدوار واللعب دون إظهار أي عاطفة أو حماس، بدوا متبسي الملامح كما لو أنهم مصنوعون من حجارة.

استمرت العاصفة لمدة ثلاث ساعات كاملة دون انقطاع، بعدها صار وميض البرق خافتاً غير متواصل، وأمسى هزيم الرعد الذي كان يزلزل السماء فوق رؤوسهم بعيداً، لكن اللعبة لا تزال مستمرة، والطفلة المنكوبة باتت في طي النسيان.



الفصل الثلاثون

ظلوا على الحال نفسه، إلى أن انتهت اللعبة أخيراً، بإعلان أن السيد إسحاق ليست هو الرابح الوحيد. تحمّل مات ومالك النزل خسارتهما بضبط نفس قوي وباحترافية قصوى. أما إسحاق، فقد جمع مكاسبه في جيبه في هيئة الرجل الواثق من فوزه، فلم يكن مندهشاً أو حتى مبهتجاً. أُلقيت محفظة نيل الصغيرة على طاولة اللعب، بجوار الرجل العجوز، بينما قام اللاعبون الآخرون عن الطاولة، ظل هو شاردًا، يجلس إلى الطاولة، مهزومًا مدحورًا منكس الرأس، ينظر إلى بطاقات اللعب، يتفحصها، يقلبها يمينًا ويسارًا، يلعب الأدوار كلها، يتعامل كما لو أنهم ما زالوا جالسين معه، يمرر البطاقات كما لو كانت اللعبة ما زالت قائمة. لم يُنتشل من هذا الاستحواذ، ويستوعب ما مر به، حتى اقتربت منه الطفلة، وربّت بيدها على كتفه، وأخبرته أن الوقت قد قارب على منتصف الليل.

أطاح بورق اللعب على الطاولة، وقال وهو يشير إلى البطاقات المنشورة: «إنها لعنة الفقر يا نيل.. إنها لعنة الفقر. لو كان بإمكانني فقط

أن أستمر لوقت أطول، وقت أطول بقليل، لكان الحظ حالفني. نعم! إن الأمر واضح تمامًا، إذا أكملنا على نفس الوتيرة، لكان الحظ حالفني.. انظري هنا.. انظري هناك.. انظري هنا مرة أخرى.. انظري يا نيل..

حشته الطفلة قائلة: «من فضلك نَحِّها جانبًا.. حاول أن تنساها».

قال مرددًا: «أحاول أن أنساها!». ثم رفع وجهه العابس، ناظرًا إليها بعينين حائرتين: «كيف سأصبح غنيًا إذا نسيتهَا؟».

لم تستطع الطفلة أن تنبس ببنت شفة، هزت رأسها فقط.

قال الرجل العجوز، وهو يلامس وجنتها: «لا لا يا نيل! لا يجب نسيانها أبدًا. يجب أن نعوض الخسارة، ونعود إليها مجددًا في القريب العاجل. التحلي بالصبر.. الصبر فقط، وأعدك أن كل شيء سيكون على ما يرام.. أعدك يا عزيزتي. خسارة اليوم سيعوضها مكسب الغد. ولا يمكننا كسب أي شيء دون مجهود وحرص تام.. لا يمكننا كسب أي شيء. هيا بنا، أنا مستعد».

قال السيد جروفز، بينما كان يدخل مع أصدقائه: «هل تعرف كم الوقت؟ إنها الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل».

استطرد صاحب البنية القوية قائلاً: «وهي ليلة ممطرة أيضًا».

قال السيد جروفز، نقلًا عن لوحته الإعلانية: «الجندي الباسل، في ضيافة السيد جيمس جروفز. أسرة جيدة. ترفيه خاص للنيل والفقير».

قالت الطفلة المنكوبة: «إن الوقت متأخر حقًا. كم أتمنى لو كنا قد ذهبنا مبكرًا. ما الذي سيحسبونه بشأننا! ستكون الثانية بعد منتصف

الليل حين وصولنا.. قل لي يا سيدي، كم ستكون التكلفة، إذا قضينا هذه الليلة هنا؟».

رد عليها الجندي الباسل: «إن تكلفة سريرين جديدين شلن وستة بنسات، وتكلفة العشاء والجمعة شلن واحد، إذن سيكون المجموع شلنين وستة بنسات».

كان ولا يزال لدى نيل العملة الذهبية التي حاكتها في فستانها، الآن! حينما فكرت في الساعة المتأخرة من الليل، وفي طبيعة نوم السيدة جارلي، وتخيلت حالة الفرع التي سيتسببون بها عندما يوقظون تلك السيدة الطيبة بفعل طرقات الباب في منتصف الليل، وعلى الناحية الأخرى، فكرت في أنهما إذا قضيا ليلتهما في هذا المكان، ثم استيقظا في الصباح الباكر، فمن الممكن أن يعودا قبل أن تستيقظ، وحينها يمكن لها أن تتخذ من العاصفة العاتية التي هبت ليلاً واحتجزتهما خارجاً حجة واعتذاراً جيداً عن غيابهما.. لذلك قررت البقاء، بعد الكثير من التردد. تنحت بجدها جانباً، وأخبرته أنه لا يزال معها ما يكفي، لتدفع نفقة إقامتهما، وأنه يجب عليهما قضاء ليلتهما هناك.

بناء على ما تم، نفخ السيد جروفر دخان غليونه، وألقى الرماد بعناية تامة في وعاء وُضع في زاوية المدفأة، ومن ثمّ أحضر الجبن والجمعة، مردداً الكثير من الثناء على شرف وجودهما، دعا ضيفيه الآخرين، واستحثهما على أن يتصرفا كما لو كانا في منزلهما. أكلت نيل وجدها القدر القليل، فقد كانا كل على حدة مشغولاً بأفكاره، أما السيدان الآخران، فقد كانت الجمعة بالنسبة لهما خالية من النكهة، وضعيفة

التأثير، لذلك حاولا تسليه أنفسهما بتدخين التبغ وتجرع المشروبات الروحية الأخرى.

ولأنهما سيرحلان في الصباح الباكر، أصرت الطفلة في حرص شديد على أن تدفع مقابل استضافتهما، قبل أن يذهبا إلى الفراش. لكنها شعرت بحتمية إخفاء كنزها الصغير عن جدها، وأنه يجب عليها أن تغير العملة الذهبية، وأن تخرجها من مخبأها في سرية تامة، لذلك انتهزت فرصة خروج مالك المنزل، فتبعته، وقدمت له العملة الذهبية في خمارة المنزل الصغيرة.

قالت الطفلة: «هل من الممكن أن تعطيني الباقي هنا من فضلك يا سيدي؟».

كان من الواضح أن الدهشة والعجب أصابا السيد جيمس جروفر، فبات ينظر إلى الطفلة، ثم إلى العملة النقدية، ثم يطرق عليها؛ لسمع رنينها، ثم يعاود النظر إلى الطفلة ثانية، ثم إلى العملة الذهبية مرة أخرى، وقد بدت عليه أمارات الاستنكار، كأن عقله يحثه على الاستفسار، من أين أتت بها. لكن على أي حال، كانت العملة أصلية، وسيتم تغييرها في منزله، لذلك فكر مثل أي مالك نزل حكيم، أن ملابسات الأمر ليست من شأنه الخاص، وما يهمه هو حصوله على المال. لذلك، حسب تكلفة إقامتهما، وأعطاهما الباقي. وبينما كانت الطفلة عائدة إلى الغرفة التي قضت فيها المساء، خُيِّلَ إليها أنها رأت أحداً ما كان يقف عند الباب. لم يكن يفصل بين ذلك الباب والمكان الذي غيرت فيه العملة الذهبية غير ممر طويل مظلم، على الرغم من أنها كانت متأكدة تمام التأكد من

عدم دخول أو خروج أي شخص أثناء وقوفها مع مالك المنزل، ألح عليها عقلها بأنه قد رأت أحدهم.

لكن من الذي رآها؟ حينما عادت مرة أخرى إلى الغرفة، وجدتهم مثلما تركتهم تمامًا، لم يبرح أحد موضعه. فلا يزال السيد قوي البنية ممددًا على كرسيين، يسند رأسه على يده، أما أحول العينين فقد كان جالسًا في وضع مماثل على الجانب الآخر من الطاولة. أما جدّها، فقد كان جالسًا بينهما، ينظر باهتمام إلى الفائز في إعجاب نهم، منصتًا إليه كما لو كان ساميًا رفيع المقام. أمست نيل في حيرة تامة من أمرها لبعض الوقت، وباتت تنظر حولها؛ تتبين ما إذا كان هناك أشخاص آخرون. لكنها لم تجد أي أحد آخر. سألت جدّها هامسة؛ تستفسر منه إذا ما كان أي أحد قد غادر الغرفة أثناء غيابها، فقال لها: «لا! لم يغادر أي أحد».

على الرغم من أنها اعتقدت في النهاية أن ما رآته هو محض خيال، كان من الغريب بالنسبة لها أن ترى خيالًا بذلك الوضوح، دون أن يكون عقلها مشغولاً بهذه الفكرة. باتت متعجبة حائرة البال تفكر في الأمر، حتى أتت فتاة لتقتادها إلى سريرها.

حينما همت نيل بالمغادرة، غادر الرجل العجوز صحبته الأخرى في الوقت نفسه، وصعدا الدرج معًا. كان منزلًا كبيرًا معرّشًا، به العديد من الأروقة المظلمة، والأدراج العريضة الموحشة، التي أضفت عليها أضواء الشموع مظهرًا أكثر كآبة. اصطحبت جدّها إلى غرفته، وتركته هناك، ثم اتبعت مرشدتها إلى غرفة أخرى، أعدت لها، كانت موجودة

في آخر الرواق، ووصلت إليها بعد بضع خطوات واهنة. بقيت الفتاة إلى جانبها؛ تحدثها عن مآسيها. أخبرتها عن عدم وجود مكان جيد لها، وعن الأجر البخس، وعن مشاق العمل التي تواجهها. ثم أخبرتها أنها سوف ترحل بعد أسبوعين، ثم افترضت أنه ليس بإمكان الطفلة أن ترشح لها أمرًا آخر! بدلًا من ذلك؛ فقد كانت تخشى أن يكون من الصعب على أي شخص آخر التأقلم في هذا البيت؛ لما له من نظم مختلفة، مثل كثرة لعب الورق فيه وما إلى ذلك. لقد كانت مخطئة تمامًا حينما ظنت أن الناس الذين يأتون إلى هذا المكان غالبًا ما يكونوا هادئين وأمناء مثلما يُفترض أن يكونوا، لكنها لم تكن تعرف سبب اعتقادها بأي حال من الأحوال. أخبرتها عن تلميحات حمقاء لرفض حبیبها، وتهديده لها بأنه سينضم إلى الجيش.. وبعد حين وعدتها أنها ستطرق الباب في الصباح الباكر.. ثم تمت لها: «ليلة سعيدة».

لم تشعر الطفلة بالراحة، عندما باتت بمفردها. لم تستطع منع عقلها من التفكير في شأن ذلك الخيال الذي رآته بالأسفل وهو ينسل مبتعدًا، وخصوصًا أن ما أخبرتها به الفتاة، لم يطمئنها أبدًا، بل فاقم من قلقها. إلى جانب أن مظهر الرجال مريب للغاية. ينم عن أنهم يحصلون على قوت يومهم عن طريق السرقة أو قتل المسافرين واختلاس أموالهم مثلًا.. فمن يستطيع أن يجزم بذلك؟

حينما خلدت إلى النوم، حاولت أن تنحي مخاوفها جانبًا، وألا تفكر فيها ولو لبعض الوقت، لكن ما تعرضت له طوال الليل كان كافيًا بأن يُلقي بالاضطراب الكلي في نفسها. باتت تفكر في الشغف النهم الذي

ملاً صدر جدها تجاه أوراق اللعب ثانية، فمن يعرف أي وهم رآه جنةً، فانساق وراءه. باتت تفكر في أي مشاكل قد سببها غيابهما بالفعل! ربما خرج أشخاص بالفعل للبحث عنهما، حتى في ذلك الوقت. باتت تفكر فيما سوف يحدث حينما يعودان في الصباح، هل ستم مسامحتهما والموافقة على بقائهما ثانيةً أم لا! لماذا أتيا إلى هذا المكان الغريب من البداية؟ كان الأفضل لهما لو أنهما مضيا في طريقهما عائدين تحت أسوأ الظروف أو حتى أوحش العقبات!

أخيراً! بعد صراع دام طويلاً مع أفكارها، انتشلها النوم تدريجياً، لكنه كان نومًا مضطرباً، غير مريح على الإطلاق، مليئاً بأحلام السقوط من مبانٍ عالية، فتستيقظ فرعة، ويتسارع خفقان قلبها. لم يكن في وسعها أي شيء غير أن ترضخ للنوم ثانية.. ثم.. ثم ماذا! إن الخيال الذي رآته موجود معها في الغرفة.

نعم صاحب هذا الخيال، كان موجوداً بالفعل في غرفتها. كانت نيل قد أزاحت الستار، لترى ضوء الفجر، لكنها لم تكن تدرك أنها أزاحته لتبين وجود ذلك الشخص، كان هناك ما بين قائم سريرها والباب المظلم، رآته ينسل في خفة، لا يقيم ظهره، يتلمس طريقه بيديه في صمت تام، يدور حول سريرها. حينها خارت قوة نيل بالكامل، لم تملك القدرة على الصراخ طلباً للمساعدة، أو حتى الحركة، بقيت مستلقية في مكانها تترقب في رهبة يرتعد لها قلبها.

اقترب الشخص من سريرها في صمت وخفة، لدرجة أنها أحست بأنفاسه على مقربة من وسادتها، انكمشت على نفسها؛ خشية أن تلمس

تلك اليد الحائرة وجهها. رأته يوجه رأسه صوب النافذة، لكن ذلك لم يستغرق ثواني، حتى التفت نحوها مجدداً.

على الرغم من أن الظلام كان مهيمناً على الغرفة، تمكنت من رؤية رأسه حينما التفتت لتنظر إليها، ساعتها خالجهما شعور أنها تعرف شكل العينين والأذنين، لكنها مكثت كما هي، بلا حراك. ظل موجهاً رأسه نحوها، لكن يديه لم تبقيا ثابتتين، باتتا تفتشان وتبحثان عن شيء، لا تعرف ما هو، حتى سمعت صوت رنين النقود.

سُحبت اليد في خفة ثانية كما كانت من قبل، ثم انشغلت في إعادة الملابس التي كانت أخرجتها من جانب السرير إلى مكانها، حينما انتهت، جثا صاحب الخيال على ركبتيه، مستنداً على يديه، وخرج حبواً. كم كان بطيئاً جداً، وحركته ثقيلة، لكنها لم تكن تراه، تبين لها ذلك من سماعها له، وهو يحبو على الأرض! وصل أخيراً إلى الباب، ووقف على رجله مرة أخرى، وأصبح صوت وقع قدميه على الأرضية عالياً، حتى رحل تماماً عن غرفتها.

نهضت الطفلة من الفراش من فورها، كرد فعل تلقائي دون انتباه منها أو وعي بما تفعله، أرادت أن تنتزع نفسها من الرعب الذي جثم عليها، قاصدة ألا تكون وحدها في الغرفة - أرادت أن تكون إلى جوار أي أحد، وألا تكون بمفردها البتة - متصورة أنها سوف تستعيد قدرتها على الكلام أو الصراخ ثانية فور وجودها مع أي أحد، نهضت من فراشها دون إدراك أو وعي تام حتى خرجت من باب الغرفة.

كان وقع أقدام صاحب الظل المروّع قد دوى ثانية، لكن صوته

كان خافتاً، لم تستطع تجاوزه، أو ربما مرت إلى جانبه بالفعل، لكنها لم تلحظه بسبب الظلام، تجمد الدم في عروقها، وتبلد فكرها تماماً. ظل صاحب الظل واقفاً لا يُسمع له صوت، مثلها تماماً، لم تكن جرأة منها، بل ضرورة حتمية تلزمها بالعودة إلى غرفتها ثانية، فضلاً عن مضيها قدماً.

اشتد المطر، وتسارع انهيار قطراته، مسبباً ضجة عالية على سطح المنزل. أما في داخله، فكانت الحشرات الصيفية، التي هربت من الطقس، تتطير في كل مكان على نحو أعمى، تتخبط في الجدران وفي السقف، تكسر حاجز الصمت بحترشتها. تحرك صاحب الخيال مرة أخرى، فتحركت الطفلة كرد فعل غير إرادي، نحو غرفة جدها، معتقدة أنها ستكون آمنة.

لكن صاحب الظل حينها كان ينسل عبر الرواق في صمت تام، حتى وصل أخيراً إلى الباب الذي تآقت إليه بشدة، وقد انتابها ابتهاج مفاجئ، حينما تخيلت أن الأمر سينتهي فور وصولها إلى الباب، حيث تُلقى بنفسها داخل الغرفة، ومن ثمّ تغلق الباب خلفها في سرعة شديدة؛ لكن صوت وقع قدميه قد توقف مرة أخرى.

خطرت فكرة طارئة على بالها في لحظة، فماذا لو أن صاحب ذاك الخيال قد دخل بالفعل إلى غرفة جدها، ماذا سيكون وقع ذلك على حياة جدها العجوز! أمست الطفلة في حيرة من أمرها تشعر بالغثيان وبأنه سيُغشى عليها. لقد حدث ما كانت تخشاه تماماً؛ لم تمر لحظات، حتى رأت ضوءاً ينساب من داخل الغرفة. تبينت أن صاحب الظل قد

أمسى متواجدًا في الغرفة نفسها، أما هي فباتت لا تعرف كيف لها أن تتصرف، ثبتت مكانها، لا تحرك رمشًا، فاقدة القدرة على كل شيء تمامًا، لا يسعها غير الوقوف منتظرة.. لا تعرف ماذا سيحل بها.

كان الباب مفتوحًا نوعًا ما، لا تدري مطلقًا، ما الذي كانت تعتزم فعله، لا تعرف ما إذا كانت أرادت معرفته، أم كانت تحاول قتل نفسها، لكنها على أي حال، تقدمت إلى الأمام، لتنظر؛ حتى تتبين من هو!

لم يكن أحد مستقلقيًا على السرير، فقد كان مرتبًا وشاغراً. كان الرجل العجوز هو الكائن الوحيد الموجود في الغرفة. كان جالسًا على الطاولة، لكن ملامحه قد تبدلت بالكلية، فقد هيمن عليها الجوع والجشع، أمسى وجهه شاحبًا وعيناه جاحظتين، يشعان شررًا.. منهمكًا في عد النقود التي سرقته يده.



الفصل الحادي والثلاثون

انسحبت الطفلة متقهقرة إلى الوراء بخطوات ثقالٍ أكثر تعثرًا من تلك التي اقتربت بها من غرفته، تتخبط في طريقها إلى غرفتها. لم يكن الخوف الذي شعرت به مؤخرًا شيئًا يُذكر، مقارنةً بالفاجعة التي استحوذت على كيانها كله الآن. لا يستطيع لص، أو غريب، أو مضيف تأمر على سرقة ضيوفه، أو أي أحد من هؤلاء الذين ينسلون ليلاً إلى أسرة الآخرين لقتلهم أثناء نومهم، أو أي متجول ليلي، مهما بلغت قسوته أو شروره، أن يضرهم في قلبها ذلك الفرع المتأجج، الذي تسبب فيه زائرها الخفي الصامت. لم يكن هناك ما هو أكثر بشاعة من أن تراه في غرفتها، وترى رأسه ذا الشعر الأبيض يحوم في أركانها كأنها شبح، ينسل مثل اللصوص، مفترضًا أنها هادئة البال، يغشاها النوم سريعًا، فيتقدم ويختلس غنيمته، يحملها في انتصار مفزع، لقد بلغ ما أبصرته عينها من القبح أشده، كان شنيعًا أكثر من أي فكرة شنيعة خطرت على بالها. ماذا لو عاد مرة أخرى.. لا يوجد مزلاج أو حتى قفل على الباب.. ماذا لو صورت له نفسه أنه قد خلّف بعض النقود وراءه.. ماذا لو عاد مرة أخرى للبحث عن المزيد من النقود.. تملكك تلك الأفكار المرعبة

عقلها، وأحاطت بها رهبة غامضة حول فكرة رجوعه مرة أخرى، لكن بوقع أقدام غير مسموع، يلتفت إلى سريرها، موجهًا رأسه نحوها، فيجد سريرها شاغراً، بينما هي منكمشة على نفسها بالقرب من قدمه، تتجنب ملامسته لها، رغم أن فعلها لن يكون مجدياً. قبعَت في مكانها، تصغي إلى أي صوت يتردد حولها. سمعت صوت خطوات أقدام على الدرج، والآن فُتح باب غرفتها ببطء. لم يكن هذا إلا محض خيالها، على الرغم من ذلك، كان خيالها أكثر رافةً عليها من رعب الواقع، لا على العكس تماماً، لم يكن كذلك، كان خيالها أكثر سوءاً؛ لأن ما يحدث في الواقع، تأتي نهايته دائماً، لكن ما يدور في خيالها، لا نهاية له، يتوارد ولا يرحل، ولا تُكتب له نهاية.

كان الخوف الذي أحاط بها مبهمًا وغريبًا، لا تعرف ماهيته. لم تكن خائفة من جدها العجوز العزيز، فإن حبه المؤكد هو سبب ما تصارعه في عقلها، لكنها كانت خائفة من ذلك الرجل الذي رآته في ليلتها هذه، من انتهاز الفرصة وخطط لها، وتسلل إلى غرفتها، وسرق، ثم ذهب ليعد النقود التي سرقها في جشع بين تحت ضوء خافت، بدا كأنه مخلوق آخر، متمثل في شكله، أو قد انسل منه، عازماً على أن يلحق بصورته تشويهاً بشعاً، وما زاد من خوفها، أنه يشبهه تماماً، واقترب منها مثلما يفعل جدها تماماً. لم تملك في وسعها أي شيء غير أنها كانت تحاول بالكاد الربط بين رفيقها الودود -الحزينة لخسارته- وبين ذلك الرجل العجوز الذي يشبهه ولا يشبهه في الآن ذاته. لقد بكت لمجرد رؤيته هادئاً وحزيناً. فما أدعى سبب البكاء الآن!

مكثت الطفلة في مكانها، محتجزة داخل أفكارها، يلح عليها عقلها بأفكار سوداوية، تزداد بؤساً وكآبة مع مرور الوقت، لكنها شعرت أنها في حاجة ماسة لتسمع صوت الرجل العجوز، أو تسمع أنفاسه وإن كان نائماً، ظنت أنها إذا فعلت ذلك سيكون فيه خلاصها، وستبعد بعض المخاوف التي شوهت صورته. نزلت الدرج، ومرت في الرواق مرة أخرى، وكان الباب لا يزال مغلقاً، مثلما تركته تماماً، والشمعة لا تزال مشتعلة، كما كانت من قبل.

تقدمت نيل ممسكة شمعتها الخاصة بيدها، على استعداد تام إذا ما وجدته مستيقظاً، أن تقول: إن الأرق لازمها فلم تستطع النوم وأنت إليه؛ كي ترى ما إذا كان مستيقظاً أم لا. حينما نظرت إلى داخل الغرفة، رآته مستلقياً على فراشه في هدوء تام، لذلك تشبعت على الدخول.

كان نائماً، لا تعنلي وجهه أمارات التلهف، أو الجشع، أو القلق، أو حتى رغباته الوحشية، كان هادئاً مستكيناً مطمئناً، كان نائماً في سلام تام. لم يكن المقامر، ولم يكن الظل الذي اقتحم غرفتها ليلاً، لم يكن حتى الرجل الواهن، ذا الوجه الشاحب الذي تراه في نور الصباح، لقد كان صديقها القديم العزيز، صاحبها في سفرها، الذي لا يضر أي أذى، خليلها الصالح، لقد كان جدها الطيب.

نظرت إلى ملامحه النائمة، ولم تعد خائفة، لكنها شعرت بحزن عميق، خيم على قلبها وأثقله، حتى وجدت نفسها تبكي.

قالت الطفلة، بينما انحنى في هدوء لتقبّل وجنة جدها النائم: «فليباركك الرب! بت أعلم جيداً الآن، السبب وراء أنهم سيبعدون

أحدنا عن الآخر، إذا عثروا علينا، بت أعلم لماذا نتخفى من ضوء الشمس ونور الصباح، بت أعلم أنه ليس لديك أحد غيري كي يساعدك. فليباركنا الرب معاً!».

بعد أن أشعلت شمعتها، رجعت في صمت تام مثلما جاءت، وجلست في غرفتها مرة أخرى، تنتظر انقشاع الليل، وانتهاء ما تبقى من تلك الليلة الطويلة المحزنة.

مع مرور الوقت، تضاءلت شعلة شمعتها، وغلبها النوم. سرعان ما ظهرت على مقربة من سريرها تلك الفتاة التي أوصتها بأن توقفها، وبالفعل استيقظت نيل، وبمجرد أن ارتدت ملابسها، استعدت لملاقاة جدها بالأسفل. لكنها قبل مغادرتها، تفحصت جيبتها، ووجدت أن مالها كله قد أخذ، ولم يتبقَّ منه غير ستة بنسات فقط.

كان جدها متأهباً للرحيل، لم تمر لحظات، حتى كانا قد مضيا في طريقهما. وجدت الطفلة أنه كان يتجنب النظر إلى عينيها، وأنه يتوقع منها أن تخبره بخسارتها في أي لحظة. شعرت الطفلة أنه يجب عليها أن تخبره حقاً، وإلا سيراوده الشك، ويستنتج الحقيقة.

قالت بصوت مرتجف، بعد أن مشيا ميلاً كاملاً في صمت: «يا جدي! هل تحسب أنهم في ذاك المنزل قد كانوا أناساً أمناء؟».

رد عليها العجوز، وقد انتفض جسده: «لماذا؟ هل أحسبهم أناساً أمناء.. نعم! على الأرجح.. فلقد لعبوا بأمانة ونزاهة واضحة».

قالت نيل: «حسنًا يا جدي! سأخبرك لماذا سألت هذا السؤال. إنني

فقدت هناك بعض المال في الليلة الماضية.. فقدته خارج غرفتي، أنا متأكدة من ذلك تمامًا. إلا إذا لم أكن فقدتها فعلاً، ويكون أحد ما قد أخذها على سبيل المزاح معي.. المزاح فقط يا جدي العزيز؛ لأنني حينها سأضحك جدًّا، وسأبتهج حقًّا.. لكنني أعرف أنها..».

قال الرجل العجوز من فوره: «ومن تظنين أنه أخذ المال بقصد المزاح؟ فمن يأخذون المال، يأخذونه من أجل الاحتفاظ به، وليس من أجل المزاح».

قالت الطفلة، وقد فقدت آخر أمل كانت قد تشبثت به؛ بفعل سلوك العجوز معها، والمغزى الذي أدركته من حديثه: «حسنًا يا جدي! إذن لقد سُرق المال من غرفتي».

قال العجوز: «أليس معك مال غيره يا نيل؟ ألم تحتفظي بمال غيره في مكان آخر؟ هل أخذ كله؟ هل أخذ مالك كله إلى آخر فارذنج.. ولم يعد متبقيًا أي مال آخر؟».

أجابت الطفلة: «نعم! لم يعد لدي أي شيء».

قال الرجل العجوز: «يجب أن نحصل على مال غيره، يجب أن نكسب مالًا غيره يا نيل، ندخره وننفقه معًا يا نيل، يجب أن نحصل على المال بأي طريقة ممكنة. لا تكثرني بشأن الخسارة، ولا تخبري أحدًا عنها. ربما نسترده مرة أخرى. لا تسأليني كيف، لكننا ربما نكون قادرين حقًّا على استرداده مرة أخرى، بل كسب ما هو أكثر.. كوني حريصة فقط على ألا تخبري أحدًا، وإلا ربما تحدث مشكلة.. لقد أخذوا المال

من غرفتك، حينما كنتِ نائمة يا عزيزتي...». ثم تابع قائلاً، لكن بنبرة متعاطفة، مختلفة تمامًا عن نبرته الماكرة التي كان يتحدث بها حتى تلك اللحظة: «...مسكينة يا نيل، مسكينة يا صغيرتي نيل».

نكست الطفلة رأسها، وأجهشت في البكاء دون إرادة منها. كانت متأكدة تمامًا أن تلك النبرة المتعاطفة الأخيرة، التي تحدث بها صادقة تمامًا. لم يكن إدراكها لما حدث لها بالأمر الهين وكان مدعاة للحزن.

قال الرجل العجوز: «لا تخبري أحدًا غيري بأي كلمة بخصوص هذا الأمر.. لا لا! حتى أنا، لا تتحدثي معي ثانية حول ذلك الموضوع». ثم أضاف على عجل: «أحسب أنه ليس من الجيد الحديث عن الخسارة. إن كل الخسائر التي حدثت لنا في أي وقت مضى، لا تستحق دموع عينيك يا حبيبتي. إن المال يمكن استرداده، لكن الدموع لا يمكننا استردادها ثانية.. أليس كذلك يا عزيزتي؟».

قالت الطفلة، وهي تنظر إليه: «دع الدموع تذرف، سأبكي مرة واحدة الآن ولن أبكي ثانيةً إلى الأبد.. لن أذرف دموعاً أخرى أبداً، ولو أصبحت قيمة كل قرش ألف جنيه».

لم يعد العجوز يعرف أي رد ينبغي عليه أن يقوله، لكن همهمات متهورة انبثقت من شفتيه مخاطباً نفسه: «حسنًا حسنًا.. إنها لا تعرف شيئاً أكثر من ذلك، حريٌّ بي أن أكون ممتناً لذلك».

قالت الطفلة في صرامة شديدة: «لكن استمع إليَّ جيدًا.. هل ستستمع؟».

رد العجوز، ولا يزال لا يجرؤ على النظر إليها: «نعم نعم! بالتأكيد سأستمع إلى هذا الصوت العذب الرقيق. دائماً ما يكون صوتك جميلاً بالنسبة لي. مثل صوت والدتك يا طفلي المسكينة».

قالت الطفلة: «دعني أقنعك بشيء.. نعم دعني أقنعك بشيء، لن يكون هناك المزيد من التفكير بشأن الريح أو الخسارة ثانية، ولن نقول سأجرب حظي؛ لأن حظنا سيكون مرتبطاً ببعضه، لذلك يجب علينا أن نسعى لتحقيق هدفنا معاً».

ردد جدّها: «نسعى لتحقيق هدفنا معاً!». كان لا يزال لا ينظر إليها، وقد بدا أنه يتحدث إلى نفسه: «مَن الذي سيكرس نفسه للعبة؟».

أكملت الطفلة حديثها: «قل لي هل مر علينا وقت أسوأ من الوقت الحالي منذ أن نسيت ولعك بها، وسافرنا معاً؟ قل لي ألم نصبح سعداء دون منزل يأوينا، أكثر سعادة من أي وقت مضى كنا فيه في ذاك المنزل التعيس، حينما كنت مولعاً بذلك الشغف، أليس كذلك؟».

قال العجوز متمماً بالنبرة نفسها، التي تحدث بها إلى نفسه سابقاً: «إنها تقول الحقيقة.. لكنها يجب ألا تثير بداخلي أي مشاعر، لكنها تقول الحقيقة فعلاً، لا شك في ذلك».

قالت نيل: «أريدك فقط أن تتذكر ما كنا عليه منذ ذلك الصباح المشرق الذي ولينا فيه ظهرينا له للمرة الأخيرة.. أريدك فقط أن تتذكر ما أصبحنا عليه عندما تحررنا من كل تلك المآسي.. تذكر الأيام الهادئة والليالي الساكنة التي نعمنا بها.. تذكر الأوقات المرحّة التي عشناها..

تذكر السعادة التي تمتعنا بها معًا. إذا داهمنا الجوع أو التعب، لم تكن تمر سوى لحظات ونكون قد أكلنا وشربنا، ونعمنا بالنوم في سلام. تذكر جميع المناظر الجميلة التي رأيناها معًا، وكيف أثلج الرضى صدورنا. تذكر كل هذا، وتدبر السبب وراء كل هذا التغيير المبارك».

استوقفها بإشارة من يده؛ كي لا تستطرد في حديثها أكثر من ذلك، وقد بدا أن عقله مشغول بالكلية. وبعد مضيّ القليل من الوقت، قبل وجنتها، وهو لا يزال يحثها على الصمت، صار إما ينظر في شروء أمامه على امتداد الطريق، وإما ينكس رأسه، ناظرًا إلى الأرض، وقد تغضنت جبهته، بدا كما لو كان يحاول بجهد شاق أن يرتب أفكاره المبعثرة داخل رأسه. بمجرد أن لاحظت الدمع يترقرق داخل عينيه؛ إثر انخراطه في تفكيره وشروءه، أخذ يدها وأمسك بها، كما اعتاد أن يفعل دائمًا، دون عنف أو ظهور لأي أثر لشخصيته الأخيرة، كانت لمسته إيّاها حانية جدًا بكل المقاييس، ومع ذلك لم تستطع الطفلة مبادلتها المشاعر نفسها، لكنه على كل حال أصبح هادئًا مستقرًا كالمعتاد، تاركًا لها كامل الحرية، ولم يسعه من نفسه شيء غير أن يتبع خطواتها.

حينما وصلا إلى معرض أعمال الشمع الرائعة، وجدوا - كما توقعت نيل تمامًا - أن السيدة جارلي لم تنهض من سريرها بعد، وعلمت أن القلق عليهما قد لازمها طوال الليل، فقد ظلت مستيقظة، لم تعرف عيناها النوم، حتى الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً، حينما أقنعت نفسها، بأن العاصفة قد احتجزتهما في مكان بعيد عن المنزل، وأنهما من المؤكد سوف يلجئان إلى أقرب مأوى، ولن يعودا حتى الصباح.

كرست نيل نفسها من فورها للاعتناء بنظافة الغرفة، وإتمام زينتها، وأضحت راضية عن إتمام مهمتها، وارتدائها ملابس نظيفة مهندمة، قبل أن تنزل المحبة لدى العائلة المالكة لتناول الإفطار.

قالت السيدة فور انتهائها من تناول وجبتها: «لم يكن لدينا طوال الوقت غير ثماني آنسات يتبعن الآنسة (مونفلاذرز)، وأصبح الآن لدينا ست وعشرون آنسة تابعون لها، فلقد أخبرتني الطاهية بذلك، حينما سألتها سؤالاً أو سؤالين، وألحقت اسمها باللائحة المجانية. يجب علينا أن نجرب رزمة الفواتير الجديدة، وعلى وجه الدقة أنت من سيتولى هذه المهمة يا عزيزتي، ويجب عليك أن تتحري ماذا سيكون تأثير ذلك عليهن».

كان من الواضح أن البعثة المقترحة -التي كُلفت بها- ذات أهمية قصوى، فهندمت السيدة جارلي موضع قبعة نيل بيديها، معلنة أنها تبدو جميلة جداً، وأن ذلك سينعكس على مظهر المؤسسة بكل تأكيد، أذنت لها في الانصراف، بعد أن ألقت عليها العديد من التوجيهات التي يجب عليها الالتزام بها، وأخبرتها بالاتجاهات التي ستحتاجها، مؤكدة على المنعطفات التي يجب عليها سلوكها في الجهة اليمنى، والمنعطفات الأخرى التي يجب عليها تجنبها في الجهة اليسرى. بناءً على تلك التعليمات والإرشادات، لم يكن لدى نيل أي صعوبة، في وصولها إلى مدرسة مونفلاذرز الداخلية، كانت المدرسة عبارة عن منزل كبير ذي سور عال، له بوابة ضخمة، معلق عليه لوحة نحاسية كبيرة، بها كوة صغيرة، فلا يمكن لأي أحد من الزوار -حتى بائع الحليب- المرور

عبر البوابة دون أن يتفقد الحارس هويتهم، ودون ترخيص خاص، حتى المسؤول عن تحصيل الضرائب، قوي البنية، الذي اعتاد أن يرتدي نظارة وقبعة عريضة الحافة، كان لزامًا عليه أن يمرر فواتير الضرائب عبر تلك الكوة. لكن ما كان أكثر صلابة حتى من حاجز بوابة من الصلب أو من النحاس، هو الحاجز الذي تستهجن به الأنسة مونفلاذرز البشرية جمعاء. حينما أتى الجزار وقف أمامها كأنها بوابة من غموض، تاركًا صفيراً مدويًا عندما رن الجرس.

حينما اقتربت نيل من ذلك الباب المروّع، اضطرت إلى دفعه بروية وبطء شديد، فقد كان صرير مفصلاتهِ عاليًا، اجتازت البستان المهيب، مرت على صف طويل من الآنسات الصغار، اللاتي انقسمن إلى اثنتين اثنتين، كان بعضهن يمسكن بكتب مفتوحة في أيديهن، أما الأخريات فكن يحملن المظلات على نفس الشاكلة. سارت نيل بينهن على نحو جيد، حتى وصلت أخيرًا إلى الأنسة مونفلاذرز، التي كانت تحمل مظلة أرجوانية من الحرير، وقد كان في صحبتها معلمتان، كانتا تبترسمان، لكن كل واحدة منهما بدا عليها أنها تُكِنُّ للأخرى مشاعر مليئة بالغيرة والحسد على نحو شديد، فأصبحتا تتصارعان على خدمة الأنسة مونفلاذرز.

ظلت نيل واقفة في مكانها مرتبكة من تجمهر الفتيات وهمساتهن، تسلط عينيها على الأرض، يخالجهما شعور بالتوتر بسبب سيرها وسط الفتيات، حتى حملت الأنسة مونفلاذرز طرف فستانها، واقتربت منها، بينما انحلت نيل لها وقدمت لها الرزمة الصغيرة، عند استلام الأنسة

مونفلاذرز للرزمة، أعلنت من فورها ضرورة وضع حد فاصل.

قالت الآنسة مونفلاذرز: «أنتِ طفلة معرض أعمال الشمع، أليس كذلك؟».

أجابت نيل في ارتباك شديد، وخجل احمرت له وجنتيها؛ بسبب تجمع الفتيات حولها، وأن كل الأعين كانت مثبتة عليها قائلة: «نعم يا سيدتي».

قالت الآنسة مونفلاذرز -التي أصبحت في مزاج عكر- من دون إضاعة أي فرصة لفرض الثوابت الأخلاقية على العقول البريئة للفتيات: «ألا تعتقدين أنكِ طفلة خبيثة جدًا كي تكوني طفلة معرض أعمال الشمع؟».

تيسست نيل المسكينة في مكانها صامتة، لا تعرف ما يجب عليها أن تقول، وقد احمرت وجنتاها أكثر من ذي قبل؛ فلم تكن قد تعرضت لموقف مشابه على الإطلاق.

تابعت الآنسة مونفلاذرز قولها: «ألا تعرفين أنه أمر مشاغب غير أنثوي، ويعتبر إفسادًا ملحوظًا لخصائصنا الحميدة العقلانية، واستهلاكًا هائلًا للطاقات؟».

تهامست المعلمتان بإيماءات ملحوظة بما يدل على كونهما مؤيدتين تمامًا لهذا الحديث المناهض، ناظرتين إلى نيل، كأنهما أرادتتا القول أن الآنسة مونفلاذرز قد نالت منها بشدة. تبادلتا الابتسامات فيما بينهما، لكن أعينهما تلاقت مع عيني الآنسة مونفلاذرز، فتغيرت

نظراتهما على الفور، وأضحت كل واحدة منهما تفتعل ابتسامة عادية، كأنها تبسم للآنسة مونفلاذرز في المطلق، دون أي مقصد صريح، ثم نظرنا إلى إحداهما الأخرى مرة ثانية، كأن كل واحدة منهما تحث الأخرى - في شيء من التوبيخ - على عدم الابتسام؛ وأنه ليس لديها أي حق في ذلك، وأن ابتسامة الأخرى لا تدل إلا على الوقاحة والسفاهة.

استطردت الآنسة مونفلاذرز في حديثها قائلة: «ألا تشعرين كم أنت سيئة السلوك، كي تكوني مجرد الطفلة العاملة في معرض أعمال الشمع، في وقت يجب أن يكون لديك الوعي الباعث على الفخر لتقديم المساعدة، بالحد الذي يساوي قوتك الطفولية، وبالقدر الذي يكفي صناعة بلدتك، من أجل تنمية عقلك عن طريق التعلم المستمر ولو كان ذلك تحت ضغط هائل، من أجل الاستقلالية في كسب رزق جيد من شلنين وتسعة بنسات حتى ثلاثة شلنات في الأسبوع الواحد؟ ألا تعلمين أنه كلما كان عملك أكثر صعوبة، كلما كنت أكثر سعادة؟».

غمغمت إحدى المعلمتين باقتباس من دكتور (واتس) قائلة: «كيف والنحلة الصغ...».

قالت الآنسة مونفلاذرز، ملتفتة على وجه السرعة: «ماذا! من قال ذلك؟».

أشارت المعلمة التي لم تقل ذلك بالطبع إلى من سألت عنها الآنسة مونفلاذرز، على سبيل كسب ودها، مُلقية بالمعلمة الأخرى في براثن الاضطراب.

قالت الأنسة مونفلاذرز وهي مشرّبة: «(النحلة الصغيرة المشغولة) تنطبق فقط على الأطفال المهبذين...».

- في الكتب، وفي العمل، وفي الألعاب المفيدة.

«.. يعد ذلك القول بالنسبة لهم صحيحًا تمامًا، فالمقصود بالعمل الرسم على المخمل، أو فنون الحياكة بالإبر، أو حتى التطريز، أما عن مثل هذه الحالات...». كانت تشير إلى نيل بمظلتها: «.. أقصد أبناء الفقراء، فيجب أن نقول:

في العمل، يجب أن نعمل عملاً مجدياً؛ لأن العمل دائم
دع سنواتي الأولى تنحصر في الماضي
لأن بإمكانني أن أجعل من كل يوم فرصة جديدة
لإحراز مَجْدٍ في آخره».

لم تكن مهمات استحسان ما قالته الأنسة مونفلاذرز نابعة من المعلمتين فقط، بل صدرت من الطالبات جميعهن؛ اللاتي اندهشن على حد سواء من هذا الارتجال رائع الأسلوب؛ لأنها طوال الوقت تظهر في مظهر السياسية المحنكة، ولم تظهر أبدًا كشاعرة مبدعة. ظللن في حالة من الانبهار، إلى أن تبينت إحداهن أن نيل كانت تبكي، فتحولت كل الأنظار إليها مرة أخرى.

لقد ترقق الدمع في عينيها فعلاً، وباتت تبكي، فأخرجت منديلها لتكفكف دموعها، لكنه سقط منها. همت بالانحناء لالتقاطه، لكن فتاة في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، كانت تقف بعيداً إلى

حد ما عن الأخريات، كما لو أنه ليس لها مكان بينهن، أتت نحوها والتقطته ثم وضعتة في يدها، وعادت أدراجها إلى مكانها مرة أخرى في خجل شديد، حينها لم تفلت من قبضة المربية، التي أوقفتها على الفور. قالت الآنسة مونفلاذرز: «إنها الآنسة إدواردز من فعلت ذلك، أنا أعلم.. والآن أصبحت متأكدة أنها الآنسة إدواردز فعلاً».

إنها كانت بالفعل الآنسة إدواردز، وهذا ما قاله الجميع: كانت الآنسة إدواردز، وما أقرته الآنسة إدواردز نفسها.

قالت الآنسة مونفلاذرز، وقد أنزلت مظلتها، لتلقي نظرة صارمة على الجانية: «أليس هذا أمرًا مثيرًا للقلق يا آنسة إدواردز، أن يكون لديك نزعة قوية تجاه الطبقات الفقيرة المعدمة، تجعلك تنجذبين دائمًا إلى صفوفهم، أو على وجه الدقة، أليس هذا أمرًا غريبًا استثنائيًا، أن كل ما أقوله أو أفعله لا يجعلك تتخلين عن نزعتك، التي تجعل طبقتك الاجتماعية الأساسية لديها تحفظات ثابتة نحوك، أيتها الفتاة صاحبة العقل الرجعي؟».

قال صوت عذب: «لم أقصد أي ضرر حقًا يا سيدتي، لقد كان رد فعل تلقائيًا وليد اللحظة».

كررت الآنسة مونفلاذرز في سخرية واضحة: «وليد اللحظة! إنني أتعجب حقًا! هل ردك عليّ الآن وليد اللحظة أيضًا!». -تعجبت كلتا المعلمتان-: «أنا مندهشة حقًا». -اندهشت كلتا المعلمتان-: «بناء على هذا أفترض أن ردود أفعالكِ وليدة اللحظة هي التي تجعلكِ

تتخذين جانب كل متذلل وغشاش يصادفك في طريقك». - افترضت كلتا المعلمتان الأمر نفسه-.

استأنفت المربية الحديث، ولكن بنبرة أكثر صرامة: «لكنني أود أن تعرفي شيئاً يا آنسة إدواردز، من غير المسموح بأي حال من الأحوال -ولو كان فقط من أجل الحفاظ على مظهر أخلاقي لائق وسلوك قويم في هذه المؤسسة- ولا يفترض أن يكون مسموحاً لك بأي حال من الأحوال، أن تتعدي رؤساءك وتخطيهن على هذا النحو الجسيم. إذا لم يكن لديك أي سبب تشعرين من أجله أنك أرقى من أطفال عرض أعمال الشمع، فإن فتيات أخريات هنا لديهن، لذلك يجب عليك إما أن ترضخي لهؤلاء الفتيات، وإما أن ترحلي من مؤسستنا الكريمة يا آنسة إدواردز».

كانت هذه الفتاة متدربة في المدرسة، فقيرة بلا أم، تعلمت دون مقابل، وتُعلّم ما تعلمته دون مقابل، تقيم وقت دراستها دون مقابل، وتستقر وقت تدريسها دون مقابل، لكن إقامتها والمعاملة التي كانت تُعامل بها أقل من أقل أي مقابل، لدرجة أن الخادِمات كُنَّ يشعرنّها بالدونية؛ لأنهن عُوْمِلن على نحو أفضل منها، كُنَّ أحراراً في مواعيد ذهابهن ومجيئهن، وحظين في وظائفهن على تقدير واحترام أكثر منها. أما المعلمات فقد حصلن على امتيازات لا حدود لها؛ لأنهن دفعن مقابل دراستهن، والآن يتم الدفع لهن مقابل تدريسهن. وبالنسبة للطالبات، فلم يعرن لرفيقتهن انتباهاً، فلم يكن لديها أي قصص جذابة ترويها عن البيت، أو أخلاء يأتون لزيارتها بعرباتهم، أو مربية تأخذ منها

النيذ والكعك في تواضع، أو خادمة مطيعة تباشر لها الأعمال المنزلية في العطلات، لم يكن لديها أي شيء لتتحدث عنه أو تعرضه. لكن السؤال هنا: لماذا تشعر الآنسة مونفلاذرز بالغضب والانزعاج الدائم تجاه تلك المتدربة المسكينة.. كيف وصلت الأمور إلى ذلك الحد؟

لقد كانت الفتاة المدللة عند الآنسة مونفلاذرز، والأعلى مكانة في مدرسة الآنسة مونفلاذرز كلها هي ابنة البارونة -الابنة الحقيقية للبارونة الحقيقية، بناءً على بعض انعكاسات قوانين الطبيعة- لكن ذلك لم يكن ظاهرًا في الملامح، بقدر ما كان خفيًا فيما يتعلق بالشابه في التفكير، في حين أن المتدربة المسكينة -على عكسها- تمتعت بفضة وجمال شكلي وجوهري فائق الوصف. لقد كانت رائعة من جميع النواحي. طوال تلك المدة، لم تحصل الآنسة إدواردز إلا على علاوة صغيرة، صُرفت منذ فترة طويلة، لكنها لم تتأثر بذلك، وازدادت تألقًا وازدهارًا يومًا بعد يوم مقارنة بابنة البارونة، وذلك على الرغم من تعلمها جميع المواد الإضافية غير المقررة -أو أقرب للواقع تعليمها لها- كان إجمالي فاتورة نصف العام الدراسي لها ضعف فاتورة أي فتاة أخرى في المدرسة، دون مراعاة لمشاعر أو عزة نفس طالباتها. بناءً على ذلك، ولأنها كانت تابعة، كرهت الآنسة مونفلاذرز الآنسة إدواردز بشدة، وكانت حاقدة عليها، عادة يتفاقم غضبها بسببها، لذلك حينما تعاطفت مع نيل، انتهزت الفرصة لتنهال عليها بوابل من الإساءات اللفظية، ولتسيء معاملتها، مثلما لاحظنا جميعًا ذلك.

قالت الآنسة مونفلاذرز: «اليوم لن تري ضوء النهار يا آنسة إدواردز، اذهبي ولازمي غرفتك، وغير مسموح لك على الإطلاق بمغادرتها، دون إذن صريح».

تحركت الفتاة المسكينة على عجل، بينما استوقفتها فجأة صرخة خافتة من الآنسة مونفلاذرز تقول: «أحضروها إلي هنا».

صاحت المربية، ناظرة نحو السماء: «لقد مرت من أمامي دون إلقاء أي تحية! لقد سارت بالفعل من أمامي دون إبداء أي اعتبار لوجودي، كما لو أنني غير موجودة».

التفتت الفتاة، وانحنت لها. في غضون تلك اللحظة، حينما رفعت عينيها في وجه رئيستها، استطاعت نيل أن تبصر في عينيها الداكنة ما لامس قلبها، وتذكر من طريقة نظرتها، تعبيراً مكبوتاً نائر ضد الاستغلال الوضع للمكانة الاجتماعية. لم تقم الآنسة مونفلاذرز بأى رد فعل، غير أنها حركت رأسها، كأن نار قلبها قد خمدت.

قالت الآنسة مونفلاذرز، ملتفتة إلى نيل: «أما بالنسبة لك أيتها الطفلة الكريهة، فاذهبي وأخبري سيدتك، أنها إذا تجرأت وأرسلت إليّ المزيد، حينها سأكتب للسلطات التشريعية، وأضعها في الصندوق الخشبي^(١٥)، وسأرغمها على التكفير عن ذنبها على مرأى ومسمع

(١٥) طريقة عقاب عُرِفَت منذ العصر السكسوني حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، يخضع لها من أدينوا بارتكاب جرائم بسيطة، فيجلسون داخل ذلك الصندوق الخشبي وقتاً قصيراً، وتكون أرجلهم مقيدة، ويسخر منهم العامة ويتعرضون إلى الإهانات أو يلقي عليهم البيض الفاسد من المارة.

من الجميع في الكنيسة بارتداء الزي الأبيض^(١٦)، أما أنتِ، فأحسب
أن لديك الخبرة المؤكدة الآن، وصرت تعلمين ما ستلاقينه إذا جرّوتِ
على المجيء إلى هنا مرة أخرى.. والآن باشرن أعمالكن يا فتيات».

انفض الجمع في لحظات، سارت الفتيات تبعًا اثنتين خلف
اثنتين، آخذات معهن الكتب والمظلات، أما الآنسة مونفلاذرز فدعت
ابنة البارونة للسير معها لتهدئة مشاعرهما المضطربة، متجاهلة المعلمتين
-اللتين بدلتا ابتساماتهن مع حلول ذلك الوقت إلى نظرات تعاطف-
وتركتهما تأتيان خلفها، وقد لازمهما الكره أكثر مما سبق؛ فقد كانتا
مضطرتين وملزمتين بالسير معًا.



(١٦) طريقة عقاب يمثل فيها المخطئ للكنيسة مرتديًا زيًا أبيض للتكفير عن ذنبه.

الفصل الثاني والثلاثون

لا يمكن وصف غضب السيدة جارلي فور معرفتها بالتهديد والوعيد بعقوبة الصندوق الخشبي، ووجوب امتثالها للتكفير عن ذنبها بالزني الأبيض. كيف للسيدة جارلي الأولى والوحيدة أن تتعرض إلى ازدراء العامة، وسخرية الأطفال، وإهانة شماس الكنيسة! كيف لقبعة هي مجد وبهجة النبلاء والشرفاء -تتوق زوجة العمدة نفسها إلى ارتدائها- أن تُستبدل بقماش أبيض، في مشهد مهين ومذل! كيف للأنسة مونفلاذرز، تلك المخلوقة الفظة أن تتصور -ولو في دفائن مخيلتها- ذلك المشهد المهين.. قالت السيدة جارلي وهي في أوج غضبها وضعفها؛ لافتقادها أي قدرة على الثأر لنفسها: «حينما أفكر في الأمر بامعان، أجد نفسي أميل إلى الإلحاد!».

لكن السيدة جارلي بدلاً من أن تخطط مسارًا للانتقام، تحضرت لأفكار أخرى، فأخرجت قنيتها مجهولة المحتوى، وأمرت بوضع الكؤوس على طبلتها المفضلة، وجلست على كرسي إلى جانبها، واستدعت تابعيها للجلوس إلى جوارها، وأخذت تردد كل ما تلقته

من إهانات كلمة كلمة عدة مرات. فعلت ذلك، ثم باتت تتوسل إليهم للشرب معها في يأس شديد، ثم أخذت تضحك وتبكي، تأخذ رشفة صغيرة من مشروبها، ثم تعاود الضحك، وتتبعه بالبكاء، ثم تأخذ رشفات أخرى، فتبكي وتضحك، ظلت على الحال نفسه، تكرر فعلها، وكلما مر الوقت كلما ازدادت نوبات ضحكها وقلّت دموعها، لكنها في النهاية لم تستطع الضحك ثانيةً على ما قالته الآنسة مونفلاذرز، ورأت أن تلك المخلوقة ما هي إلا مصدرًا سخيلاً للسخرية، عوضًا عن أن تكون مصدرًا رهيبًا للغضب.

قالت السيدة جارلي: «إنني أتساءل حقًا، أي منا أفضل.. هي أم أنا؟ إنه مجرد حديث، أن تقول وتفعل ما تريده، إذا كانت قد ذكرت أمر القفص الخشبي، فحرى بي أن أفعل ما فعلته، وأذكر أمر القفص الخشبي، يا له من أمر مضحك، إذا وصلت الأمور إلى ذلك الحد. يا ربي! ما الفائدة المرجوة بعد هذا كله؟».

بعد أن وصلت إلى هذه الحالة من الهدوء العقلي، وضبط النفس -بمساعدة أكيدة من الملاحظات المتعجبة التي كان يلقيها المتفلسف جورج في خضم حديثها- عملت على تهدئة نيل وتعزيتها بالعديد من الكلمات الطيبة، وطلبت منها معروفًا شخصيًا، وهو أنه في أي وقت طوال أيام حياتها، إذا ما خطرت الآنسة مونفلاذرز على بالها، عليها فقط ألا تفعل شيئًا غير أن تضحك ساخرة.

هكذا انتهى غضب السيدة جارلي، متخلصةً من جميع مشاعرها السلبية قبل وقت طويل من غروب الشمس. أما نيل، فكان غضبها

واضطرابها أشد وطأة، لم يكن من السهل عليها نسيان ما حدث، أو تناسي تعنيفهن لها، فقد طغى على بهجتها ومحاها تمامًا.

لم تصارع تلك الليلة اضطرابها فقط، بل عانت من الخوف أيضًا؛ فقد خرج جدها متسللاً، ولم يعد حتى انقضى الليل. جلست وحيدة منعزلة، يستنزفها التعب النفسي والجسدي، تعد الدقائق، تنتظر عودته، حتى أتاها، مفلسًا، مهزومًا، بائسًا، لكنه ما زال عازمًا على ما افترض به.

قال في حدة، حينما افترقا في الليل: «احصلي لي على مال.. يجب عليك أن تعطيني مالًا، لا بد أن يكون معي أموال يا نيل. سأعيدها إليك بالتأكيد بأرباح كبيرة في يوم من الأيام، لكن كل الأموال التي ستقع في يدك، يجب أن تكون لي.. لا أقصد أن تكون لي بالمعنى الحرفي، أقصد أنني سأستخدمها من أجلك يا نيل، تذكرني ذلك جيدًا.. سأستخدمها من أجلك!». «..»

ما الذي ستفعله طفلة في موقفها، طفلة تدرك الحقيقة كاملة، تفضل أن تعطيه فعلاً كل بنس يقع في يدها، حتى لا يرتكب فعلاً جسيماً، ويغريه المال، فلا يسعه سوى أن يسرق راعيتهما؟ فكرت في أنها إذا ما أدلت بالحقيقة، سيُعامل باعتباره رجلاً خرفاً أصابه الجنون، أما إذا لم تزوده بالمال الذي يحتاجه، فسوف يجد طريقة أخرى ليحصل بها على المال، لكنها إذا زودته بالمال بالفعل، فسوف تكون بمثابة الشخص الذي يسعر النار، التي أحرقته من قبل، وربما تقصيه عن الشفاء. في خضم صراعها مع أفكارها، وتفكيرها المشتت تمامًا، الذي أثقلها حزناً على حزنها، لم تجرؤ على إخباره بأي شيء، وظلت معذبة بأفكارها، تشعر أن الرجل العجوز

كلما تغيب عنها، كلما كانت معرضة إلى الاضطهاد على يد حشود من الناس، لكنَّ وجوده معها أو غيابه عنها أصبح سيان؛ تشعر بالخوف في كل الأوقات، لقد اختفى تورد وجنتيها، وخفت لمعة عينيها، وبات قلبها مغمومًا مثقلًا بالهموم مكروبًا. توافدت أحزانها القديمة على فكرها تباعًا، ففاقت مخاوفها وشكوكها، التي لازمت عقلها طوال النهار، تنهال على رأسها، وتحوم حول وسادتها، تطاردها في أحلامها طوال الليل.

كان من الطبيعي، على الرغم من أنها كانت في غمار مصابها، أن ترد إلى عقلها لمحة تنتشلها من أحزانها، فقد تذكرت تلك الفتاة اللطيفة، التي ألقت عليها نظرة سريعة، فاضت بالعاطفة والتعاطف، على الرغم من أنها كانت نظرة لحظية، أضفت على ذاكرتها لطف سنين. ظلت تفكر، ماذا لو كان لديها صديقة مثلها، ينشرح لها صدرها، تخبرها عن مآسيها كافة، فتخفف من ثقل هموم قلبها، ماذا لو كان بإمكانها سماع صوتها العذب، فتصير أكثر سعادة. باتت تتمنى لو كان بإمكانها أن تصبح شخصًا أفضل حالًا، ألا تكون فقيرة وذليلة إلى هذا الحد، فتتجرأ على الذهاب إليها دون أن يلزمها خوف صدها، لكنها شعرت في النهاية أنهما غير متكافئتين، وأن فارقًا كبيرًا يحول بينهما، وأنه لا وجود لأي أمل في أن تخطر حتى على بال الفتاة فيما بعد.

جاء وقت العطلة الرسمية في المدارس، عادت الفتيات إلى بيوتهن، قيل أن الآنسة مونفلاذرز ذهبت إلى لندن، تشعل النيران في قلوب الشباب متوسطي العمر، أما الآنسة إدواردز فلم يقل أحد عنها شيئًا، لا يعرفون إذا كانت قد ذهبت إلى بيتها، أو أن لا بيت لها من

الأساس كي تذهب إليه، لا يعرفون إذا ظلت في المدرسة، أو تواجدت في مكان آخر، لا أحد يعرف عنها أي شيء. لكن في إحدى الأمسيات، بينما كانت نيل عائدة من نزهة بمفردها، مرّت أمام نزل، حيث توقفت مركبة الجياد العمومية؛ لتقل أحدًا ما، رأت الفتاة الجميلة -لقد تذكرتها جيدًا- تعانق طفلة صغيرة كانوا يساعدونها لتنزل من على السطح.

حسنًا! لقد كانت شقيقتها، شقيقتها الصغيرة، كانت أصغر بكثير من نيل، لم تكن قد رأتها منذ قرابة الخمس سنوات -حسب تتابع سير القصة- أتت إلى ذلك المكان في زيارة قصيرة، لطالما شكل وجودها فارقًا؛ كان قادرًا على احتواء اضطراباتها طوال الوقت. شعرت نيل حينما رأتها تتعانقان كأن قلبها يُعْتَصِر ويتفتت داخل صدرها. تحركتا بعيدًا عن الأشخاص الذين تزاحموا حول المركبة، ومن ثمّ ارتميتا في حضن بعضهما، متنهدين، باكيتين بدموع الفرح. لم تكن قصتهما بحاجة إلى كلمات، كي تُسرد تفاصيلها؛ فإنّ ملبسهما البسيط العادي، والمسافة التي قطعتها الطفلة وحدها، وسعادتهما وفرحهما الشديد عند اللقاء، والدموع التي دُرِفَتْ، قد أوضحت كل شيء.

أمست مع مرور الوقت، رغم قصره، أكثر هدوءًا وضبطًا للنفس، مضيتا في طريقهما، تمسك كل واحدة بيد الأخرى، لكن فعلهما كان أقرب إلى التشبث. قالت الطفلة عند مرورهما حيث كانت تقف نيل: «هل أنت متأكدة أنك سعيدة يا أختي؟». ردت شقيقتها: «نعم! أنا في غاية السعادة الآن». قالت الطفلة: «إنني أقصد سعيدة في المطلق؟»، «نعم يا أختي.. لماذا تديرين وجهك بعيدًا؟».

لم تستطع نيل أن تمنع نفسها من تعقبهما لمسافة قصيرة. لقد ذهبتا إلى منزل مربية عجوز، حيث أخذت الشقيقة الكبرى غرفة نوم للصغرى. قالت: «سوف آتي إليك كل صباح، فيمكننا قضاء النهار كله معاً».

- لماذا تذكرين النهار فقط؟ لِمَ لا نقضي الليل معاً أيضاً؟ هل سيغضب منكِ إذا فعلتِ ذلك يا أختي العزيزة؟

لماذا بكت نيل في تلك الليلة، لماذا ترقرت في عينيها دموع شابها دموع الشقيقتين؟ لماذا كان قلبها ممتناً للقائهما؟ ولماذا عانى ألماً حينما فكرت في اقتراب موعد فراقهما؟ دعونا لا نصدق أبداً في أن مشاعرهما لم تكن خالصة، أو أن تُؤَلَّ اضطراب مشاعرهما ونعزوه إلى تفكيرهما في نفسها وفي مصائبها الخاصة - ولو كان دون وعي أو قصد منها، كما يُرجح أن يكون الحال - ونشكر الذي خلقنا، وبث فينا مشاعر طيبة فنفرح لفرح الآخرين الأبرياء، حتى وإن كنا في أسوأ حالاتنا، فكل منا لديه نبع مشاعر طيبة خالصة، سيُجزى عليها نعيماً في الجنة!

مع ظهور أول إشراقة للصباح المبهج، وسط خيوط الليل اللطيفة المنسدلة، تآقت الطفلة إلى الاقتراب أكثر من الشقيقتين؛ لتعبر عن امتنانها الشديد نحوهما، لكن احترامها لخصوصيتهما وللحظات القصيرة السعيدة التي تحظيان بها، منعها من التقدم، لكنها تتبعتهما لمسافة ليست بقصيرة، تحذو حذوهما، إذا مشيتا تمشي، إذا توقفتا توقفت، إذا جلستا على العشب تتسامران، جلست بالقرب منهما، إذا هممتا بالرحيل، وقفت من فورهما لتهدئ نفسها للرحيل، شعرت لمجرد

القرب منهما بالرفقة والسرور. كانت نزتهما المسائية بالقرب من الممشى النهري. ظلت على الحال نفسه ليالي عديدة، على الرغم من أنها لم تكن مرئية، مهمشة، ولم يكن وجودها لهما مُدْرَكًا، كان قلبها مثلجًا بمشاعر رقيقة، لازمتها طوال مجاورتها لهما؛ فقد شعرت كما لو كانتا صديقتيها، يثقن في بعضهن، ويشعرن بالراحة معًا، شعرت كما لو أن ثقل أعباء قلبها يتلاشى، وأصبح تحملها لمشاقها أقل صعوبة، شعرت كما لو أن أحزانهن قد اختلطت، ونتج عنها عزاء متبادل. ربما ما عايشته كان محض خيال عاجز، محض خيال طفولي لمخلوقة صغيرة وحيدة. تابعت الليالي، ليلة تلو الأخرى، ولا تزال الشقيقتان تتقابلان في المكان نفسه، ولا تزال الطفلة تتبعهما بقلب رقيق عطوف.

لكنها في ليلة ما فور عودتها إلى البيت، أصابها الذهول الشديد؛ فقد وجدت أن السيدة جارلي قد أوصت بأن يتم إعداد إعلان، ينوه عن أن مجموعتها المتميزة ستبقى في هذا المكان لمدة يوم واحد آخر فقط، وأنه ليس تهديدًا، بل سيتم تنفيذه فعليًا - من المعروف أن الأخبار التي يتم الترويج لها وسط الجموع البشرية يجب أن تكون دقيقة، غير قابلة للإلغاء - مشددة على ذكر أن المجموعة الهائلة المتميزة ستُغلق فعليًا في اليوم التالي.

قالت نيل: «هل سنرحل من هذا المكان مباشرة يا سيدتي؟».

قالت السيدة جارلي: «اسمعي جيدًا أيتها الطفلة، ما سيقال سيحيطك علمًا».، أخبرتها السيدة جارلي أنها أتبعَت الإعلان الأول بإعلان آخر، ينص على أنهم نتيجة للاستفسارات التي لا حصر لها

التي ترددت أمام باب معرض أعمال الشمع، ونتيجة لاستياء الجماهير بسبب عدم حصولهم على تذاكر دخول المعرض، سوف تُمد مهلة العرض لمدة أسبوع واحد آخر فقط، وأنه سيعاد فتح المعرض بدءًا من اليوم التالي.

قالت السيدة جارلي: «نعلم أن الفترة الدراسية في وقتنا الحالي قد انتهت، ولن يأتينا زوارنا المعتادون، بالتالي سيكون أغلب زوارنا من الجمهور العام، الذين يريدون معاملة خاصة وإثارة مميزة».

في ظهر اليوم التالي، تحضرت السيدة جارلي، وجلست خلف طاولتها المبهرجة، تحيط بها التماثيل الشمعية الفريدة من كل منحى -سابقة الذكر-، ومن ثمَّ أمرت بأن تفتح الأبواب على مصراعيها، من أجل استقبال الجمهور الفطن المستنير. لكن انطباعات اليوم الأول لم تكن مكللة بالنجاحات؛ نظرًا إلى أن المتوافدين من الجمهور العام، لم يكونوا مولعين بالتماثيل الشمعية -مثلما كان يُظن- بقدر ولعهم بالسيدة جارلي شخصيًا، لدرجة أنهم لم يتأثروا بالتحفيز، وإعلان أن تذكرة الدخول لا تكلف غير ستة بنسات فقط للنفر الواحد. على الرغم من ذلك، ظل العديد من الناس يحملقون قرب المدخل إلى التماثيل الشمعية أثناء العرض، ولبثوا في أماكنهم بمثابة شديدة، على رأس كل ساعة؛ كي يستمعوا إلى عزف الأرغن الموسيقي، وبرنامج العرض، وقد كانوا لطفاء بما يكفي، لكي يوصوا أصدقاءهم بالذهاب إلى المعرض، لكنهم سلكوا نفس مسلكهم، لدرجة أن مدخل معرض الشمع حوَصر تمامًا، جراء احتشاد نصف سكان البلدة تقريبًا، والذين ما إذا هموا

بالمغادرة، تبعهم على الفور نصف سكان البلدة الآخر، على الرغم من هذا كله، كان حال الخزينة لا يوحي بأي ثراء، وكانت الانطباعات عن المؤسسة لا تضيفي أي تشجيع على الإطلاق.

في ظل هذه الأجواء المحبطة للمصنفات الكلاسيكية، لم تجد السيدة جارلي أي خيار غير أن تبذل جهودًا استثنائية؛ لتحفيز وخدمة الذوق الشعبي، وإثارة فضول الجمهور العام. عملت على تعديل ضبط الآلات الموجودة في جسد الراهبة القائمة أمام الباب، وضبطتها على موضع الحركة، فأمست الراهبة تهز رأسها باستمرار على نحو مترنح طوال اليوم، مما أثار إعجاب السكارى، في حين أن حلاقًا بروتستانتيًا، عندما رأى حركة الراهبة، اعتبرها شكلاً نموذجيًا لمحاكاة التأثير المهين الواقع على العقل البشري إثر احتفالات الكنيسة الرومانية، متحدثًا عن هذا الموضوع بفصاحة شديدة وأخلاق حميدة. وأوصت المناديين أن يتنقلا من وإلى المعرض باستمرار، بأزياء تنكرية عديدة، يعلنان بصوت عالٍ، أن العرض يستحق المال أكثر من أي شيء قد شاهدوه أو سيشاهدونه طوال حياتهم، ويحثان المارة طوال سيرهما، والدموع تترقرق في أعينهما، على ألا يضيعوا متعة مشاهدة العرض. حينما تم ذلك على أكمل وجه، جلست السيدة جارلي أمام خزيتها، تستقبل العملات المعدنية منذ الظهر حتى المساء، معلنة وسط الحشود أن سعر الدخول ستة بنسات فقط للنفر الواحد، وهكذا، تم تدبير أمر الرحيل بعد أسبوع، وتم التعامل مع الأمر وإصلاحه بإيجابية مذهشة في يوم واحد، إثر جولة قصيرة بين شعب أوروبا المجلل.

قالت السيدة جارلي، في ختام يوم كل حدث مماثل: «احضروا
في الموعد.. احضروا في الموعد.. احضروا في الموعد، تذكروا دائماً
أن مجموعة السيدة جارلي الفريدة تضم أكثر من مائة شخصية، وأنها
المجموعة الأصلية الوحيدة في العالم، فكل المجموعات الأخرى
ليست سوى تقليد ومخادعة. احضروا في الموعد.. احضروا في
الموعد.. احضروا في الموعد!».



الفصل الثالث والثلاثون

بما أن سياق هذه الحكاية، سيضطرنا في مرحلة ما، إلى التعرف على بعض التفاصيل المهمة المتعلقة بالاقتصاديات الخاصة بالسيد (سامبسون براس)، وبما أن التأجيل في ذكر التفاصيل غير محبذ، فلن نجد وقتاً أكثر ملاءمة لذكرها من الوقت الحاضر، إن المؤرخ يأخذ بيد القارئ النهم، يخلق به في سماء المعرفة، يحيطه علماً بمعارف وأخبار، يشقان طريقهما نحو أماكن شيقة، بمعدل يفوق كل ما فعله (كليوفاس لياندر و بيريز زامبولو)^(١٧) لرفيقه، حينما سافرا معاً، وهنا يصطحب المؤرخ القارئ الودود، ويخلق معه، ينزل به في (بيفيس ماركس).

هبط المحلّق الجسور على بيت مظلم صغير، كان محل إقامة السيد سامبسون براس.

(١٧) بطل الرواية الفرنسية *Le Diable Boiteux*: يُحكى أنه حرر آشما داي عن طريق الخطأ "ملك الجن والغفاريات" - وهو مضاف في الأدب المسيحي إلى قائمة أمراء الجحيم السبعة حسب التلمود - فشعر الشيطان بالامتنان، فقرر أن يأخذه إلى مكان عالٍ ويكشف أسطح مدريد فيتمكن من رؤية ما يجري في كل مكان.

كانت نافذة ردهة مسكنه الصغير قريبة جدًا من طريق المارة،
لدرجة أن مَنْ كان يمشي مجاورًا لجدران البيوت، يمكنه أن يلمس
زجاج النافذة المعتم بُردن معطفه -من الجدير بالذكر أن ذلك كان فعلًا
مستحسنًا؛ نظرًا لقطارها- كان يعلق على نافذة ردهة ذلك المسكن
الصغير، في أيام امتلاك سامبسون براس له، ستارة خضراء باهتة -أقرب
ما يمكن أن توصف به- رثة مرتخية مهترئة بفعل أشعة الشمس، بالية
جداً، لم يكن وجودها بأي حال من الأحوال، لحجب رؤية الغرفة
المظلمة الصغيرة، بل ربما توفرت من خلالها وسيلة مواتية للمراقبة
بدقة. لم يكن هناك الكثير للنظر إليه من الأساس. حريٌّ بالقول أن
المنضدة الهشة المتزعزعة، التي اعتلتها بشكل ملفت رزم من الأوراق،
اصفر لونها وباتت مهترئة بسبب وضعها لوقت طويل في الجيب،
والكرسيان الموضوعان أحدهما أمام الآخر، في مقابل قطعة الأثاث
البالية المذكورة، والمقعد القديم الآخر، الذي يمكن وصفه بمقعد
الغدر؛ فقد ساعد مسنده على ضم العديد من الوكلاء دون إفلات، إلى
أن يدلوا بما في جعبهم، والصندوق المستعمل لحفظ الشعر المستعار،
الذي استُخدم كحافضة للتدوينات والوثائق والتصاريح وبعض من
البنود القانونية المكتوبة، كأن سبب وضع تلك الكتابات في ذلك
الصندوق تحديدًا قد افترض من منطلق أن المعلومات الكتابية تحفظ
في الرأس، والشعر المستعار يوضع على الرأس، بما أن الشعر المستعار
مكانه الصندوق، إذن الكتابات مكانها حيث وضعت بالفعل، والكتابان
أو الثلاثة كتب النمطية للتدريب، وقنينة الحبر، والمرملة، ومكنسة

الموقد المتآكلة، والسجادة التي يجوز وصفها بأنها خرقة للمداس، لكن خيوطها على أي حال لا تزال متشابكة على نحو شديد البؤس، إضافة إلى الحوائط الخشبية الصفراء، والسقف الذي تغير لونه من دخان حرق التبغ، والغبار وأنسجة العنكبوت التي سكنت كل شيء، كانت جميعها من بين أبرز معالم مكتب السيد سامبسون براس.

على الرغم من كافة تلك الأشياء الجامدة التي تغطي على المظهر العام في الغرفة، إلا أنها كانت لا تُضاهى بأهمية اللوحة النحاسية المعلقة على الباب والتي كانت تحمل اسمه (المحامي / السيد براس)، والياطة التي رُبطت إلى قارع الباب، والمكتوب عليها (الدور الأول.. مكتب السيد النبيل). لكن مكتبه احتوى أيضاً على نموذجين حيين مألوفين مثلاً الطبيعة المتحركة، من أجل هدف تاريخي إلى حد كبير؛ لما لهما من أهمية كبرى وشأن خاص.

كان أحد النموذجين السيد براس نفسه، والذي ظهر بالفعل عبر صفحات الرواية. والنموذج الآخر كاتبته ومساعدته ومديرة منزله وسكرتيه ومديرة شؤونه الخاصة ومستشارته، ومحط إعجابه، والسبب الرئيس لزيادة أجر مشاريعه القانونية، لقد كانت الآنسة براس مثلاً حياً للمرأة القوية النابغة في القانون العام، وأظن أنه سوف يكون من المحجب، لو ذكرنا وصفاً موجزاً لها.

حسناً! كانت الآنسة سالي براس في الخامسة والثلاثين من عمرها أو ما يقرب ذلك، كان لها جسد نحيل عظامه بارزة، تمتعت بشخصية قوية حازمة، لها قدرة فائقة على إخمد أي مشاعر حب، وإبقاء معجبيها

على مسافة بعيدة منها، وهو الأمر الذي ألقى في صدور الرجال الغرباء مشاعر متأججة من السعادة؛ لمجرد الاقتراب منها. حملت ملامح وجهها تشابهاً كبيراً بينها وبين شقيقها السيد سامبسون، تشابهاً يصل إلى درجة التطابق في الواقع، لكنه كان تشابهاً متوائماً مع حياء الأنسة براس العزباء ومع أنوثتها المتواضعة، إذا ارتدت ملابس أخيها وجلست إلى جانبه بغرض المزاح، سيكون من العسير حتى على أقدم صديق للعائلة التمييز بينهما، وحسم أمر أي منهما سامبسون وأي منهما سالي، حتى إذا كانت الحمرة التي اعتلت الشفة العليا للسيدة دليلاً مؤكداً يشير إليها، وحتى لو دُعِم تخمين الهيئة العامة بالزي، فلا تزال اللحية عاملاً مضللاً. مع ذلك، وبأخذ كافة الاحتمالات في الاعتبار، فلا يوجد ما هو أكثر من أن تنبت الرموش في مكان خاطئ، لكن فيما عدا ذلك كانت أعين الأنسة براس خالية إلى حد كبير من أي عيوب طبيعية. أما بشرتها فكانت باهتة شاحبة -باهتة إلى درجة مقززة إذا جاز التعبير- لكن هذا الشحوب كان مقبولاً بسبب التورد الذي يظهر على أبرز جزء من طرف أنفها عند الضحك. أما صوتها فقد كان مثيراً للإعجاب بشكل فائق، عميقاً وجيداً وغنياً، إذا ما سمعته مرة واحدة، ليس من الوارد أبداً أن تنساه. كان زيبها المعتاد عبارة عن فستان لونه أخضر، لم يكن مختلفاً البتة عن لون تلك الستارة المنسدلة على نافذة المكتب، كان ضيقاً على جسدها إلى حد ما، تمتد ياقته إلى أعلى حلقتها، مثبتة من الخلف بزر ضخم على نحو غريب. كانت تؤمن بلا شك في أن البساطة والسهولة هما روح الأناقة، فلم تكن ترتدي أي قلادة أو وشاح، باستثناء ذلك الذي

كانت تضعه على رأسها، دائماً ما كانت تعقد وشاحاً شفافاً كالشاش لونه بني حول رأسها، يشبه جناح مصاصي الدماء الأسطوريين، كان من الممكن تغيير شكله وفق أنماط عديدة، فقد فرض نفسه كأحد أغطية الرأس الجميلة بسبب بساطته.

هكذا انتهينا من وصف الأنسة براس في مظهرها الخارجي. أما وصفها من حيث عقلها، فيمكن القول بأنها كانت فطنة ذات عقل نشيط وقوي؛ فقد كرست نفسها منذ سنوات شبابها الأولى في حماسة شديدة غير شائعة؛ لدراسة القانون، لم تكن تضع فرصها كرحلات النسر -التي تكون نادرة على الأغلب- بل عملت على اقتفاء أثر كل ما كان مضمونه يشكل لغزاً كأسماك الإنقليس، وهو ما كان يقودها عادة إلى طريقها المراد. كانت تشبه أمثالها من الأشخاص الذين تمتعوا بعقليات فذة، فلم تحصر نفسها في الجوانب النظرية، أو لم تتوقف عن المثابرة من أجل تقدمها حينما حازت على الفائدة العملية، كانت منهمكة في مراجعة النسخ المعدلة، وملء النماذج المطبوعة بدقة متناهية، كانت -باختصار- تباشر الأعمال الإلزامية في المكتب، لدرجة أنها كانت تنزع بقايا الجلد مثلاً من على ورق البرشمان، أو تصلح قلم الحبر بنفسها. إن من الصعب حقاً فهم كيف لها أن تمتلك تلك المقومات مجتمعة، ولا تزال الأنسة براس، لكنها على كل حال قد أورث قلبها القساوة وجعلته فولاذاً ضد الرجال، حتى من تودد إليها ارتدع بسبب خوفه من كونها ملمةً بالقانون، وتستطيع تحت أي ظرف من الظروف أن تضع أصابعها على ثغرات قانونية إثر أي إجراء تنظيمي مألوف، فلا عجب أنها

لا تزال عزباء، ولا تزال ملتصقة بالكرسي القديم المقابل لكرسي شقيقتها سامبسون، ولا عجب أيضًا بناءً على ما تم ذكره أجمع، أن العديد من الناس قد وقفوا في المساحة الفاصلة ما بين هذين الكرسيين القديمين.

في صباح أحد الأيام، كان السيد سامبسون براس جالسًا على كرسيه ينسخ بعض اللوائح القانونية الرسمية، غارسًا قلمه عميقًا في الورق في وحشية تامة، كما لو كان يكتب على قلب خصم من يترافع عنه، وكانت الآنسة براس تجلس على كرسيها تجهز قلمًا؛ تحضيرًا لتحرير كشف حساب صغير، الذي يعتبر بمثابة الجزء المفضل لها في المهنة، ظلا جالسين في صمت تام لفترة طويلة، حتى كسرت الآنسة براس حاجز الصمت.

قالت الآنسة براس: «هل أوشكت على الانتهاء يا سامي؟». عادة ما تحرف اسم سامبسون إلى سامي؛ فقد كانت كل كلمة تخرج من شفتيها الأنثوية الرقيقة، تجد سبيلها نحو الرقة واللفظ.

رد عليها شقيقتها: «لا! لكن كان كل شيء ليتهي، إذا ما كنت تدخلتِ وساعدتيني في الوقت المناسب».

صاحت الآنسة سالي: «أوه! كلامك صحيح في الواقع! إذن هذا اعتراف منك أنك في حاجة إلى مساعدتي، أليس كذلك؟ ورغم ذلك تريد أيضًا أن يكون لديك كاتب!».

قال السيد براس، واضعًا القلم في فمه، مبتسمًا ابتسامة عريضة لشقيقتها: «هل أريد أن يكون لديّ كاتب من أجل سعادتِي الخاصة، أو

بناءً على رغبتى الذاتية أيها النذل المستفز! لماذا تسخر بشأن أن يكون لديّ كاتب؟».

ربما يكون من الملاحظ في أرجاء هذا المكان، أن السيد براس كان يشير بصيغة المذكر إلى الأنسة قائلاً أيها النذل، لذلك خشية من أن يثير هذا شعوراً بالتعجب أو الاندهاش، يجب توضيح أنها من كثرة مساعدته والوقوف إلى جانبه موقف الرجال، اعتبرها واحداً منهم، لدرجة أنه تدريجياً اعتاد التحدث معها كما لو كانت رجلاً حقاً. لم يكن هذا الشعور مقتصرًا عليه فقط، بل كان شعوراً متواتراً بشكل كبير، فلم تأخذ مناداته لها بـ أيها النذل، وإلحاقه ذلك النداء بنعت بصيغة المذكر أيضاً على محمل الاستنكار؛ فقد رأت الأنسة براس الموضوع من المنظور نفسه، وأنه أمر طبيعي تماماً، بل إن ما كانت تستنكره حقاً، إذا ما نادتها إحدى السيدات بـ أيتها الملاك.

كرر السيد براس ما قاله، مبتسماً الابتسامة العريضة نفسها، وهو يضع القلم في فمه، مثل عليّة الشرفاء والنبلاء: «لماذا تسخرين مني بشأن أن يكون لديّ كاتب، بعد الحديث لمدة ثلاث ساعات متواصلة بالأمس؟ قولي لي هل هذه غلطتي؟».

قالت الأنسة سالي، وهي تبسم في فتور رهيب؛ نظراً لأن أي أمر يثير غيظ شقيقتها يجعلها سعيدة: «إن كل ما أعرفه هو أنه إذا جاءنا كل واحد من وكلائك وأجبرنا على أن يكون لدينا كاتب، سواء أردنا أم لم نرد، وسمعنا له، حينها يستحسن لك في أقرب وقت ممكن أن تصفي حساباتك، وتنتهي عضويتك وتفرّغ نفسك للتعيين».

قال براس: «انتظري انتظري! قلولي لي هل لدينا وكيل مماثل له؟
أو إلى الآن هل كان لدينا وكيل آخر يماثله.. هل ستجيبيني على تلك
الأسئلة؟».

قالت شقيقته: «أقصد يشبهه في ملامح وجهه!».

ردد سامبسون براس ساخراً: «هل أقصد ملامح وجهه!». سحب
من فوره دفتر الفواتير في سرعة شديدة، قلب لها أوراقه، وقال:
«انظري هنا.. دانيال كويليب.. السيد المبجل.. دانيال كويليب.. السيد
المبجل.. دانيال كويليب، السيد المبجل.. داني.. وهكذا وهكذا إلى
آخره. قلولي لي إذن! هل يجب عليّ أن أختار الكاتب الذي يرشحه لي،
وهو يقول: «هذا الرجل من أجلك» أم أخسر هذا كله، هاه! قلولي لي».

تكرمت الآنسة سالي بعدم الرد، لكنها حافظت على الابتسامة
الجافة ذاتها، وباشرت عملها.

بعد لحظة قصيرة ساد الصمت فيها، استأنف براس حديثه وقال:
«لكنني أعني السبب الرئيس وراء دوافعك، إنك تخشين أن يفلت من
يدك زمام الأمور، أو أن تصبحي غير ملزمة بتفاصيل العمل أو مهيمنة
عليه، كما أنت الآن، وكما اعتدت أن تكوني.. أليس كذلك! هل كنت
تظنين أنني لست على دراية تامة بكل هذا؟».

قالت شقيقته برباطة جأش ملحوظة: «على أي حال، إن عملك
سيستغرق منك وقتاً طويلاً من دون خدماتي، على ما أظن.. فلا تكن
أحمق وتثير غيظي يا سامي، ركز فيما كنت تفعل، وأتممه».

انكب سامبسون براس على عمله من فوره، منحنيًا لاستكمال الكتابة، فقد كان قلبه يُكنُّ خوفًا من شقيقته، التي قالت:

«أنت تعرف جيدًا أنني لو اتخذت قرارًا بعدم حضور هذا الكاتب، فبالطبع لن يُسمح له بالحضور تحت أي ظرف من الظروف. وأعتقد أنك تعرف هذا جيدًا، لذا لا تتفوه بالترهات مرة أخرى».

تلقى السيد براس ملاحظاتها بمزيد من الوداعة، لكنه قال متممًا بصوف خفيض، أنه لا يحب هذا النوع من المزاح أبدًا، وأن الأنسة سالي ستكون زميلًا أفضل بكثير، إذا ما كفَّ عن إغاظته. ردت الأنسة سالي على هذه المجاملة الرقيقة قائلة بأنها تستمتع بهذا اللهو، وليس لديها أي نية على الإطلاق للتخلي عن متعتها. لم يكثر السيد براس باستكمال الحديث أكثر من ذلك حيث باشر عمله، وكذلك هي، وأصبحا منخرطين في الكتابة إلى حد كبير، فانتهت المناقشة عند هذا الحد.

بينما كانا منهماكين في عملهما، حُجب الضوء المنبعث من خلال النافذة فجأة، كما لو أن شخصًا ما وقف أمامها. رفع السيد براس والأنسة سالي أعينهما عن أوراقهما، موجهين ناظريهما نحو النافذة؛ كي يتبين السبب، حينها أنزل إطار النافذة من الخارج، وظهر السيد كويليب مقحمًا رأسه إلى الداخل.

قال، بينما كان واقفًا على أطراف أصابع قدميه، متكئًا على إطار النافذة، وهو ينظر إلى داخل الغرفة: «مرحبًا! هل يوجد أحد في المنزل؟ هل يوجد من يخشى الشياطين هنا؟ هل السيد براس غير مشغول؟».

ضحك المحامي ورسم على وجهه حالة من البهجة المتكلفة: «ها ها ها! أوه! إنك مضحك للغاية يا سيدي! أوه! مضحك للغاية في الواقع يا سيدي! هذا أمر فكاهي على نحو غير مألوف إطلاقاً! أوه يا نفسي العزيزة! أي روح فكاهة يمتلكها!».

تحدث القزم من جديد، ولكن بصوت أجش، رامقاً الآنسة براس الجميلة بنظرة غرامية: «هل هذه عزيزتي سالي؟ هل هذه هي رمز العدالة، تجلس هناك لكن من دون عصابة عينيها، أو أن يكون السيف في يمانها والميزان في يسراها؟ هل هذه يد القانون التي يضرب بها من حديد؟ هل هذه هي عذراء بيفيس؟».

صاح براس: «يا لها من روح فكاهة تعم أجواء أي مكان تحل به! أكاد أجزم لك أنها روح استثنائية!».

قال كويليب: «افتح الباب! لقد جئت به إلى هنا. إنه نعم الكاتب الذي من الممكن أن تحظى به في يوم من الأيام يا براس، إنه بمثابة هدية أقدمها لك، إنه ورقة الـ (آس) الرابعة. هيا! كن سريعاً وافتح الباب، وإلا سوف يقتنصه أي محام آخر يسكن بالجوار، إذا خرج ونظر فقط من نافذته، سوف يقتنصه في لمح البصر، أسرع حتى من أن تلمح عينك الأمر».

ربما توحى شخصية السيد براس بأن خسارته لسفينة (فونكس) محملة بالكتبه - حتى لو ربحها منافس له - لن تضر قلبه على الإطلاق، لكنه على أي حال تظاهر بالحماس الشديد، وقام عن مقعده من فوره، وذهب إلى الباب، وأدخل وكيله، الذي لم يجد من هو أفضل من السيد ريتشارد سويفلر، كي يصطحبه معه يدًا بيد.

قال كويليب، وقد توقف عند الباب فور فتحه، يحملق في الأنسة سالي، رافعاً حاجبيه: «إنها المرأة التي يجب عليّ أن أتزوجها.. إنها ساسا الجميلة.. إنها الأنثى التي حصلت على كل سحر بنات جنسها، ولم تأخذ أيّاً من نقاط ضعفهن. أوه! سالي، سالي!».

لم تجب الأنسة براس على هذه الخطبة الغرامية، سوى برد موجز عبارة عن كلمة واحدة، ألا وهي: «مزعج!».

قال كويليب: «إني أمام قلب من النحاس صلب كالمعدن الذي سميت عائلتها به^(١٨)، حسناً! ألا تفكران في إذابة النحاس (براس).. أقصد أن تغير اسم عائلتكما، وتختارا اسماً أقل صلابة؟».

ردت الأنسة سالي من فورها، بتبسم ولكن في تجهم: «توقف عن الهراء يا سيد كويليب، إنني أتعجب حقاً، ألا تخجل من نفسك حينما تتحدث بتلك الطريقة أمام شاب غريب!».

قال كويليب، وقد جذب ديك سوفييلر إلى الأمام: «إن هذا الشاب الغريب بالخصوص لا يمكنه إساءة فهمي مطلقاً. إنه السيد سوفييلر، صديقي المخلص، إنه رجل نبيل من عائلة كريمة، إنه رجل التوقعات العالية، لكن طيش الشباب وحماستهم لا يزال يسيطر عليه إلى حد ما، لكنه يرضى بأن يحل في وظيفة ذات مكانة متواضعة، ويعمل كاتباً.. إنها مكانة متواضعة حقاً، لكنها في أكثر الأماكن المرغوبة. يا له من جو جميل هنا!».

(١٨) Brass يعني النحاس.

إذا كان السيد كويليب تحدث بالمعنى المجازي، وقصد بقوله التلميح إلى أن أنفاس الأنسة سالي براس - تلك المخلوقة صعبة المراس - التي تتخلل الجو عطرة، فلديه سبب وجيه بلا شك إذن لما قاله. لكنه إذا كان يتحدث عن الجو العام في مكتب السيد براس بالمعنى الحرفي، فإن لديه ذوقاً غريباً مقززاً بكل تأكيد؛ لأن المكتب كان مغبراً قريباً من الأرض، تبعي الرائحة العطنة كل شيء فيه، فضلاً عن النفحات الكريهة النفاذة التي كانت تهب فجأة، بسبب الملابس المستعملة، التي تُعرض للبيع في شارع (هوندسديتش) وكنيسة (الدوق جيمس)، ربما كانت الرائحة عبارة عن رائحة فئران وجردان ممزوجة برائحة عفن. بلا شك قد وصلت تلك الروائح إلى أنف السيد سوفييلر، فقد تشمم الهواء مشمئزاً قرابة المرة أو المرتين، لذلك نظر مستنكراً متعجباً إلى القزم المبتسم.

قال كويليب: «إن السيد سوفييلر ماهر في الأعمال الزراعية الخاصة بزراعة الشوفان البري، أحسب يا آنسة سالي بكل حكمة وإنصاف أن الحصول على نصف رغيف أفضل من عدم الحصول على أي خبز. كي أطمئن قلبك، وكي نكون في الجانب الآمن، دعيني أقول إنه حاذق في تفكيره، وخير دليل على قولي هذا موافقته على عرض أخيك. إذن يا سيد براس، إن السيد سوفييلر تحت إمرتك الآن».

قال السيد براس: «إنني سعيد للغاية يا سيدي.. سعيد للغاية فعلاً يا سيدي. إنني محظوظ بما يكفي لصداقتك يا سيد سوفييلر. لا بد أنك فخور جداً يا سيدي لصداقتك بالسيد كويليب».

تمتم السيد سوفييلر بينه وبين نفسه بكلمات مفادها على وجه التقريب أنه في غنى تام عن تلك الصداقة أو عن أي زجاجة خمر تأتي منه، بالإضافة إلى أنه قال لاهثاً ساخرًا عبارته المفضلة الخاصة بجناح الصداقة الذي لا يُسقط ريشة.. في أثناء ذلك الوقت، كان القزم يراقب ما حوله جيدًا في خبث تام، كان من الواضح له أن شخصية سوفييلر، قد حازت على انتباه الأنسة براس، التي بدت كأنها تتدبر أمره فعليًا، فقد كانت تحديق فيه بنظرات شاردة وكثيرة على حد سواء، مما أسعد القزم اليقظ إلى أبعد الحدود. أما بالنسبة إلى الأنسة سالي نفسها، فقد كانت تفرك يديها إحداها بالأخرى كما يفعل السادة من رجال الأعمال، وتتمشى جيئةً وذهابًا في المكتب، واضعةً قلمها خلف أذنها.

قال القزم، ملتفتًا في خفة نحو صديقه رجل القانون: «أظن أن السيد سوفييلر سيتولى مهامه جميعها من الآن ومرة واحدة.. أليس كذلك؟ إنه صباح يوم الاثنين».

قال براس: «من الآن! إذا كانت هذه هي رغبتك يا سيدي، فلتكن إذن».

قال كويليب: «سوف تُعلِّمه الأنسة سالي دراسة القانون.. ما أبهج دراسة القانون معها.. إنها ستكون معلمته ومرشدته وصديقتها وزميلتها، إنها سوف تكون له كـ (بلاكستون)^(١٩)، إنها ستكون له كـ (كوك) مع

(١٩) وليام بلاكستون: قاضي وأستاذ متخصص في القانون، عرض صورة كاملة عن القانون الإنجليزي في مؤلفه (تعليقات على القانون الإنجليزي).

ليتلتون^(٢٠)، إنها ستكون له أفضل رفيقة محامية».

قال براس، وهو ينظر إلى سطح البيت المقابل له، ويضع يديه في جيبه، شارد الذهن تمامًا: «إنه بليغ للغاية! لديه ذائقة لغوية استثنائية».

قال كويليب: «أحسب أن أيامه ستمر كالدقائق، ما دامت في صحبة الأنسة سالي، وسوف يكون مولعًا بدراسة القانون مع الأنسة سالي. انتظروا فقط حتى يحل عليه إلهام إبداعاته الشعرية الساحرة؛ حينها تتسع مداركه، كأن عالمًا جديدًا من الإسهاب والإطناب لكل ما طاب لعقله، وما حسن لقلبه، قد فُتح له».

صاح براس: «أوه، جميل، جميل! جميل! جميل! جميل جدًا في الواقع! إذن سيكون من المسلي والممتع سماعه!».

قال كويليب، وهو ينظر حوله: «أين مقعد السيد سوفيلر؟».

رد عليه براس قائلاً: «سوف نشترى له مقعدًا آخر بالتأكيد يا سيدي.. لم نكن على دراية أبدًا بأن رجلًا نبيلًا مثله سينضم إلينا يا سيدي -لقد كنت كريمًا فاضلاً معنا بما يكفي يا سيدي ورشحته لنا- فضلاً عن ذلك فتجهيزات إقامتنا هنا ليست متكلفة.. لكننا على كل حال، سنتدبر أمر شراء كرسيٍّ مستعمل يا سيدي. وفي غضون ذلك الوقت، من الممكن أن يجلس السيد سوفيلر هنا على الكرسي الخاص بي، وينشط يده في

(٢٠) إدوارد كوك: كان النائب العام في حكومة الملكة إليزابيث الأولى، ورئيسًا للقضاء في عهد الملك جيمس الأول. السير توماس ليتلتون: الابن الأكبر لإليزابيث ليتلتون، قاضٍ إنجليزي. تمت الإشارة لهما بناء على الجزء الأول في أطروحات إدوارد كوك في *Institutes of the laws of England* المسمى بـ (تعليقات كوك على ليتلتون).

التدريب على نسخة دعوى الاسترداد هذه، فإنني سأكون بالخارج طوال الصباح تقريباً...».

قال كويليب: «إذا كان الأمر كذلك، تعال معي إذن؛ أريد أن أقول لك كلمة أو كلمتين بخصوص العمل. هل يمكنك إتاحة بعض لذلك؟».

أجاب المحامي، وهو يعتمر قبعته: «هل يمكنني إتاحة بعض الوقت للمشي معك! هل تمزح معي يا سيدي! بالتأكيد تمزح معي.. أنا مستعد يا سيدي، مستعد تمامًا. إن وقتي مشغول بالكامل يا سيدي، لا يسمح أبدًا بالمشي. لكنك لست أي شخص يا سيدي، ولا يتاح لأي شخص فرصة أن يطور من نفسه ويعتلي بها، من خلال الحديث مع السيد كويليب نفسه».

نظر القزم بتهكم واضح وسخرية لاذعة نحو صديقه النحاسي، ثم استدار على عقبه مع كحة قصيرة متنحنًا؛ كي يودع الأنسة سالي. بعد وداع أنيق ألقاه عليها، وبعد وداع هادئ لطيف ألقته عليه، أوماً برأسه إلى ديك سوفييلر، ومن ثم غادر مع المحامي.

وقف ديك إلى جانب المكتب في حالة من الحماقة المطلقة، يحدق مليًا في الأنسة سالي المفعمة بالحيوية، كما لو كانت هجينًا ناتجًا من تزاوج مجموعة حيوانات مثيرة للفضول، لم تظهر على سطح الكوكب أبدًا، ولم يكن لها وجود من الأساس. حينما عاد القزم إلى الشارع ثانية، سارع بالاتكاء على إطار النافذة مرة أخرى، يسترق النظر إلى المكتب بوجه مبتسم في حذر ومكر، كما لو كان ينظر إلى قفص. نظر ديك نحوه

إلى الأعلى، لكن دون إظهار أي إيماءة لوجوده، رحل كويليب، ولا يزال سوفييلر يقف ثابتاً في مكانه كأن جذوراً قد نمت له، وغرسته في الأرض، يحدق في الأنسة سالي براس، دون أن يحرك ساكناً، لا يفكر ولا ينظر إلى أي شيء آخر.

خلال ذلك الوقت، لم تنتبه الأنسة براس إلى أي من تصرفات ديك، كأنه لم يكن موجوداً، فقد صبت تركيزها الجهم على كشوف الحسابات، وتخربش بقلمها على الأوراق، تصدر صريراً عالياً، تسجل الأرقام وتحسبها في بهجة واضحة، باتت تعمل كأنها محرك بخار لا يتوقف. أما سوفييلر، فأضحى ينظر الآن إلى فستانها الأخضر، ووشاحها البني، ووجهها، ثم إلى حركات قلمها السريعة، مشوشاً في بلاهة طاغية، يتعجب؛ كيف انتهى به الحال، ليزج به في صحبة هذا الوحش الغريب، يشعر أنه يعيش حلمًا، لن يستيقظ منه مطلقاً. لكنه على أي حال، استفاق من شروده، متنهّداً، وبدأ يخلع معطفه ببطءٍ.

خلع السيد سوفييلر معطفه، وطواه في أناقة بالغة، دون أن يحرك جفنًا، محدقًا طوال الوقت في الأنسة سالي، ارتدى سترة زرقاء ذات صف مزدوج من الأزوار المذهبة، اعتاد أن يرتديها أثناء رحلاته المائية، لكنه أحضرها معه هذا الصباح من أجل الأعمال المكتبية، كل هذا ولا يزال يراقبها، ولم يشح بناظريه عنها أبدًا، لكنه ساق نفسه أخيرًا نحو مقعد السيد براس في صمت تام، وجلس في ضجر. لكن لم تكد تمر بضع لحظات، إلا وداهمته انتكاسة قوية، فقد خارت قواه ثانية، أسند ذقنه على راحة كفه، أخذ يحدق فيها، يفتح عينيه على اتساعهما، لدرجة

أن بدا كأنه لن يعود قادرًا على إغلاقهما مرة أخرى.

طالت فترة تحديقه فيها، لدرجة أن عينيه لم تعودا تبصران شيئًا، أشاح بنظريه عن مصدر دهشته، وألقاه على النسخة التي يجب عليه كتابتها، مقلبًا صفحاتها، ثم بحركات بطيئة للغاية، غمس قلمه في المحبرة، وبدأ في الكتابة. لم يكن قد كتب ما يعادل ست كلمات، إلا ورفع نظريه عن الورق؛ كي يغمس قلمه ثانية في المحبرة. لكنه لم يبصر سوى وشاح بني بشع لا يطاق النظر إليه، وفستان أخضر.. باختصار، لم يبصر سوى الأنسة براس، جالسة في كامل بهائها، لكنه كان بهاءً واضحًا أكثر من أي وقت مضى.

حدث ذلك الموقف مرات ومرات، لدرجة أن السيد سوفييلر بدأ يشعر برغبات غريبة تعتمل في صدره، رغبات رهيبة تسعى لمحق غموض الأنسة سالي براس، فيتصور نفسه ينتزع وشاحها؛ ليرى كيف تبدو من غيره. كانت هناك مسطرة كبيرة جدًا على المكتب أمامهما، مسطرة، سوداء، كبيرة جدًا. انتشلها من فوره وبدأ يفرك بها أنفه.

بعد أن فرك أنفه بالمسطرة، أمسك بها بيده في إحكام، وأخذ يلوح بها يمينًا ويسارًا في خفة، على نحو جعله كأنه يمسك بالتمهوك (فأس الهنود الحمر)، ملوحًا به في تأنق غير معهود. اقتربت بعض تلك التلويحات من رأس الأنسة سالي، فتطايرت أطراف وشاحها الخشنة بفعل تسارع الهواء أمامها، صار يلوح قريبًا جدًا منها على مسافة شبر واحد.. لكن حتى لو وقعت تلك العقدة البنية على الأرض، فلن تحرك رمشًا لتلك العذراء اللاواعية، ولن يُرفع لها جفنًا من شدة انهماكها في عملها.

حسنًا، كان في هذا ارتياح كبير له. شرع يكتب في صخب وجموح، حتى داهمه اليأس الممل، فالتقط المسطرة، وأخذ يلوح بها بشكل دائري حول وشاحها، مصدقًا توهمه بأن في إمكانه أن ينتزع عن رأسها الوشاح، إذا أراد ذلك. لقد كان من الجيد أن يسحبها مرة أخرى، ويعاود فرك أنفه، لكن هذه المرة أخذ يفركها بشدة بالغة، فقد تصور أن الأنسة سالي كانت على وشك أن ترفع عينيها، وأنه على مقربة من أن يعوض عن هذا بتلويحات أكثر سرعة، لكنها لا تزال مستغرقة في عملها. بالوصول إلى هنا، كانت رغبات السيد سوفييلر قد أُحبطت إلى حد ما، حتى أمست تلويحاته بالمسطرة أقل ضراوة وغير متكررة، فقد تمكن بالكاد من كتابة ستة سطور متتابعة، دون أن يلجأ إلى تكرار فعلته، وهذا بمثابة تقدم مشهود.



الفصل الرابع والثلاثون

بعد مضيّ بضع ساعات، كان الصمت فيها مخيمًا على المكتب، وبعد عمل دؤوب، وصلت الأنسة براس أخيرًا إلى نهاية مهمتها، وأكدت على هذا الأمر بمسح قلمها في فستانها الأخضر، مستنشقة نفحة من علبة دائرية بالغة الصغر، كانت تضعها في جيبها. بعد أن فرغت من هذا الانتعاش المعتدل، وقفت عن كرسيها، رزمت الأوراق في ظرف رسمي، ربطته بشريطة حمراء، ثم تأبطته، ومشّت إلى خارج المكتب.

لم يكن السيد سوفييلر طوال هذا الوقت قد بارح مكانه، لذلك حينما غابت عن ناظره، وقف عن كرسيه في مجنون تام، متخذًا وضع رقصة البوق البريطانية، ليعبر عن السعادة القصوى التي خالجت صدره، لكونه بمفرده أخيرًا بعد تلك الساعات الطويلة، لكنه سرعان ما توقف؛ حينما فُتح الباب، وظهر رأس الأنسة سالي مرة أخرى.

قالت الأنسة براس: «أردت قول أنني سأخرج».

قال ديك: «عظيم جدًّا يا سيدتي». ثم أسرَّ بحديث داخل قرارة نفسه: «ولا تكوني في عجلة من أمرك، وتعودي باكرًا يا سيدتي».

قالت الآنسة براس: «إذا أتى أي أحد إلى المكتب بخصوص شؤون العمل، تلقَّ رسالته، وأخبره أن السيد المسؤول غير متواجد، أدركت ماذا ستفعل؟».

أجاب ديك: «نعم يا سيدتي، سأفعل ذلك بكل تأكيد».

قالت الآنسة براس في خجل: «حسنًا! على أي حال، أحسب أنني لن أبقى طويلًا بالخارج».

قال ديك معقبًا: «إنني آسف حقًا لسماعي ذلك يا سيدتي، أمل أن يزج بك في السجن إلى أمد مجهول يا سيدتي، أو ربما من الأفضل أن تتعرضي لحادث يا سيدتي، لا! ليس عن جد! أقصد أنه سيكون من الأفضل كثيرًا يا سيدتي».

بعد أن نطق ديك سوفييلر بما يكنه صدره من نوايا حسنة في رزاة وبثبات انفعالي، بالتأكيد بعد أن رحلت الآنسة براس وأغلقت الباب مباشرة، جلس على مقعد الوكلاء متدبرًا أمر شيء ما، ثم قام عنه، وأخذ يتجول في الغرفة جيئةً وذهابًا، حتى عاد ليجلس مجددًا على المقعد ذي المسندين.

قال ديك: «حسنًا! أنا الآن كاتب براس، أليس كذلك؟ كاتب براس.. هاه؟ وكاتب الآنسة شقيقة براس.. كاتب أنثى التنين. عظيم جدًا.. عظيم فعلاً؟ ماذا يجدر بي أن أكون بعد ذلك؟ هل حريُّ بي أن أكون سجينًا، يضع على رأسه قبعة اللباد، يتجول في ساحة السجن، مرتديًا البدلة الرصاصية، ورقمه التسلسلي مطبوع بدقة على زيه،

وشارة (فارس الرباط) مربوطة إلى ساقه - كي لا تبلى بسبب الاحتكاك بكاحله - بواسطة المنديل الأزرق المنقط بنقط بيضاء، تتوسطها نقط زرقاء؟ هل حريٌّ بي أن أكون كذلك؟ هل هذا ما سيحدث لي فعلاً؟ أم أن ذلك هين لطيف؟ على العموم، أيّا كان ما ترجوه، احصل عليه بطريقتك الخاصة بالطبع».

لم تفت إلا لحظات قليلة على وجود السيد سوفييلر بمفرده، وإذا به قد باح بكل ما في جعبته، لا حيلة له، فهو خاضع لمصيره وقدره. بناءً على هذا الموقف ومواقف سابقة، يتبيّن أن تلك هي عادة الأبطال، يتهمون بطريقة مريرة على الواقع، وعلى أنفسهم فور تعرضهم لسخرية الحياة، فلم تكن تصوراته، ومخاطبته لنفسه بالأمر الغريب، فتلك كانت عادته أمام نوائب الدنيا غير السارة. على الرغم من أنها تكهنات، لا إثبات عليها، كان هذا هو التفسير المحتمل الوحيد لما استجد على حال السيد سوفييلر، الذي بات يتحدث بما يكنه صدره، موجّهاً حديثه إلى السقف، بغض النظر عن أننا لا نجد تلك الإيماءات الجسدية عادة على أرض الواقع، باستثناء في العروض المسرحية، حينما يُحيي الأبطال بكامل جوارحهم في بهاء الثريا.

استطرد ديك في حديثه بعد أن دأبته لحظات من التفكير الصامت، وصار يعد تداعيات موقفه على أصابعه: «أتى كويليب بي إلى هذا المكان، ويقول إنه يستطيع تأميني.. فريد! فريد الذي كان من الممكن أن أحصل منه على إقرار مكتوب أمام المحكمة، أصبح لا يكثرث البتة، بل والأدهى من ذلك، وما يشير دهشتي حقاً أنه يدعم كويليب، ويحثني على

فعل ذلك أيضًا.. عظيم عظيم! واحد.. عمتي! لقد توقفت عن إرسال أي معونات، بل والأدهى تكتب إليّ ملاحظة حميمية بالغة المودة، تقول لي فيها أنها تكتب وصية جديدة، ولن تشملني بكل تأكيد.. عظيم عظيم! اثنان.. تُركت دون مال، دون ائتمان، حتى دون أي مساعدة من فريد، الذي بدا مستقرًا على حين غرة، بالإضافة إلى إخطارات الطرد من غرفة سكني القديم.. بالغ العظمة! ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة! مع تراكم كافة هذه التداعيات على المرء، فإن حريته ما هي إلا محض خيال. لا أحد يصارع نفسه، إذا كان مصيره يصارعه ويريد أن يطرحه أرضًا، يجب على المصير أن يتغير، لينتشله مرة أخرى. حسنًا حسنًا! أنا سعيد جدًا؛ لأن كل هذا أصبح على عاتقي، يجب أن أتعامل مع الأمر بلا مبالاة قدر الإمكان، وأتعامل كأن شيئًا لم يكن، لإثارة غيظه». أشاح بناظريه عن السقف في إيماءة معبرة وقال: «فلندع الأمور تتفاقم، ونرى مَنْ مِنّا سيتعب أولاً!».

بغض النظر عما أثار تلك الجلبة والصراعات داخل عقل السيد سوفييلر، وبغض النظر عن الموضوع الذي أثار انعكاسات من التخبط الفكري داخل عقله، إلا أنه بلا شك موضوع عويص، وحقيقة ليست مجهولةً بالنسبة للقيم الراسخة للفلسفة الأخلاقية، تخطى السيد سوفييلر انحصاره داخل تلك الأفكار، وسرعان ما نحى يأسه، مستحضرًا بهجة سهولة عمله، فقد أصبح كاتبًا دون أي مسؤوليات.

حاول استعادة رباطة جأشه وثباته الانفعالي، فقد صب كل تركيزه على فحص المكتب، مستغرقًا وقتًا طويلًا، أكثر مما يتطلبه

ذلك المكتب الأمر مع التدقيق الشديد، تفقد صندوق الشَّعر المستعار، والكتب، وقنينة الحبر، أخرج الأوراق من ملفاتها، ألقى عليها نظرة، وخربش بعض الأدوات الموضوعة على المكتب بشفرة مدية الجيب الحادة للسيد براس، ناقشًا اسمه داخل سطل الفحم الخشبي. بعد أن وضع بصمته على كل شيء، كما لو أنه عن طريق تلك الإجراءات، يثبت حيازته الرسمية على عضوية الكتبة مثلاً، فتح النافذة، واتكأ على إطارها ينظر إلى الشارع، حتى صادف ومرَّ صبي يبيع الجعة، فأمره من فوره أن يضع الصينية، ويقدم له نصف لتر من الجعة متوسطة الكحول، شربه دفعة واحدة، ودفع ثمنه من فوره؛ بهدف تمهيد الطريق أمام نظام ائتماني في المستقبل، وفتح سبيل للتعامل الودي في هذا المكان، دون إضاعة للوقت. أتى بعد ذلك ثلاثة أو أربعة صبية في مهام رسمية، مكلفين بها من ثلاثة أو أربعة محامين لا يقلون مكانة عن السيد براس، يُذكر للسيد سوفييلر أنه قابلهم وودعهم بطريقة مهنية، أما عن الفهم الصحيح والاستيعاب لطبيعة عملهم، فلم يكن سوى مهرج يمثل في مسرحية إيمائية في ظل الظروف المماثلة. حينما فرغ من كل هذا، عاد إلى المقعد مرة أخرى، غمس القلم في المحبرة، وبدأ في رسم صورة كاريكاتورية للآنسة براس، وهو يصفر في مرح شديد طوال الوقت.

بينما كان جامعًا في لهوه، توقفت عربة قبالة الباب، تبعت توقفها طرقات عالية على الباب. نظرًا لأن وظيفة الكاتب لا تتضمن مهام فتح الباب لمن يطرق عليه، ما دام الشخص لا يقرع جرس المكتب، فقد

استكمل لهوه في رباطة جأش مثالية، على الرغم من اعتقاده الكامل أن لا أحد في المنزل غيره.

لقد كان مخطئاً في هذا الصدد؛ لأنه بعد أن تكررت الطرقات في نفاد صبر عارم، فُتح الباب، وسمع وقع أقدام ثقيلة، تصعد الدرج، وتنتقل إلى الغرفة العلوية. بينما خطر على بال السيد سويفلر تساؤلات كثيرة، عما إذا كان هناك أنسة براس أخرى، تكون توأم لأنثى التنين، سمع صرير مفصلات باب المكتب.

قال ديك: «هيا ادخل! لا تلتزم بالشكليات والمظاهر. كان الأمر سيغدو معقداً إلى حد ما، إذا كان لديّ العديد من العملاء هنا.. هيا ادخل!».

قال صوت منخفض جداً، ينبعث من عند الباب: «أوه! من فضلك يا سيدي! هل من الممكن أن تأتي وتعرض المسكن؟».

مال ديك بجذعه فوق المكتب، فرأى طفلة صغيرة، ترتدي مريلة خشنة رثة متسخة، وممزراً، يغطيها أولاً عن آخر، غير تاركة سوى قدميها وجهها مكشوفين فقط. بدت كأنها ترتدي حقيبة آلة الكمان.

قال ديك: «مَن أنت؟».

لم تجبْ جملتها ردّاً على استفهامه، بل جاءت على هذا النحو: «أوه! من فضلك! هل من الممكن أن تأتي وتعرض المسكن يا سيدي؟».

لم يكن هناك أحدٌ أبداً يماثل تلك الفتاة في قِدم طريقتها وسلوكها وشكلها. بدت كما لو كانت تعمل منذ مهدها. بدت خائفة جداً من ديك، بقدر ما كان ديك نفسه مذهولاً منها.

قال ديك: «لا شأن لي هنا بالمسكن.. قولي لهم أن يأتوا مرةً أخرى».

قالت الطفلة: «من فضلك! يجب أن تأتي وتعرض المسكن.. ستكون الإقامة مقابل ثمانية عشر شلنًا في الأسبوع الواحد، وستتوفر أدوات المائدة والمنسوجات الكتانية، إلى جانب أن الملابس والأحذية إضافية، ويجب أن تُدفع ثمانية بنسات لليوم الواحد في الأيام الشتوية مقابل إذكاء النيران».

قال ديك: «حسنًا! إذا كان الأمر كذلك، لماذا لا تذهبي بنفسك وتعرضي المسكن؛ من الواضح لي أنك ملمة بكل التفاصيل».

«إن الآنسة سالي قالت إنه يجب عليّ ألا أفعل هذا الأمر بالذات؛ لأن الناس إذا رأوا كم أنا صغيرة، لن يصدقوا مطلقًا أن الإقامة جيدة، حتى قبل أن تدخل أقدامهم المكان».

قال ديك: «حسنًا! لكنهم حتمًا سيرون كم أنت صغيرة فيما بعد.. أليس كذلك؟».

نظرت الطفلة نظرة تدل على الفطنة وقالت: «آه! إنه أمر لا جدال عليه! لكن حينما يأتي هذا الوقت سيكون قد مر على حجزهم أكثر من أسبوعين، إضافة إلى أن الناس إذا ما حدث واستقروا في مكان ما، لن يفضلوا الانتقال منه أبدًا؛ سيكون أمرًا شاقًا عليهم».

قال ديك متممًا: «يتعذر على فهمي إدراك نقطة ما.. أتقصدين بقولك أنك.. الـ.. الطاهية؟».

ردت الطفلة قائلة: «نعم! أنا أطبخ أكالات بسيطة، إنني خادمة المنزل أيضًا، أقوم بكافة الأعمال المنزلية هنا».

داهمت الأفكار عقل ديك مرة أخرى، متحدثًا إلى نفسه: «أظن أن براس وأنتى التنين وأنا نقوم بأقذر جزءٍ منها»، ربما انغمس في أفكاره أكثر فأكثر، لدرجة أنه بدا شاردًا مترددًا بالكلية، لكن صوت الطفلة الذي تردد بالقرب من أذنه، يحثه على الطلب نفسه، وأصوات متدمرة وأصوات أخرى يجهل مصدرها غامضة تتردد بالخارج في الممر وأعلى الدرج، دلت على نفاذ صبر صاحب الطلب، انتشلتة من شروده. وضع ريتشارد سوفييلر قلمًا خلف كل أذن، ووضع آخر بين شفثيه، كرمز لعلو شأنه، ومكانته الكبرى، ومدى إخلاصه وانهماكه في العمل، وسارع نحو الخارج، ليلتقي الرجل الأعزب ويتعامل معه.

سرعان ما تغير نمط سلوكه الذي خرج به من المكتب، صار مندهشًا بعض الشيء؛ فور تبينه أن مصدر الجلبة، والأصوات التي سمعها، آتيًا من أعلى الدرج، سببه نقل صندوق الرجل الأعزب، والذي من الواضح أن عرضه يقترب من ضعف عرض الدرج، فضلًا عن كونه بالغ الثقل، على الرغم من المجهودات التعاونية المبذولة من الرجل الأعزب ومن سائق العربة، لم يكن من السهل أبدًا أن يتمكن من رفع هذا الثقل مع انحدار الدرج. كانا يدفعان من كل اتجاه، يدفعان حتى أحدهما الآخر، ثم يسحبان ثانية بكل ما أوتيا من قوة، يحاولان تمريره بكل وسيلة ممكنة، يقلبانه رأسًا على عقب، يحاولان إدخاله بكل الزوايا المحتملة، لذلك كان التحدث معهما أمرًا لا طائل منه، فليس

هناك ما قد يستدعيه الحديث أهم من ذلك شأنًا، فتبعهما السيد سوفييلر ببطء، محتجًا ممتعضًا، كلما صعد درجة من درجات السلم، كلما انهال عليهما بتذمر جديد، مستهجنًا تلك العاصفة التي اجتاحت منزل السيد سامبسون براس فجأةً.

على الرغم من هطول الاحتجاجات على مسامع الرجل الأعزب، لم ينبس ببنت شفة، لكنه على كل حال تمكن أخيرًا من إدخال صندوقه إلى غرفة النوم، جلس عليه، ومسح رأسه الأصلع ووجهه بمنديله. بدا عليه الشعور بالحر الشديد، فقد كان يتصبب عرقًا، لكن لا شيء غريب في ذلك، ناهيك عن الجهد المضني الذي بذله لرفع صندوقه عبر الدرج، فقد كان ملتحفًا ملابس شتوية، على الرغم من ثبات ميزان الحرارة طوال اليوم على الدرجة الحادية والثمانين في الظل.

قال ريتشارد سوفييلر بعد أن أخرج القلم من بين شفثيه: «إنني أثق تمام الثقة في أنك سوف تجد مبتغاك في هذا المسكن يا سيدي. إنها شقق ساحرة رائعة جذابة يا سيدي. أما المنظر الذي تطل عليه الشقق، فإنه منظر خلاب، إنها تطل مباشرة على.. على الشارع بأكمله، وتقع بعد دقيقة مشي واحدة من.. من زاوية الشارع. أما عن مميزات الموقع، ففي المنطقة المجاورة مباشرة يمر صبي يبيع جعة معتدلة الكحول، إنها ممتازة، باختصار، أريد أن أبلغك أن المميزات التي يتمتع بها المكان لا حصر لها».

قال الرجل الأعزب: «كم الإيجار؟».

رد ديك محاولًا تحسين الوضع: «جنيّة واحد فقط مقابل الأسبوع كاملاً».

- قبلت العرض.

استأنف ديك قائلاً: «إلى جانب أن الملابس والأحذية إضافية، وإذكاء النيران في الأيام الشتوية سيكون مقاب...».

قال الرجل الأعزب: «حسنًا حسنًا! أوافق على كل شيء».

قال ديك: «أحسب أن أسبوعين سيكونان م...».

صاح الرجل الأعزب بأسلوب فظ، وهو يتطلع إليه من أخمص قدميه إلى أعلى رأسه: «أسبوعين! قل عامين.. سوف أمكث هنا لمدة عامين.. تفضل، عشرة جنيهاً. أبرمت الصفقة إذن».

قال ديك: «مهلاً مهلاً! إن اسمي ليس براس، وأنت...».

- ومن قال إنه كذلك؟ اسمي ليس براس.. ها! وماذا بعد.

قال ديك: «إنه اسم مالك المسكن».

قال الرجل الأعزب: «إني سعيد لمعرفتي بذلك. إنه اسم جيد لمحام. أيها السائق! يمكنك أن ترحل الآن».

تيسس السيد سوفييلر في مكانه، مرتبكاً مشوشاً، لا يصدق الازدراء الملحوظ الذي تعامل به معه هذا الرجل الأعزب، لدرجة أنه وقف ينظر إليه بالحدة نفسها التي كان ينظر بها إلى الأنسة سالي. مع ذلك، لم يتأثر الرجل الأعزب ولو بدرجة طفيفة من فعله، بل شرع في رباطة جأش مثالية، في إرخاء الشال الذي كان معقوداً حول رقبته وخلع حذائه. بعد أن حرر الرجل الأعزب جسده من تلك المعوقات، شرع في تجريد نفسه من ملابسه الأخرى، كلما خلع قطعة، كان يطويها بإتقان شديد،

ويضعها في هدوء تام على صندوقه. بعد أن انتهى، اتجه نحو النافذة، أسدل الستائر، ثم عباً ساعته، وأوى إلى فراشه في روية وثبات تام.

كانت كلماته الأخيرة، بينما كان ينظر إلى الفراغ الذي خلفه بين ستائر الناموسية المسدولة: «خذ الرسوم.. ولا تدع أحداً يأتي إليّ، حتى أرن الجرس». وبعد أن أحكم غلق ستائر الناموسية، ارتفع صوت غطيظه في الحال.

تيقظ ديك من شروده، وغادر الغرفة، يتمتم بكلمات بينما كان عائداً إلى المكتب، والرسوم في يده، ويقول: «حريُّ بهم أن يطلقوا عليه بيت الظواهر الغريبة وخوارق الطبيعة! أولاً: أنثى التنين التي تتصرف كالرجال المحترفين في العمل. ثانياً: طاهية الأكلات البسيطة، التي لا يتعدى طولها ثلاث أقدام، كأنها بغرابة تامة نبتت من تحت الأرض! ثالثاً: أشخاص غرباء يأتون ويقتحمون المكان، يشيرون الجلبة، ثم يخلدون إلى النوم دون ترخيص أو إذنٍ وفي منتصف النهار! إذا كان ذلك الشخص أحد هؤلاء الخارقين للطبيعة الذين يحضرون بين الحين والآخر، وكانت قواه الخارقة تكمن في قدرته على النوم لمدة عامين كاملين، حينها سيكون الأمر لطيفاً بالنسبة لي. إنه قدرتي شئت أم أبيت، على كل الأحوال، أمل أن ينال إعجاب براس. سأكون آسفًا حقاً إذا لم يعجبه. لكن ما لي دخل بهذا الشأن من الأساس.. حتى إذا كان، ليس باليد أي حيلة، دع الأمور تأخذ مجراها».

الفصل الخامس والثلاثون

تلقى السيد براس فور عودته تقريرًا شاملاً من كاتبه عما حدث في اليوم، سرّت له نفسه، ورضت عنه ذاته بقدر كبير، وازداد رضاه أضعافاً؛ خاصة حينما تفقد ورقة العشرة جنيهاً، ووجد أنها ورقة مالية في حالة جيدة، والأهم أنها قانونية صادرة من بنك إنجلترا. ازدادت رحابة صدره كثيراً، وغُمر قلبه بفائض من التسامح والسخاء؛ فدعا السيد سويفلر لمشاركته صحنًا من اللكمة، التي يشتهيها المرء في زمن مجهول من ماضيه، وعقد العزم على أن يحقق رغباته وهو يقول: «يومًا ما»، بالإضافة إلى أنه أطرى على مسامعه بالعديد من عبارات الثناء اللطيفة، بسبب كفاءته غير المعهودة، التي تجلّت بوضوح في يوم عمله الأول.

لطالما كان السيد براس يتبع نهجًا معينًا طوال حياته وهو (إذا أحسن المرء قولًا، حافظ على لسانه رطبًا)، إن ممارسة المحاماة كلها متوقفة على هذا العضو العضلي، لن يكون من المستحب أبدًا أن يجف أو أن يصيبه الثقل، رأى أن مثله مثل أي آلة إذا تركت دون استخدام، يتخللها الصدأ، وتشرع صواميلها في الصرير، لذلك يجب أن يكون رطبًا بليغًا

طليقًا، ومن هذا المنطلق، لا يضيع السيد براس إلا فرصًا قليلة جدًا كي يحسن من مستوى أدائه، فيوظف لسانه في ذكر عبارات الثناء وخطب المديح. أصبح حديثه المعسول عادةً لا يكف عن فعلها، لكن هيهات، كان من الأحرى به اعتماد أي نهج آخر؛ لأن اللسان موجود في أكثر الأماكن التي تكشف عن تعبيرات المرء، كان من الأحرى به أن يتمني لو أن لسانه كان موجودًا في مكان آخر غير وجهه، فكما عرفناه من قبل، كان وجهه مكفهرًا، وملامحه مزعجة، وتعبيراته مثيرة للاشمئزاز، لذلك من العبث أن يرسم كل هذا حول العضو الذي يلقي خطبه المادحة.. تعلمنا الطبيعة دروسًا تحاكي الواقع البشري، فكما تحذر المنارة من يعبرون المياه الضحلة، أو من يغامرون بالإبحار وسط الأمواج العاتية، تحثهم على البحث عن أي ميناء أقل غدرًا، وتجربة حظهم في أماكن أخرى، تفعل منارة الدنيا الشيء نفسه بشأن الاقتراب ممن هم معنكون في القانون، ويجيدون التلاعب به.

بينما كان السيد براس ينهال بالإطراء وعبارات المدح على كاتبه، متفقدًا ورقة العشرة جنيهاً، أظهرت الأنسة سالي القليل من المشاعر، لكنها كانت مشاعر خالية تمامًا من السرور؛ فقد عدلت نزعتها القانونية من أفكارها حول المكاسب الصغيرة أو إبداء التذمر لتحتمك إلى حكمتها وتوضحها، لم تكن تشعر بخيبة أمل لأن هذا الرجل الأعزب حصل على مسكنه مقابل هذا السعر الزهيد، بل بسبب من وافق على إبرام الصفقة، على الرغم من ملاحظته أن الرجل الأعزب أصر على هذا المكان بعينه، فكان من اللازم أن تكون الرسوم على الأقل ضعف

أو حتى ثلاثة أضعاف الشروط المفترضة، وهذا بحسب مدى إصراره، لذلك كان يجب على السيد سوفييلر التراجع، وعدم إبرام الصفقة على هذا الحال. لكن وقع كلمات السيد براس المادحة ورأيه الجيد، واستياء الأنسة سالي كانا على حد سواء بالنسبة له؛ لم يؤثر كلاهما في هذا الرجل النبيل، ولم يثيرا بداخله أي انطباعات، فقد أخلى مسؤوليته تمامًا عن هذا الحدث وغيره من الأحداث، ملقيًا بالسببية المؤكدة على حظه العسر، فإذ به يحرر نفسه من ثقل اللوم، ويمضي في سلام، هادئًا مرتاحًا، مستعدًا على أكمل وجه، ومرحّبًا بالأسوأ - فلسفيًا - غير مبال بالفضل.

«صباح الخير يا سيد ريتشارد». كانت تلك هي التحية التي ألقاها السيد براس، في بداية اليوم الثاني لعمل السيد سوفييلر ككاتب، ثم استأنف حديثه وقال: «حصلت لك الأنسة سالي على كرسي يا سيدي، ذهبت مساء أمس إلى حي (وايت تشابل) وانتقته بنفسها، أكاد أجزم لك أنك ستجد هذا الكرسي جيدًا من الدرجة الأولى، إن الأنسة سالي جيدة جدًا في انتقاء خياراتها».

قال ديك: «إنني متحمس للغاية لرؤيته».

قال السيد براس: «ستأكد بنفسك من أنه من أجود وأمتن الكراسي التي ستجلس عليها.. اشترته من الشارع المقابل للمستشفى، ولأنه كان معروضًا هناك لمدة شهر أو شهرين فقط، ستجده مغبرًا بعض الشيء، ولونه قارب إلى البني بسبب تعرضه للشمس طوال هذه الفترة.. هذا ما في الأمر كله».

رد عليه ديك قائلاً: «آمل فقط ألا تكون الشمس قد سفعتك، أو أصيب بالحمى أو أي شيء من هذا القبيل». ثم تقدّم مستاءً قلقاً، ليجلس بين السيد سامبسون والآنسة سالي المحتشمة، على الكرسي المختار: «إن أحد قوائمه الأربعة أطول من الأخرى».

رد براس من فوره بحجة جاهزة: «إذن نكون قد حصلنا على قطعة خشب زائدة.. ها ها ها! حصلنا بفضلك على كرسي وقطعة خشب زائدة عن الحاجة يا سيدي.. قلت لك إنها جيدة جداً في انتقاء خياراتها، هكذا عرفنا ميزة أخرى من مميزات ذهاب أختي إلى السوق من أجلنا. يا آنسة براس، إن السيد ريتشارد هو الـ...».

قاطعته المعنية بحديثه، بعد أن رفعت ناظريها عن أوراقها وقالت: «هل من الممكن أن تبقى صامتاً! كيف من الممكن أن أعمل بينما تواصل هذه الثرثرة؟».

قال المحامي: «يا لك من شخص متقلب المزاج! تدفعنا إلى الحديث أحياناً، وترغمنا على التوقف بسبب عملك أحياناً أخرى. إن المرء أصبح في حيرة من أمره، بات لا يعرف كيفية التمييز بين أمزجتك، وفي أي مزاج سيجدك».

قالت سالي: «أنا في مزاج العمل الآن، لذلك رجاءً لا تزعجني!». ثم أشارت الآنسة سالي بريشة قلمها نحو ريتشارد واستأنفت قائلة: «ومن فضلك! لا تشغله عن أداء عمله، إنني أجزؤ على أن أقول إن منجزه قليل لا يذكر».

كان من الواضح أن كلمات الأنسة سالي لم تمر هوناً على مسامع السيد براس، فقد بدت أمارات الحنق على وجهه، لدرجة أنه أوشك على أن ينهال عليها برد غير حميد ساخط، لكنه كبح جماحه في آخر لحظة، استناداً إلى شيء من الحكمة أو الخجل، فنفس عن غضبه بترديد كلمات عن المفاومة والتشرد، غير قاصد بها أي فرد، بل ألقاها كأنها وليدة أفكار مجردة خطرت على باله. خيم الصمت على الغرفة لفترة طويلة، انكب فيها كل واحد منهم على مباشرة عمله، منهمكين في الكتابة.. لكن كان للصمت المضجر على السيد سوفييلر أثرٌ مختلفٌ -فهو شخص يميل إلى الإثارة لا يعرف السكون- غشاه النوم مرات عدة، يكتب كلمات غريبة غير مفهومة لا تمت للغة بصلة، بينما كانت عيناه مغلقتين، لكن الأنسة سالي كسرت رتابة الصمت الذي ساد المكتب أخيراً، فأخرجت علبة القصدير الصغيرة، واستعطت ما بها من سُعوط في صخب، ثم أوضحت ما جال في خاطرها، موجهة حديثها إلى السيد سوفييلر قائلة: «هل انتهيت؟».

قال ريتشارد: «من ماذا انتهيت؟».

قالت الأنسة براس: «هل تعلم أن الساكن لم يستيقظ من نومه بعد.. منذ أن أوى إلى فراشه بعد ظهر أمس، لم يره أحد ولم يُسمع له أي صوت قط؟».

قال ديك: «حسنًا يا سيدتي! أحسب أن بإمكانه النوم في سلام وهدوء مقابل العشرة جنيهاً».

عقبت الآنسة سالي قائلةً: «آه! إذا كان الأمر كذلك، أنا على وشك أن أظن أنه لن يستيقظ أبدًا».

وضع السيد براس قلمه، وقال: «أتعلمان! إن هذا الأمر جدير بالملاحظة.. جدير بالملاحظة فعلاً.. يجب عليك يا سيد سوفييلر أن تتذكر، إذا حدث ووجدنا هذا الرجل قد شقن نفسه على أحد أعمدة السرير، أو أصابه أي حادث مرير على هذه الشاكلة، يجب أن تتذكر يا سيد سوفييلر أن العشرة جنيهاً التي أعطاهما لك، كانت جزءاً من إيجاره للسكن لمدة عامين! يجب أن تأخذ هذا بعين الاعتبار، وتكتب مذكرة شاملة؛ لإثبات الحالة، فإذا استدعيت، تكون جاهزاً بالأدلة الورقية».

أخذ السيد سوفييلر من فوره ورقة فولسكاب عريضة، وبدأ يدون بأهمية قصوى وفي حرص شديد ملحوظة صغيرة في إحدى زوايا الورقة.

قال السيد براس: «لا يسعنا إلا أن نتوخى الحذر الشديد طوال الوقت.. إن العالم ينضج بالشرور، لا تعلم أين يكمن الخطر بالتحديد. هل صادف أن قال الرجل الأعزب.. دعك من هذا الآن يا سيدي، واحرص على إنهاء هذه المذكرة أولاً».

فعل ديك ما أمر به، سلمها إلى السيد براس، الذي قام عن كرسيه، وبدأ يتمشى في الغرفة جيئةً وذهاباً.

قال السيد براس، بينما يمر بعينه على محتواها: «أوه! هذه هي

المذكرة، التي أوصيتك بإنهائها.. أليس كذلك؟ حسنًا! عظيم جدًّا،
والآن لنكمل حديثنا، قل لي، هل صادف أن قال لك الرجل الأعزب
شيئًا آخر؟».

- لا.

قال براس في رزانة واضحة: «هل أنت متأكد من أن الرجل الأعزب
لم يقل لك أي شيء آخر يا سيد ريتشارد؟».

رد ديك قائلاً: «إن كلامي محل ثقة يا سيدي».

قال السيد براس: «فكر مرة أخرى يا سيدي، إن واجبي، والمنصب
الذي أشغله، وبصفتي عضوًا له قيمة وقامة في مهنة المحاماة.. المهنة
الأولى في هذه البلديا سيدي، وفي البلاد الأخرى أيضًا، بل على مستوى
الكوكب، والكواكب الأخرى التي تلمع فوق رؤوسنا في سمائنا طوال
الليل، إذا كانت مأهولة بالبشر.. إن واجبي يا سيدي وبصفتي عضوًا له
قيمة وقامة في هذه المهنة، يحتمل عليّ ألا أضعك تحت ضغط سؤال
جذري له هذه الحساسية والأهمية بتلك الطريقة. دعني أصيغه لك
بأسلوب آخر.. هل الرجل الأعزب الذي جاء إلى هنا بعد ظهر أمس،
وأقام في الطابق الأول، وأحضر معه صندوقًا من ممتلكاته الخاصة..
أكرها.. من ممتلكاته الخاصة، قال أكثر مما هو مدون هنا في هذه
المذكرة؟».

انتفضت الأنسة سالي من صمتها قائلة: «هيا! كف عن ذلك، لا
تكن أبلة».

تسمّر ديك في مكانه، ينظر إليها، ويعاود النظر إلى السيد براس، ثم ينظر إليها مرة أخرى، ثم قال أخيراً بعد أن وجه رأسه إلى السيد براس: «لا!».

صاح السيد براس: «أوف أوف! اللعنة.. كم أنت ممل يا سيد ريتشارد!». ومن ثمّ رسم ابتسامة متكلفة محاولاً تهدئة نفسه، ثم استأنف قائلاً: «دعني أقولها صريحة يا سيد ريتشارد.. هل قال أي شيء يخص ممتلكاته؟ ها! هل قال؟».

قالت الآنسة سالي، وهي تومئ إلى شقيقها: «نعم هذه هي الطريقة التي تطرح بها استجوابك».

استطرد السيد براس في حديثه في نبرة مريحة حانية ظاهرياً: «هل قال لك على سبيل المثال.. أنا لا أفرض عليك قولاً، ولا أحتم عليك أمراً، ولا أجزم أنه قد قال فعلاً.. أنا أطرح عليك أسئلة فقط؛ لأنشط ذاكرتك.. ها! قل لي، هل قال لك -على سبيل المثال- إنه غريب عن لندن؟ أو بدا من سلوكه وهو في كامل قواه وحرите أي إشارة تفيد بأن لدينا حق المطالبة بها.. وهذا بالطبع في حالة حدوث أي شيء له، في أي وقت، هل بدت عليه رغبة في نقل ممتلكاته -التي في مبناي الخاص- كاملة لتكون ملكاً لي، كتعويض زهيد عن المتاعب والانزعاج الذي يجب عليّ تحمله!». أضاف براس، وهو لا يزال محافظاً على البسمة المفتعلة ذاتها، في هدوء وحنوّ زائد عما سبق: «هل تم حثك على القبول بها كمؤجر، نيابة عني، مقابل تلك التعويضات والشروط؟».

أجاب ديك: «بالطبع لا يا سيدي!».

قال براس في غطرسة متناهية، محدقاً فيه بنظرة فاقت معاني التويخ: «حسنًا يا سيد ريتشارد، وفقًا لرأيي، أحسب أنك أفسدت الأمر برمته، وأخطأت في دعواك، ولن تصبح محاميًا أبدًا».

«ولو عشت ألف سنة»، بعد أن أضافت الآنسة سالي تلك الكلمات، استنشقت هي وشقيقها شهقات مزعجة من علبة القصدير الصغيرة الخاصة بها، ثم شردا كلاهما في غمار التفكير.

لم يكن في الوجود أي أمر وارد قد يجعل السيد ريتشارد يستغنى عن وقت استراحة الغذاء، بالكاد كانت الساعة الثالثة عصرًا، وقد شعر أنه قد مرت عليه ثلاثة أسابيع وليس بضع سويعات. مع الدقة الأولى للساعة الثالثة، اختفى الكاتب، ومع آخر دقة للساعة الخامسة ظهر مرة أخرى، لكنّ تغييرًا طرأ على المكتب، كما لو كان بفعل السحر، فقد تحولت رائحته إلى نفحات عبقة من النبيذ المسكر المخلوط بالماء وقشر الليمون.

قال براس: «يا سيد ريتشارد! لم يستيقظ هذا الرجل الأعزب بعد، من الواضح أن لا شيء يمكن أن يوقظه، ما العمل إذن؟».

قال ديك: «العمل هو أن نتركه نائمًا كما يحلو له».

صاح براس: «نتركه نائمًا! وكما يحلو له! أليس نائمًا إلى الآن ستًا وعشرين ساعة! لقد أزعنا خزائن الطابق الذي يعتليه جميعها من موضعها وأعدناها ثانية، طرّقنا على الباب الخارجي طرقات عالية متتابعة، جعلنا الخادمة تسقط مرّات عدة على الدرج.. إنها خفيفة

الوزن، لن يؤذيها السقوط كثيرًا.. لكن لا شيء يوقظه».

قال ديك مقترحًا: «بالسلم الخشبي! ربما إذا أحضرنا سلمًا، نتمكن من الدخول إلى الطابق الأول عبر النافذة..».

قال براس: «حتى إذا فعلنا ذلك، فلا يزال يحول بيننا وبينه باب، إلى جانب أن هذا سيثير غضب الجيران».

قال ديك مقترحًا: «حسنًا! ما رأيك حيال الصعود إلى سطح المسكن، من خلال الباب السري، ثم الهبوط من المدخنة؟».

قال براس: «أحسب أنها خطة ممتازة، إذا..». وهنا نظر إلى السيد سوفييلر بشدة وقال: «.. إذا تكرم أحد وتعطف وكان لطيفًا، بما يكفي للتعهد بهذه المهمة.. أجرؤ على قول أنها من الخطط التي يجب على المرء رفضها، إنها محض جنون».

لم يكن ديك ليقتراح تلك الخطة، إلا إذا كان لديه اعتقاد بأن هذه المهمة ستقع على عاتق الأنسة سالي. كما أنه لم يزد على قوله شيئًا، مفتعلًا عدم فهمه لما تم التلميح إليه، أصر السيد براس على أن يصعدا الدرج معًا، وأن يحاولا محاولة أخيرة لإيقاظ هذا النائم بطرق أقل جنونًا، إذا فشل في إتمام ما سعى إليه، فلن يسعهما سوى اللجوء إلى ما هو أكثر جنونًا لإنجاح ما يسعيان إليه. صدق السيد سوفييلر على حديثه، تحضر كأنه ذاهب في مهمة رسمية، فقد تسلح بكرسيه والمسطرة الكبيرة، وتبع صاحب العمل إلى مكان الإثارة، حينها وجد الأنسة براس، تدق الجرس يدويًا بكل ما بها من قوة، لكن دون جدوى،

دون إحداث أدنى تأثير على مستأجرهم الغامض.

قال براس: «انظر يا سيد ريتشارد، إنه حذاؤه».

قال ريتشارد سوفييلر: «يبدو متصلبًا جدًا وثقيلًا، كنوم صاحبنا».

هذا صحيح! لقد كان حذاءً طويل الرقبة متينًا شامخًا، كما يود المرء أن تكون عليه حال أحذيته، كانت رقبته منتصبة كما لو أن رجلي مالكة موضوعة فيه، بدا أن نعله العريض، ومقدمته المستوية غير المدببة هما القوة الرئيسة التي زادت من ارتكازه.

قال براس، ناظرًا عبر ثقب المفتاح: «إنني لا أرى شيئًا سوى ستارة السرير.. يا سيد ريتشارد! هل هو رجل قوي؟».

أجاب ديك: «إنه قوي جدًا».

قال براس: «سيكون الوضع غير حميد بالمرة، إذا خرج علينا فجأة.. حسنًا! أفسحوا مجالًا إلى السلم، وأبقوه خاليًا. على كل حال يجب ألا أكون له طعمًا سائغًا، يجب أن أكون أقوى منه؛ لأنني بالطبع صاحب حجة قوية؛ أنا مالك السكن، ومن هذا المنطلق يحق لي أن أفرض عليه حتمية الالتزام بقوانين الضيافة.. مرحبًا أيها القاطن وراء الباب، مرحبًا، مرحبًا.. هل من مجيب!».

بينما ظل السيد براس ينظر في فضول شديد عبر ثقب المفتاح، وينادي على المستأجر، ويردد الكلمات نفسها دون توقف؛ لجذب انتباهه، واظبت الآنسة براس على هز وتحريك الجرس في سرعة شديدة، ووضعت السيد سوفييلر كرسيه بمحاذاة الجدار بجانب الباب، ثم اعتلاه

ووقف عليه ثابتًا؛ فإذا نهض المستأجر، واندفع إلى الخارج نحوهم، وكان في أوج غضبه، يمر دون أن يلاحظ وجوده، ثم بدأ في الطرق على إطار الباب العلوي في عنف شديد بالمسطرة. كانت تلك الحبكة المليئة بالإبداع والبراعة التي اعتمدها في اتخاذ موقعه، مستوحاة من هؤلاء الأقوياء الجسورين، الذين يفتحون أبواب المعارض والمسارح في الليالي المزدهمة.. مع إمطار السيد سوفييلر إطار الباب بوابل من الطرقات الصاخبة، وصوت رنين الجرس المدوي، وقفت الخادمة الصغيرة على الدرج، تضع يديها على أذنيها؛ خشية أن تغدو صماء مدى الحياة، لكنها كانت على أهبة استعدادها لتطير من على الدرج وتسقط عليه في اللحظة الحاسمة.

فجأة! سمعوا صوت فتح مزلاج الباب، خيم الصمت للحظة، وبعدها فتح الباب عن آخره في عنف شديد.. ساعته، طارت الخادمة الصغيرة فعلاً، لكن صوب قبو الفحم، اهتز جسد الأنسة سالي وتحركت في لمح البصر نحو غرفتها، وغاصت بين لحائف سريرها، أما السيد براس، فقد ضاعت حجته، واندثرت الشجاعة التي تحدث بها، وساغ له أن يسبق الريح، مهرولاً نحو الشارع.. لكنه حينما التفت، ولم يجد أحداً يتبعه، ويحمل مذكي النيران، أو أي سلاح حاد آخر، وضع يديه في جيبيه، كأن شيئاً لم يكن، ومشى ببطء شديد، يصفّر.

في خضم هذا الموقف، لم يستطع السيد سوفييلر أن يبرح مكانه، ظل واقفاً على كرسيه، يلتصق بالجدار، يكتم أنفاسه، يحاول أن يسطح جسده قدر الإمكان، يتملك منه القلق، ينظر إلى الأسفل نحو الرجل،

الذي انهال بأقذع الشتائم واللعنات بسلوك فظ عنيف، ممسكاً بحذائه في يده، ويظهر عليه أنه عازم على إلقاءه على مَنْ سيجده أسفل الدرج. لكنه على كل حال، تغاضى عن هذه الفكرة، وعاد إلى غرفته مرة أخرى، وهو لا يزال يتدمر في سخط شديد، حينها التقت عيناه بعيني ريتشارد المفتوحتين على اتساعهما في ترقب.

قال الرجل الأعزب: «هل أنت مفتعل هذه الضجة الرهيبة؟».

ثبتت مقلتا عيني ديك، حلق فيه ملياً، ثم لوح بالمسطرة التي أمسكها بيمنه في لطف تام؛ كإشارة للرجل الأعزب لما هو بملاقيه، إذا كانت لديه نية اللجوء إلى العنف، وقال: «لقد كنت أساعد فقط يا سيدي؟».

قال المستأجر: «كيف تجرؤ.. هاه؟».

لم يقدم ديك أي رد آخر سوى استفسار عما إذا كان المستأجر الذي جاء وكان يُظن أنه سيتصف بصفات النبلاء ويعتمد سلوكهم، ونام ستاً وعشرين ساعة متواصلة، أم سلام عائلة نبيلة فاضلة، هو مثقال حبة من خردل؟».

قال الرجل الأعزب: «أقصد أن سلامي لا يعني شيئاً؟».

قال ديك: «وهل يوجد سلامٌ لا يعني شيئاً يا سيدي؟ انظر يا سيدي! إنني لا أود حقاً توجيه أي تهديدات؛ مع الأسف لا يسمح القانون بذلك، يعتبره جرماً يستوجب العقوبة.. لكنك يا سيدي إذا تصرفت على هذا النحو مرة أخرى، فكن حذراً ألا ينتهي بك الحال عند الطبيب الشرعي،

وبعدها يتم دفنك في مفترق الطرق، قبل أن تستيقظ من نومك». عدّل ديك من لهجته، ونزل عن كرسيه واستأنف قائلاً: «لقد انتابنا خوف من أن تكون قد مت يا سيدي.. على العموم يا سيدي، لا نسمح في هذه المؤسسة بأن يأتي رجل بمفرده ثم ينام كما لو كان شخصين دون أن يدفع رسوماً إضافية».

صاح المستأجر: «فعلًا!».

خضع ديك لمصيره، وقال أول فكرة طرأت على باله: «فعلًا يا سيدي! دعني أوضح لك، إن عدد الساعات المساوي لعدد ساعات نومك، لا يجب أبدًا أن تكون على سرير واحد، لذا يجب عليك دفع ثمن غرفة بسرير مزدوج».

بدلاً من أن تتشوش أفكاره، أو أن تصيبه الدهشة بسبب هذه الملاحظات، بدت على ثغر المستأجر بسمة عريضة، بات ينظر إلى السيد سوفييلر بعينين لامعتين. لقد كان رجلاً ذا بشرة لفحتها الشمس، ووجهًا مسفوحًا، بدا لونه مائلاً إلى البنية أكثر؛ حينما اعتمر قلنسوة بيضاء. كان من الواضح أن هذا الرجل ممن يشتد حنقهم سريعًا، لذلك ابتهج السيد سوفييلر فور رؤيته في تلك الحالة، وأراد أن يستكمل الحديث بالحالة نفسها، فابتسم من فوره لتبسمه.

أقر المستأجر بأنه كان فظًا، وأنه تصرف بوقاحة شديدة فعلًا، ومن ثمّ أمال قلنسوته ميلاً شديداً على جانب رأسه الأضلع، وقف السيد سوفييلر مسحوراً للغاية من رد فعله، ومن مظهره الذي بدا بسيطاً غريب الأطوار، لكنه بعد أن توقف لوهلة يستمتع برؤيته في هذا الحال،

قال: إنه يتمنى ألا يكونوا قد سببوا له إزعاجًا، وإنهم ليسوا السبب في إيقاظه، وإنه على كل الأحوال كان على وشك الاستيقاظ، ثم أعرب في استعطاف، أملًا أن فعله لن يتكرر مرة أخرى بعد الآن.

دخل المستأجر إلى غرفته، وكان رده: «تعال إلى هنا أيها الوغد الماجن!».

تبعه السيد سوفييلر، وقد ترك كرسيه بالخارج، لكنه احتفظ بالمسطرة؛ خشية حدوث أي مفاجأة. لم تمر لحظات، إلا وكان قد هنا نفسه على رجاحة عقله؛ فقد أوصد المستأجر الباب بغلقتين دون سابق إنذار أو تفسير.

جاءت كلماته التالية مستفسرة حيث قال: «هل تشرب شيئًا؟».

رد السيد سوفييلر بأنه قد انتهى من توه من تخفيف آلام ظمئه، لكنه يرحب بـ (مُرَّوَّ رُوحِي)، إذا كان في متناول اليد. دون أي كلمة وردت من الجانب الآخر، أخرج المستأجر من صندوقه الضخم هيكلًا شديد اللمعان كما لو كان مطليًا بالفضة، ووضعه في حرص شديد على الطاولة.

تابع المستأجر تحضيراته في دقة متناهية، بينما مكث السيد سوفييلر يراقبه عن كثب في اهتمام بالغ. كان بهذا الهيكل تجاويف، أسقط في التجويف الأول بيضة، وأعد في تجويف آخر بعض القهوة، ووضع في تجويف ثالث قطعة لحم نيئة أخرجها من علبة صفيح نظيفة، وسكب بعض الماء في الرابع. بعد ذلك وبمساعدة صندوق فسفوري وبعض

الأعواد الخشبية، حصل على شعلة ضوئية، خلفها في **ساعور** الكحول، الذي تبين أن له مكاناً مخصصاً أسفل ذلك الهيكل، أغلق جميع أغطية التجاويف الصغيرة، ثم فتحها، ومن خلال بعض القوى العجيبة غير المرئية، أمسّت شريحة اللحم مطهية، والبيضة مسلوقة، والقهوة معدة بإتقان، ووجبة الإفطار كلها جاهزة.

قال المستأجر: «المياه الساخنة...». بينما كان يقدمها للسيد سوفييلر في أقصى درجات الهدوء والثقة، كما لو أن نيران المواقد مشتعلة في مطبخه، ثم استأنف قائلاً: «إن لديك هنا نبيذ الروم.. والسكر.. والكوب. حضر المزيج بنفسك، هيا! كن سريعاً».

امتلئ ديك من فوره، لكن نظرتة كانت تنتقل بين الهيكل الموضوع على الطاولة، الذي بدا له أنه يفعل كل شيء، والصندوق الضخم الذي بدا له أنه يحوي كل شيء. تناول المستأجر فطوره كرجل معتاد على حدوث مثل هذه المعجزات، وأنها لا تشغل حيزاً من تفكيره، بل لا تشغل باله من الأساس.

قال المستأجر: «إن صاحب النزل محام.. أليس كذلك؟».

أوماً ديك بالإيجاب. كان المشروب لذيذاً.

– وماذا عن سيدة المنزل.. ماذا تعمل؟

قال ديك: «تنيّأ».

ربما لأن الرجل الأعزب واجه الكثير من الأمور الغريبة في رحلات سفره، أو ربما لأنه أعزب، لم يتفاجأ أبداً، بل لازم سكونه، وقال

مستفسراً: «زوجته أم أخته؟». قال ديك: «أخته»، فقال الرجل الأعزب: «أفضل كثيراً.. بإمكانه التخلص منها في أي وقت إذا أراد».

ثم أضاف قائلاً بعد لحظة من صمت: «ما أعظم أن تفعل ما تريد! إنني أريد أن أفعل ما يحلو لي فعله، أن أفعل ما أريد، أن أخلد إلى النوم في الوقت الذي أريده، وأستيقظ في الوقت الذي يحلو لي، أعود إلى المنزل في الوقت الذي أريده، وأغادره وقتما أأفضل.. أريد ألا تنهمر عليّ الأسئلة وألا أكون محاطاً بجواسيس.. بخصوص هذا الأمر الأخير، إن الخدم ما هم إلا شياطين. أحسب وجود واحد منهم هنا؟».

قال ديك: «واحدة.. لكنها من النوع الصغير جداً».

كرر المستأجر: «إنها منهم وإن كانت واحدة من النوع الصغير جداً.. حسناً! هل تعتقد أن المكان سوف يناسبني؟».

قال ديك: «نعم».

قال المستأجر: «محتالون وفقاً لما أظن!».

أوماً ديك بالإيجاب، متجرعاً مشروبه في جرعة واحدة.

قال الرجل الأعزب وهو يهم بالوقوف: «أريد منك أن تجعلهما يعرفان مع من يتعاملان.. إذا تسببا في إزعاجي مرة ثانية، فسوف يخسران مستأجراً جيداً. إذا عرفا عني هذا الأمر فقط، فسيكونان قد عرفا ما يكفي. لكنهما إذا حاولا معرفة ما هو أكثر من ذلك، فعليهما أن يعتبراه إخطاراً بالمغادرة. يجب أن يعيا هذه الشروط جيداً ودفعة واحدة.. يوماً سعيداً أيها السيد».

قال ديك، متجهاً نحو الباب، الذي فتحه المستأجر له مع نهاية كلماته السابقة: «أستميحك عذراً! عندما يترك شخص شيئاً، يقول أي اسم...؟».

- ماذا تقصد؟

قال ديك: «... أي اسم.. يترك لك شيئاً، ولا يقول اسماً.. أقصد في حالة الجوابات والطرود...».

قال المستأجر: «لم يكن لدي أي منها».

- وفي حالة إذا أراد أحد أن يناديك.

- لا أحد يناديني.

«حسنًا يا سيدي! إذا وقع أي خطأ بسبب الاسم، لا تقل إنه كان خطأي يا سيدي...»، أضاف قائلاً، ولا يزال متجهاً نحو الباب: «... أوه! لا تلم الشاعر...».

قال المستأجر في انفعال غاضب: «لن ألوم أحداً»... لم تمر لحظة، إلا ووجد ديك نفسه على الدرج، والباب مغلق فيما بينهما.

ارتعد السيد براس والأنسة سالي من فورهما فور إغلاق الباب، والخروج المفاجئ للسيد سوفيلىر، فقد كانا يختلسان النظر عبر ثقب المفتاح طوال الوقت. على الرغم من مجهوداتهما المضنية التي بذلها في محاولة سماع الحديث الذي دار بينهما، وتسديد اللكزات والقرصات للوقوف في المقدمة، ونزاعهما الصامت الذي استمر طوال الوقت وشابه المسرحيات الإيمائية، لم يتمكنوا من تمييز أي لفظة قيلت

في مقابلتهما، لذلك سارعا بالسيد سوفييلر إلى المكتب؛ لاستجوابه وسماع ما حدث منه.

تحدث السيد سوفييلر بوضوح عن رغبات الرجل الأعزب وشروطه، وأفادهما بأنماط سلوكه، ثم أخبرهما في شغف ملحوظ عن الصندوق العظيم، مسترسلًا في وصفه بعبارات بديعة، راسمًا صورة متكاملة الأوصاف يشرد لها الخيال، أكثر مما تعتمد عليها ثوابت الواقع، وأعلن بتأكيدات قوية عدة مرات، أن الصندوق يحتوي على كل ما لذ وطاب، يحتوي على عينات من أطعمة غنية وأجود أنواع النبيذ، ثم خص بالذكر أنه من النوع المستقل بذاته، يخدم نفسه بنفسه، مهما كانت متطلباته، هادئًا، يعمل بدقة متناهية بلا مشاكل، كما لو كان منظم الساعة. ثم ساق مخيلتهما من أجل استيعاب أن لديه جهازًا للطبخ، يطهي قطعة من لحم الخاصرة، تزن ستة أرتال، في دقيقتين وربع فقط، وأنه شهد ذلك بنفسه، مُثَبِّتًا حديثه عن غير قصد بإشارة من حاسة تذوقه، وعلاوة على التأثير الذي تركه في نفسيهما، زاد قائلًا: إنه رأى بعينه غليان الماء وبقبقته بمجرد أن طرف الرجل الأعزب بعينه. من خلال هذه الاستدلالات التي أدلى بها السيد سوفييلر، أكد جازمًا أن هذا المستأجر واحد من كبار المشعوذين أو الكيميائيين، أو أنه كلاهما معًا، معربًا عن أن إقامته تحت سقف هذا النزل، سيدر المنافع وسيضفي امتيازًا فارقًا على اسم السيد براس في الأيام القادمة، وسيكون إضافة ثرية إلى تاريخ بيفيس ماركس.

لم يكن هناك سوى جزئية واحدة أعتقد السيد سوفييلر أن من

غير الضروري الإسهاب فيها، كانت تلك الجزئية التي تخص المُرَوِّي الروحي، لكن في الواقع، يجب ذكر أن حرارة جسده كله قد ارتفعت بسبب قوة تأثيره الجوهرية، خاصةً أنه شربه مباشرة بعد المشروبات معتدلة الكحول التي تجرّعها وقت الغذاء، وتطلب الأمر أن يشرب مشروبين أو ثلاثة مشروبات معتدلة الكحول في البيت العام عندما حل المساء.



الفصل السادس والثلاثون

بعد مرور عدة أسابيع على إتمام إجراءات سكن الرجل الأعزب، لا يزال يرفض المواءمة، فلا ينطق بكلمة، أو يشير بإيماءة للسيد براس أو شقيقته الأنسة سالي، معتبراً ريتشارد سوفييلر وسيط التواصل -إذا رغب في التواصل من الأساس- أثبت خلال هذه الوقت الطويل على كافة الأصعدة أنه مستأجر مثالي؛ يدفع مقابل كل شيء وأي شيء مقدماً، لا يفتعل أي مشاكل، لا يصدر أي ضوضاء، يواظب على الاستيقاظ في ساعات مبكرة.. ارتفعت مكانة السيد ريتشارد على نحو غير مسبق، وبشكل غير متوقع، أصبح رجلاً مهماً وسط العائلة؛ فقد كان هو الرجل الوحيد والأوحد الذي يجيد التعامل مع المستأجر الغامض، لدرجة أنه تمكن من التفاوض معه بخصوص السيئ قبل الحسن، في حين لم يجروا أحد على الاقتراب منه.

إذا كان من اللازم ذكر الحقيقة دون تجميل، فحتى اقتراب السيد سوفييلر منه كان خاضعاً لشروط معينة، لم يكن اقتراباً بالمعنى الحرفي، كان اقتراباً من مسافة بعيدة، ويلاقى بحماس فاتر.. لكن، حين كانا

يلتقيان بعد عودته من مقابلاته الفردية مع شخص مجهول، فقد كان يردد عبارات على شاكلة: «يا سوفييلر! إني أعرف أنه يمكنني الاعتماد عليك»، «يا سوفييلر! إني لا أتردد أبدًا في قول أنني أكنُّ احترامًا وتقديرًا لك»، «يا سوفييلر! أعلم أنك صديقي، وأعلم أيضًا أنك ستقف إلى جانبي وتأزرنني، ومتأكد من ذلك». والعديد من العبارات القصيرة الأخرى، التي لها نفس وقع الألفة والود، التي زعم أنها جاءت على لسان الرجل الأعزب؛ كي تشكل المحور الرئيس لحديثهم المعتاد ومن أجل إضفاء التشويق عليه، لدرجة أن السيد براس أو الأنسة سالي لم يشككا في مدى تأثيره، ولو للحظة، فقد آيداه بحفاوة، ومنحاه ثقة كاملة منقطعة النظير.

بصرف النظر عن هذا المصدر كمصدر للمجد، وإذا ما نُحيَّ تمامًا، كان لدى السيد سوفييلر مصدر آخر، أهله ليكون على قدم المساواة، وأن يكون حديثه مستساغًا، ووجوده مقبولا إلى حد كبير.

لقد لاقى المحاباة من عيني الأنسة سالي براس.. لا تدع المستهزئين من سحر الأنثى، يسترقون السمع، للاستماع إلى قصة حب جديدة من أجل السخرية.

بالنسبة للأنسة براس، على الرغم من توفر كافة المعايير فيها وبدقة متناهية، كي تكون محبوبة، لم تكن من المُحبِّين أبدًا. فهذه العذراء اللطيفة، لم تعرف ثوبًا غير ثوب القانون، لم تعرف التنانير الأنثوية، اتخذت من القانون تنورة تزيد بهاءها بها منذ وقت مبكر من شبابها، مع أول فرصة للاعتماد على نفسها، دعمت نفسها به، وعززتها، وأبقت

على شغفها به منذ ذلك الحين، حتى قضت حياتها في نوع من الطفولة من الجائز أن يطلق عليه طفولة قانونية.

كانت رائعة، جديرة بالملاحظة، حينما كان يمارس هذرًا خفيف الظل موهبته غير المألوفة، ليحاكي مشية وسلوك حاجب المحكمة، ويحاكون المشهد القضائي كله، كانت تصنف بعضًا منهم ليكونوا مجرمين؛ قد تلقي القبض عليهم، وتمسك بهم من أكتافهم، ثم تزج بهم إلى داخل البيت الإسفنجي^(٢١) الخيالي، تحاكي كل تفصيلة في دقة متناهية، فيذهل كل من كان يشاهد أداؤها، وتنسبط أسارير وجهه لكن ما فاق الوصف حقيقة هو طريقته في تجهيز غرفة إعدام في بيت الدمى الخاص بها، وقيامها بجرد متقن للطاولات والكراسي. كانت ممارستها لتلك الأنشطة -غير الفنية- سببًا أساسيًا في إسعاد وتخفيف آلام والدها الأرملة، كان رجلًا نبيلًا مثاليًا -دعاه أصدقائه بـ (الثعلب العجوز) نظرًا لحصافته وحكمته -دعمهما بكل جهده، التاع قلبه أشد الالتياح؛ حينما اقترب من ساحة كنيسة (هاوندوسديتش)، وعرف أن ابنته لم تتمكن من الحصول على شهادة المحاماة، لكنه عقد العزم من فوره على إصلاح الأمر. بدافع ألمه وعاطفته الجياشة التي أكنّ لها ابنته، عهد بها إلى ابنه سامبسون كمساعد جدير لا يقدر بثمن، منذ وفاة هذا الرجل الطيب وإلى عهدنا هذا، تعتبر الآنسة سالي براس ركيزة عمله ودعمه.

من البديهي معرفة أن الآنسة براس بعد تكريس ذاتها منذ الطفولة في دراسة القانون، لم تكن على علم سوى بالقليل جدًا عن العالم،

(٢١) كان مكانًا للحبس المؤقت للمدنيين إذا تخلفوا عن سداد الدين في بريطانيا.

بخلاف ما يتعلق بالقانون، وكسيدة مثلها وُهِبت بهذا الذوق الفريد، كانت لا تسعى وراء الفنون الجمالية أو الرقيقة التي عادةً ما تولع بها غيرها من السيدات، وتتفوقن فيها. تمحورت إنجازات الأنسة سالي حول نوع الإنجازات الذكورية والقانونية الصارمة. فقد بدأت بتدريبات المحاماة، وانتهى بها المطاف في منصبها الذي تشغله الآن. إذا جاز التعبير، يمكن قول أنها (البريئة المخضمة بالقانون). كان القانون هو حاضنتها. بما أن تقوس الساق أو أي تشوه جسدي يُعتبر نتيجة رعاية سيئة من الحاضنة، لذلك، إذا أصاب العقل الجميل عجز، أو حدث لها أي التواء أخلاقي، أو صارت سهلة المنال، حينها ستكون حاضنة الأنسة سالي براس الوحيدة التي يقع عليها اللوم.

كان وجود السيد سوفييلر بمثابة بصيص الإشراف، الذي لم يُحلم بانبثاقه أبدًا، فقد أضفى على المكتب أجواءً عذبة مرحة، بأطروحاته الغنائية والفكاهية، وتصرفاته البهلوانية، يلعب بصناديق الأوراق والمحابر، يلتقط ثلاث برتقالات بيد واحدة، يوازن الكرسي على ذقنه، ومدية الجيب على أنفه، يستعرض المئات من ألعاب الخفة والتوازن ببراعة فائقة، فور رفع الحصار عن المكتب، عند غياب السيد براس؛ لتخفيف عبء العمل، وكطرق مرحة للاسترخاء. اكتشفت الأنسة سالي تلك السلوكيات الاجتماعية أول مرة بمحض الصدفة، وقد راقَت لها، تدريجيًا استحثت السيد سوفييلر أن يواصل في سلوكياته الفكاهية، كما لو أنها غير موجودة بالجوار، جاء امتثال السيد سوفييلر طوعية. من هنا، نشأت بينهما صداقة. تدريجيًا بدأ السيد سوفييلر يعاملها كما كان

يعاملها شقيقها، أو كان سيعامل أي كاتب آخر. بدأ يحدّثها عن أسرار
طريقة، حكى لها سر الذهاب إلى الرجل الغريب، وذهابه إلى مدينة
(نيوماركت) من أجل الفاكهة، وبيرة الزنجبيل، والبطاطا المخبوزة، أو
حتى من أجل مشروب الروحي، الذي لم تتردد الآنسة براس في مشاركته
معه.

في كثير من الأحيان كان يقنعها بأن تقوم بواجباته، وأن تأخذ
حصته من الكتابة إلى جانب حصتها الأساسية، لا! والأدهى من ذلك أنه
كان يكافئها بصفعة على ظهرها، ويعلن أنها صديقه المخلص، رفيقه
المرح، وهكذا.. وبالطبع مع هذه الإطراءات، كانت الآنسة سالي تقوم
بها مُرحبةً وبرضى تام.

ظل هناك موضوع واحد يشغل عقل السيد سوفييلر للغاية، ويفكر
في شأنه مرارًا وتكرارًا، كان هذا الموضوع يخص الخادمة الصغيرة؛
دائمًا ما تكون موجودة في مكان ما في أعماق الأرض تحت بيفيس
ماركس، لا تخرج إلى السطح أبدًا، إلا إذا قرع الرجل الأعزب جرسه،
كي تجيبه، وتلبّي طلباته، ثم في لمح البصر تختفي مرة أخرى. لا تطأ
قدمها المكتب مطلقًا، لا تدخل ولا تخرج منه أبدًا، لم يكن وجهها
نظيفًا قط، ولم تخلع المئزرة عنها نهائيًا، لا يذكر أنها دلفت إلى أي
نافذة، أو وقفت عند الباب المطل على الشارع لتتنفس هواءً رطبًا بتأتًا،
من المرجح أنها لا تعرف معنى الراحة أو الاستمتاع على الإطلاق. لا
يسأل عنها أحد، لا يتحدث معها أحد، ولا يهتم بها أحد. ذات مرة، قال
السيد براس أنه يعتقد أنها (ابنة الحب) -ذلك على الأغلب يعني أي

شيء آخر غير أنها ابنة (الحب) - كان ذلك بمثابة كل المعلومات التي استطاع ريتشارد سوفييلر حصرها عنها. ذات يوم، فكر ديك مع نفسه، بينما كان يتأمل ملامح الآنسة براس: «أحسب أنه لا فائدة مرجوة من سؤال أنثى التنين، أظن أنني إذا طرحت أي سؤال يخص هذا الشأن، ستفسد علاقتنا، وينتهي الوداء بيننا.. لكن السؤال المطروح فعلاً هنا، هل هي أنثى تنين فعلاً، أم مخلوق ينسب إلى حوريات البحر! إن لديها مظهرًا حرشفيًا. لكن حوريات البحر مغرقات بالنظر إلى أنفسهن في المرأة، أما هي فلا تنظر أبدًا. كما أنَّ لديهن عادة تمشيطن شعرهن، أما هي فتخفيه وراء وشاحها البني.. لا لا! إنها أنثى التنين كما هي».

قال ديك بصوت مرتفع، بمجرد أن مسحت الآنسة سالي قلمها في فستانها الأخضر، وقامت عن كرسيها: «إلى أين أنتِ ذاهبة يا رفيقتي القديمة؟».

أجابت أنثى التنين: «أتناول الغذاء».

فكر ديك: «تناول الغذاء، هذا شيء أدعى مما سبق كله! أحسب أن الخادمة الصغير ليس لديها ما تأكله».

قالت الآنسة براس: «إن سامي ليس في المنزل.. ابقِ هنا حتى أعود، لن أغيب طويلاً».

أوماً ديك بالإيجاب، ثم تابع الآنسة سالي بعينه، حتى وصلت إلى الباب، وتابعها بأذنيه حتى وصلت إلى ردهة خلفية صغيرة، حيث تتناول هي وشقيقها وجباتهما.

قال ديك، بينما أخذ ينتقل في الغرفة جيئةً وذهاباً، وهو يضع يديه في جيبه: «الآن! أدفع أي مقابل -إذا كان معي- لكي أعرف كيف يستغلان هذه الطفلة، وأين يحتجزانها. أحسب أن أُمي كانت امرأة فضولية محبة للتحقيق، ليس لديّ شك في أنني لاحظت مذكرة استجواب هنا في مكان ما. إنها مشاعري.. إنها السبب وراء هذا الكرب.. إنني أقمعها. إنها مشاعري.. إنني أجزم أن...». تفحص السيد سوفيلر نفسه، ثم ارتدى على مقعد العملاء وقال: «أريد أن أعرف حقاً كيف يستغلونها!». بعد أن ظل على هذا الحال لفترة، فتح السيد سوفيلر باب المكتب في هدوء تام، وتسلل إلى الشارع للحصول على كأس من النبيذ القوي. أثناء خروجه، رأى وشاح الأنسة براس البني في لمحة خاطفة، يتدلى على درج المطبخ. فكر ديك: «أوه! أخيراً! إنها ذاهبة لتطعم الخادمة الصغيرة. هيا! إما الآن وإما أبداً!».

بادر أولاً باختلاس النظر عبر الدرابزين، حتى لم يعد يرى الوشاح البني الذي ابتلعه الظلام، فشق طريقه من فوره إلى الأسفل، وصل إلى الباب الخلفي للمطبخ، مباشرة بعد أن دخلت الأنسة براس، حاملةً في يدها فخذاً بارداً. لقد كان مكاناً موحشاً مظلماً، منخفضاً للغاية ورطوبته عالية، تصدعت جدرانه، وانتشرت فيها البقع والشقوق. تسربت المياه من أنبوب راشح، وقف عنده أكثر القطط هزاً؛ يحاول أن يلحق قطراته في أقصى درجات الجوع بؤساً. كانت الشعرية حاملة الوقود من النوع العريض، لكن اتساعها قد ضاق، وتقاربت أطرافها، فباتت لا يمكنها حمل سوى شطيرة رقيقة من نار. كان كل شيء مغلقاً،

قبو الفحم، صندوق الشموع، علبة الملح، وحافظة اللحم، كان كل شيء موصداً. لم يكن هناك أي شيء يمكن لخنفساء حتى أن تأكله. لدرجة أن قفر المكان وضيقه ووحشته يمكن أن تميت حرباء. لم يكن يوجد في هذا المكان غير الهواء، حتى الهواء غير صالح للأكل، حتى الأشباح لا يمكن لها أن تسكنه، وجب عليها أن تفر بعيداً في قنوط. هناك، وقفت الخادمة الصغيرة بكل تواضع، مطأطأة الرأس، في حضور الأنسة سالي. قالت الأنسة سالي: «هل أنت هنا؟».

جاء الرد من صوت واهن غير مسموع: «نعم يا سيدتي».

قالت الأنسة سالي: «ابتعدي عن فخذ الضأن، وإلا ستحملينها أنت».

تراجعت البنت من فورها إلى أحد الأركان، بينما أخرجت الأنسة براس مفتاحاً من جيبها، وفتحت الخزانة، وأحضرت منها بعضاً من بقايا بطاطس باردة جافة، بدت مثل (ستونهنج)^(٢٢). من حيث صلاحيتها للأكل. وضعتها أمام الخادمة الصغيرة، وأمرتها بالجلوس، ثم أخذت سكيناً ضخمة ذات نصل حاد عريض، في عرض اتسم بالعنف والقوة، مستعينة بشوكة تقطيع اللحوم.

قالت الأنسة براس، وقد قطعت حوالي بوصتين من فخذ الضأن بعد كل هذا التحضير والجهد المبذول، ممسكة به على الشوكة: «هل ترين هذا؟».

(٢٢) أثر صخري يرجع تاريخه لأواخر العصر الحجري.

نظرت الخادمة الصغيرة بعينين جائعتين، بتمحيص دقيق بما فيه الكفاية، تتفحصه من جميع الجوانب، ثم أجابت: «نعم».

ردت الأنسة سالي في حسم قائلة: «إذَنْ لا ألمحكِ تذهبين هنا وهناك وتقولين: ليس لدينا لحم.. هيا كليه».

تم ذلك في لمح البصر. قالت الأنسة سالي: «الآن! قلولي لي، هل تريدان المزيد؟».

أجابت المخلوقة الجائعة في وهن شديد وقالت: «لا».. ومع هذه الإجابة، كان من الواضح أنه قد تم الوصول إلى تسوية أخيرة.

قالت الأنسة براس، بشكل إجمالي للوقائع: «لقد تم تقديم اللحم لك مرة واحدة، وأكلتِ قدر ما تستطيعين أكله، ثم سئلت عما إذا كنت تريدان المزيد، وأجبت: لا! إذَنْ لا تذهبي أبداً وتقولين إنه ينقصك أي شيء أو أنه قد جرى حرمانك من أي حاجة.. مفهوم؟».

مع انتهائها من التلفظ بهذه الكلمات، وضعت الأنسة سالي اللحم، وأعادت إغلاق الخزانة، ثم اقتربت من الخادمة الصغيرة، ترقبها عن كثب، وهي تنهي البطاطس.

كان من الواضح أن الأنسة سالي اللطيفة نفسها، تضرمر بغضاً وحقداً يفوق مستوى الوصف، وهو ما دفعها، دون أدنى سبب حاضر، إلى وخز الطفلة بنصل السكين، مرة في يدها، وأخرى في رأسها، ثم أتبعتهما بوخزة ثاقبة في ظهرها، كما لو كان من المستحيل أن تقف على مقربة منها دون لكز وصفع ووخز لجسدها النحيل. لكن السيد

سوفيلر لم تصبه أي دهشة، حينما رأى رفيقة الكاتب القديمة، بعد أن مشت إلى الخلف بضع خطوات تجاه الباب ببطءٍ مترقب، كما لو كانت تسحب نفسها إلى خارج الغرفة عنوة، تعود أعقابها فجأةً كأنها لم تستطع المغادرة، وتنهال باللكمات القاسية بقبضة يدها على الخادمة الصغيرة. صاحت الضحية بأنين مختنق، كما لو كانت تخشى أن تعبر عن آلامها، أو أن خوفًا يتملك منها ويكتم صوتها ويمنعه من الارتفاع، وصلت الأنسة سالي إلى الدرج، استجمت بنفحة من علبتها، صعدت الدرج، في الوقت الذي وصل فيه ريتشارد بأمان إلى المكتب.



